



التَّخْصُّص: اللُّغة والأدب العربيّ.

مَشْرُوعُ إِحْيَاءِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْجَزَائِرِ خلال القرنِ العِشرين —مُقَارَبَةٌ فِي الْمَعَالِمِ وَالْأَبْعَادِ—

أطروحة مقدّمة لنيل شهادة دكتوراه علوم

إعداد الطّالب:

عبد الحفيظ شريف.

لجنة المناقشة:

رئيسا	جامعة أكلي محمد أولحاج، البويرة	أستاذ التّعليم العالي	بوعلام طهراوي
مشرفا ومقرّرا	جامعة مولود معمري، تيزي-وژو	أستاذ التّعليم العالي	صالح بلعيد
مناقشا	جامعة أكلي محمد أولحاج، البويرة	أستاذ محاضر "أ"	فريدة موساوي
مناقشا	جامعة أكلي محمد أولحاج، البويرة	أستاذ محاضر "أ"	فرحات بلولي
مناقشا	جامعة امحمد بوقرة، بومرداس	أستاذ محاضر "أ"	خليدة بن عياد
مناقشا	جامعة مولود معمري، تيزي-وژو	أستاذ محاضر "أ"	كريمة سالمى

تاريخ المناقشة: 20-10-2019 م.

سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ

مَقْدِمَةٌ

المقدّمة

مقدّمة: في سياقٍ تاريخيّ مضطربٍ، وأتّون وضعٍ ثقافيٍّ مُكْتَتَبٍ، ومِنَ بين القليل المُمتنع على فرنسا الاحتلال من بقايا الأساليب والكلمات، وعُدلِ نُفاضة الجراب من الجمل والعبارات، وعلى فترة من الوهن وحملة من المحن، جفّفت على الجزائر والجزائريين ماء العروبة في روعته أو كادت وتغشّى العربية سربال الرطانة والتّغريب بكُلّله، فضاقت عليها المسالك وساءت، أطلّ على الجزائر والجزائريين القرنُ العشرون الميلاديّ منبأ عن مخاض عسير لحركة علميّة واعية، متحدّية ممارسات الاحتلال وإجراءاته القاسية، فاتّخذت من مسألة اللّغة العربيّة الوسيلة والغاية، وبالعزم على إحياء مواتها والنّفخ في رمادها كانت البداية، فبيّض رجالها بجلال الأعمال مسارها، وحولوا الهامد من الأوضاع زاد حراكها فبدلوا في إعداد أنفسهم زهرة الأعمار، وتحدّوا في تكوين خلفائهم كدر الأقدار، فعاد للحرف العربيّ في الجزائر رنينه، وقَلَبَ الجزائريّون من تاريخهم صفحةً سوّدها الاحتلال بما كسبت يسراه ويمينه، وقد كان يؤمّل النّفس بعودة مجد روما القديم، فأنزل بالعربيّة من الحيف والعسف ما يُذهب لبّ الحليم، وكان نصفُ قرنٍ من العطاء الصّادق كافياً لتعود للعربيّة في الجزائر آمالها، وينقدح الرّجاء في أن يكون ذلك بدايةً لموعِد يُرفع فيه بناؤها، ويعود لها من العزّ ما كان لها في سالف أيّامها.

إنّه مشروع إحياء اللّغة العربيّة في الجزائر بإرهاصاته ورجاله، وبواعثه وأهدافه، تتناول هذه الأطروحة فترصّد منطلقات الرؤية للقضيّة اللّغويّة، وتحاول رسم الإطار الفكريّ الشّامل لواضعيه والقائمين عليه فتتابعه بالمقاربة والتّحليل، وتستحضّر إجراءاته العمليّة الماثلة، فتتعبّها بالرّصد والتّقييم، وتعرض لوسائلها في إحياء العربيّة تارةً، وتسرد نماذج من جهود أعلامها في البذل لها تارةً أخرى، وتُعرّج بين ذلك على العوارض والصّروف، لتخلّص من بين ذلك إلى استعراض ما أُعلن من الأهداف، واستتباط ما أُضمر من الآفاق، وتجميع ما تفرّق في المدوّنات من الحقائق والنّبش عمّا حوّته صفحاتها من العوائق، مقترحةً له العنوان: **مشروع الإحياء اللّغويّ في الجزائر خلال القرن العشرين - مقارنةً في المعالم والأبعاد** - على أمل أن يكون هذا السّعيّ مقارنةً على قدرٍ من الشّمول لمعالم مشروع الإحياء اللّغويّ في الجزائر الحديثة، وفيه شيءٌ من التّجليّة لأبعاده وآفاقه، فما تحقّق من ذلك فمن الله التّسديد والإعانة، وما تأخّر منه فهو قصور البشر على الحصر والإحاطة.

تأتي أهميّة تناول هذا الموضوع من منطلق أنّ مشروع إحياء اللّغة العربيّة في الجزائر الحديثة لم يكن مجرد حركةٍ استهدفت إحياء لغة الجزائر المحتلّة فحسب؛ بل تجاوز ذلك إلى اصطباغ سؤال اللّغة في الجزائر بصبغة ذات وجوه أربعة:

المقدّمة

• أصبحت اللّغة العربيّة رمزَ هُويّةٍ في فترةٍ أفقد فيها الاحتلالُ الجزائريّين هُويّتهم، بعد أن جهّل عامّتهم، وغرّب نُخبَتهم، فكان مصطلح (اللّغة العربيّة) معلّم نجاةٍ لاذ به الجزائريّون، وقد كاد يدركهم الفناء الحضاريّ.

• تحوّلت اللّغة العربيّة إلى موضوعٍ درسٍ غنيّ بالجهود اللّغويّة لأعلام هذه الحركة فجمّعها واستثمر الجهود النّامية للأتباع والطلّبة والمتعاطفين فنمّنها ورعاها، منطلقاً من أنّها جهودٌ لا تمثّل حراكاً أدبيّاً ولُغويّاً كالذي شهدته حواضرُ العالم الإسلاميّ التّاريخيّة، بقدر ما كانت شكلاً من أشكال المقاومة، لا يختلف كثيراً عن أشكال المقاومة السّياسيّة والعسكريّة.

• أضحت اللّغة العربيّة ميدانَ إصلاحٍ وترميمٍ لآثار تلك الشُّروخ التي خلّفتها جرائم المحتلّ على سطح البنية اللّسانيّة الجزائريّة وعمقها، النّاطقة منها والمكتوبة، وفي جميع مظاهر الحياة، حين نزلت بلُغته إلى أحطّ مستويات الاستعمال تلقّظاً وكتابة.

• عُدّت اللّغة العربيّة وسيلةً ضروريّةً لبناءٍ معرفيٍّ وحضاريٍّ حين حوّل هذا المشروعُ المجهّلين والمقالين من دورة الحياة إلى أدوات بناءٍ وإبداع، شكّل لفترةٍ غير يسيرةٍ خزّاناً مميّزاً للأمة الجزائريّة من الإطارات والكفاءات.

وحرّياً بمشروعٍ كانت هذه المعالمُ أبرّ ما ظهر منه، أن يحظى بمزيدٍ من الدّرس والتّحليل وبخاصّة في ظلّ ما يُتيحه صدور ما له علاقة بالموضوع من وثائق جديدة بين الحين والآخر، وما يُفرّزه العلم الحديث من نتائج أبحاث ومقاربات، وما يحصّله من مقولاتٍ في القضايا اللّسانيّة الحديثة واستراتيجيّات الرّصد والتّحليل، وبناء الآفاق على مستوياتها القصيرة والمتوسّطة والطّويلة من جهة؛ وما تضمّنه هذا المشروع من خصوصيّة جزائريّةٍ في إطار محيطها الثّقافيّ والتّاريخيّ والجغرافيّ، وتلك هي الرّوائز التي تتّخذ فيها هذه الأطروحة مسلك المقاربة (Approche) مسعىً عقليّاً تجري بمقتضاه محاولة إدراك طبيعة المشروع، ودراسة عناصره في سياق التّأثير والتّأثير المتبادل بين شركاء المرحلة، ويُنظر في الاستراتيجيّات المعتمدة ضمن سُنّة التّدافع الكونيّة، فيقيّمها تقييماً ينزع منزع الإنصاف العلميّ والتّاريخيّ ويبذل الوسع في رسم الحدود والمعالم، وتصور الأبعاد والآفاق، وهو المسلك الذي ينشده مصطلح المقاربة مستوحياً إيّاه من دلّالته اللّغويّة.

ومن الأسباب الدّافعة إلى اختيار هذا الموضوع:

المقدمة

أ- اهتمامُ الدِّراسات حول اللغة العربيَّة في تلك الفترة بالجوانب الوصفية للقضايا الأدبيَّة، وجمع الحقائق التاريخيَّة بهدف إثبات الإنصاف التاريخي للفاعلين الحقيقيين في الإصلاح والمقاومة، وهو منحى فيه جنوحٌ إلى اجتزاء المشاهد أكثر من الاستجابة إلى دراستها ضمن سياقها العام.

ب- إبرازُ هذه الدِّراسات لجوانب التَّفرد والنُّبوغ في إدارة مرحلة دقيقة جدًّا من تاريخ الجزائر العام دون أن يحظى المشروع الإحيائي اللُّغويُّ بدرس كامل الجوانب، يفحص الخلفيات، ويقيِّم المسيرة ويستشرف الأبعاد.

ج- تبني مشروع إحياء اللغة العربيَّة في الجزائر من قبل نُخبَةٍ وطنيَّة، بدت واعيَّة بخصوصيَّة المُجتمع الجزائري وتكوينه الاجتماعيَّة والنَّفسيَّة، ومقدِّرة موقعه ضمن البيئات العربيَّة والإسلاميَّة والإنسانيَّة المجاورة؛ وذلك ممَّا يُعْري بمتابعة جوانب القُوَّة والثَّبات في المشروع، والوقوف على المتغيِّر والمرحلي منها.

د- محاولة إبراز الجوانب التي مكَّنت لهذا المشروع بما أُتيح له من قدرات وأدوات ووسائل، وبما تمَدَّد أمامه من مطالبات بالوفاء للتَّاريخ والجغرافيا، وما بذله من جهد للتَّكْيُف مع الطُّروف القاهرة للاحتلال وقيوده ومضايقاته.

هـ- محاولة الوقوف على درجة الجدوى في صلاحية مفردات هذا المشروع لاستكمال مسار التَّمكين للغة العربيَّة في الجزائر.

و- إثراء مكتبة الدِّراسات حول المسألة اللُّغويَّة في الجزائر بأعمالها وقضاياها، والتي كانت واجهة مشروع الإحياء اللُّغوي العربيَّة، ضمن إطار المشروع الإصلاحي الكبير.

ينتصب مشروع إحياء اللغة العربيَّة بارزاً في الجزائر الحديثة، ولا تزال كثيرٌ من نقاط الظِّل تتخلَّله فمن قائل بأنَّ المرجع الأوَّل الذي احتضن المسألة اللُّغويَّة في الجزائر بخلفياتها وتداعياتها وتحدياتها هو جمعيَّة العلماء المسلمين الجزائريين، وأنَّ جهودها هي التي كان لها السَّبق في استرجاع مكانة اللغة العربيَّة في الجزائر، بينما يذهب المخالفون إلى غير ذلك، فلا يُقرُّون بتلك المرجعيَّة، ولا يعتبرونها وحيدة في مجالها، فهناك جهودُ جمعيَّاتٍ محلِّيَّة ومنظَّماتٍ وطنيَّة، وزوايا وعلماء، ثمَّ إنَّ الواقع اللِّساني على درجة من التَّدَاخل والتَّعقيد لا يمكن معه الفصل في كثير من القضايا ولا التَّسليم لأيِّ مقولة، فهناك لغاتٌ محلِّيَّة، وعاميَّاتٌ موجودة بالفعل، ولغةٌ فرنسيَّة وافدة موجودة بالقوَّة وإذا كان من حديثٍ حول هذا المشروع، فإنَّما هو جهدٌ تاريخيٌّ ليس له من مبرِّرات الوجود والاستمرار إلَّا أن يُدرَس عنصراً من

المقدمة

عناصر تاريخ الجزائر الثقافي، كما أنه مشروع وإن غطى فترة من تاريخ الجزائر الحديثة؛ فقد سبقته جهود فردية لافتة، ورافقه مبادرات إصلاحية سياسية وثقافية لا يُنكر فضلها وقد أدرجت عنصر اللغة العربية ضمن برامجها ومساعدتها، ومن هنا؛ فإنّ الجدل لا يزال قائماً-وبقوة- بشأن المسألة اللغوية في الجزائر الحديثة، وهو جدلٌ يكشف عن وجهٍ من وجوه خلفية التدافع الفكري والإيديولوجي، ووجهته في الجزائر الحديثة.

وأمام هذا الجدل الذي أضحت اللغة فيه جزءاً جلياً حيناً، وخفياً حيناً آخر، وتمتزع فيه عناصر التراث ومقومات الهوية بمقتضيات المعاصرة والإيديولوجيا والفكر والحضارة والتاريخ والجغرافيا؛ سنتناول الأطروحة مشروع إحياء اللغة العربية في الجزائر الحديثة محاولة الإجابة على الإشكالية: هل هناك مشروع إحياء للغة العربية في الجزائر خلال القرن العشرين بمكوناته الذاتية، وكفاءاته البشرية والمادية التي لها الحق والقدرة على تأطير المسار اللغوي للجزائر الحديثة؟ أهو مجرد مرحلة ذات خصوصية؛ أم حركة لم تستوف نهايتها؟ وهل لا تزال ضرورة استكمال مسيرتها قائمة؟

وقد أحالت الإشكالية السالفة على الفرضيات الآتية:

• ألم يكن مشروع إحياء اللغة العربية في الجزائر الحصن الذي لاذت به لغة الجزائريين في العصر الحديث؟

• أولم يواجه هذا المشروع تحديات تاريخية ولغوية، ومضايقات فكرية وثقافية منذ نشأته وفي كل محطاته؟

• ألا يمكن الإقرار بسلامة منطلقات هذا المشروع، وجدوى آلياته، ومشروعية آفاقه؟

• أليس القول بأنّ اعتبار مشروع الإحياء اللغوي جزءاً من التاريخ على درجة من الصحة؟

• أوليس في الإمكان إعادة قراءة هذا المشروع بتبني روحه، واستثمار حلقاته بإعادة تكييف آلياته حسب الظروف المعاصرة؟

ستنبئ الأطروحة -بحكم طبيعة موضوعها- منهجاً وصفيّاً تحليليّاً نقديّاً، مع الاستعانة بأدوات المنهج التاريخي في استحضار السياقات التاريخية التي احتكمت إليها مفردات هذا المشروع، ومتابعة تطوّر حركية اللغة وتأصيل قضاياها، ومقاربة مدى التكيّف الذي حقّقه أمام تلك الوقائع والأحداث وذلك من خلال العناصر:

1- وصف الظاهرة: إذ ستصف الأطروحة طبيعة هذا المشروع وعناصره، وملابساته العامة وآليات حركته، ومحاولة استنباط الأبعاد التي بطّنت ما أعلن منه أو عرف عنه.

2- تحليل الظاهرة: حيث ستُحلّل عناصر هذا المشروع ومؤثراته، ضمن الإطار الاجتماعي والتاريخي والثقافي المحلي والإقليمي السائد.

3- نقد الظاهرة: إذ ستتم متابعة مكونات المشروع بقراءة نقدية مقارنة مصدر مؤثراته الفكرية ووجهتها، ورصد عتبات مساره، محاولة عرض ذلك على المقولات اللسانية المعاصرة.

4- التّعيد للظاهرة: وفيه ستخلص الأطروحة إلى ما يمكن أن يكون مبادئ عامة تُقيم في ضوئها عناصر المشروع، وتُعرف مرتكزاته الذاتية، وروائزه المتغيرة.

استجابة لمقتضيات موضوع الأطروحة، كان الاجتهاد في وضع بنية بحث ساوقت الفترة التاريخية المعينة أفقياً، وعايّنت المعالم والأبعاد بالرّصد والتحليل عمودياً، وجاءت على الشكل الآتي:

مقدمة في التعريف بالموضوع من طريق استعراض الخطوات الغالبة في مقدّمات مثل هذه الدراسات الأكاديمية. تَبِع ذلك فصل تمهيديّ: حَمَلَ عنوان: **ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملابسات التأسيس**، وتضمّن عرضاً لمصطلحات العنوان بالشرح والتأصيل في سياق موضوع الأطروحة، ثمّ عرضاً للوضع اللغوي والاجتماعي في الجزائر إبّان العهد التركي الأخير، والعقود السبعة الأولى للاحتلال الفرنسي، وهو عرض استدركته الأطروحة بعد الشروع في البحث، إذ تبين أن تناول حراك الإحياء لا بد أن يمهد له بإيراد موجباته، واستعراض مبرراته.

وتحت عنوان: **مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر الحديثة؛ المكونات والتجليات**. استعرض الفصل الأول في شقّه الأول عناصر الإحياء التي رأى أن لها القسط الأكبر في إبراز هذا المشروع وهي: معلمة الإحياء بطبقاتها، فدور الجمعيات والنوادي ونشاطاتها، ثمّ مسحا للصحافة العربية بأطرافها، بينما عرض شقّه الثاني **التجليات من مكونات مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر**، وقد تناول نشاط التعليم الإحيائي ثمّ حالة الطبع والتأليف، ثمّ نشاط المساجد الحرة والزوايا، معتبراً أنها عناصر أفرزها الشّحن الذي قامت عليه عناصر التأسيس.

وتحت عنوان: **مقاربات في مشاهد ومعالم حركة الإحياء اللغوي في الجزائر**، تضمّن الفصل الثاني مقاربات على نوعين: أولاًها مقاربات مشاهد التكوين، وهي قراءة في خصائص المكونات الذاتية لمشروع الإحياء اللغوي في الجزائر، سواء منها ما اعتبرت مشاهد تأسيس، أم مشاهد تجلي ونضج. وثانيها

مقاربةً لجملة من قضايا الإحياء اللغوي في الجزائر، حاولت الأطروحة من خلالها إعادة قراءة مقولات تُديرها الألسُن على محمل المسلّمات، واجتهدت في تصحيح ما يُعتقد أنّه من الوهم الذي لم يُمحصّه التّحقيق، أو الإطلاق الذي سوّقه التّدأول العام، وعرضت لبعض القضايا التي وردت في مواطن أخرى مُجتزأة، وقد قصدت الأطروحة من ذلك عرضاً يستحضر العناصر كلّها في سياق مشروع إحيائيّ عام. فكانت العودة إلى مقاربة مسؤولية الأترك على الوضع اللغوي في الجزائر وعلاقة الاستشراق باللغة العربيّة في الجزائر في مقاربة: الاستشراق الفرنسي في الجزائر، اختراق لسان أم تطويغ إنسان؟ ثمّ مقولة التّأثير المشرقيّ على مشروع الإحياء في الجزائر، طبيعته ومداه، ثمّ الالتفات إلى دور المهاجر الجزائريّ وعلاقتها بحركة الإحياء، دون إهمال بعض ردود أفعال الاحتلال من حراك الإحياء.

وختم الفصل الثّالث: أبعاد حركة الإحياء اللغويّ في الجزائر خلال القرن العشرين، على مباحث أربعة، تناول الأوّل البعد الاجتماعيّ لحركة الإحياء اللغويّ في الجزائر، في ما تناول الثّاني البعد السّياسيّ للحركة، بينما استأثر الثّالث بالبُعد اللّسانيّ، وختم الرّابع الفصل والأطروحة بمبحث تقابليّ لبدائيتها بعنوان: ما بعد الإحياء. ثمّ الخاتمة العامّة التي تضمّنت نتائج البحث.

استقطب الفعل العلميّ والثّقافيّ الجزائريّ خلال القرن العشرين كثيراً من البحوث والدّراسات في الجزائر وخارجها، وتنقسم الدّراسات التي تناولت نتائج هذه الفترة وجهودها إلى ثلاثة أقسام:

- قسمٌ عُني بجهود الرّجال وأعمالهم.

- قسمٌ عُني بمتابعة بعض الظّواهر العلميّة والثّقافيّة والأدبيّة والنّقديّة عامّة.

- قسمٌ عُني بالأعمال العلميّة والثّقافيّة للتّنظيمات والحركات، وهي الدّراسات المعنيّة.

ومن الدّراسات التي تناولت جوانب من المسألة اللّغوية في الجزائر وقضاياها:

1- **جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين وأثرها في اللّغة والأدب**، إعداد: صالح بن عبد الله بن محمد الجلعود، إشراف: محمّد عبد المنعم خفاجي. أطروحة ماجستير بجامعة الأزهر في القاهرة سنة 1394هـ - 1974م، في 208 ورقة. وهي رسالة تابعت الملامح الجديدة للنتائج الأدبيّة ولغته بعد الرّكود الإبداعيّ والخلّ اللّغويّ الذي جنى به الاحتلال على اللّغة العربيّة في الجزائر.

2- **أثر جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين في الحركة الأدبيّة في الجزائر**، إعداد: سعيد الأخضر سلام، رسالة ماجستير بجامعة عين شمس في القاهرة، قسم اللّغة العربيّة وآدابها سنة 1979م، وهي

المقدمة

رسالة تابعت طبيعة البعث الأدبي الذي أشرفت عليه الجمعية، من خلال الحراك العلمي الذي بعثه أعلامها.

3- النقد الأدبي الجزائري الحديث من خلال دوريات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين 1925-

1956م، رسالة دكتوراه بجامعة الجزائر، من إعداد: عمّار بن زايد، وإشراف: أ. محمد مصايف، في 235 ورقة، وهو تناول للمشاهد النقدية التي عرفها الأدب الجزائري الحديث، والسجال النقدي الذي رافق الحركة الأدبية الجزائرية الناشئة حديثاً، والطّامحة إلى آفاق أرحب.

4- السياسة اللغوية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين. إعداد الطالب: بلال دربال، وإشراف

الأستاذ: فرحات عيَّاش، مذكّرة ماجستير في 237 صفحة. وتناولت في شقّها النظري الأول ما يتعلّق بالسياسة اللغوية عموماً من وجهة نظر اللسانيات الاجتماعية، ثم إبراز سياسة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين اللغوية مقابل ذلك، في حرصٍ على إضافة (تاريخية) لتسميته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (التاريخية) تمييزاً لها عن الجمعية أثناء الثورة التحريرية وبعد الاستقلال، وهي مرحلة لم تكن محلّ دراسة.

5- جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في خدمة اللغة العربية في الجزائر، 1931-

1954م، لمراد مزعاش، د. ط. الجزائر: 2018م، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، (منشورات مؤسسة الإمام عبد الحميد بن باديس) الإصدار (39)

ويبدو أنّ كلّ هذه الأعمال على درجةٍ من الاتّفاق الصّمنيّ على أنّ الحراك العلميّ والأدبيّ واللّغويّ والنّقديّ الجزائريّ الحديث، هو حبيب العقود الوسطى من القرن العشرين، وصاحبة الفضل فيه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فقط، وهذا مدعاة بحث أعمق ودراسة أوسع.

6- اللغة العربية من محنة الكولونيالية إلى إشراقة الثورة التحريرية: وهو عمل جماعيّ لنحو

ثلاثين أستاذاً وباحثاً، أشرف عليه المجلس الأعلى للغة العربية الجزائري سنة 2007م، وجاء في أكثر من (600) صفحة، وهو عملٌ تناولت محاوره وضع اللغة العربية في الجزائر قبل الاحتلال وخلالها وبعد الاستقلال، ومع أنّ هذا العمل قد كان مسحا لكثير من مفاصل الوضع اللغويّ في الجزائر الحديثة؛ فإنّه لم يكن يتهياً له بناء تصوّر متكاملٍ حول المسألة اللغوية في الجزائر، كونه جاء ثمرة جهود متفرقة وقراءاتٍ من زوايا متباينة، فلم يحز الموضوع معالجةً مؤسّسةً في إطار دراسةٍ شاملةٍ ورؤية منظّمة، بل جاء آراء أشتاتاً، ومقالات منفردة، وتلك طبيعة الأعمال الجماعية.

7- الجزائريون والمسألة اللغوية، عناصر من أجل مقارنة اجتماعية لغوية للمجتمع الجزائري 1:

أ. خولة طالب الإبراهيمي، تر: أ. محمد يحياتن، الجزائر: 2007م، دار الحكمة. وهو طرح لساني اجتماعي، قاربت به الأستاذة الواقع اللساني الجزائري في سياق ثقافي واجتماعي، ومن منطلقات علمية لسانية، وكان المجال الزمني لبحثها فترة ما بعد الاستقلال، وما واجهه ذلك الواقع من تحديات التعريب في جبهاته الاجتماعية واللسانية، فكانت الدراسة وصفاً لواقع ما بعد الاحتلال، وعرضاً للحلول التي تقترحها المقولات اللسانية.

لقد كان بالإمكان الاقتصار على مرحلة زمنية فتدرس، أو ظاهرة لغوية فتتابع، أو جهد علم من الأعلام فيكشف، ولكن الذي تستهدفه الأطروحة من خلال هذا المسلك هو محاولة إعادة قراءة المسألة اللغوية في الجزائر، من خلال دراسة متأنية لجذورها وخلفياتها، والحفر في واقعها ضمن ما يجاورها وتصوّر الحلول للمشكلات التي تعترض سبيلها في ضوء ذلك كله، فإذا كان من البحث ما يستهدف جانباً، أو ظاهرة، أو فترة، فليكن ذلك إجراءً منهجياً يتوسم الإحاطة والإجادة، ولكن دون إهمال أو تنازل عن ظروف وملابسات المسألة، أو التقليل من شأنها.

إنّ هذه الدراسات التي راحت تتابع إسهامات الفاعلين الحقيقيين في رعاية الشأن اللغوي والأدبي والنقدي، وتوجّهت عنايتها إلى القضايا الأدبية واللغوية في تراث الفترة، أو إلى ما كان منها درساً علمياً للواقع والآثار؛ يعدّ إحدى آليات وصف إبداع علمي وأدبي وثقافي، ووسيلة من وسائل التمكين للغة العربية وآدابها، ولم تعرض للواقع اللغوي الجزائري الحديث من الزاوية التي تعتمد الأطروحة معالجتها إذ أنّ ما ستستدركه الأطروحة على هذه الدراسات هو استعراض المعالم الكبرى، والملاحم الأساس لمشروع الإحياء اللغوي في نشأته وماهيته وأبعاده وامتداداته، فهي تحاول رصد الأرضية التي قام عليها مشروع الإحياء اللغوي، بتعيين الخلفيات السالبة والموجبة، واكتشاف المنطلقات والدوافع، والوقوف على الآليات والإجراءات، ومعرفة طرق مواجهة العوائق النابعة من الواقع الجزائري بخصوصياته، ودفع المضايقات التي ترصدت بها الكولونيالية مسار الإحياء، ومناقشة سبل التكيف معها دون تنازل أو تراجع، كما تأمل استنباط الرؤى النظرية الكبرى لإحياء لغة حيّة، والنظر في مدى صدق المقولات التي يُرمى فيها الإحياء اللغوي في الجزائر -على قول القائلين بوجوده- بولائه السالب للإحياء المشرقي وإتهامه بالعوز البشري والإبداع، وتلك مقولاتٌ لزم تحجيمها، والنظر في شأن قبول القول فيها أو رده.

المقدمة

احتكم الموضوع إلى مدونة تاريخية عرضت قضايا اللغة العربية في متنها ووضعها، فكانت متون الصحف الجزائرية، وما أنجز حولها من دراسات وبحوث مدونة مفتوحة أساسا للأطروحة، ولعل أهم المصادر لهذا العمل مدين بالفضل لجهد أستاذ الجيل المؤرخ الأديب أبي القاسم سعد الله بمجموع أعماله، وبما أوردته موسوعته الشهيرة (تاريخ الجزائر الثقافي) من معلومات وآراء في التاريخ اللغوي والأدبي في الجزائر وما يتعلق بهما، ثم لثراء مادتها وتنوعها، واستغراقها لكامل الفترة الزمنية المستهدفة. ومنها العديد من الدراسات والبحوث المنجزة حول أعمال الفترة، كجهود الأستاذ محمد ناصر: الصحف العربية الجزائرية، والمقالة الصحفية الجزائرية، وغيرها، أو المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر لمحمد الحسن فضلاء، وأشباهاها مما استهدف عناصر الإحياء منفصلة، ثم طائفة أخرى من كتابات وبحوث مترجمة في اللسانيات الاجتماعية ك: دليل السوسiolسانيات ل: (فلوريان كولماس/ Florian Coulmas) وعلم الاجتماع اللغوي، والسياسات اللغوية ل: (لويس جان كالفي/ Louis-Jean Calvet)، وعلم الاجتماع اللغوي (Sociolinguistics) ل: (برنار صبولسكي/ Bernard Spolsky)، والسياسة اللغوية في البلاد العربية، لعبد القادر القاسي الفهري، وكذا بعض الكتابات ذات العلاقة للأستاذ صالح بلعيد ك: في الأمن اللغوي، ويزع بالحاكم ما لا يزع بالعالم.

لقد كان الإقدام على أطروحة بهذا العنوان أملاً في تجلية حقيقة مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر، وإعادة ترتيب جملة من المفاهيم والآراء التي كانت سائدة حوله، واكتشاف بعض ما كان نقاط ظل حول جهود وأعلام، ولعل أهم ما كانت الأطروحة تستهدفه هو اكتشاف حقيقة الإحياء اللغوي في الجزائر وخصوصيته، ضمن رؤية عامة تستحضر مكوناته مجتمعة، وتحلل معطياته في سياقاته العامة دون اجتزاء أو فصل، وعرض القضايا اللغوية فيه دون إهمال بقية العناصر الأخرى المشكّلة له، أو ذات العلاقة معه، والنظر في مدى إمكانية ارتقاء هذه الرؤية فتحوّل من مشروع تتقابل أمامه احتمالات النجاح والفشل، إلى حركة قائمة مثبتة بأعلامها وإن لم يُعرفوا، وأعمال وإن بدا منها شيء وخفي آخر، حركة لها خلفياتها وإجراءاتها ووسائلها ورؤيتها وأهدافها، ولعل شيئاً من ذلك قد تحقّق للأطروحة، بما استعرضته الخاتمة مجملاً، وتطرّق له متن العمل بشيء من البيان.

أمّا الصعوبات التي واجهت البحث، والتي ينبغي الإقرار بها باعتبار أنّ آثارها قد تكون قادمة في جوانب العمل، فمنها:

المقدّمة

- كان المجال الزمّنيّ المُعلن بدايةً هو (القرن العشرون) وقد كان ذلك عقبةً امتنع معها الضّبطُ بالاختصار عليه، وقد تبين أنّ مسألة الإحياء ومبرراتها ترجع إلى عهد سابقٍ للفترة المستهدفة، ولما كان البحثُ يتحرّى بناء تصوّرٍ عامٍ لقضيّة الإحياء اللّغويّ في الجزائر، فقد كان لزاماً مسح تلك الفترة بما يقوم عليه التّأسيس، واستحضارُ سابقةٍ زمنيّةٍ تزيدُ على القرن، وهو ما تعذّر معه الوفاء الكامل لعناصر الموضوع، لذلك كان الاكتفاء بعرض المعالم الأساس، والمسارات الكبرى، وعدم الإغراق في التّفصيل المبسوطة في مظان كثيرة.

- صعوبة التّعامل مع مدوّنة هائلة ومتنوّعة ومتداخلة، فلئن بدا الموضوع لغويّاً سيكتفي بمدوّنات هذا الاتّجاه، إلّا أنّ البحث قد انفتح على كتاباتٍ تاريخيّة واجتماعيّة وتعليميّة وسياسيّة وغيرها، بحكم موقع اللّغة من ذلك كلّ، يقال هذا في شأن المدوّنات المتّاحة، أمّا غيرها من المفقود، أو ممّا يصعب الحصول عليه كالمخطوطات الخاصّة، أو الأرشيف المغيب أو المهرّب، فهو ممّا يجعل البحث مبادرة مفتوحة على كثير من الإضافات والاستدراكات، وسيكتفي البحثُ راضياً إذا ما وُفّق إلى فتح آفاق لبحوثٍ ودراساتٍ أخرى، وإلى طرح أسئلةٍ يُمكن أن يكون البحثُ فيها -مُني أو من غيري- إضافة نوعيّة للبحث الجزائريّ العام، وفي جانبه اللّغويّ تعييناً.

ومع هذا كلّ، يبقى البحث عملاً بشريّاً يعتريه النّقصُ مهما رام صاحبه النّمام، ويحيط به العجز ولو حرص القائم به على الإلمام، وذلك مقام البذل مع تعذّر إدراك النّهائية، وحسبي منه أن يُكتب لي صدقُ التّوجّه، وشرف الغاية.

الفصل التمهيدى

ما قبل الإحياء؛

مصطلحات المنطلق وملابسات التأسيس

الفصل التمهيدي:

ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملايسات التأسيس

أولاً: مصطلحات المنطلق ومفاهيمه

لعلّ من أول ما ينصرف إليه النظر عند تناول موضوع الأطروحة من الزاوية التي صيغ بها العنوان؛ هو ضبط الشُّحَنات الدَّلاليّة الطَّليقة لمفرداته، ذلك أنّ كلاً منها قد يكون مظنةً التَّقدير النَّسبيّ أو التَّردّد الذي قد يبلغ درجة الرِّفْض، ومن الأسئلة التي قد تتردّد حول مفردات العنوان، وهي تُشكِّل مجتمعةً بؤرة موضوع الأطروحة؛ هل هناك فعلاً مشروعٌ لإحياء اللُّغة العربيّة في الجزائر الحديثة؟ ما حدود النَّشاط الذي يصحُّ أن يُطلَق عليه مصطلحُ مشروع؟ وما حقيقة الإحياء المقصود، وهو مصطلحٌ تزدهم عليه صور متعدّدة وبمضامين مختلفة؟ ما حدوده، وما معاييرها؟ وما المقصود بالجزائر؟ هل الجزائر التاريخ أم الجغرافيا أم السَّاكنة، أم غير ذلك؟ ما العلة في التَّحديد الزَّمني والظَّاهرة المقصودة لا تتضبط بزمان، ولا يُحتَكَم فيها إلى ناموس لا يتأخَّر؟ أسئلة تری الأطروحة أنّ إجاباتها جزءٌ مهمٌّ في ضبط جهاز المفاهيم التَّأسيسيّة للبحث، وأساسٌ ضروريٌّ لبناء معرفيٍّ يروم سلامة المنطلق لبلوغ صحّة النَّتائج.

وتأسيساً لهذا الموضوع؛ وجب الضَّبطُ المنهجيُّ للحدود والمعالم، وتحديدُ جهاز المفاهيم لمفرداته الرئيّسة، ذلك أنّ مصطلحات العنوان تأخذ خارج الحيز مفاهيم أخرى، قد يكون استغلالها خروجاً عن مسار هذا العمل، كما أنّ تحديد دلالاتها، وتقييد بيئتها زماناً ومكاناً؛ خطوةٌ منهجيّةٌ ضروريّةٌ تدفع عن العمل - ما أمكن - غوائل الاشتباه، ومظنّة الإبهام.

1- مشروع: وقع الاختيار على هذا المصطلح مع ما قد يحمله من تحفُّظ ناشئ من أنّ دلالة المصطلح تشي بتتظيم مُسبق، وإعدادٍ على مستوى متقدِّم من الشُّمول والضَّبط، وهو أحد المفاهيم التي أوردها معجم اللُّغة العربيّة المعاصرة بقوله: "مشروع [مفرد] ج مشروعات ومشاريع: اسم مفعول من شرع... خُطّة مشروع: وثيقة تصفُ النَّهج التقني والإداري الواجب اتِّباعه من أجل تنفيذ مشروع ما... مشروعٌ قوميٌّ: يعود بالنَّفع على الصَّالح العام"¹. ويقابله في اللُّغة الفرنسيّة (Projet) بمعنى: قَصْد ومقصد، عزم، نية، مشروع، خُطّة² وهو ما تحتمله الدَّلالة اللُّغويّة للفظ في أحد وُجوهها، ويناسب

¹ - أحمد مختار عمر وآخرون، معجم اللُّغة العربيّة المعاصرة، ط1. القاهرة: 1429هـ-2008م، عالم الكتب، مادّة (ش ر ع).

² - سهيل إدريس، المنهل، ط38. بيروت: 2007م، دار الآداب للنَّشر والتَّوزيع، ص980.

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملايسات التأسيس

الافتراض المُسبق الذي يقضي بأنّه كان للجزائريين في مختلف مواقعهم إزاء اللّغة العربيّة خلال القرن (20) مواقفٌ وجهودٌ، ومهما كان نوعها وحجمها ومداها وفعاليتها؛ فإنّها تستحقُّ مصطلح (مشروع) وبخاصّة إذا ما شهدنا إطلاق هذا المصطلح على جهود أقلّ مدى، وأضيق أفقا، ولكم سمعنا أحدهم يقول: لديّ مشروع تأليف رسالة، أو مشروع إنشاء صحيفة، أو مشروع تشكيل جمعيّة، ومع صغر حجم هذه المشاريع مقابل الجهود المبذولة للّغة العربيّة في الجزائر خلال القرن (20) من قِبَل الأفراد والتّنظيمات والحركات؛ فإنّه ليس لأحدٍ أن يعترض على إطلاق مصطلح (مشروع) على تشكيل جمعيّة أو تأليف كتاب، ومن الأوّل بعد هذا أن تستحقّ الجهود التي بُذلت للّغة العربيّة تسميّة (مشروع) ولبقيّة صفحات هذا العمل دور بيان طبيعته ومنطلقاته وأهدافه وحجمه، ومدى فشله أو نجاحه.

قد يقتضي استحقاق إطلاق مصطلح (مشروع) على هذا العمل حضور شروطٍ ما، كالتّخطيط المُسبق، ووضوح الرّؤية، وإعداد الوسائل البشريّة والماديّة، ومتابعة التّجاليّات المكوّنة له، وعلاقتها ببعض، ومدى الانتشار المكانيّ والامتداد الزّمنيّ، وطبيعة عنصره البشريّ، ومؤهلّاته المعرفيّة والنّفسيّة ومدى قدرته على التّكيف مع الطّروف المحيطة، وصبره على البقاء والاستمرار.

إنّ وجود مثل هذه العناصر مجتمعةً كافيّ بإطلاق مصطلح (مشروع) الذي قد يتحوّل باستكمال مبرّرات وجوده، واستحكام عناصره، وبلوغ درجة معيّنة من الحضور والفعاليّة إلى (حركة) لها امتداداتها الفكريّة والبشريّة، فقد يكون منطلق المشروع فردا أو جماعة، لكنّ نسبة نجاحه قد تُحوّله إلى (حركة) ذات خصوصيّات فكريّة وإيديولوجيّة وبشريّة وماديّة، فهل وُجد شيءٌ من هذا ضمن جهود أولئك الأعلام وتلك التّنظيمات والمؤسّسات؟

ما دامت الإجابة على السّؤال في بداية العمل متعذّرة؛ فإنّ الأنسب افتراض الاحتمالين، فإنّ تحقّق شيءٍ من ذلك، صحّ إطلاق ما يناسب من المُصطلحيّين، وإنّ لم يتحقّق، بقي إطلاق مصطلح (مشروع) قائما، ولكنّ النّقاش يتوجّه إلى نسبة النّجاح أو الفشل، ورصد الفجوات ومتابعة مواقع الخلل ولا يمكن - على سبيل الإنصاف - نسف تلك الجهود كلّها بإنكار وجود مشروع تماما، ولعلّ هذا ما جعل الأستاذ تَمّام حسان يعلّق على المصطلح في سياق بيان أثر الألفاظ في مختلف المواقف الكلاميّة بقوله: "ومن الكلمات السّحريّة في هذا العصر، كلمة (مشروع) التي يمكن أن تُكسب احتراماً لأيّ عمل، لاتّصالها بمجريات ذات نفوذ"¹. ولعلّ أولى الجهود باستحقاق الاحترام - على الأقلّ - هي تلك الجهود العلميّة

¹ - تَمّام حسان، مناهج البحث في اللّغة، د ط. القاهرة: د ت، مكتبة الأنجلو المصريّة، ص 267.

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملايسات التأسيس

والإبداعية التي انبثقت من بين رُكام اليأس الخمول الفكري والعلمي الثقيل الذي جثم على صدور الجزائريين طويلاً، ولأجل الدلالة اللغوية والاصطلاحية التي لا تعترض على المصطلح، كان هذا الإطلاق الابتدائي، على أنه إذا أثبتت فصول البحث أولوية مصطلح آخر، جاء ذلك نتيجة للعمل وليس افتئاتاً عليه.

2- الإحياء: قد يكون هذا اللفظ ودلالته أكثر مطالبة بالدفاع عن النفس ضمن هذا العمل، ذلك أنه بؤرة العنوان وبؤرة الأطروحة، فهو لفظٌ يستوجب سبق موتٍ للغة (Language Death) أو إماتةٍ وبذلك فإنه لا يستوي الحديث عن إحياء، إلا إذا أُقِرَّ ما يسبقه منهما، وهنا يقف هذا العمل أمام إثبات المَوَاتِ اللُّغَوِيِّ أو ما يُقاربه، ليسعى بعد ذلك في إثبات وجود هذا الإحياء أو عدمه.

الإحياء -في جانبه اللُّغَوِيِّ- ممارسة فعل الحياة، قال في الأساس: "أحياء الله فحْيِي وَحْيِي وَحْيُوا بخير وَحْيُوا... واستَحْيَيْتُ أسيري: تركته حياً... ومن المجاز: أَتَيْتُ الْأَرْضَ فَأَحْيَيْتُهَا، أي: وجدتها حية الثَّبات مُخَصِّبة. ووقع في الأرض الحيا وهو المطر¹ وفي اللغة الفرنسية (Vivification) بمعنى: إحياء، تنشيط، إنعاش، و (Vivifier) أحياء، نشط، أنْعَشَ² والفعل في حقيقته يتعلّق بالله تعالى، فإذا أُطلق في مقامات أخرى كان تجوّزاً، فالإحياء الحقيقي للميت ليس إلا الذي القُدرة والكمال يقول تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [التوبة: 116] وحين أطلق القرآن الكريم لفظ الإحياء مُسنّداً لغير الله تعالى جاء بمعنى استبقاء الحياة ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ أَلْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [الأعراف: 141] وسواء وَرَدَ كَلَامُ اللَّهِ عَنْ إحياء الموتى من البشر في الدنيا أم عن إحيائهم في الآخرة للتعريف بقدرته تعالى، وإثبات عقيدة البعث والنشور؛ فقد ارتبط ذلك كثيراً بإحياءٍ مُشَاهِدٍ محسوسٍ، ثَبَتَ في حقيقته لله تعالى ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيٍ الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: 50] وأطلق اللفظ على سبيل المجاز كذلك في إحياء الإنسان لموات الأرض بالزّرع والسّقي والرّعاية، فالمَوَات عند الفقهاء: (بفتح الميم) ويُقال: المَوَاتَانُ (بفتح الميم والواو): الأرض التي ليس لها مالِكٌ، ولا بها ماءٌ ولا عمارةٌ، ولا يُنْتَفَعُ بها إلا أن يجري إليها ماءٌ

¹ - محمود بن عمرو الرّمخسريّ، أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السّود، ط1. بيروت: 1419هـ - 1998م، دار الكتب

العلميّة، ج1، مادّة (ح ي ي).

² - سهيل إدريس، المنهل، ص1274.

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملازمات التأسيس

أو تُسْتَنْبَطُ فِيهَا عَيْنٌ، أَوْ يُحْفَرُ فِيهَا بِنْرٌ¹ وغير بعيدٍ عن الدلالة اللغوية تتأول القدامى تعريف الإحياء اصطلاحاً، من ذلك تعريف الإمام الكفوي: "الإحياء عبارة عن تهيج القوة النامية وإثارتها، وهو التحقيق لأنه لا تزول القوى النامية، بل تنعزل عن العمل"² ليُحِيلَ معجم لغة الفقهاء على إضافة هامة عند تعريفه: "الإحياء: (Animation) "مص أحْيَى [كذا] بَثُّ الحياة في الهامد"³ ثُمَّ أَلْقَتْ النَّظَرَ إِلَى احتمال إلحاق المصطلح بالكثير من الأمور، وَمِنْ ثَمَّ "يتحدّد المعنى الدقيق المراد من كلمة إحياء بما تُضاف إليه"⁴ وعلى الأساس الحسي لدلالة الإحياء، استندت الدّعاوات إلى التّمثّل به، مستعيرةً اللفظ الدّال عليه فكثيراً ما ارتفعت الأصوات بالثّورة على أوضاعٍ سائدةٍ، يرى فيها الدّاعون جموداً أو تخلّفاً أو فساداً يُشَبِّه دائماً بحالة من الموت لسكونه ورتابة الحياة معه، فرأينا حركات إحياء ديني وسياسي واقتصادي ولغوي عند كثير من شعوب الأرض وفي فترات مختلفة من التاريخ، ففي التاريخ الإسلامي اشتهر كتاب أبي حامد الغزالي (505هـ) (إحياء علوم الدين) وقد رأى الدّافع لتأليفه -كما جاء في مقدّمته- لما أصبحت عليه علوم الشريعة من جفاف جرّه عليها العلماء، فكان إحياءه -في ما يرى- إعادة ماء الحياة إلى علوم الشريعة كما كانت غضة طرية في قرونها الأولى، بإعادة ربط روح العلوم تعلماً وتعليماً واستحضار ما كانت عليه الحياة بالعلم في الزّمن الأوّل يقول: "رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهماً إحياء لعلوم الدين، وكشفاً عن مناهج الأئمة المتقدّمين، وإيضاحاً لمباهي العلوم النّافعة عند النّبیین والسلف الصّالحين"⁵ ومن هنا جاء مشروعه الإحيائي ضرورةً شرعيةً تردّ إلى العلوم روحها التي أزهدّها طغيان المادّة، وانصراف النّاس شيئاً فشيئاً عن الآخرة.

وتحت هذا العنوان كانت حركة (زوينجلي هولدريتش / Zwingli Huldreich) (1484-1531م) في الإصلاح الديني البروتستانتي في القرن (16) الميلادي. والتي بلغ نفوذها ألمانيا وهولندا وإنجلترا مستلهما ذلك من عالم الحركة الإحيائية والفلسفة الإنسانية الهولندي الجنسية (ديزيدريوس

¹ - شمس الدين الخطّاب، مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، ط3. دمشق: 1412هـ-1992م، دار الفكر، ج6، ص2.

² - أيوب بن موسى أبو البقاء الكفوي، الكلّيات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تح: عدنان درويش، محمّد المصري ط2. بيروت: 1419هـ-1998م، مؤسّسة الرّسالة، ج1، ص858.

³ - محمّد رؤاس قلعي وآخران، معجم لغة الفقهاء، ط2. بيروت: 1408هـ-1988م، دار النّفائس للطباعة والنّشر والتّوزيع ج1، ص48.

⁴ - محمّد رؤاس قلعي وآخران، ج1، ص27.

⁵ - محمّد أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، د ط. بيروت: د ت، دار المعرفة، ج1، ص2.

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملايسات التأسيس

أرازمس/Desidamus Erasmus (1466-1536م) ثم كان تتويج سعيه في عام 1523م دعوة القضاة لعقد اجتماعٍ علميٍّ تم فيه الفصل بين المذهب الكاثوليكي والمذهب البروتستانتي الجديد الذي ترعّمه زوينجلي، ففاز فيه المؤيدون له.

وضمن هذا الإطار -أيضاً- تمّ توظيف مصطلح (الإحياء) في القرن (18) الميلادي في أوروبا في ما أصبح يعرف بحركة (إحياء العلوم) والتي التفت فيها العلماء والأدباء إلى إعادة بعث العلوم والآداب والفنون القديمة (الإغريقية والرومانية) والاستناد عليها في صياغة منظومة معرفية جديدة، لا تستثني بدايات الثورة الصناعية، وباجتماع هذين الرافدين كانت إعادة صياغة الذهنية المادية الأوروبية الجديدة. وهي الحركة التي كان لها أثر عالمي بلغت آثارها البلاد العربية في كثير من مظاهرها.

لقد تسرّب هذا المصطلح بعد فترةٍ بكلّ حملته إلى الديار العربية والإسلامية، وصادف ذلك وضعاً عاماً بئساً، ذلك الذي شهدته أواخر أيام الإمبراطورية العثمانية الآخذة في الأفول، وقد توالى صيحات الإصلاح في مختلف الأوطان العربية والإسلامية متأثرة بأول صيحة أصدرها الأفغاني جمال الدين (1838م-1897م) وأردفه فيها تلميذه محمد عبده (1849م-1905م) ومعهما بات مصطلح (الإحياء) شعاراً يغشى المجالس والنوادي والصحف والكتب، فقد كان دعوة إلى حركة سريعة تخلص المجتمع بمن فيه وما فيه، من وضع كثرت منه الشكوى، وعمت فيه البلوى، وتوزعت جهود الإحيائيين على جبهات منها الديني بإصلاح العقائد ونبذ البدعة والخرافة، ومنها الاجتماعي الذي انصرف إلى التوجيه والتربية والتعليم، ومنها السياسي الذي أعاد طرح معالجة نظم الحكم ومتعلقاتها ومنها الاقتصادي الذي رغب في العمل واستهدف الاكتفاء، وكان منها اللغوي والأدبي الذي نال من اهتمام حركة الإحياء نصيباً يرى هذا المبحث أن يفرد له شيئاً من التفصيل والبيان، لعلاقته الوطيدة بموضوع الأطروحة.

2-1- الإحياء اللغوي: يأتي هذا المصطلح المركّب عنواناً لكل أنواع النشاط الذي استهدف إعادة

التمكين للغة العربية وآدابها، إثر تلك الانتكاسة التي شهدتها لقرون، بدايةً من سقوط بغداد واستمرار ذلك مع تولي العجم شؤون الحكم والسُّلطان، وما خلفه من تراجع كمّ التأليف العربي وضعف مستواه وهو الوضع الذي أعلنت عليه الثورة نهاية القرن (19) وبداية القرن (20) وقد وجد ذلك صدى أكبر في المشرق العربي، مستفيداً من بعض العوامل كظهور المطابع، وانتشار الصحافة، والاحتكاك العلمي بالغرب من طريق البعثات، فنال مصطلح الإحياء اللغوي حظاً من حركة الإحياء العامة التي كانت ترى فيه جزءاً لا يتجزأ منها، فقد "كان الشيخ محمد عبده مصلحاً دينياً، ومصلحاً اجتماعياً ومصلحاً

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملايسات التأسيس

للغة والأدب¹ وقد أعطى للإصلاح اللغوي والأدبي شطرا من دعوته الإصلاحية، بدأ فيها بإصلاح أسلوبه في الكتابة، ودعا لذلك حملة الأقلام من الصحفيين والكتاب، "وكان في مدرسة الألسن آية البيان في إحياء اللغة العربية، وإشراح الطريق للأحب في التعليم، والخروج بالطلاب من مآزق العهد القديم"² وبعد عودته إلى مصر كان من دروسه درس في البلاغة، لا على نمط البلاغة التي أفسدتها الفلسفة؛ بل على النمط الذي يُربي الذوق، ويُرقّي الأسلوب، ف "وجّه نظره الثاقب لطبع كتب إمام البلغاء بل واضع فنون البلاغة ومؤسسها، الشيخ عبد القاهر الجرجاني... أحدهما: أسرار البلاغة والثاني: دلائل الإعجاز"³ وفي سنة 1318هـ [1900م] أسس في مصر جمعية برئاسة سُميت (جمعية إحياء الكتب العربية) كانت فاتحة أعمالها نشر كتاب **المخصّص في اللغة**، وقد عهد في تصحيحه للعالم اللغوي الشيخ محمد محمود الشنقيطي، وشرعت الجمعية بعد المخصّص في إعداد مدونة مالك للطبع بعد أن استحضر لها الشيخ محمد عبده أصولاً من تونس وفاس، وعهد إلى الأستاذ سيد المرصفي في تدريس كتب الأزهر مثل: **الكامل للمبرّد**، و**ديوان الحماسة لأبي تمام**، وتلك أعمال لم يكن للعلماء عهد بها، بله عامتهم "فكان عمله هذا سببا في نهضة لغوية وأدبية واضحة تأثر بها كثير من الأدباء البارزين وتلاميذهم"⁴ ولم تشغل الرجل الحركة في اتجاه الإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي انتباهه عن مسألة **الإصلاح اللغوي** من طريق إصلاح أساليب الكتابة والرقي بالأدب، بل عدّ ذلك استكمالاً لعناصر الحركة الإصلاحية كلّها.

لقد كانت هذه الفترة برجالها ونتاجها بذرا لحركة الإحياء العربي الحديث، ففيها ظهرت ملامحه ومجالاته، وعُرفت بداياته وغاياته، ومن ثمّ شرع أعلامه في تنفيذ ما يروونه من ضروراته، كإقتناء المطابع، وإعادة طبع أمّات الكتب التراثية تكويناً للخاصة، وتحقيق المخطوط منها، والعمل على رواج الكتابة الصحافية تعميماً للفعل الثقافي، ونشر الوعي الشعبي العام.

ومن أبرز السمات لهذا العهد بروز مصطلح **(الإحياء)** بشكل لافت، حيث أُطلق على مضامين المناهج التعليمية المقدّمة، وعلى أساليب الكتابة العلمية والأدبية، وحتّى على الجمعيات ك (جمعية

¹ - أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، د. ط. بيروت: د. ت، دار الكتاب العربي، ص 323.

² - محمد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده، ط 2. القاهرة: 1427هـ - 2006م، دار الفضيلة، ج 1، ص 136.

³ - محمد رشيد رضا "تقريب المطبوعات، أسرار البلاغة" مجلة المنار، القاهرة: 21 جمادى الآخرة - 1318هـ 15 أكتوبر - 1900م، ج 3، ص 539.

⁴ - أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ص 334.

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملايسات التأسيس

إحياء الكتب العربيّة) ودور النشر ك (دار إحياء التراث العربيّ) و(دار إحياء العلوم) حتّى ظهر على شكل عناوين للكتب، ككتاب (إحياء النّحو) لإبراهيم مصطفى سنة 1936م.

ألقي المصطلح بظلاله على كلّ النّشاطات التي تستهدف العودة إلى ما كان سببا في رقيّ سالفه هذه الأمّة، مع الأخذ في الحسبان مستجدّات العصر، وأنماط التّفكير السّائدة، وكذا الوسائل والأدوات المتاحة، وأنشئت للغرض نفسه لجانّ تابعة للمؤسّسات التّعليميّة والثّقافيّة حملت المصطلح ذاته واعتمدت مقتضياته هدفا لها، فكانت (لجنة إحياء التراث العربيّ) بدار الآفاق في بيروت، وكانت (إدارة إحياء التراث القديم) التّابعة لإدارة الثّقافة العامّة بوزارة المعارف العموميّة بمصر، وهكذا رافق المصطلح معظم النّشاطات العلميّة والفكريّة في هذا العهد، وقد كان إطلاقه دليلا على ما يستهدفه أنصاره من إعادة ماء الحياة إلى تراثٍ أصيلٍ كان السّبب في ارتفاع شأن الأمّة، ولم يكن إطلاقه إذ ذاك بدّعا في الأمم، فقد كان سلوكا في أممٍ أخرى، رأت بداية نهضتها في الالتفات إلى تراثها وآدابها القديمة، تبثّ فيها نوعا معاصرا من الحياة، وتعتمدها سندا لانطلاق جديد.

2-2- التّعريف الإجرائي: بعد ما ذكر عن الدّلالة اللّغويّة للمصطلح، وبعض محطّاته التّاريخيّة يَجْمَلُ الختمُ هنا بإيراد التّعريف الإجرائيّ الذي تعتمده الأطروحة تأسيسا وإجراءً وغايةً، وهو التّعريفُ الوارد في دليل السّوسيولسانيّات: "محاولة من قِبَل الحكومات والسّلطات السّياسيّة، أو المتحمّسين لاستعادة الاستعمال الشّفويّ للغة التي لم يَعد مُتحدّثًا بها أو مهدّدة بالزّوال"¹ وهو تعريف يتناسب في غالب قيوده مع الحالة المفترضة للإحياء اللّغويّ الجزائريّ.

3- الجزائر الحديثة: اسمٌ ورث ما كان يسمّى حتّى بداية القرن (16) الميلاديّ بالمغرب الأوسط وسمّيت أيضا جزائر (بني مزغنة) لوجود جُزر صغيرة مقابلها، وبدأت الملامح الجغرافيّة للبلاد في التّشكّل مع نزول العثمانيّين ومحاولتهم بسط سلطانهم على جنوب السّاحل شرقا من نقطة (القالّة) إلى منطقة (غدامس) نقطة لقاء حدود ليبيا ومملكة تونس يومذاك، أمّا غربا، فحدّ ينحدر جنوب (الغزوات) إلى واحة (لفقيق) إلى أن ينتهي غرب المملكة المراكشيّة، وأمّا جنوبا فحدّ طبيعيّ يفصل المستعمرات الفرنسيّة في غرب أفريقيا عن مناطق الطّوارق التّاريخيّة.

¹ - فلوريان كولماس، دليل السّوسيولسانيّات، تر: خالد الأشهب وماجدولين النّهبي، ط1. بيروت: 2009م، المنظّمة العربيّة للترجمة، ص963.

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملابسات التأسيس

وبهذا فـ "إنَّ الجزائر لم تتميز داخل حدودٍ واضحةٍ ثابتةٍ إلَّا في العهد التُّركيِّ، ففي هذا العهد توحدت الجزائر سياسيًا، وأصبحت خاضعةً لسلطةٍ مركزيَّةٍ في مدينة الجزائر التي أصبحت هي العاصمة"¹ وقد اتخذها العثمانيُّون مُنطلقًا للاستيلاء على قسنطينة الحفصية، وتلمسان الزيانية، ولم تتأخَّر عن الانضمام إلى الجزائر العثمانية منتصف القرن (16) الميلاديِّ إلَّا مدينة وهران التي كانت بيد الإسبان، إلى أن تمَّ ضمُّها على عهد الباي محمَّد الكبير، وقد حدث الانفصال السياسي للجزائر عن السُلطة العثمانية نفسها، بتثبيت منصب الداي المنتخب محليًّا، عوض الباشا الذي كانت تعيُّنه السُلطة العثمانية فـ "اكتسبت بذلك الجزائر مقومات الدولة المستقلة ذات السيادة في إطار التَّضامن الإسلاميِّ، وتحت رعاية السُلطان الشَّرعية منذ 1717م، وحتَّى الغزو الفرنسي"² وهي المعالم التي بقيت قائمة طيلة الفترة الاستعمارية، واستقرَّت عليها الدولة الجزائرية بعد الاستقلال.

تأبى المظاهر الثقافيَّة واللِّسانية في كثير من الأحوال الإذعان لما رسمه النَّاسُ من حدود جغرافيَّة وتَعَجَّر معالمها عن أن تكون حدًّا للامتداد الفكريِّ والثقافيِّ عامَّةً واللُّغويِّ خاصَّةً، وأظهر من ذلك عجزُ هذه الحدود عن حصر جهد الإنسان الفكريِّ ضمن حيزٍ جغرافيٍّ، وهي القضية التي تولَّد إشكالُ الوجهة التي يُعالجُ في إطارها الوضع اللُّغويُّ في الجزائر، هل على الحيز الترابيِّ الذي ترسَّمت معالمه إِبَّان العهد العثمانيِّ الأوَّل؟ أم على صعيد التَّشكيل البشريِّ الجزائريِّ المتنوِّع، وهو مزيجٌ اندمج خلال قرون؟ ثمَّ ما الموقف من الجزائريِّين الأعلام الذي هُجِّروا عُنوةً، أو هاجروا رغبة إلى المشارق والمغارب، ولكنَّ الجزائر الوطن لازمت نفوسهم، فخدموا قضايها، واهتمُّوا لما أهمَّها؟ فأين يُصنَّف أمثال الشَّيخ طاهر الجزائريِّ نزيل الشَّام، والشَّيخ محمَّد الخضر حُسين البسكريِّ نزيل مصر، وشيخ الأزهر، وغيرهما كثير؟ ولأيِّ بلدٍ تُنسب أعمالهم؟

مع ما يُلاحظ على الحركة العلميَّة الجزائرية زمن الأتراك من تراجعٍ وانحسارٍ، فقد شهدت هذه الفترة إنجازاتٍ جزائريةً أفلت بها أصحابها إلى خارج الجزائر هربًا من الظُّروف السَّائدة، ويكفي أنَّ المقرِّي ألف موسوعته في تاريخ الأندلس (نفح الطَّيب) بمصر، و(أزهار الرِّياض) في المغرب الأقصى، وألف يحيى الشَّاوي، وعيسى الشَّعالي، وابن حمادوش معظم أعمالهم خارج الجزائر أيضًا، وألف ابنُ العنَّابي

¹ - مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم: محمَّد الميلي، د ط. الجزائر: 2014م، دار الكتاب العربي للطباعة والنَّشر، التَّوزيع والتَّرجمة، ج3، ص130.

² - هابنسترايت، رحلة العالم الألماني ج. أو. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس، 1145هـ-1732م، تر: ناصر الدِّين سعيدوني، د ط. تونس: د ت، دار الغرب الإسلامي (هامش) ص29.

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملايسات التأسيس

(السَّعي المَحمود) في مصر، وهكذا سوف نجد أنفسنا أمام جهود علمية لغوية وأدبية لافتة، لا يسع الباحث إلا أن يصنّفها ضمن الإبداع الجزائري، وبخاصة بعد أن أصبحت نسبة الأعلام إلى بلدانهم التي هاجروا منها أمراً مألوفاً، فهذا الشيخ طاهر يُعرف بالجزائري، مع أن نبوغه وظهور شأنه كان في بلاد الشام، وهذا الشيخ محمد الخضر حسين يعدُّه أهل مصر جزائرياً فهو بسكري الأصل، وولد ونشأ بنفطة في تونس، ومع تولّيه مشيخة الأزهر فإنّ جزائريته بقيت ملازمة له، ومن هنا فإنّ اعتبار الجهود التي ظهرت خلال الفترة المقصودة، أو أي أثر مباشر كان أو غير مباشر - على الحياة العلمية والفكرية الجزائرية، يعدُّ من روافد المشروع، أو مظاهره، أو ثمراته.

وعلى سبيل التأسيس لرؤية علمية تستهدف جميع الجهود الجزائرية التي شتتتها الأحداث التاريخية المتلاحقة، ونقيم الوضع العلمي العام للأمة الجزائرية الحديثة، ضمن إطار يُعيد استقطاب النُبوغ الجزائريّ جمعاً وتحقيقاً، ثم نقداً وتقييماً، يبدو أن ذلك هو الوضع الكفيل بمتابعة شاملة للحراك الثقافي والعلمي دون اجتزاء يكتفي بجهود علم من الأعلام، أو ازدهار نمط معين من العلوم والمعارف، وتلك حال لن تكون الجزائر فيها بدعا من الأمم "لمعظم الحركات القومية في أوروبا خلال القرن الماضي [19] انطلقت في البداية بأطروحات ثقافية، ثم حدثت الثورات والتحرّبات (مثلاً: اليونان، صربيا، المجر التشيك... إلخ، ولم يحدث العكس¹ ولا يعتقد أن تلك الجهود وإن صدرت من أفراد في الجزائر أم خارجها؛ قد كانت بمعزل عن سياقٍ فكري واجتماعي تُوطّر معطياته تفاصيل الجهود البشرية ومن أي نوع، وهكذا فإنّ المقصود بالجزائر هنا هو:

- الجغرافيا التي ارتسمت معالمها مع الوجود العثماني، وتشكّلت معها معالم الدولة بمفهومها الحديث، حسب الحدود التي أوردها الميلّي والمدني وغيرهما.
- التاريخ الذي يمتد من العهد التركي إلى الاحتلال الفرنسي، ثم إلى ما بعد ذلك ممّا استغرقه المشروع، وهو المجال الزمني الذي شهد الظاهرة المقصودة بالبحث.
- الساكنة التي انتسبت لهذين البعدين، سواء منها من استقرّ بالجزائر، أم الذين انتقلوا منها لظروف تواطأ الناس عليها، وقد اجتمعت فيها المكونات الكبرى للأمم من التاريخ واللّسان والدين والأعراف ورضي المنتسبون إليها على حدود مشتركة للتعايش.

¹ - أبو القاسم سعد الله، قضايا شائكة، ط. خ. الجزائر: 2015م، عالم المعرفة، ص 142.

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملايسات التأسيس

4- المقاربة: (Approche) انطلاقاً من كون الأطروحة تعتمد طريق المقاربة كمسعى يوظف النظر العقلي في قضايا كانت -ولا تزال- موضع اختلاف في الرأي، وما دام مسعى المقاربة -كما يقرر علماء المناهج- لا يخلو من انزياح إيديولوجي وإملاءات ابستمولوجية بشكل ما؛ فإنه ليس بالإمكان ادعاء العلمية المطلقة، فالموضوع بطبيعته ليس بريئاً من الذاتية، وقد تعلق أساساً بالهوية كما أن كثيراً من الظروف والممارسات التي كانت وراء متابعة المسألة، لم تكن علمية ولا موضوعية ولا ديموقراطية. ومن هنا، فإن تناولها بالموضوعية والعلمية التي يفهمها البعض؛ قد تكون مختلفة عن فهم آخرين لها ولربما اتهمنا باحثاً بمجانبة العلم والموضوعية حين يتبنى رأياً يوافق أو يخالف إيديولوجية معينة وعند ذلك فإن محل الاختلاف ليس في طبيعة الموضوع، ولا في منهج دراسته بقدر ما هو اختلاف مع قناعات الباحث وآرائه الصادرة عن عقائد لا يمكن التنازل عنها، ومبادئ فطرية لا يمكن الانسلاخ منها، وما سيجعل الخوض في القضايا بالتحليل والمناقشة والنقد ممكناً، هو انتهاج مسلك المقاربة بمعناها اللغوي والاصطلاحي.

جاء في الأساس للزمخشري: "قرب منه وإليه، وأقرب مني، وقربته فقرب، وقاربه، وتقربوا وأقربوا وهو يستقرب البعيد، وتناولته من قرب ومن قريب... ومن المجاز: لقد قربتُ أمراً ما أدري ما هو... وشيء مقارب: وسط¹ و"قرب الشيء مناً قرباً وقربةً وقرباً... والقرب بالكسر مصدر قارب الأمر إذا دانه... وقاربه مقاربةً فأنا مقارب بالكسر، اسم فاعل خلاف باعده² وأورد معجم اللغة العربية المعاصرة المصطلح في سياق بعض الاستخدام المعاصر مصدراً للفعل (قارب) "مقاربة [مفرد]: 1- مصدر قارب/ قارب في/ قارب من.

2- كيفية معالجة الموضوع "عالج المشكلة بمقاربة منطقية".

3- مماثلة في الرأي، بين الزوجين مقاربة³ والمسلك التي تتوخاه الأطروحة من خلال مقاربات القضايا، تقوم على الدلالات اللغوية التي أوردتها المعاجم القديمة منها والحديثة، إذ تحاول الاقتراب من الأحداث التاريخية والاجتماعية واللسانية بطريقة علمية، وإيراد تعليلها لا على سبيل اليقين الذي لا اعتراض بعده، بل على اعتبار الاحتمال الأقرب، والتعليل الأنسب، والتقييم الأصوب، على أن هناك

1- محمود بن عمرو الزمخشري، أساس البلاغة، ج2، مادة (ق ر ب).

2- أحمد الفيومي، المصباح المنير، د ط. القاهرة: 1424هـ-2003م. دار الحديث طبع نشر توزيع، مادة (ق ر ب).

3- أحمد مختار عمر وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة، مادة (ق ر ب).

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملايسات التأسيس

فرقا لطيفا أورده صاحب الفروق في اللغة بين المقاربة والملاقاة، يرى البحث إيراده زيادة في وضوح منهجيتته، فيقول: "الفرق بين المقاربة والملاقاة: أَنَّ الشَّيْئَيْنِ يَتَقَارِبَانِ وَيَبِينُهُمَا حَاجِزٌ، يُقَالُ: التَّقَى الْحَدَّانِ وَالْفَارِسَانِ. وَالْمَلَاقَاةُ أَيْضًا أَضْلَاهَا أَنْ تَكُونَ مِنْ قُدَّامٍ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَا يُقَالُ: لَقَيْتُهُ مِنْ خَلْفِهِ، وَقِيلَ: اللَّقَاءُ اجْتِمَاعُ الشَّيْءِ مَعَ الشَّيْءِ عَلَى طَرِيقِ الْمَقَارِبَةِ"¹ فمن المُعتبر عند معالجة مثل هذه القضايا الاعتدالُ برأي المُخالف مادام مُنصفًا، وسيكون المعنى الاصطلاحي للمقاربة عند ذلك هو: "كيفية دراسة مشكل أو معالجة أو بلوغ غاية، وترتبط بنظرة الدارس إلى العالم الفكري الذي يُحبّذه فيه لحظة معينة، وترتكز كل مقاربة على استراتيجية للعمل"² وهو تعريف يحيل في الحقيقة على مقاربات لا مقاربة واحدة تصطبغ كل منها بالموضوع الذي تعالجه، وتتشكّل ضمن الإطار الذي تستهدفه، فتُطلق المقاربة الاجتماعية عند النّظر لموضوع ذي طابع اجتماعي، والمقاربة اللسانية حين تناول القضايا اللسانية وقد يُضطر إلى المقاربة السوسiolسانية جمعًا بينهما، في إطار المعالجة الحديثة لقضايا اللسان والمجتمع، وهو ما سيكون له موقع في البحث الذي يروم المسلك العلمي، وإنصاف أصحابه، وتجليّة الظواهر، واكتشاف الخفايا، والوقوف على الخلفيات والآفاق.

4- المعالم: من الضروريّ الإقرار بأنّه ليس من السهل، ولا من الممكن الإحاطة بموضوع الأطروحة وهو على قدر كبير من التشعب والتعقيد في مضامينه، وله من الامتداد في الزمن مرحلة تاريخية طوّت عشرات السنين، فكان هذا الرديف في العنوان مسلكا تتخفّف به الأطروحة من كثير من التفصيلات والمواقف على أهميتها في غير هذا الموضوع، وللوقوف على دواعي انتقاء اللفظة وما تدلّ عليه؛ يوردُ البحث أبرز الدلالات المعجمية للمصطلح، ليستعين بها على بيان أسلوب تناول القضايا قال الزبيدي: "المعلم: ما يُستدلّ به على الطريق من الأثر، والجمع: المعالم"³ أمّا الاستخدام المعاصر للمصطلح فمنه: "معالم [جمع]: مف معلم: معالم المكان: ما يُستدلّ بها عليه من آثار ونحوها... معالم الطريق: العلامات التي تدلّ عليها - معالم المدينة: الأبنية ونحوها التي تشتهر بها وتميزها عن غيرها

¹ - الحسن بن عبد الله أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، تح: محمد إبراهيم سليم، د ط. القاهرة: د ت، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، ص306.

² - عبد اللطيف الفاربي وآخرون، معجم علوم التربية، مصطلحات البيداغوجيا والديداكتيك، ط1. الرباط: 1994م، مطبعة النجاح الجديدة، ص21.

³ - محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، مجموعة من المحققين، دار الهداية، ج33، ص132.

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملابسات التأسيس

من المدن - معالم تاريخية: أحداثٌ تمثل نقطة تحول في التاريخ¹ وبناء على هذا؛ فإنّ مسلك الأطروحة هو محاولة إيراد أبرز الأطوار التي تقلّب فيها المشروع اللغوي انتكاسا وظهورا، والاكتفاء بما يجلي المسار العام للغة العربية في الجزائر منذ عهد الأتراك الأخير، إلى أن تناولها الاحتلال الفرنسي فأدخلها مخابره، ووكل عليها خبراءه ومستشرقيه، وهي المرحلة التي ستُرفع فيها معالم واقع اللغة العربية في الجزائر.

ولمّا كانت هذه الفترة ليست مقصودة بالبحث لذاتها، بقدر ما كانت تأسيسا لما بعدها؛ فسيعمل البحث على إيراد حال اللغة العربية في الجزائر يومئذٍ، وأحوالها حين آذن القرن (19) بصُرم، لتبدأ مرحلة أخرى بمعالم مختلفة، وبأعلام آخرين، وسيكون تركيز الأطروحة في الكشف عن المحطّات الكبرى، والتحوّلات الفارقة في مسيرة اللغة العربية في الجزائر، فتتناولها بالمتابعة والمناقشة، والنقد والتحليل، وتستنبط طبيعتها، ومؤثراتها، وأعلامها، وقضاياها، وفلسفتها والفاعلين فيها.

ولا شك أنّ معالجة مسألة الأداءات اللغوية في جزائر القرن (21) -مثلا- لا يمكن تناولها تناولاً علمياً عادلاً، ولا تصوّر حلولٍ صالحةٍ لها بمعزل عن ملابساتها التاريخية، ومسيرتها ومؤثراتها، ويقاس على ذلك قضايا تعليمية اللغة العربية، ووضعيات المؤسسات اللغوية، وقضايا أخرى عديدة ومتشابهة وأحسب أنّه ما دامت هذه القضايا على هذه النسق من التعلّق؛ فإنّ محاولة بناء أرضية تستهدف المعالم العامّة، والمحاور الكبرى لمسألة إحياء اللغة العربية بداية من طبيعتها، ومرورا بإجراءاتها، ثمّ انتهاء بمآلها، سيصبح على درجة من الأهميّة لا يمكن تجاوزها.

إنّ معالم مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر هي تلك العناصر التي وظّفها الإحيائيون لإعادة بعث اللغة العربية في الجزائر، فكانت محطّات فارقة في مسيرتها من الأقول إلى الانتعاش.

5- الأبعاد: تناولت المعاجم القديمة هذا الجذر للدلالة على المحسوس من المسافة "البعدُ ضدّ القرب، وقد بُعدَ بالضمّ بُعْداً، فهو بعيدٌ أي: مُتَبَعِدٌ، وأبعدَه غيره، وباعدَه وبعده تبعيدا"² بل إنّ معاجم المصطلحات لم تخرج عن المعنى اللغويّ، قال الكفويّ: "والبعد: هو أقصر الخطوط الواصلة بين الشئين"³ أمّا المعاجم الحديثة فقد اكتسب فيها اللفظ دلالةً معنويّة، وهي المقصودة في هذا العمل فمما

¹ - أحمد مختار عمر وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة، مادّة (ع ل م).

² - محمّد بن أبي بكر الرّازي، مختار الصّحاح، تح: محمود خاطر، د ط. بيروت: 1415هـ-1995م، مكتبة لبنان ناشرون ج1، ص73.

³ - أبو البقاء الكفويّ، الكليات، ج1، ص249.

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملابسات التأسيس

جاء عنه: "بُعْدٌ [مفرد]: ج أبعاد (لغير المصدر): مصدر بَعَدَ ... أبعادُ مسألةٍ: أهميّة، مظاهر عملية... امتداد موهوم، غير محسوس "بُعْدٌ ثقافيّ/ حضاريّ"¹ وجاء اختيارُ هذا المصطلح مرافقا للعنوان تعبيراً عن تلك الامتدادات التي تحتكم إلى اللغة، أو تحتكم اللغة إليها ممّا هو خارجها، وأكثر ما يكون عليه التركيز، هو الآثار المتولّدة عن الاحتكاك بين اللغة والمجتمع، في إطار معطيات اللسانيّات الاجتماعيّة ومقولاتها، لعلّ ذلك يكون إسهاماً من الأطروحة في بناء تصوّر عام يتناول تأثير وتأثر اللغة العربيّة في جزائر القرن (20) في معالمه الكبرى، وأبعاده العامّة.

ثانياً: ملابسات التأسيس

1- التّشكيل المجتمعيّ الجزائريّ في العهد التّركيّ الأخير:

كانت بداية أمر العثمانيين في الجزائر تمثيلاً لخلافة إسلاميّة، وتلك هي الصّورة والنّسبيّة التي استقبلوا بها في الجزائر، بوصفهم حكاماً باسم الإسلام، ومع تقدّم العهد تحوّل الحُكم باسم الأتراك، وقد كان هذا التّحوّل بعد أن شهد الإقليم الجزائريّ طيلة تاريخه تحولاتٍ سكانيّة كبرى، أثّرت على واقعه في مظاهرها كلّها، في حينه وفي ما بعد، ومنها الواقع اللّغويّ، فقد كان الفتح الإسلاميّ سبباً لوفادة اللّغة العربيّة كمظهرٍ رافقٍ الدّين الجديد في كلّ البلاد المفتوحة مشرقاً ومغرباً، وتأكّد التّمزج المازيغيّ العربيّ بالهجرة الهلاليّة الكبرى، التي كان لها الأثر الكبير في تعرّب المحيط العامّ في الشّمال الإفريقيّ وفي الجزائر بشكلٍ خاصّ، وأُرِدِف بالنّزوح الأندلسيّ، كحلقةٍ من حلقات النّزوح الكبيرة عقب مأساة الأندلس الشّهيرة، ثمّ كان النّزول التّركيّ بظروفه وملابساته التّاريخيّة.

تميّز الوجود التّركيّ في الجزائر بتعدّد الأعراق واللّغات والدّيانات، وغلبت على سلوك أفرادها مسحة قتاليّة، ونزوعٌ نحو الإعداد العسكريّ، مقابل انحسار جوانب التّكوين العلميّ والثّقافيّ لأفراد الجيش وقادته، وكان لذلك أثرٌ بالغٌ في إعادة صياغة تركيبة المجتمع الجزائريّ، الذي انحسرت فيه دوائر التّكوين العلميّ والثّقافيّ، وتراجعت الفئات الاجتماعيّة التي كانت تقوم عليه، وهو ما أسهم في تشكيل مجتمعٍ جديدٍ تكوّن مع الزّمن، وأصبح ظاهرةً لم يعد ممكناً إغفال آثارها، حتّى أقرّ بها الرّحالة الأجنبيّ وهم زوّار لا يمكنون في أغلب الأحيان إلّا يسيراً، فينقل الرّحالة الألمانيّ (هابنسترايت) مشاهداته حول زيارته للجزائر بقوله: "إنّ سگان مملكة الجزائر ليسوا كلّهم من أصول واحدة، فالحكومة بيد الأتراك الخُصّ، أي الذين ينحدرون من آباء وأمّهات أتراك، وهم في الغالب يُستَقَدَمون من المشرق، أو قد يأتي

¹ - أحمد مختار عمر وآخرون، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة، ص 225.

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملايسات التأسيس

بهم القراصنة بالقوة¹ إلى الجزائر¹ وهو الجانب الذي ترى الأطروحة ضرورة عرضه هنا لما له من تأثير على الجانب اللساني للمجتمع الجزائري، إذ أن استعراض التشكيلات السكانية في العهد التركي الأخير خاصة، هو عرض للجغرافيا اللسانية في تلك الفترة، وهي الجغرافيا التي استلمها الاحتلال الفرنسي.

عرف المجتمع الجزائري تطورات عديدة خلال الحكم التركي الممتد ما بين سنة 1514م و1830م وما يعني الأطروحة من ذلك تلك الصورة التي شكّلت مشهد المجتمع الجزائري آخر العهد التركي، الذي كان في عموه محكوما بأشكال من التصنيفات المتداخلة، هو محاولة استجلاء موقع التأثير والتأثير اللساني، ومن خلاله محاولة ترسم أطلس لساني (Atlas linguistique) مؤسس على مواقع تركّز التشكيلات البشرية المختلفة.

تُصنّف الدراسات التاريخية التي تناولت العهد التركي التشكيل الاجتماعي وأثر السلطات التركية عليه، باعتبارها اقتصادية واجتماعية وسياسية متداخلة، ولعلّ التصنيف السياسي قد هيمن على بقية التصنيفات، وحكمته قاعدتان حافظت عليهما السلطة التركية طيلة حكمها كلّهما: الحاكم تركي والمحكوم جزائري، وبناءً على القاعدتين؛ فإنّ مقام الأتراك الاجتماعي هو أعلى الهرم على تفصيل، وأنّ الجزائريين رعايا محكومون، وهم أدنى الهرم على تفصيل أيضاً، في ما اعتمد آخرون تقسيماً ذا أساس اقتصادي تجلّيه اعتبارات ملكية الأرض بصيغها المختلفة، وطريقة التحكم في وسائل الإنتاج، ونوع العلاقة المالية بين السلطة والرعية، وطرائق امتلاك الثروة وتوزيعها، وهي اعتبارات وإن كان لها قبول في التصنيف، فهي تُقصي الاعتبار الدينية واللسانية والتاريخية، مع ما لها من أثر على التصنيف الاجتماعي، ومن هنا فإنّ الوقوف على صورة أوضح للمجتمع الجزائري إبان العهد التركي، يقتضي عدم إقصاء أي اعتبار يمكنه الإسهام في رسم الواقع الحقيقي لذلك المجتمع.

1-1- التقسيم الهرمي العام: يمكن إدراج هذا التصنيف ضمن الرؤية السياسية والعسكرية العامة التي استُدعي الأتراك لأجلها، ولتنفيذها قديموا، وهي حماية حوزة الإمبراطورية من متربصي الشمال ولكنّ هذا الغرض تحوّل مع الوقت إلى حكم تروي فيه المصادر عسفا وظلما واستئثارا، وبخاصة في العهد الأخير، الذي يكفي أن يُسجّل أعلى هرم السلطة اغتيال ستّ دايات ما بين 1798م و1830م ويشهد أسفلها ثورات منطقة زواوة في السنوات 1804م، و1810م و1823م، وثورة ابن الأحرش شمال قسنطينة في 1804م، وثورات الطرق الصوفية التي كانت -إلى عهد قريب- يد السلطة على الرعية

¹ - هابنسترايت، رحلة العالم الألماني ج. أو. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس، 1145هـ-1732م (هامش) ص29.

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملابسات التأسيس

كثورة الدِّقَاوِيَّة من 1805م إلى 1816م، وثورات النَّمَامِشَة والأوراس 1818م إلى 1823م وهو وضع وإن كان ظاهره سياسياً، إلا أن دوافعه الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لم تكن خافية.

قد يكون تقديم هذا المشهد نتيجة لوضع اجتماعي أسهمت في إنتاجه السلطة التركية بحكم التكوين السياسي لحكامها والتوجه العسكري لقادتها، ذلك "أن الأتراك لم يكونوا يوماً ما دعاة ثقافة، وإنما كانوا رجال حرب، وأنهم أتوا إلى الجزائر كمحاربين للإفرنج والمسيحيين كافة، ومدافعين عن حياض الدين ببلاد المسلمين¹ ولكن شرف هذه الغاية قد تهاوى بفعل اختراق المكون البشري التركي بخليط من الأعراق الذين عرفوا باسم **الوجق** تجمعت عناصره من أناضوليا ورومليا ومن البلاد العربية، ومن دول البلقان، ومن أجزاء أوروبا الأخرى، فاجتمعت بذلك أصول تركية وعربية وصقلية ولاتينية وإغريقية، ومع ما كان عليه كثير من هؤلاء من صلف وغلظة طباع، فقد كانوا محسوبين على الشطر التركي، ضمن التقسيم الكلي الذي يجعل المجتمع الجزائري "طبقتين متميزتين: الطبقة الحاكمة وأدواتها من (كراغلة ويهود، وقبائل المخزن) والطبقة المحكومة وتمثلها الرعية²" وحرصاً من الحكام الأتراك على مصير السلطة؛ خصّوا أنفسهم بمناصب القرار، وربّوا إدارة الدواوين وقيادة الجند وإدارة الخزينة على أساس الانتماء العرقي، حتى ضمن طائفة الحكم، ف "كان الأتراك يشكّلون طائفة مغلقة منعزلة عن المجتمع الجزائري، متمسكة بلغتها ومذهبها الحنفي³ ولا يُعتقد أن سلطة آثرت قصور الحكم وما حولها، وأُنابت في التعامل مع المجتمع أقواماً آخرين، ليس لهم من التركيبة إلا الانتساب، وقد بلغ بها أن اصطحبت معها إلى الجزائر مذهبها الفقهي الحنفي وهي دار إسلام؛ أنها مؤهلة لأن تكون حاملة رسالة حضارية بل هو إمعان في عدم الاستعداد للاندماج مع أهل البلاد.

1-2- المجتمع الحضري والريفي: من نماذج التصنيف الاجتماعي التي أفرزتها السياسة التركية

في الجزائر خلال العهد الأخير، تقسيم المجتمع إلى **حضر** وهم سكّان المدن والحوضر، الذين يُصنّفون داخل حواضرهم أصنافاً باعتبار أصولهم وباعتبار وظائفهم، وسكّان الأرياف، وهم أيضاً تشكيلات

¹ - محمد بن ميمون الجزائري، الثَّغفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تح: محمد بن عبد الكريم، ط2. الجزائر: 1981م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص46.

² - حنفي هلايلي، أوراق جزائرية في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط1. الجزائر: 2009م، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، ص174.

³ - صالح عبّاد، الجزائر خلال الحكم التركي، 1514م - 1830م، د ط. الجزائر: 2012م، دار هومة، ص357.

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملايسات التأسيس

وتجمّعات مصنّعة على اعتبارات تتفق في مجملها على عدم التعرّض للسلطة، أو ارتكاب ما يُعدّ مساساً بها، ويتشكّل هذان القسمان -بدورهما- من تركيبات أيضاً.

1-2-1- التركيب الاجتماعي الحضري في المدن: إنَّ الاطِّلاع على مصادر متابعة الديموغرافيا

المنجزة خلال فترة "أوائل القرن الثالث عشر الهجري (مطلع القرن التاسع عشر الميلاديّ) تسمح لنا - تجاوزاً وفي حدود التّرجيح فقط- القول بأنَّ سكّان البلاد الجزائريّة يقدّرون بين: 3 500 000 نسمة و 4 000 000¹ نسمة، وهي المصادر التي تذهب إلى أنَّ التّشكيل البشريّ الحضريّ من مجموع السكّان في العهد التّركيّ يمثّل ما نسبته من 5% إلى 10% من مجموع السكّان، وهو ما يعني أننا أمام ساكنة حضرية تقدر بنحو 350 000 إلى 400 000 نسمة يمثّل الأتراك منها نحو 20 000 نسمة هي الطبقة الحاكمة، وتتكوّن من أعيان المدن وأصحاب قراراتها وإدارة أموالها، وذوي النفوذ فيها، وقد شكّل الأندلسيون المهجّرون فيها اختياراً منفعياً للأتراك، مستفيدين من المستوى العلميّ والفنيّ والعمرانيّ والحرفيّ، فجاوروا المدن القريبة من الجزائر العاصمة، والموانئ النّشطة ذات الامتداد التاريخي اللّامع وتركز حضورهم في الجزائر العاصمة وشرشال والبليدة، والقلعة وبجاية وتلمسان.

ولم يلبث هذا الحضور الأندلسيّ أن تقلّص لصالح الطائفة اليهوديّة التي عرفت طريق التّسلّق والوصول، وقد بلغ تأثيرهم ذروته نهاية القرن (18) وبداية (19) حتّى أصبح اليهوديّان: يوسف بكري ونفتال بوشناق يمثّلان حكومة الدّاي الخفيّة، وأصبح بوشناق حاكماً فعلياً للجزائر يُحدّد الضّرائب ويُسرّع الأسواق، ما "جعل قنصل إسبانيا يُطلق عليه نائب ملك الجزائر"² وقد كان ذلك نتيجة امتدادٍ يهوديّ طويلٍ من طريق ممارسة تجارة المعادن الثّمينة، والتّعامل بالرّبا، واستغلال أزمات الجزائر الاقتصاديّة والمجاعات، واتباعهم نظام الولاء للفكرة اليهوديّة داخل أيّ جماعة بشريّة، ممّا مكّنهم من حماية المجموعة، واستثمار رؤوس أموال منتسبها.

لقد كان الولاء اليهوديّ العقديّ للفكرة اليهوديّة، واستعمالهم الطّليق للغة العربيّة، وسيلة مكّنهم من التّموّع اجتماعيّاً في الوسط الجزائريّ، دون أنْ تعترض مسيرتهم الطّموحة مشكلات كبيرة، كما مكّنهم

¹- ناصر الدّين سعيدوني، الأوضاع الاقتصاديّة والاجتماعيّة والثّقافيّة لولايات المغرب العثمانيّة، د ط. الكويت: 1431هـ- 2010م، مجلس النّشر العلميّ بجامعة الكويت، رسالة 318، حوليّة 31، ص51.

²- حنفي هلايلي، أوراق جزائريّة، ص19.

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملابسات التأسيس

ذلك من استغلال دور الوساطة بين السلطة التُركيَّة المنغلقة على تُركيَّتها، وبين المتعاملين الأجانب مع الجزائر، وهو الدَّور الذي لعبه بحنكةٍ ودهاءٍ بكري وبوشناق.

1-2-2- خصويَّة التركيبة الاجتماعيَّة للعاصمة الجزائريَّة: أشار الرَّحالة الألماني هابنسترايت

في رحلته الشَّهيرة إلى شمال أفريقيا، بقوله: "وبالإضافة إلى الحضر من سكَّان مدينة الجزائر الذين يخضعون بمحض إرادتهم لنير الحكم التُّركي، فإنَّ مدينة الجزائر مأهولةٌ بعدد كبير من اليهود"¹ وهي الطَّائفة التي أشار مؤرِّخ جزائريٌّ إلى ثقلها الاقتصاديِّ والسياسيِّ المسند بالكثافة السَّكَّانيَّة بقوله: "يؤلَّف اليهود بمدينة الجزائر إحدى الطَّوائف المهمَّة لكثرتهم، ولتحكُّمهم في النِّشاط التجاري فقد قُدِّر عدد اليهود بها ما بين 7000 و8000 نسمة"² وتلك شهادة على الواقع الاجتماعيِّ السَّائد في عاصمة الجزائر التي كانت الوجه الظَّاهر للولاية التُّركيَّة، وملتقى الوافدين إليها من كلِّ الجهات، وإشارة إلى الانكماش القسريِّ لحضور أهل البلد، واتِّساع الحضور السَّكَّانيِّ اليهوديِّ، وقد أظهرت أحداث بداية القرن (19) أنَّ ذلك مؤشِّر واضحٌ على حضورٍ سياسيٍّ واقتصاديٍّ قويٍّ.

عند الحديث عن الجزائر العاصمة في العهد التُّركيِّ فإنَّنا نتحدَّث عن إقليم مدينةٍ تمتدُّ شرقاً إلى منطقة دليّس، وتتَّجه غرباً إلى حدود منطقة شرشال، لثلامس الأطلس البليدي جنوباً. ومنطقة جغرافيَّة بهذا الاتِّساع، وبسندٍ تاريخيٍّ كبير، وموقعٍ جغرافيٍّ مغرٍ، وتركيبيةٍ سَّكَّانيَّةٍ متنوّعة، سيجعل منها "مدينة دوليَّة (أو كوزمو بوليتان)... وأنَّ سكَّانها كانوا من مختلف الأجناس، بالإضافة إلى أهلها الأصليين وكان فيها أيضاً مختلف الأديان واللُّغات، وكانت مفتوحةً للتَّيارات الخارجيّة إلى حدٍّ كبير"³ وتلك خصوصياتٌ لم تكن عليها المُدن الجزائريَّة الأخرى، وحتَّى المُدن السَّاحليَّة التي كانت مفتوحة على التَّجارة البحريَّة الدوليَّة، لم يبلغ بها التَّنوع السَّكَّانيُّ ما بلغته العاصمة.

لم يقتصر الحضور اليهوديِّ على مستوى العاصمة فقط، بل كان لهم حضور في مدنٍ جزائريَّة عديدة منها تلمسان ووهران والبليدة وقسنطينة ومعسكر ومستغانم والمديَّة وبجاية وتيزي- وزو ومنطقة ميزاب وهو وإن لم يَرَق إلى حضور العاصمة وقوَّته؛ ولكنَّه كان حضوراً فاعلاً في كلِّ بيئةٍ من هذه البيئات.

¹ ناصر الدِّين سعيديوني، تعليقا على: هابنسترايت، رحلة العالم الألماني ج. أو. هابنسترايت (هامش) ص33.

² ناصر الدِّين سعيديوني، تعليقا على: هابنسترايت، رحلة العالم الألماني ج. أو. هابنسترايت (هامش) ص33.

³ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ط خ. الجزائر: 2011م، عالم المعرفة، ج1، ص172.

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملازمات التأسيس

ويأتي في الصف الثاني من نماذج التركيبة الاجتماعية مدنٌ وحواضر جزائرية أخرى، وقد انحسر إلى حدٍّ ما دورها العلمي والفكري، مقابل صعود مدنٍ أخرى مُسَعَّفة بمواقعها العسكرية الاستراتيجية فتراجَع دورٌ بجاية العلمي والاجتماعي، لتُصبح ميناء تجاريًا وعسكريًا، وتهاوت منزلة تلمسان التاريخية أمام تربُّص الإسبان على واجهة البحر، وأطماع الأتراك في استكمال استرجاع سواحل المغرب الإسلامي، وتأمين الجبهة الغربية للإمبراطورية المتهاكمة.

ومنها مدنٌ استكملت دورها المألوف تاريخيًا كعنّابة ووهران وقسنطينة، ومنها ما كان للسلطة التركية -وبفعل مؤثرات مختلفة- دورٌ في ظهورها من جديد، وتحولها إلى مدن ذات شهرة حسب الأدوار التي قامت بها، كمازونة ومعسكر ومستغانم والمسيلة وتبسة وعين ماضي وورقلة.

1-2-3- التركيبة الاجتماعية الغالبة للمدينة الجزائرية في العهد التركي الأخير: خلافا لما

كانت عليه العاصمة من خصوصية سكانية ومهنية، فإنّ المدن الجزائرية كانت فضاءً استقبل تصنيفات اجتماعية أملاها واقع الحكم التركي، وعرفت تركيبها السكانية التقسيم الآتي:

• **الحضر:** مثلهم في كلّ مدينة ساكنتها الأصليون، وما نزل من نازحة البلاد الأخرى، يتصدّروهم الأندلسيون والمورسيكيون الذين أسهموا في إضفاء طابع أندلسي على مدن كالجائر العاصمة، ومنطقة شرشال، وتلمسان، وقد طابت للأتراك عشرتهم، واستأنس بهم الجزائريون في المدن التي نزلوا بها وشكّلوا النواة السكانية لمدينهم، محتفظين بكثير من تقاليد المدينة، ومستفيدين قبل غيرهم من بعض الامتيازات الاقتصادية والاجتماعية، وحتى السياسية البسيطة المسموح بها كالتمثيل في إطار الأعيان المحليين أو نيل الوظائف المحلية كالفتوى والقضاء والإمامة، ورعاية شؤون الأسواق، وما أشبه ذلك.

• **البراني:** تسمية عامية أُطلقت على الجماعات النازحة إلى المدن من البيئات الريفية المختلفة نزوحاً مؤقتاً ومضطرباً في حركة غدوّ ورواح، بغرض غالباً ما يكون العمل وكسب الرزق، وتلك حركة أسهمت في صعود ظاهرة أخذ التصنيف الاجتماعي فيها أبعاداً مهنيةً وجهويةً جديرةً بالاهتمام، وقد وُجدت في المدن الجزائرية المختلفة وبأشكال تقلّ وتكثر، يعتبرهم الحضر فيها "أجانب بسبب انغلاقهم ضمن مجموعات، وعدم اندماجهم بشكلٍ عمليٍّ في حياة المجتمع"¹ ولعلّ أوضح صورها ما كانت عليه الجزائر العاصمة التي يُعدّ استعراضها نموذجاً يصرّ طبيعة التشكيل الحضري في ذاته وفي علاقته بالتشكيلات المجتمعية الريفية.

¹ - حنيفة هلايلي، أوراق جزائرية، ص 168.

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملايسات التأسيس

يعكس هذه الظاهرة انتقال أعدادٍ معتبرة من سگان الصّواحي إلى المدينة، فيستقرون بها استقراراً غالباً، يلاحقهم فيها لفظُ البرّاني ولو لبثوا سنين، وقد يكون استقرارهم فيها مؤقتاً، ويمثّل صورته النموذجُ العاصميّ في العهد التّركيّ الأخير الذي تتساكن فيه طبقتان:

يمثّل الطبقة الأولى مجتمعَ حضريّ تكوّنه كتلةٌ تركيّةٌ مركزيّةٌ كبيرة، وتشكيلٌ عرقيّ مختلفٌ يدين لهم بالولاء، يقوم على شأن السّلطة، ومهاجرون أندلسيّون، وطائفة يهوديّة، وساكنة العاصمة الأصليين وتقابل ذلك طبقةٌ كبيرة من (البرّانيّين) تتشكّل كما يلي:

الميزابيّون: يحترفون نشاطاً تجاريّاً متنوّعاً كالجزارة، ورحي الحبوب، وإدارة أفران الخبز.

السكريّون والأغواطيّون: يمثّلون تشكيلاً واحداً، وهم عمّال النظافة والسّقاية وحفر الآبار وتنظيف الأفران، والحراسة الليليّة.

القبائل: تحت تأثير عدم رضی الأتراك عليهم بسبب ثوراتهم الدائمة، توجّهوا إلى مهن أقلّ احتكاكاً بالسّاكنة كالبناى والزّراعة.

الجيجليّون: بقي وفأؤهم قائماً لخدمة الغزو البحريّ منذ عهد عروج، ونافس بعضهم الميزابيين على نشاط المخابز.

يعكس هذا العرضُ نموذجاً متكرّراً في المُدن الجزائريّة على فروق في العدد والمهن، ولكنّه يتفق في إثبات تصنيفٍ اجتماعيّ برّر العلاقة بين الحضر والرّيف، وأنتج في المجتمع تكتّلات محكومة بالاشتراك في الوظائف والمهن، ومحتمياً بولاء جهويّ ضدّ الأحكام الصّامته الصّادرة من أهل الحضر. **الدُّخلاء:** صنفٌ آخر من التّشكيل السّكانيّ الجزائريّ أفرزته طبيعة الحكم التّركيّ في الجزائر ويشكّله الأعلّاج وهم الأسرى المسيحيّون واليهود والرّنوج المجلوبون قسراً، أو النّازحون اختياراً من السّاحل الإفريقيّ، وأشارت الإحصائيّات حولهم إلى وجود ما بين 30 000 و 35 000 منهم، وهو عددٌ ليس باليسير، ومنهم من يشتغل في الضّياغ حول مدينة الجزائر، كما اشتغل بعضهم في التّجديف على السّفن، أو في أشغال السّجون.

ولئن نُظر لهذا التّشكيل على أنّ ليس له شيء من التّأثير على المجتمع، فإنّه لا يمكن صرف النّظر عن تأثيراتهم السلوكيّة، واللّسانيّة، فقد كانوا بحكم وظائفهم وموقعهم من المجتمع طرفاً في تصنيع واقع من المعاملات، والإسهام في إثراء المعجم الجزائريّ العامّ بما ينتجونه من تواصل كلاميّ يوميّ وعلى فترات طويلة.

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملابسات التأسيس

1-2-4- التشكيلات السكانية الريفية الجزائرية في العهد التركي الأخير: احتفظ التشكيل الريفي

الجزائري طيلة العهد التركي بنظامه القبلي، متحدّيا بذلك كلّ محاولات التتريك التي استهدفت إعادة تنظيمه، وصمد الولاء للذهنية القبلية حتّى لدى التجمّعات الريفية التي انتقلت بالجملة إلى حواضر مجاورة تحت تأثير الظروف المختلفة، كالمجاعات والحروب، إذ بقيت محافظةً على اجتماعها داخل تلك الحواضر، وقد أسهم في ترسيخ ذلك السلوك عقود طويلة من التصنيف الريفي الذي أصبح معيارا لا يمكن الخلاص من التزاماته الدينية والأخلاقية والاجتماعية، والتي تتداخل في حالات كثيرة مع الظروف الاقتصادية كملكية الأرض، ووسائل الإنتاج، والنشاط الزراعي والتجاري، أو الولاء الديني لطريقة أو زاوية، أو الانخراط ضمن اختيار سياسي معيّن يحكم العلاقة بين هذه التشكيلات الريفية والسلطة التركية العامة سلبا أو إيجابا.

وقد عرّف التصنيف الريفي الجزائري لهذا العهد ثلاثة أشكالٍ كبرى تمثّلت في:

• **الأجواد:** وهم نبلاء بسطوا نفوذهم بشكلٍ ما على مناطق جغرافية تتمدّد حيناً وتتقلّص أحيانا، قد ساعدها البعد النسبي عن منطقة السلطة المركزية في العاصمة، ولم يكن للأتراك من سبيل إلا الاعتراف لهم بنفوذهم على ما تحت أيديهم، فلم تكن لهم سلطة عليهم، وغاية ما أمكنهم عليهم هو الحدّ من تمدّدهم، بإثارة نزاعات جوارية تلهيهم إلى حين، وحصر دائرة سطوتهم في مناطق محدودة مع الإبقاء عليها معزولة ما أمكن، ومن هؤلاء نبلاء الدّواودة والحنانشة، بالشرق الجزائري، وأولاد بن عاشور بناحية فرجيوّة قرب قسنطينة، وقد احتفظ هؤلاء بالنّظيم السائد داخل قبائلهم، فلم يكن لهم من تأثّر بالحياة التركية ولا بمظاهرها.

• **المرابطون:** مجموعة من العائلات قدرتها بعض المصادر بنحو (115) عائلة، اكتسبت مواقعها قبل مجيئ الأتراك وبعد مجيئهم، فقد لقيت هذه العائلات الحظوة لدى الحاكم والمحكوم، بما اكتسبته من نفوذ اجتماعي واقتصادي واسع، برّره التمثيل الديني بشكلٍ من الأشكال، لكنّ العهد التركي الأخير شهد انقلابا خطيرا في العلاقة بين عائلات المُرابطين الممثلة لطرق صوفيّة في أحيان كثيرة، وبين السلطة الحاكمة بفعل التجاوزات الخطيرة والمتكرّرة التي مارستها جهاتٌ محسوبة على السلطة، وقد أخذت شكل جماعات مسلّحة، وهو الأمر الذي أدركه حمدان خوجة ونقله في مرآته "صارت تلك الميليشيا المسلّحة

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملابسات التأسيس

التي لا مبدأ لها، صارت ترتكب المخالفات ضدّ البدو والقبائل. ثمّ قام هؤلاء البؤساء بإشعال الثّورات¹ بل بلغ الأمر أن قادت بعض عائلات المرابطين، وشيوخ الطّرق ثورات ضدّ السّلطة التّركيّة كما فعلت الدّرقاويّة والتّيجانيّة بالغرب الجزائريّ.

• **قبائل المخزن:** هي تشكيلات سكانيّة ريفيّة أخذت شكل قبائل، دانت للأتراك بالمسالمة والعون مقابل منح الأتراك امتيازات ومنافع بشكلٍ ما، وهم رصيّد السّلطة في الحروب التّأديبيّة الدّاخلية، ويدها على العديد من التّنظيمات السّكانيّة الأخرى، وبقيت هذه التّنظيمات على ذلك حتّى أدركها الاحتلال الفرنسيّ، فعرضت خدمايتها مقابل الإبقاء على الامتيازات التي كانت لهم على عهد الأتراك.

1-3- الموقع الاجتماعيّ لكتلة الكراغلة: تعدّ هذه الفئة مجال تلاقى العرقين التّركيّ والجزائريّ فهم أبناء أتراكٍ لأُمّهات جزائريّات، وقد اتّخذت منهم السّلطة التّركيّة موقفا إقصائيّا صارما، لم تسمح لهم فيه بتقلّد المناصب المُفضّية إلى طمعهم في السّلطة، باعتبار أنّ طموحهم إليها له ما يبرّره من جهة أُمّهاتهم، وهم الذين سيلقون التأييد الجزائريّ بحكم هذه الخلفيّة، وقد كان لهذا التّشكيل أدوار سياسيّة وعسكريّة، وما يهمّ الأطروحة منه، هو الأثر الاجتماعيّ واللّسانيّ الذي تركته هذه الفئة.

تتوسّط فئة الكراغلة للطّبقة الحاكمة لدى الأهالي، من خلال أداء أدوار الحضور المهاب أثناء جمع الصّرائب، أو تقديم الدُّنوش، أو تأديب الرّافضين للسّلطة التّركيّة، وهي وساطة يبدو أنّ السّلطة كانت تتحقّق عليها بسبب انتساب الكراغلة من جهة الأمومة، فأبدت احترازها الشّديد من تقديمهم، وقد كانت نظرة السّلطة إليهم على أنّهم نتاج اجتماعيّ أدنى منهم مرتبة، لكنّ إحساس الكراغلة بنوع من الانتماء الاجتماعيّ وإن كان وضعيا في نظر السّلطة؛ قد بعث فيهم روح التّكتّل وقد بلغ عددهم نهاية القرن (18) نحو (6 000) كراغليّ مورّعين في مختلف المُدن الجزائريّة "وبناء على هذا الاحتراز من الكراغلة ... وضع الأتراك ثقّتهم في اليهود لأنّهم لا يخشون منهم الاستيلاء على الحكم، وأقام سكّان الجزائر من جهتهم حاجزا بينهم وبين الأتراك، وأبدوا تحفّظا شديدا² وقد أخذت الهوة الموجودة بين السّلطة والرّعيّة الجزائريّة تزداد اتّساعا، عقب الممارسات التي صارت تصدر من السّلطات التّركيّة وأعوانها الذين كانوا عينها ويدها في سائر البلاد.

¹ حمدان بن عثمان خوجة، المرأة، تح: محمّد العربي الزّبيريّ، د ط. الجزائر: 2006م، المؤسّسة الوطنيّة للفنون المطبعيّة ص111.

² حمدان بن عثمان خوجة، المرأة، ص120.

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملابسات التأسيس

لقد كان للعدد المعتبر من الوافدين الأتراك بتركيباتهم المختلفة، وانتظامهم في إطار خليط بشريّ شكّل غالبية العنصر التركيّ، ولمواقعهم الاجتماعية الفاعلة آثار لسانية بلغت حدًا أصبح فيه الوجود التركيّ الخليط مكونًا لغويًا موازيًا للوجود العربيّ بتنوّعاته ومستوياته، ولا يخفى بعد هذا ما سيخلفه هذا الوضع من أثرٍ على الأداء اللسانيّ الرسميّ والشعبيّ.

وبهذا الاستعراض المختصر للواقع الاجتماعيّ في حواضر الجزائر إبّان العهد التركيّ الأخير، ندرك مدى التأثير الذي كانت المدن والحواضر -خاصة- فضاء له، بحكم طبيعة المواقع الاجتماعية والنقل السياسيّ والاجتماعيّ الذي كان عليه كلّ من له بالسلطة التركيّة أقلّ تمثيل.

لقد قابل هذا التنوّع السكانيّ المشفوع بتنوّع لسانيّ اجتمعت فيه الكتلة التركيّة بجميع مكوناتها ومواقعها الاجتماعية والجغرافية، تنوع لسانيّ جزائريّ تاريخيّ تجاوزت فيه أداءات وطنية عديدة لم يبلغ حدًا يجعل منه تقاربًا بين فصائل لغويّة متباعدة؛ بل كان يرجع في الغالب إلى أرومة لغويّة واحدة حسب رأي كثير من الدارسين، غير أنّ اللسان العربيّ المستند إلى الدين الإسلاميّ والقرآن الكريم، كان بمثابة اللسان الجامع الذي أذاب تلك الحواجز اللسانية من خلال تنوّع متعايش تكفّل فيه اللسان العربيّ الجامع بتحقيق وحدة لسانية وسعت الجميع، ولا مزية فيه لعرق على آخر، في ما احتفظت كلّ مجموعة لسانية بما أمكنها من أدائها الأصلية في الأوساط الاجتماعية المحليّة، واستخدمتها وسيلة للقيام بأدوار ثانويّة، ولكنها هامة في المجتمع.

وإذا أمكن ملاحظة شيءٍ ممّا يتعلّق بطبيعة التنوّع اللسانيّ التاريخيّ في الجزائر وموقعه، وأثر التحوّلات السكانية الكبرى فيه؛ فإنّه لا مناص من الالتفات إلى موقع اللغة العربيّة الوافدة مع الدين الجديد، حين تبوّأت بعد فترة المركز الأوّل، فأضحت اللغة الرسميّة الأولى للحكّام والمحكومين، في إطار عامّ يجمعها مع كلّ البلاد العربيّة وغير العربيّة التي دخلها الإسلام، وهو الإطار الذي بقي فيه الوضع على ما هو عليه عند الهجرة الهلاليّة، والنزوح الأندلسيّ، باعتبار أنّ الأقاليم الإسلامية كلّها كانت مدينة للإسلام والقرآن ولغة القرآن، غير أنّ العهد التركيّ قد لقيت العربيّة فيه الإزاحة الصريحة من مجالس الحكم، ودواليب الإدارة، فارتضى لها الحكّام الأتراك اشتغالها بشؤون الرعيّة وأحوالها، بينما خلفتها التركيّة لغة لإدارة الحكم وشؤون دواوينه.

وإضافة إلى المستوى الثقافيّ المتواضع للمسؤولين الأتراك، وطبيعة التركيبة البشريّة التركيّة التي لم تكن لغتها تركيّة خالصة موحدة للوافدين الأتراك، بل كانت تركيّة تتلاغى فيها العديد من اللغات الأوربيّة

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملايسات التأسيس

الأخرى، بحكم أنها اللغة الأم لكثير من ذوي المناصب في الدولة، فقد وجدت اللغة العربية في المجالس الرسمية وسجلاتها، وإدارة أمور التجارة؛ زحاما فوقيًا انتعش بتوجه الدولة العام، ومنافسة شعبية من بعض الأداءات المحلية على صعيد شعبي معقد ومتداخل.

وفي إطار الوضع اللساني والاجتماعي، وارتباطهما معا بالواقع الثقافي خاصة، وبالوقوف على النشاط العام للتشكيل البشري الجزائري، يمكن اكتشاف العلاقة بين هذه الجبهات، وأثار ذلك على الوضع اللغوي الذي عكس تنوع التشكيل الاجتماعي في مشهد التداخل اللغوي، ذلك أن موقع الحاضرة ونشاطها العام يستتبع آثارا على اللغة، كما أن المقياس اللغوي سيكون أداة فاعلة في تصنيف البناء الفكري والثقافي، وأن الوقوف على هذا الواقع سيكون سبيلا إلى فهم خلفيات كثير من الوقائع والظواهر اللغوية اللاحقة، فكثيرا ما تجد الباحث يعالج جذور أساليب مستعملة، أو كلمات سائرة، أو يبحث في طرود إبدال، أو حلول قلب، أو غير ذلك من مظاهر تبدو في ظاهرها لغوية، ولكنها نتائج تفاعل مجتمعي في فترة ما، مضى زمنه واحتفظت اللغة السائرة بنتائج تأثيره.

وستتم مقارنة الوضع اللساني الجزائري إبّان العهد التركي الأخير في ضوء المقولات اللسانية الحديثة عند مقارنة البعد اللساني لحركة الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن (20) في الفصل (03) باعتبارها حركة لا يمكنها إقصاء الفترة التركية مع بعد عهدها.

2- الواقع اللغوي في الجزائر نهاية العهد التركي

قد يكون الوفاء بوصف الوضع اللغوي في الجزائر في هذه الفترة -وصفا دقيقا- ممتعا لتشعب مظاهره وتعدد مستوياته، ولذلك سيعمد هذا المبحث إلى استعراض أبرز المحطات التي يعتمدها اللسانيون معايير لتقييم الأوضاع اللغوية في بيئة ما، بمتابعة الآثار التي تركتها الممارسات التركية إزاء اللغة العربية، والتي كان لها انعكاس مباشر على الوضع والتمن اللغويين.

2-1- اختلال الوضع واهتزاز المتن: ظهر بارزا الإقرار التركي الضمني العام بمكانة اللغة العربية

في الديار الإسلامية، ولكن تعاملهم معها كلغة دين دان الناس لهم بسببه، ولغة كتاب رضي الناس بكثير من تجاوزاتهم بسبب تبنيهم له، لم تكن لديهم بذات الخطوة، ذلك أن "الدولة التركية كانت عجمية اللسان، لا تفقه شيئا مما يُنشد الشعراء، أو يتصّح به الخطباء، فهي لا تهتم إلاّ برجال الحرب"¹ وقد

¹ - محمد بن ميمون الجزائري، الثخفة المرضية، ص56.

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملايسات التأسيس

وفد الحكّام العثمانيون من خارج الجزائر، ولم يكن من بينهم من نشأ في الجزائر أو تربّى بين أهلها، أو تلقّى لغتهم وعاداتهم، وهم إلى ذلك لم يكلّفوا أنفسهم همّ تعلّم اللغة العربيّة درساً، ولا عملوا على الاختلاط بالشعوب التي يحكمونها فيتعلّموا لغاتهم، ولو على سبيل ضمان حدّ من التّواصل "فلا يُعرَف عن الحكّام الأتراك أنّهم كانوا يُتقنون العربيّة العاميّة، فما بالك بالعربيّة الأدبيّة¹" وإن وُجد في هذا استثناء عند القادة الكراغلة، كمحمّد الكبير باي معسكر، والحاج أحمد باي قسنطينة وآخرين غيرهم، فإنّ قلتهم لم يكن لها تأثير يُذكر على التّوجّه اللّغويّ العام للدولة التّركيّة، سواء على الصّعيد الشّعبيّ، أم على الصّعيد المركزيّ، وممّا يُذكر في هذا، عزم السّultan عبد الحميد الثّاني (1876-1909م) -حسبما جاء في مذكراته- على اتّخاذ اللغة العربيّة لغةً رسميّة للدولة العثمانيّة، وأبدى أسفّه على عزوف أسلافه عن ذلك، ومع أنّ هذه الرّغبة قد جاءت متأخّرة كثيراً، فقد لقيت معارضة سعيد باشا كبير أمناء القصر متذرعاً بقوله: "إذا عرّينا الدّولة، فلن يبقى للعنصر التّركيّ شيء بعد ذلك"² وقد يبدو هذا الموقف فردياً ولكنّه يُعبّر عن رؤية تمدّدت في جنبات الإمبراطوريّة كلّها، وخاصّةً في عهدها الأخير، حين أصبحت إدارة المناصب العليا -في مستويات الدّولة كلّها- لا تُشترط لها الكفاءة والمعرفة، بقدر ما يُطلَب لها الحضور العسكريّ وصرامة السّلطة، فتولّى الوظائف الجليّة حكامٌ لم يكن مستواهم العلميّ بأحسن حظّاً من مستواهم الدّينيّ، فالعلم كان في وقتهم من شؤون المجتمع، وليس من شؤون الحكومة³ ولعلّ هذا أحد أهمّ الأسباب التي كانت وراء تحوّل مسار الإمبراطوريّة التي بدأت عثمانيّة تحت مسمّى الخلافة فمرّت بما تمرّ به الدّولُ نشأةً واستواءً، وقد أخذت بأسباب ذلك، ولكنّها حُرمت استمرار الدّولة، وفقدت القدرة على توجيه رعاياها توجيهها يحفظ بقاء الإمبراطوريّة "بيد أنّ عظمة التّرك لم تكن في غير الحرب فالتّرك، وإن استطاعوا أنّ يؤسّسوا دولةً كبيرة، أثبتوا عجزهم عن إبداع حضارة في كلّ زمن"⁴ والفرق كبير جدّاً بين تأسيس دولةٍ تلبث عمراً يطول أو يقصر، وبين بناء حضارة قد تسقط في مرحلة ما، ولكنّ ذكرها سيبقى من بعدها قائماً.

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافيّ، ج1، ص144.

² - علي محمّد الصّلاحيّ، السّultan عبد الحميد الثّاني وفكرة الجامعة الإسلاميّة وأسباب زوال الخلافة العثمانيّة، ط1. القاهرة:

1423هـ - 2002م، دار اليقين للنّشر والتّوزيع، ص45.

³ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافيّ، ج1، ص192.

⁴ - غوستاف لوبون، حضارة العرب، تر: عادل زعيتر، د ط. القاهرة: د ت، مؤسّسة هنداوي للتّعليم والثّقافة، ص610.

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملابسات التأسيس

2-2- موقف السلطة التركية إزاء الثقافة العامة واللغة العربية في الجزائر: لا شك أنه قد كان

للتناقض الذي أعلن فيه العثمانيون عن حكمهم للمسلمين باسم الإسلام، وتخليهم عن لغة الإسلام التي كانت اللغة الأولى للحضارة التي ورثوها عن سالفهم ثمناً باهضاً، إذ سيلزمهم الكثير من الوقت والجهد حتى يتمكنوا للغة التركية، فتصبح بديلاً رسمياً عن اللغة العربية، ولما تعدد ذلك واجهت اللغة العربية مضايقات الموقف الرسمي التركي، فانحسرت دائرة عطائها ونمائها، وعجزت اللغة التركية عن مسايرة سلطة الدولة وانتشارها القوي والمتسارع، وأضحى الواقع اللغوي العام إبان العهد التركي مشهدين: مشهد شعبي واسع تغلغل اللغة العربية في جملة من ميادينه، ومشهد رسمي أثر اللغة التركية بوصفها العنوان الأظهر لهوية الإمبراطورية، ولم يكن الأمر في هذا حصراً على إقليم دون آخر، بل كانت صفة شائعة في كل الأقاليم، ومنها الجزائر.

2-3- التوجه الصوفي للعثمانيين وأثره على اللغة: اصطبغت الوجهة الدينية العامة للعثمانيين

بمختلف مكوناتهم العرقية بعقائد صوفية أطرتها وظائف الطريقة البكداشية التي ظهرت في القرن (07) الهجري وبلغت أوجها في القرن (10) مستندة إلى رعاية الدولة لها، إضافة إلى الطريقة المولوية التي نشأت في الظروف نفسها ولقيت الاهتمام نفسه، وبلغ من شأن البكداشية أن أصبحت تسيطر على عقيدة الانكشارية، ومن ثم توثقت العلاقة بين العسكري والطريقي، فلما قدم العثمانيون إلى الجزائر كان الوضع مشابهاً، فقد كانت القادرية والشاذلية والنيجانية والدرقاوية قد اكتسحت غرب الجزائر، بينما استأثرت الرحمانية والحنصالية والشائبة بشرقها، ولم يكن غريباً -عندئذ- تحالف الوافدين الأتراك مع شيوخ هذه الطرق، مادام أمراً مألوفاً في تركيا أو في الجزائر أو في معظم بلاد العالم الإسلامي.

وقد كان لهذه السياسة الدينية أثرٌ على الحركة العلمية عموماً، وعلى العلوم اللغوية خاصة، ذلك أن "المدرسة الصوفية باعتمادها على القلب والحدس؛ قللت من شأن الجوارح والحواس، والتحليل والتركيب والاستنتاج والاستقراء، والقياس والتجريب، كما اتخذت موقفاً سلبياً من الفلسفة والتفلسف ورفضت المنطق والمنطق¹" وحركة هذا شأنها ستجعل أتباعها وأنصارها ملزمين بأوراد لا يُغادرونها وتراتيل لا يبرحونها فهي حركة جاذبة انعزالية، وبذلك أضحى منهجها التعليمي بعيداً عن النظر العلمي الحر، أو التحليل والمناقشة أو المناظرة، وهي الإجراءات التي تزدهر في كنفها العلوم كلها وعلوم اللغة إحداها.

¹ - إبراهيم بوترة، التربية والتعليم بين الأمس واليوم خصائص التعليم في الجزائر وتطور الفكر التربوي، د. ط. الجزائر: 1435هـ - 2014م، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، ص 136.

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملابسات التأسيس

ورغم ما لاقت اللغة العربية في الجزائر من الإبعاد التركي على الصعيد الرسمي، والعجز عن الارتقاء والتطور على الصعيد الشعبي؛ فقد بقيت محافظة على العديد من المواقع التي حصلت لها منذ نزولها مع الإسلام والقرآن في هذه الديار، وقد كان سندها في ذلك عقيدة بررت صمودها ولكن ليس على كل المستويات، ف "قوة الثبات في المفهوم الذهني الإسلامي، جعلت البنى اللغوية بحكم ارتباطها بمكوناته عن طريق القرآن والحديث - ثابتة، بينما صيرت القوى التعبيرية قوى توليدية"¹ وهذه إحدى المضايقات الفعلية للغة العربية، فقد كانت فترة ما بعد سقوط بغداد بداية اتساع الهوة بين الوجود اللغوي الفعلي في ميادين الحياة المختلفة، ثم زادها عصر المماليك والأتراك من بعدهم اتساعا، حتى حدثت شروخ أضحت من آثارها حضور اللغة العربية في الضمير الجمعي العربي والإسلامي وغيابه أو مضايقته في الواقع. لقد كانت الطبيعة العسكرية للدولة التركية، والعصبية للمكون التركي، والتوجه الديني الصوفي أسبابا مباشرة في عجز اللغة العربية عن مسايرة الحضارة، وتعطيلا لطاقتها الذاتية لمدة طويلة، يقابل ذلك يقظة عربية فكرية وعلمية وصناعية زاحفة، وهو الأمر الذي لم تستوعبه السلطات التركية، ولم توطن نفسها على مسابقتها وإجادة التعامل معه.

2-4- واقع تعليم اللغة العربية في الجزائر إبان العهد التركي الأخير: لما كان السبب الرئيس لقيام الحكم التركي في الجزائر امتدادا سياسيا تحت مسمى الخلافة، واستراتيجية عسكرية تستهدف حماية حوزة الإمبراطورية؛ فقد صارت الجوانب الثقافية عامة، والجانب التعليمي منها خاصة غير ذي أولوية؛ فتوجه الدولة لم يكن على أساس من التفكير في ترقية التعليم؛ بل كان على أسس أخرى قام عليها الحكم، وعليها سيبقى، وأول هذه الأسس، هو دعم الجانب العسكري، وإحكام أمر الدولة بتولية الموالين للباب العالي من الأتراك، وما كان من غالب مظاهر التعليم في الجزائر لهذا العهد، لا مزية للدولة في القيام عليه، بل كان يعتمد الأوقاف موردا لم يسلم من مصادرة بعض الأتراك له، فكان تجفيفا جزئيا لموارد الإنفاق على التعليم العربي والشرعي في الجزائر، وهي الخطوة التي لم تكن وبالا على هذا التعليم فحسب؛ بل كانت عقبة واجهت المعلمين حين هددوا في أرزاقهم، وصودرت مواقفهم فهاجر الكثير منهم، وضيق على من بقي منهم.

¹ - منذر عياشي، قضايا لسانية وحضارية، ط1. دمشق: 1991م، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ص50.

الفصل التمهيدى: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملابسات التأسيس

ينقل العياشي في رحلته دخوله مسجد بسكرة يقول: "ولمّا دخلت مسجدها لم أجد قارئاً، ولا مدرّساً سوى رجلاً واحداً يقرأ لوحه -وهو ملقى أمامه- يقرأه على غير أدب ولا استقامة"¹ ولئن كانت العناية بالجانب العسكريّ أولويّةً في بعض الفترات؛ واستمرارها ضرورة من الضّرورات؛ فإنّ الاكتفاء بالاعتماد الكلّي والدائم على ذلك، وإهمال جوانب التّكوين المعرفيّ والثّقافيّ للأمة، صار بعد مدّة وبالا على الإمبراطوريّة كلّها، وبالا مضاعفاً على الأقاليم الإسلاميّة بالتّبع.

وممّا جاء في تقييم السّياسة التّعليميّة التّركيّة في الجزائر أنّه "لم يكن للسلطة العثمانيّة في الجزائر سياسة للتّعليم، ولعلّ الصّحيح في هذا الصّد أن نقول: إنّ كان لهذه السّلطة سياسة وهي: عدم التّدخل في شؤون التّعليم"² ومن هنا جاءت الجوانب الاجتماعيّة والثّقافيّة للمجتمع في حكم النّتيجة للوضع الغالب، والتي من مظاهرها ما تتفق عليه الرّاسات التي تابعت مسألة التّعليم خلال هذه الفترة، من أنّه لم تكن هناك منظومة تعليميّة وطنيّة واضحة وموحّدة، ولا برامج تعليميّة مُسطّرة و"لم يكن في الحكومة الجزائريّة عندئذ وزيرٌ لشؤون التّعليم، ولا مديرٌ أو وكيلٌ أو نحو ذلك من الوظائف الرّسميّة"³ وإذا كان هذا بعض ما قيل في شأن السّياسة التّعليميّة، فإنّ الحديث بعد ذلك عن المناهج التّعليميّة والمقرّرات والهاكل يُعدّ عبثاً، فطيلة العهد التّركيّ في الجزائر لم يؤلّف في مناهج التّعليم شيء سوى (جامع جوامع الاختصار، والتّبيان فيما بين المعلّمين وآباء الصّبيان) لمحمّد بن أبي جمعة أوائل القرن (10) الهجريّ ومن أشدّ ما رُزئت فيه الحركة التّعليميّة والفكريّة في الجزائر، هو خلؤها الكامل من مؤسّسات التّعليم العالي بالمعنى المتداول اليوم، فالأتراك "لم يؤسّسوا جامعةً كالقرويين أو الأزهر أو الزيتونة، تبتّ العلم وتخرّج العلماء والكتّاب وتحفظ اللّغة وتربّي العقل"⁴ وهو الامتياز الذي حازته مصر بالأزهر، وتونس بالزيتونة، والمغرب الأقصى بالقرويين، حين كانت هذه الجوامع مناراتٍ تبتّ في الأمّة شيئاً من إكسير الحياة، وتنتج تريباً يُحصّن الأمّة من الهلاك الرّوحيّ وتقيها من الانسلاخ العقديّ واللّغويّ، ومهما قيل عن المستوى العلميّ والفكريّ لهذه المؤسّسات العليا؛ فقد كان لها أثرٌ ظاهرٌ في حفظ المرجعيّة الوطنيّة وبقيت إطاراً علمياً يأنس به المجتمع في أحلك فترات الإحاطة والتّضييق، ونتيجةً لكلّ هذه المعطيات أضحي طبعياً أن يكون وضع اللّغة العربيّة في الجزائر أشدّ سوءاً مقارنة بدولتيّ الجوار: تونس والمغرب

¹ - محمّد بن ميمون الجزائريّ، الثّحفة المرضيّة، ص50.

² - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافيّ، ج1، ص214.

³ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافيّ، ج1، ص313.

⁴ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافيّ، ج1، ص18.

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملابسات التأسيس

الأقصى اللتين بدا فيهما الوضع أفضل حالا بما بقي عليه جامعا الزيتونة والقرويين من إمدادٍ ودعمٍ وإسنادٍ، فقد بقي هذان الجامعان -مع ما أصابهما من وهن المناهج، وضحالة المستوى وعتاقة الطرائق- وفين للغة العربية يحفظان ماءها، ويستبقيان شيئا من مادة حياتها.

ومقابل هذا الإهمال التركيبي الرسمي لشأن التعليم عموما، وشأن اللغة العربية خاصة، إذ لم يكن الحكام الأتراك في مستوى طموح محكومهم "فليسوا بمتقنين ثقافة عربية النزعة تدفع بهم أن يبنوها في مجتمع طالما أحب العربية حبا جما¹" وهو موقف شعبي قد يكون رد فعل هادي على الممارسات التركية إزاء الحياة الثقافية في المجتمع، والذي يعد موقف الحكام فيه سلبيا في مهمة لا يمكن لأي جهة أن تضطلع بها، ولا نتصور -بعد هذا الوضع- ارتفاع شأن لغة تخلت عنها السلطات الحاكمة، وأسند أمرها إلى أطراف لا يمكنهم بحال رسم سياسة لغوية موحدة، ولا يخضع التعليم فيها لأهداف واضحة ومقررات نوعية مدروسة.

2-5- واقع الدرس اللغوي: من مظاهر نزوب الدرس اللغوي وانحساره أن أصبح القائمون عليه -تأليفا وتدريسا- قلة في قطر شهد له التاريخ مظاهر نبوغ وإبداع، فيحصى المؤرخون من مجالات الكتابة العلمية اللغوية وأعلامها:

نموذج من تخصصات وأعلام التصنيف اللغوي في الجزائر إبان العهد التركي الأخير:

التخصص	التأليف	المؤلف
النحو والصرف	- فتح المولى بشواهد ابن يعلى	عبد الكريم الفكون
	- شرح أرجوزة المكودي	
	- رقم الأيادي على تصنيف المرادي	سعيد قدورة
	- شرح ألفية السيوطي	محمد الزجاني
	- حاشية التسهيل لابن مالك	
	- لامية الأفعال	
معجمية	- نونية الشذور	أحمد بن محمد البجائي
	- الرّوض النّظيم في معاني حروف المعجم	
فقه اللغة	- ضياء القابوس على كتاب القاموس	أبو راس الناصر
	- الارتضاء في الفرق بين الصاد والظاء	محمد بن بدوي المعسكري

¹ - محمد بن ميمون الجزائري، الثحفة المرضية، ص46.

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملايسات التأسيس

بلاغة	- النّحقيقات الإعجازيّة بشرح نظم العلاقات المجازيّة - الجوهر المكنون	محمّد بن محمود بن العنّابيّ
	- شرح تلخيص المفتاح للقزوينيّ	عبد الرّحمان الأخصريّ
العروض	- الرّأمة الشّافيّة في علميّ العروض والقافيّة	أبو الجيش المغربيّ

وقد كانت ظاهرة التّأليف انعكاساً عامّاً على طبيعة مناهج التّعليم ومقرّراته، قد كانت الموادّ اللّغويّة المقرّرة تقليديّة في مقرّراتها وطرائقها، وتلك ميزة عصر الضّعف بما عرفه من ضحالة البرامج واقتصار التّأليف على المتون، وشرح المغاليق، واختصار المطوّلات والتّعليق بالحواشي، وأضحى من قضايا العصر في ما يتعلّق بالعلوم اللّسانيّة، التّأليف في الألغاز النّحويّة واللّغويّة، وذلك مظهر صريح في تصوير الدّرجة التي أصبح عليها الدّرس اللّغويّ العربيّ في الجزائر لهذا العهد.

أمّا عن مقرّرات العلوم اللّغويّة التي كان تدريسها سائداً، فهي على الغالب ما كان سائداً في المشارق والمغارب إبان تلك الفترة.

نموذج من الكتب اللّغويّة المقرّرة في المستوى العالي إبان العهد التّركيّ الأخير في الجزائر.

المواد	الكتب المقرّرة	المؤلف
النحو	- الأجروميّة - ألفيّة بن مالك وشروحها	ابن أجروم المكودي
التصريف	- لامية بن مالك	ابن مالك
فقه اللّغة	- فقه اللّغة	للّعليّ
البلاغة	- الجوهر المكنون - حواشي السّعد، تلخيص المفتاح	للأخصريّ للنّقتزانيّ
العروض	- الخزرجيّة مع شرحها	للغرناطيّ
الخطّ	/	/

ولا يعني هذا العرض أنّ كلّ هذه المواد والكتب قد وجدت لنفسها حضوراً واسعاً وفاعلاً بين المتعلّمين والمتعلّمين، بل كانت أشهر ما اجتمع على الجملة في مراكز التّعليم النّقليّة البسيطة من المساجد والتّكايا إذ "قلّما توجّهت عناية علماء الجزائر إلى علوم اللّغة باستثناء النّحو"¹ وهو توجّه استهدف في الغالب حفظ المتون، واستعراض الوجوه، دون إحكام ملكة الاستعمال، وبلغ من نتائج عقم طرائق التّدريس

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص195.

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملايسات التأسيس

هذه ما ظهر جلياً من عدم جدوى مناهج التلقي بطريق الشروح والحواشي والمختصرات، وبدا عجزها عن بناء ممارسة لغوية سليمة مُبدعة؛ وكان من أثر هذه "الطريقة الشائعة... هو القضاء على الملكة العلمية، لأنها شغلت المعلم والمتعلم معاً بالكتاب عن العلم"¹ ومن الثمرات السيئة لطرائق التعليم تلك أن أعلاماً في التدريس والتصنيف من مشاهير الفترة -على قلتهم- كانوا يلحنون، ومنهم أبو راس الناصر، الذي قيل أنه كان يلحن في درسه رغم علمه الواسع وقد ألف في النحو واللغة² وذلك أمانة على عدم وجود نظام تعليمي موحد مدروس يتم بموجبه انتقاء المراجع بعناية، وتراعى فيه مستويات المتعلمين، وثمره التعليم، فحلّ بدل ذلك انتقاء عشوائي للمصادر واعتمدت طرائق تدريس متباينة، وأعلنت الندرة في المعلمين المقتدرين، وبخاصة في العقود الأخيرة من الوجود التركي، فقد كثرت احتجاجات الجزائريين، وعمت الشكوى من عسف السلطات وغزت الثورات جنبات الإيالة.

حاول بعض الباحثين استعراض ما قدّمه العثمانيون للغة العربية في ما أنجزوه من مدارس تدرس باللغة العربية وتدرّسها، كمدرسة إعداد الأمراء، ومدرسة إعداد الموظفين السامين، وأشار إلى عديد المؤلفين ومؤلفاتهم؛ إلا أن ذلك لم يجعل اللغة العربية في المقام الأول للدولة التركية، وفي عهدها الأخير خاصة، وبالجزائر تحديداً، ثم أورد من القول ما يعضد اتجاه الأطروحة إزاء مسألة اللغة العربية في الجزائر إبان الفترة، فقد "اتخذ السلاجقة الأتراك في دولتهم السلجوقية اللغة الفارسية لغة رسمية لهم وهم أتراك، والعثمانيون مع استخدامهم للغتهم التركية في الأعمال الحكومية، إلا أنهم لم يدرسوا هذه اللغة للشعب في أي مؤسسة من المؤسسات"³ وإذن فقد كانت تلك المبادرات لتوطيد الحكم واستبقائه لا لتعليم الشعب وتثقيفه.

2-6- واقع الكتابة الفنية والإبداع الأدبي: إذا كانت هذه بعض الحقائق التي نقلها المؤرخون عن حالة التعليم عامة، وتدريس اللغة العربية خاصة؛ فإن واقع اللغة العربية في الحياة الثقافية كان نتيجة طبيعية لحالة التعليم، فالمقررات وطرائق تدريسها لم تكن لتصنع أدباء ولا شعراء ولا لغويين ويمكن استعراض ننف مما أضحت عليه الكتابة الإبداعية للفترة.

¹ - محمد البشير الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، ط1. بيروت: 2015م، دار الغرب الإسلامي، 1997م، ج1، ص342.

² - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص164.

³ - محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، د. ط. القاهرة: 1414هـ - 1994م، المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي، ص319.

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملابسات التأسيس

2-6-1- الملمح الشعري في العهد التركي الأخير في الجزائر: عبّر الشعر دوماً عن الحالة اللغوية التي عليها العصر؛ وقد كان عنوان التراجع التي بلغته اللغة العربية وعكس انحطاط أساليب الأداء، وإذا ما أخذ الدارس وضعيّة الشعر مقياساً يستشف به حالة اللغة العربيّة في الجزائر خلال العهد التركي الأخير؛ فإنّه يجب الأخذ في الحسبان أنّ العينة التي يطالها البحث هي الطبقة المحكومة، وهي عامّة الشعب، وبعض العلماء الذين استبقتهم ظروفهم في البلد، أمّا طبقة الحكم بتدرجاتها، وتعدّد مناصبها فليس لها من أمر علو الإبداع الأدبي واللغوي العربي أو انحطاطه، أو شيوعه أو انحساره شيء، ذلك أنّها طبقة غلبت على معظم عناصرها الجهل، وعدم معرفة لغة أهل البلد، وجرّاء هذا الشرح الحاصل بين السلطة والشعب -والذي كانت اللغة أهم مبرراته- انحطّ مستوى الصياغة الشعرية عند الشعراء، لأنّهم أُجبروا على النزول بشعرهم إلى شعب لم يؤهله حكامه ليصبح على درجة من التذوق الشعري العالي، بل فرض على معظم أفراده درجات دنيا من التعليم، وإن كانت واسعة القاعدة؛ فإنّها محدودة المستوى، ومن ثمّ وُجد لأعلام المرحلة وكتّابها المشهورين أشعار "مختلة الأوزان أيضاً ومرتبكة وعلى رأس هؤلاء ابن حمادوش وأبو راس"¹ ومن شواهد المرحلة نموذج حمدان خوجة في مدحه للسُلطان محمّد خان (1200-1255هـ) التي مطلعها:

تخيّرْت محمود المعالي على الكبر ويممت ساحات الندى راحة البشر
والتي يختتمها بقوله:

أخا الصبر، هل ليسر من بعد جولة تعمّ، وأقلها رجوع الجُزير
أيأسا ومحمود الملوّك كفيلنا وقد وفق التاريخ (تمّ بتخيّر)

ويوافق سنة (1252هـ) بحساب الجمل، "فهذه الأبيات تمثّل خير تمثيل عصرها الذي بلغ نهايته في درجة الإسفاف"² ولم يكن الأمر مقتصرًا على قلة من الأدباء والشعراء، فبعد ذلك من الفروق الفرديّة التي يتفاضلون فيها، بل أصبح الضعف اللغوي سمة غالبية، فاختلفت لذلك الأساليب والتراكيب، وضاق المعجم اللغوي، وضعفت الهمم في الارتقاء بمستوى الإبداع الشعري بوصفه رافداً للتّمكّن اللغوي، ولك أنّ تقلّب النّظر في مرتبة يوسف الرّيّاني للباي مصطفى أبي الشّلاغم يعزّيه في الآغا البشير البحتاوي:

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص245.

² - عبد الجليل مرتاض، التّهجين اللغوي في الجزائر في العهد التركي، د. ط. الجزائر: 2016م، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، ص87.

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملايسات التأسيس

هنيئاً لك الجنان لا السَّعير يا كافل الأرامل يا بشير
لقد عشت سعيداً في رغد عيش وفزت بالشَّهادة يا أمير
بلدة مستغانم كان المثوى فنعم السُّكنى سكناك يا نحير

وأصبح أسلوب كُتَّاب القطر وشعراؤه مشوباً بالعاميَّة، وتقلَّصت الأغراض التي استهدفها شعرُ المرحلة إلى حدٍّ كبير، حين أصبح الإبداع الأدبيّ "محصوراً في بعض المدائح النبويَّة، والمقطوعات الصوفيَّة ومرثيات بعض العلماء، وفي قليل من الأشعار الغزليَّة والمقامات والأسجاع النَّثريَّة وكان جلُّ النَّتاج وليد المناسبات¹" فعكست حضوراً باهتاً للغة العربيَّة في الأوساط الشعبيَّة تعبيراً عن اهتمامات اجتماعيَّة وحرماناً غالباً في بلاطات السُّلطة من الكتابة الأدبيَّة "وإذا أردت أن تعرف ضعف اللُّغة العربيَّة، وبلوغها الدَّرك الأسفل من الوهن، فحسبك أن تعود إلى نهاية العهد التُّركيِّ، لتقف على لغةٍ هزيلةٍ ركيكةٍ لا هي بالفصحى، ولا هي بالعاميَّة، ولا هي عوانٌ بينهما²" وذلك حكمٌ قد انبنى من خلال الاطِّلاع على مدونات الفترة التي تشهد على نفسها بهبوط الأسلوب، وضعف الصِّياغة.

2-6-2- الملمح النَّثريُّ في العهد التُّركيِّ الأخير بالجزائر: وإذا كان هذا غيضٌ من فيضٍ ممَّا أصاب الإبداع الشِّعريَّ العربيَّ لهذا العهد؛ فإنَّ النَّثر الفنِّيَّ لم يكن بمعزلٍ عن هذا الواقع، فحُرم أسباب الانتعاش في بلاطات الملوك والأمراء الذين كانوا غرباء عن البلد، ومن العيِّنات الأدبيَّة التي يمكن الاستدلال بها على مستوى نثر الفترة، هذه القطعة:

"أكثر من يقوم بالجهاد في الجزائر التُّرك وكون الأمراء كلُّهم في الغزوات الأتية منهم قدمنا سبب مجيئهم ووقت قدومهم إلى الجزائر سنة خمسة وعشرين وتسعمائة قدم خير الدِّين رايس وأخيه [كذا] أروج إلى تونس ثم إلى جيجلة وبجاية فأخذهما [كذا] وتمكَّن بجيجلة فبعث إليهم أهل الجزائر يشكون [كذا] من النصارى قائلين لهم سمعنا بكم أناس [كذا] تحبون الجهاد وأخذتم بجاية وجيجلة من أيدٍ [كذا] النصارى ونصرتم الدين هنيئاً لكم أيها المجاهدون لابد أن تقدموا إلينا وتخلصون [كذا] من أيدٍ [كذا] هؤلاء الملاعين الكفرة لأننا نحن في محنة عظيمة وذلة شديدة فلما سمع أروج

¹ - محمَّد بن ميمون الجزائريّ، التُّحفة المرضيَّة، ص 62.

² - عبد الجليل مرتاض، التَّهجين اللُّغويُّ في الجزائر في العهد التُّركيِّ، ص 92-93.

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملابسات التأسيس

رايس ذلك تحرك وتوجه إلى الجزاير بزوج غلايط [كذا] اللتين كانتا معه فلما وصل

إلى الجزاير فرح به أهلها وأكرموا¹

ذلك هو مستوى الكتابة في جانبها التركيبي والأدبي، فهي إلى كونها ضعيفة التعبير، وجمعها بلا

قيد بين الفصيح والعامي، كثيرة الأخطاء، هزيلة البناء.

وأما عن الأجناس الأدبية فقد تقلصت إلى حدٍ بعيد، فاقتصر الكتاب في كتاباتهم النثرية على

المقامات والوصف والتقاريط، كما عند أحمد بن عمار لكتابات ابن حمادوش، والتعازي والعقود والرسائل

الإخوانية، كرسائل أحمد المقرري وعبد الكريم الفكون وأحمد بن عمار ذات المسحة الأدبية، بينما

اصطبغت رسائل عيسى الثعالبي وعبد القادر المشرفي وسعيد قدورة وابن العنابي بصبغة فقهية بحكم

الاختصاص، وتقلصت الكتابة في الديوانية بعد أن أصبحت اختصاصا تركيا، ولذلك خلت هذه الفترة

من الرسائل الديوانية العربية إلا قليلا، وشهد هذا العهد تراجعاً كبيراً في أغراض وأجناس الكتابة الأخرى

كالقصّة والخطابة، ولم تكن الأوضاع السائدة لتسمح بالاستعمال الرّاقى لأساليب العربية في ميادين

التّواصل العام كالخطابة التي كانت المساجد ميادين غالبية لها، فقد نقلت المصادر وجود قلة من الخطباء

ذوي جرأة وفصاحة أثارت مخاوف الحكّام، فاشتدّت متابعتهم، وقد يكون مصيرهم العزل أو النّقل، ووُجد

منهم من جعل للخطابة شأنًا كمصطفى بن عبد الله البوني، ومحمّد خوجة بن مسلم الذي "تحول

بالخطابة من مقامها المألوف في المساجد والمحافل إلى داره بعد أن كانت في المقهى² وهي صورة لم

تُعدّم الجزائر في العهد التركي الأخير منها ومن مثلها، فلم تخلُ جهة من جهات القطر بعلمٍ أو أعلام

في علوم وفنون، ولكنّ الوضع العام جعل تلك الأعمال والجهود والإبداعات على قلّتها معزولةً في

محاضنها الأولى لا تبرحها، في وقت كان البلد أحوج ما يكون إلى بناء ثقافة بمفهوم وطني، وإن أسهمت

فيه الإبداعات المحليّة بأقسط قلّت أو كثرت، فإنّ الذي حدث جرّاء موقف السّلطة التركيّة السّلبّي من

الثّقافة والتّعليم ولوازمهما، جعل من "الثّقافة في القطر الجزائري... جهويّة إقليمية أكثر منها قُطريّة

عموميّة، وأنّها كانت محصورة في أشخاص معيّنين، وأماكن محدودة³ وهو ما جعل نبوغ الأفراد في

ميادينهم لا يظهر له كبير أثر.

¹ - محمّد بن محمّد بن رقيّة التلمساني، الزّهرة النّائرة فيما جرى للجزائر حين أغارت عليها الكفرة، المكتبة الوطنيّة الجزائريّة

(مخطوط) رقم: 2603، ص2-3.

² - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، ج1، ص395.

³ - محمّد بن ميمون الجزائري، الثّحفة المرضيّة، ص55.

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملابسات التأسيس

ولئن كان شيء من هذه الصور فإنّها لم تكن غالبية؛ بل كانت الغلبة لحالة من الضعف والوهن بلغ العي فيها ببعض الخطباء أن أصبح يُنِيب غيره للقيام بمهمّته، وأعلن العوام شكواهم من عدم أهليّة الكثير من الأئمّة والخطباء، وعجزهم عن الإبانة، وتقلّ المصادر بعض المظاهر المُدَلّة لوضع قد يكون أكثر شيوعاً يومذاك، وإثباتاً لحال لا تليق بالعربيّة في مشهدها الشّعبيّ فكيف بما تُقصّد به النُخبة. حدّث العياشي في الرّحلة عن حضوره صلاة جمعةٍ بأحد مساجد ورقلة "وخطب الخطيب بخطبة أكثر فيها اللّحن والخطأ والتّحريف والتّقديم والتّأخير، مع إدغام أكثر حروفها حتّى كأنّها همهمة"¹ وحكم الفُكُون على أحمد بن حسن الغربيّ أنّه "كان أمّي الخطابة والكتابة، وأنّه لا يعرف الخطّ ولا الرّسم ولا الهجاء"² ولمّا كانت الخطابة من أبرز المظاهر التي يقيّم من خلالها وضع الفصحى في الحياة العامّة تداولاً وتلقّياً؛ فإنّ شيئاً ممّا سبق عن وضع الخطابة، يُظهر جزءاً ممّا كانت عليه اللّغة العربيّة خلال هذا العهد، ثمّ إنّ مجالات الكتابة الأدبيّة هذه على قلّتها قد جاءت بأساليب العصر ضعيفة المستوى الفنّي، مطبوعة بالرّخارف اللّفظيّة، باهتة المعاني، قد فشا فيها اللّحن، وشاع حتّى عُرف به الخواصّ. ومع ما كان عليه المستوى الفنّي من الكتابة والتّأليف لهذا العصر من الضّعف؛ فقد كان أقصى ما أمكن تحصيله، هو حجز حيّزٍ للّغة العربيّة الفصيحة شعراً ونثراً وخطابة وتديّسا، ورصد ما كان يهدّدها من اللّحون والعامّيّات، وهي خطوة تعكس حرص العلماء وشيوخ الرّوايا ورجال الوعظ على مستوى معيّن من الفصح، وقد يكون عن غير قصد منهم، بقدر ما كان استجابة لإملاءات تاريخيّة وتشريعيّة، ورث من خلالها هؤلاء إبقاء استخدام الفصح في هذه الجوانب، وما في فلکها وإن اعترأها شيءٌ كثير أو قليل من الضّعف والوهن.

2-6-3- الملح النقديّ في العهد التّركيّ الأخير بالجزائر: لم تقتصر حالة التّردّي على فنون الكتابة الأدبيّة، بل ابتليت معايير النّقد التي طالما ظلّت تُهذّب الشّعْر، وتَصقّل مواهب الشّعراء واختلّت فأصبح من معايير الشّعْر عند الورتلاني -مثلاً- أن "جوّز كسر الأوزان الشّعريّة، واعتبر أنّ الإصرار على استقامتها هو مذهب المتأخّرين، وأنّه إذا استقامت حالة الإنسان، وكانت همّته متعلّقة بالله تعالى لا يضرّه مخالفة القوانين الأدبيّة، ولا غلبة العُجمة، ولا قلة العلم"³ وهذا معيارٌ نقديّ وليدٌ في بيئة صوفيّة

¹ - محمّد بن ميمون الجزائري، الثّحفة المرضيّة، ص49.

² - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص396.

³ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص244.

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملابسات التأسيس

اكتسى بها الحاكم والمحكوم، وأصاب طقوسها واعتقاداتها كل الميادين فأصبحت المدارج الصوفية مقياسا تقاس به درجة رقي الشعر أو انحطاطه.

وتبعاً لهذا التوجه أيضاً ابتكرت تسميات جديدة لنوع من الشعر الكسح بفعل رداء مستوى مبدعيه وبات ذلك ذريعة برّر بها هؤلاء عجزهم عن الفصيح، فشاع ما يسمّى بالشعر الملحون والشعر الفصيح المكسور، الذي كان نتيجة طبيعية لتكوين أدبي هشّ، فتراجعت المقدرة اللغوية اللازمة، فتولدت من ذلك صياغة شعرية انحسرت في أغراض بذاتها، لا تتجاوزها لفقد دواعيها وظهرت الغلبة للشعر الديني ممثلاً في القصائد النبوية، والمزارات، ومدح ورثاء الأولياء والصالحين، وإحياء المناسبات الدينية، ونذرت الأشعار في الأغراض التي تتأغم الشعر العربي معها، ومع تفاصيل الحياة العربية منذ نشأته.

ومن المظاهر التي اهتز لها المتن اللغوي لهذا العهد، هو إعلان العامية عن انفصالها المادي والأدبي استجابة لظروف انحطاط المستوى الثقافي العام وبساطته، فقد "كان بعض الشعراء يتبسّطون لكي يسهّل على العامة فهم مرادهم"¹ ونتيجة لذلك انتشر الشعر العامي، ولكن ذلك كان في الوقت نفسه جهازاً واقعياً تحمل كل صدمات الإخلال بالفصيح.

لقد بلغ من روح التردّي والهبوط اللغوي ما انحسر به التفكير والممارسة في حدود تحافظ فيها الكيانات العربية على هوياتها ومقوماتها، ففقدت عن الإبداع والابتكار، بفعل ضغوط المشهد السياسي المنفصل عاطفياً وأدبياً عن جماهيره، والمخاوف من ضربات الشمال المتربّصة في البحر، فلم يبق لكثير من الطاقات مساحات كافية للنُبوغ والإبداع، ولم يعدّ لهم خيارات كثيرة، إلا ما كان منها في إطار المحافظة على أهم مقومات وخصوصيات الأمة الجزائرية.

3- استلام الاحتلال الفرنسي للوضع اللغوي في الجزائر.

يستعرض هذا المبحث ممارسات الاحتلال إزاء اللغة العربية في الجزائر، وقد اعتمدت الأطروحة تمهيداً لما بعده، من خلال إيراد المعالم الكبرى، والإشارة إلى المحطات ذات الأثر على القضية الأساس للأطروحة، وهي الوضعية التي انتهت إليها اللغة العربية بأيدي عناصر مختبر الاحتلال في مواقعهم المختلفة ضباطاً ومستشرقين، ساسة وعسكريين، بداية من التخطيط والدّراسة، إلى الممارسة والتّنفيد وانتهاء بالاستحواذ والتّمكن.

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص173.

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملايسات التأسيس

لقد اعتمد في هذا الأساس وما يأتي بعده على إيراد المُنطلقات والخلفيات، واستعراض المراحل والإجراءات، ووصف موجز للخطط والاستراتيجيات، ومحاولة الوقوف المركز على الأهداف والمرامي وصولاً إلى إبراز ما تحقق وما تمتع.

ولعلّ أسلم السبل لاستعراض معالم هذه المرحلة استعراضاً منهجياً يفي بغرض التأسيس؛ هو الإشارة إلى مسلكين متكاملين اعتمدهما الاحتلال وهما:

• **الجانب النظري:** وهو دور المترجمين والمستشرقين، وأساتذة كراسي اللغة العربية العامية والفصحى والبربرية، ومهندسي مسيرة الاحتلال ومنظريها في مختلف التخصصات، وهو جانب ستخصه الأطروحة بمقاربة منفردة لأهميته، ولمعرفة خلفية الوضع اللغوي في الجزائر في زاويته، ثم امتداد أثر تلك الجهود في المرحلة الموالية.

• **الجانب التطبيقي:** وأسند فيه الأمر إلى الحكام العامين، والقادة العسكريين، ووزراء الحربية والتعليم، وفيه تتابعت التشريعات الصادرة لتأمين مساعي فرق الخبراء، وتلاحقت إجراءات المنع والتضييق لتنفيذ قراراتهم، وسيحاول هذا العمل متابعة آثار ذلك على الإنسان واللسان.

3-1- جذور الاهتمام الفرنسي بالمسألة اللغوية في الجزائر: أخذ الالتفات إلى العامل اللغوي في

الدراسات الاستكشافية الفرنسية حول الجزائر بعداً رسمياً بعد أن بلغ الاهتمام الثقافي بها شوطاً بعيداً فـ "عند تأزم الوضع بين الجزائر وفرنسا سنة 1827م وبداية التكفير في الحملة ضد حكومة الداي؛ ترجم الفرنسيون أعمال زملائهم الأوربيين والأمريكيين عن الجزائر"¹ ثم أصبح همّاً حملته التقارير السرية للقناصل الفرنسيين أثناء فترة مكثهم في الجزائر، وأضحى اهتماماً لافتاً حين صار تقليداً تُختم به فترة العمل في هذه الوظيفة وتتويجاً لها، ليكون إعداد تقرير مفصل عن شؤون الإيالة وأحوالها، وفي كثير من الأحوال يطلّع القنصل الجديد على التقارير المقدمة من قبل أسلافه.

ومن التقارير الأولى التي اتخذت هذا الشكل؛ التقرير الثاني لـ: (ديبوا تانفيل/ Dubois Thainville) الذي ضمّن تقريره حديثاً عن اللغة المازيغية، والناطقين بها في الجزائر معتقداً "بأنهم انحدروا من الجيتوليين ومن النوميديين، ومن الشعوب القديمة الأخرى كالرومان والوندال والقوط ويتكلمون لهجة متميزة ومختلفة عن العربية، ومن المعتقد أنها اللغة النوميديّة القديمة، أو البونيقيّة حملها

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، ص9.

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملايسات التأسيس

الفينيقيون والقرطاجيون فانتشرت في سواحل البلاد البربرية¹ وهي مقولة قد تبدو ساذجة وغير مقبولة ولكنها ستحوّل مع الوقت إلى أطروحة نالت حظاً من الاهتمام، وشكّلت بؤرة صراع لعقود مع أنّها قائمة على مقارنة تاريخية لم يُسلّم بها التحقيق العلميّ النزيه.

ولعلّ ما جعل كثيراً من الدارسين الفرنسيين -ومن مختلف الاختصاصات- يركبون هذه الموجة مع علمهم، أو علم بعضهم بخطأ منطلقاتهم، واتّخاذها سنداً انثروبولوجياً اجتمعت حوله معظم الآراء الفكرية الممّدة لعراقة التاريخ الفرنسي، ممثلة في الجمع "بين نزعة احتلال الجزائر، ونزعة تبرير أحقية وألوية (الأمة الفرنسية) بالتاريخ القديم للجزائر، على حساب طمس مآثر ومعالم مجتمع ترسّخ عبر محطات تاريخية من وجود (الأمة الجزائرية) وجدارتها بهذا التاريخ"² ومن هنا، نقف على درجة العمق الذي يمتدّ تحت مسألة الاحتلال ومخططاته وآفاقه.

ومن القرائن التي تؤكّد وجود قناعة فرنسية خفية عند الكثير من الساسة الفرنسيين والخبراء العسكريين، مدفوعة بنزعة استعمارية، يؤجّجها الحنين إلى إحياء مجد روما؛ تركيز مشروع (ليني دوفليفيك / Lainé De Villevéque) المؤرخ في 10 جويلية 1827م على التّحديد الجغرافي للمدن التي كانت حواضر رومانية ك: شرشال وتنس... وإهمال الحواضر الإسلامية ك: تلمسان... إمعاناً في "هدم المقوّمات المعنوية، ومسح تاريخ الجزائر، ولا سيما العهد الإسلاميّ منه"³ وهي ذات الإشارات التي أُعدّت حول الوضع اللغويّ في الجزائر قبيل الاحتلال، واعتبار ذلك مسألة يجب أخذها في الحسبان ضمن الجوانب الأخرى لإنجاح عملية الاحتلال، وتثبيت أركانها؛ تلك الجهود الموازية للنشاط السياسيّ للمستشرق (فونتو دي بارادي / Venture De Pparadis) الذي أرسل إلى الجزائر لمساعدة القنصل الفرنسيّ (كارسي / Kersey) ولكنه استغلّ مدّة إقامته لسنّيتين في الجزائر "في الدّراسة والبحث حول اللغة البربرية، مستعينا بأهالي جبال الأطلس التليّ، واستوعبها كما ينبغي، وألّف كتاباً في نحو وقواعد اللغة العربية، ومعجماً فرنسياً- بربرياً"⁴ دون إهماله الملاحظات الدّقيقة حول الأوضاع العامّة في الجزائر، حكومة وسكّانا وتجارة وقوات بحريّة وغير ذلك، ولم تقتصر مهمّة اكتشاف الوضع اللغويّ في

¹ - فريد بنور، المخطّطات الفرنسية تجاه الجزائر، 1830/1782م، د. ط. د. ب. د. ت، مؤسسة كوشكار للنشر والتّوزيع، ص 198.

² - سعيد عيادي، تحليل الأبعاد الاستراتيجية للخريطة الاستكشافية الفرنسية بقسنطينة لسنة 1866م، د. ط. الجزائر: د. ت، دار تفتيت للنشر والتّوزيع، ص 29.

³ - فريد بنور، المخطّطات الفرنسية تجاه الجزائر 1830/1782م، ص 516.

⁴ - فريد بنور، المخطّطات الفرنسية تجاه الجزائر 1830/1782م، ص 108-109. (بتصرّف)

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملايسات التأسيس

الجزائر لهذا العهد على المستشرقين في إطار مهامهم العلمية، أو القناصلة كنشاط يُخفيه الدور السياسي المُعلن؛ بل نذر بعض المُتسللين تحت غطاء آخر -كاحتراف مهن- أنفسهم لهذه المهمة كما فعل السيد: (فور / Faure) صانع الساعات لدى الداي، وقد أقام بمدينة الجزائر (20) عاما أُنقن خلالها اللغة العربية، وأطلع على عادات السُكّان من خلال تنقلاته في الإيالة، ويذكر (دوفنتين / Louiche René Desfontaines) عالم النبات الذي أطلع على الغطاء النباتي لمنطقة سيدي فرج؛ أنه استعان بملاحظات السيد: فور لإنجاح مهمته العلمية¹ ومع اطلاع المستكشفين الفرنسيين من مختلف مواقعهم ومناصبهم على التقارير السالفة، بل واشترك بعضهم في إعداد التقارير المختلفة حول كل ما يتعلق بالجزائر؛ تشكلت صورة نهائية لإعداد وصف شامل ومفصل للبلاد التي يفكر الفرنسيون جدّياً خلال السنوات السابقة لسنة 1830م في احتلالها، وبخاصة بعد بداية التراجع الملحوظ للقوات البحرية الجزائرية والعثمانية، وصعود مقابل للقوات الأوربية عامّة، والفرنسية خاصة.

وفي سياق إعداد (بوتان / Incent Yves Boutin) لتقريره الذي أصبح أهم وثيقة اعتمدتها القوات الفرنسية لتنفيذ الاحتلال، مضى بوتان على نهج سلفه (ديبوا / Dubois) في الوصية بطريقة الاستحواذ على الإيالة، والإجراءات اللازم اتخاذها بهذا الشأن، وقد جاء فيها: اعتماد حُسن معاملة الأهالي، وأشار إلى ضرورة اتخاذ مترجمين مرافقين للحملة، لتطفو مسألة اللغة فتحظى باهتمام الجاسوس، وتمثّل عنصراً هاماً من عناصر مشروع الاحتلال، فعن طبيعة التواصل في الإيالة كتب يقول: "يتكلم سكان مدينة الجزائر واليهود والتجار الصغار، وكذلك بعض القبائل التي عادة ما تتردد على الأسواق، اللغة الفرنسية (الفرنسية التركية) وهي عبارة عن خليط من الكلمات الإسبانية والفرنسية والإيطالية، وهذه الكلمات محرّفة نوعاً ما، وهذا المزيج من اللغات يكون مفهوما بالنسبة للذين يُتقنون اللغة الإيطالية² ومن خلال هذا يتجلى الموقع الذي ناله وصف الوضع اللغوي في بلاد تهتم سلطة غازية بكل تفاصيلها، بحكم أنها ستجد نفسها مُجبرة على التسيير المستعجل لكل شؤونها، وقد يكون إغفال مسألة التباين اللغوي، أو التهاون فيها عاملاً من عوامل فشل عملية الاحتلال، وهو الأمر الذي يعمل الفريق المخطط والمنفذ للعملية على تقليص مساحاته، وتضييق فرص الفشل إلى أقصى حدّ.

¹ - فريد بُنور، المخطّطات الفرنسية تجاه الجزائر 1830/1782م، ص110. (بتصرف)

² - فريد بُنور، المخطّطات الفرنسية تجاه الجزائر 1830/1782م، ص485.

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملابسات التأسيس

وقد وجد هذا الفريق في مشروع (بوتان) السَّالف تفصيلاً لافتاً، نقل من خلاله نموذجاً تطبيقياً للغة السَّائدة في أوَّل نقطة تلامُس بين الإيالة والعالم الخارجي، تضمَّن حواراً سَمِعَهُ من شخصٍ يُمارح قنصلاً إسبانياً قائلاً: "patrangrande salutas muchiopert; parlar cheti star troppo ni paese" che ti andar via subito" ومعنى العبارة: "السَّيد الكبير (الدَّاي) سلَّم عليك كثيراً، ويقول: بأنَّك في هذه البلاد منذ مدَّة طويلة، ويجب أن تغادرها في الحال"¹ والنَّصُّ إضافة لافتة تعكس مدى الدِّقَّة والحرص اللَّذَيْن اعتمدهما الجاسوس في نقل تفاصيل الوضع اللُّغوي في الإيالة، وعرضها بما يُتيح استغلالها، كما يعدُّ ملمحاً مقتضباً عن النُّموذج اللُّغوي الذي كان سائداً خلال تلك الفترة، وبخاصَّة في حدود التَّلامُس على طول الحواضر السَّاحليَّة بين التَّشكيلات المختلفة في المجتمع، والتي توطأ أفرادها على توليد لغةٍ عُرِفَت عند اللِّسانيِّين بـ (السَّابير/Sabir) وهي لغة سيكون المحتلُّ أوَّل ما يواجهه عند أوَّل نزولٍ له على الصِّفَّة الجنوبيَّة المقابلة، وريثما يتمُّ له الاستقرار النَّسبيُّ؛ ستكون هناك إجراءات أخرى تستهدف ترتيب الوضع الجديد، وفي كلِّ مظاهر الحياة.

إنَّ مشروع الاستكشاف هذا يُثبت -بما لا شكَّ فيه- النِّيَّة الفرنسيَّة العدوانية السَّابقة "لاحتلال الفرنسيِّ -إن- لم يكن بسبب خلاف عارضٍ، أو حادث معيَّن، بل كان مبيِّتاً منذ أمدٍ بعيد، وخاصَّة في السَّنوات: 1802م - 1808م - 1827م - 1829م، كما كان نتاجاً وثمرتة سياسيَّة لسياسة استعماريَّة اختمرت في أذهان ملوك وأباطرة فرنسا طيلة ثلاثة قرون"² بل إنَّ فرنسا كانت تعدُّ لاحتلال الجزائر قبل التَّاريخ الذي وقع فيه التَّنفيذ بكثير، فقد أثبتت وثائق الأرشيف الفرنسيِّ "أنَّ هناك مشروعاً غريباً قُدِّم سنة 1729م إلى الملك الفرنسيِّ عندئذ بهدف احتلال الجزائر"³ وهو الطَّرح الذي يذهب إليه الأستاذ مولود قاسم أيضاً⁴ ويأتي تقييدُ الأطروحة هذه الحقائق -مع أنَّها إلى التَّحليل التَّاريخيِّ أقرب- لتحديد المجال الزَّمنيِّ لاحتلال، وتاريخ التَّفكير فيه، والإجراءات المتَّبعة في تحقيقه وإدراك خلفيَّاته الحقيقيَّة وموقع الجانب اللِّسانيِّ منه، ومن خلال ذلك يمكنُ تصوُّر حجم الجهود التي يجب أن تُبذل لفهم حقائق

¹ - فريد بنُّور، المخطَّطات الفرنسيَّة تجاه الجزائر 1782/1830م، ص459.

² - فريد بنُّور، المخطَّطات الفرنسيَّة تجاه الجزائر 1782/1830م، ص582.

³ - أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ط. خ. الجزائر: 2009، عالم المعرفة للنَّشر والتَّوزيع/ دار الرَّائد، ج1 ص255.

⁴ - مولود قاسم نايت بلقاسم، شخصيَّة الجزائر الدَّوليَّة وهيبتها العالميَّة قبل سنة 1830م، د. ط. الجزائر: 2012م، شركة دار الأُمَّة للطباعة والنَّشر والتَّوزيع، ج1، ص21.

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملايسات التأسيس

الماضي وثغراته، ومستوى الوعي الذي يجب أن تتلبس به النخب لتدارك التراجع التاريخي الهائل، ومن خلالهما ضبط معالم إمكانية التأسيس للمنظومة اللغوية التي تبدأ بامتلاك وسائل تجاوز عثرات الأسلاف.

3-2- إجراءات الاحتلال لتأطير المسألة اللغوية وأثرها على الواقع اللساني: على خلاف ما أعلنه القادة الفرنسيون من أهداف الحملة؛ ظهر واضحاً -ومنذ الهولة الأولى- المشهد الحقيقي الصادم (للفاتحين) المخلصين من ظلم الأتراك وعسفهم، وأسفرت ممارساتهم بشأن مرافق الهوية من المساجد والمؤسسات التعليمية والأوقاف، الصورة الحقيقية للاحتلال، فصدر نص 22 جويلية 1834م معلناً أن الجزائر ليست أرضاً محتلة؛ بل هي أرض فرنسية؛ وهو القرار الذي أزال تردد وتوجس جميع الأطراف ذات العلاقة بشأن الاحتلال، في فرنسا، وفي أوروبا، وفي الجزائر، فأصبحت عملية استكمال الاحتلال هدفاً مباشراً للضباط والقادة الفرنسيين، يرون فيه تأمين وجودهم في المستعمرة الجديدة، وما كان سائداً لدى الرأي العام الفرنسي من أن الحملة حملة تأديب واسترداد الهيبة الفرنسية التي دنسها الداي بمروحاته؛ قد تحولت إلى حقيقة أخرى، يجب أن يعلم الفرنسيون بموجبها أنهم معنيون بشؤون امتداد استراتيجي جديد على الضفة الجنوبية للوطن، وفي أوروبا المسيحية التي بلغ مسامعها أن الحملة هي فتح باب لتمسيح أفريقيا، وإنهاء الهيمنة البحرية الجزائرية الإسلامية على حوض المتوسط، يجب أن يدركوا طبيعة الوضع الجديد، ويتعاملوا مع آثاره، وأما الجزائريون فما عليهم إلا الاستعداد لتحمل صدمة وقوعهم تحت وطأة احتلال طالما تربص بهم، وقد تبخرت أحلامهم مع النكث الذي استيقظوا عليه صبيحة 05 جويلية 1830م.

لقد استتبع قرار الإلحاق الصادر في 22 جويلية 1834م إجراءات أخرى كثيرة ومتشابكة، ما يعني الأطروحة منها، هو ما يتعلق بالوضع اللغوي، فقد أيقن المحتلون أن نجاح مهمتهم، يستوجب جملة من الإجراءات المدروسة من قبل المختبر الكولونيالي، وأولها:

3-2-1- الإطلاع والاكتشاف، من بداية الاحتلال إلى حدود سنة 1850م: تمت عملية الاحتلال؛ وما كان حلماً راود الفرنسيين عقوداً، أصبح حقيقة واقعة، وقد أصبح لزاماً على المحتلين تسيير المرحلة الأولى بسرعة، خوفاً من مباغتة تحول النصر إلى تراجع، ومن بين أهم الاستعدادات التي هيأتها الحملة -إضافة إلى الاستعدادات المادية- الانتباه إلى التباين اللغوي بين الغايزي والمغزو وهي الوضعية التي تطلبت حلاً عاجلاً واجهت به اللغة العربية في الجزائر أول ممارسات الاحتلال.

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملايسات التأسيس

إذا ما رُنا رصدَ طبيعة ممارسات الاحتلال إزاء المسألة اللغوية في الجزائر خلال مرحلته الأولى؛ وقفنا على أنها كانت أسسا لمشروع متكامل، ولكن بعضها كان مرحلياً كإجراءات النزول الأول، ومنها ما لازم هذا المشروع لمراحل متقدمة، مع إدخال ما يجب من التعديلات لمسايرة المستجد من الظروف والأحوال، تلك الإجراءات التي يمكن ذكرها مجتمعةً وتفصيلها بعد ذلك.

- جبهة اللغة العربية في مواجهة نزول الاحتلال؛
- خلخلة البنية السكانية الجزائرية بغرس كتلة المستوطنين الغربية؛
- إصدار منظومة قانونية لتدمير منظومة لغوية قائمة؛ الإجراء والأثر؛
- تقنين تحجيف موارد الإنفاق ومصادرة الفضاء المكاني العلمي وأثرهما على التعليم؛
- فلسفة الاحتلال في تقييم التعليم السائد، ومبررات إعادة البرمجة؛
- تدريس العامية؛ وبداية التآكل الداخلي للأداءات الوطنية؛
- التعليم وإدارة الوقف في الجزائر المحتلة مسألة عسكرية.

3-2-1-1- جبهة اللغة العربية في مواجهة نزول الاحتلال: وظف الاحتلال في مرحلته الأولى

هذه تشكيلة بشرية متميزة التكوين والانتماء، تولت تأمين وساطة الاتصال بين المحتلين والأهالي، فعالج الأمر -مبدئياً- باصطحاب الترجمة ف "أخذ رؤساء الجيش الفرنسي وغيرهم من الحكام ترجمة جلبوهم من الوافدين إلى فرنسا من مصر في عهد حملة نابليون الأول ممن زولوا دروسهم في مدرسة اللغات الشرقية، ودرسوا بمعاهد بباريس، كما خرجوا ترجمة آخرين يفون بما يحتاجون إليه في إدارة المستعمرة الجديدة"¹ ولقد كان هذا التوجه من قبل سلطات الاحتلال إجراء عاجلاً أمنت به نزولها الأول ببلد تجهل كثيرا من حقائقه وتفصيله، رغم التقارير السرية والوصف الدقيق الذي أعده الخبراء والجواسيس عن الجزائر، وهو وصف لم يف في ما يبدو - إلا بتغطية الفترة الأولى للنزول، إذ سجد المحتلون أنفسهم أمام واقع حقيقي بتفاصيله وجزئياته، وستكفل آلة الاحتلال المتعددة الأطراف والوظائف بإعادة تأطيره والتدرج في السيطرة عليه والتحكم فيه.

3-2-1-2- خلخلة البنية السكانية الجزائرية بغرس كتلة المستوطنين الغربية: سبق استعراض

طبيعة البنية السكانية الجزائرية نهاية العهد التركي، ومن ورائها الواقع اللغوي الذي لم يكن على تجانس

¹ - مختار الأحمد نويوات، عن اللسان وفي البيان مقالات وافتتاحيات، د ط. الجزائر: د ت، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية بالجزائر، ص 151.

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملابسات التأسيس

تأمّ ككلّ التجمّعات السُكّانيّة في العالم، غير أنّه واقعٌ اتّسم بدرجةٍ مقبولةٍ من الوفاق والتّعايش، لكنّ الواقع السُكّانيّ الذي صنعه الاحتلال منذ أوّل نزولٍ له بالجزائر، والذي فتح فيه الأبواب لنزوح أوربيّ هائل تختصره الخطاطة:

السنة	عدد المستوطنين
بعد الاحتلال	25000
1847م	100000
1850م	130000
1847م	250000

لقد كان القصد من وراء هذا النزوح الكثيف والمتسارع، خلق واقع اجتماعي يتحوّل بالبلد من الأقلية المحتلّة إلى حضورٍ له ثقله العدديّ، وهو وإن لم يستطع معادلة الحضور السُكّانيّ لأهل البلاد الأصليين؛ فإنّه أمسى كيانا اجتماعيًا مفروضًا بالقوّة، ليستتبع ذلك حضور لسانیّ حرّج بحكم التّنوع اللّغويّ الذي كان عليه المستوطنون، ولكنّ تجنّسهم بالجنسيّة الفرنسيّة مقابل الاستفادة من الامتيازات الهائلة المسلوبة من الأهالي؛ قد وحد لغتهم ليتحوّل المستوطنون الأوربيّون كتلةً استيطانيّة موحّدة اللّغة، ثمّ هي إلى ذلك كتلة مؤثّرة غير متأثّرة بحكم وضعها العام، وهكذا تصبح الكتلة النّاطقة باللّغة العربيّة وبما مازجها من رطانة الكتلة التّركيّة المنسحبة قريبًا، في مواجهة كتلة متمنّعة لغويًا، ومهدّدة بتسرّب أفقيّ تدريجيّ يستنزف الأداء اللّغويّ العربيّ، وينزاح به يوميًا نحو الكتلة الاستيطانيّة المتزايدة، سواء بالوافدين الأوربيّين الجدد، أو بالملتحقين -طوعا أو كرها- من الجزائريّين، وهكذا "أصبحت الحركة الاستيطانيّة في الجزائر مركز إشعاع قويّ وخطيرٍ للغزو الثقافيّ واللّغويّ"¹ بل تعدّى تأثير هاته الكتلة ذلك المستوى حين أصبحت قوّة ضغط تُعارض أيّ شكل من أشكال تعليم الجزائريّين خشية اكتسابهم درجةً من الوعي -بأيّ لغة- قد يكون فيه تهديدٌ مستقبليّهم في الجزائر، وكذا تخزينُ يدٍ عاملةٍ رخيصةٍ ودائمةٍ، تُوجّه للمهن الدّنيا في مستثمرات (الكولون) وبعد أن اغتصب هؤلاء أرزاق الجزائريّين وأموالهم وأراضيهم؛ أمسوا عقبة كأداء تمنع عنهم حقًا فطريًا هو الكلام بلغتهم.

3-2-1-3- إصدار منظومة قانونيّة لتدمير منظومة لغويّة قائمة؛ الإجراء والأثر: من بين أهمّ الوسائل التي عمد بها الاحتلال إلى التّضييق على اللّغة العربيّة هو سنّ القوانين والتّشريعات مع أنّ

¹ - الطّيب بن إبراهيم، الاستشراق الفرنسيّ وتعدّد مهامّه خاصّة في الجزائر، د.ط. الجزائر: 2004م، دار المنابع، ص160.

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملابسات التأسيس

مسألة الاحتلال من أساسها تفتقد إلى الشرعية القانونية، وإغفالا من سلطات الاحتلال لطبيعة وجودها على الأرض الجزائرية ومدى شرعيته؛ راحت تصدر عن ممارسات تُشعر المتابع أنها تتعامل مع وضع خالص لها، وأنها فيه صاحبة حق مطلق، والواقع أن "القوانين الصادرة كانت تُخضع الجزائريين بإكراه دون مراعاة القوانين والأعراف الدولية، فالممارسات الفرنسية في الجزائر كانت تقوم على ارتكاب انتهاكات جسيمة للقانون وباسم القانون¹ وبحكم تعويل الاحتلال على إبادة اللسان العربي بوصفه أحد أبرز مقومات الشعب الجزائري، فقد استصدر ترسانة من القوانين والتشريعات اللغوية (Linguistic Legislation) على مقاس مضبوط، فجعلت وسيلة لتسيير الوضع اللغوي الجزائري في اتجاه قرره خبراء في تخصصات مختلفة.

صادرت فرنسا الاحتلال الأملاك الوقفية، التي كانت مصدر التمويل الأول للتعليم والإمامة والفتوى والقضاء باسم القانون، وقتلت العلماء وسجنت وغرمت وضيقّت، فاخترت الكثير منهم الهجرة، واضطّر إليها أغلبهم بعد أن ضاقت بهم السبل، ونفي كل من أبدى شيئا من الثبات والجد، باسم القانون أيضا وباسم هذه القوانين كذلك تحوّل المعلمون إلى مخالفين لـ (النظام العام) ومتسببين في الفوضى، وباسمها اغتصبت أو عطلت مؤسسات الهوية من المساجد والكتاتيب والمكتبات وحوّلت إلى خدمة (الصالح العام).

قد يقول قائل: هل الاحتلال في موقعه الذي تمكّن فيه من التحكم في الوضع العام للجزائريين - وبخاصة بعد سقوط قسنطينة في 1837م - بحاجة إلى سنّ قوانين يبرّر بها ممارساته؟ والإجابة قد تكون ذات جوانب ثلاثة:

- 1- إظهار فرنسا بمظهر الدولة المتحضرة التي لا تصدر في أحكامها عن إجراءات مرتجلة وأحكام اعتباطية، بل هي الدولة التي تُشرّع، وتحتزم تشريعاتها، وتلزم (رعايها) باحترامها.
- 2- استدامة التحكم في استثناءات المرحلة المشرّعة لها، وإبقاء عصا القانون مشهورة في وجوه الرافضين، وإلزام الكل بالامتثال، حتّى يرى المخبر الكولونيالي ضرورة تشريع آخر يُراجع أو يستدرك أو يستكمل نتائج المرحلة السالفة، وعلى ذلك، فالمتابع للتشريعات الفرنسية في شأن اللغة العربية تحديداً أو تضمينا؛ يستنتج أنها جاءت متناغمة مع المصير المرسوم للعربية في الجزائر.

¹ - سعيد بوخاوش، الاستعمار الفرنسي وسياسة الفرنسة في الجزائر، ط. خ. الجزائر: د. ت، دار تفتيت للطباعة والنشر والاتصال ص38.

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملايسات التأسيس

3- استغلال الفقرات القانونية للحدّ من ردود الأفعال المحتملة للجزائريين أهل اللغة المستهدفة وإجهاض كلّ محاولة لإنفاذها من بين أيدي مفترسيها، وهو ما يعني فرصة أكبر، ومساحة أوسع للغة الوافدة، لاستغلال مناطق النفوذ التي أُفرغت من اللغة العربيّة لصالح الفرنسيّة.

من القرارات غير المباشرة التي أصدرها الاحتلال وألّم ضررها باللغة العربيّة في الجزائر؛ قانون مصادرة الأملاك الوقفيّة وتحويلها إلى ميزانيته، بداية بقرار (كلوزيل / Clauzel) في سبتمبر 1830م والذي شُرِع في العمل به في ديسمبر من السنّة نفسها، فأُلحِق بموجبه الأملاك الوقفيّة -أيّا كان شكلها- بمصلحة أملاك الاحتلال، ولم يكن هذا القانون في أثره إلّا خنقا للتعليم كلّ، وتعليم اللغة العربيّة تحديدا. وللوقوف على نوع الأثر الذي تركته مثل هذه القوانين على التعليم؛ نستعرض عيّنة من حجم التراجع الرّهيب الذي أصاب التّعليم الأهليّ الجزائريّ، في حاضرتي الجزائر وقسنطينة، وهو الأمر الذي انسحب على كلّ جهات القطر.

المدينة	السنّة	عدد المدارس	عدد المعلّمين	عدد التلاميذ
الجزائر	1830م	100	100	2500
	1840م	24	24	600
	1846م	14	14	350
قسنطينة	1837م	90	90	2250
	1847م	30	30	750

وبالمقابل نعرض حجم إقبال المتعلّمين الجزائريين في مدارس الاحتلال (البديلة) وبعد إصلاحات 1877م و1895م التي استجابت بها لجنة فيري، فمنّت على الجزائريين بما يمكن إجماله في حالة الإقبال على التّعليم المبيّنة في هذا العرض.

في الموسم الدّراسيّ 1899-1900م كان عدد التلاميذ الجزائريين في جميع المؤسّسات التّعليميّة حوالي 25000 يتوزّعون على المقاطعات الجزائريّة الثلاث:

توزيع التلاميذ الجزائريين في جميع المؤسّسات التّعليميّة وفي المقاطعات الجزائريّة الثلاث سنة

1899-1900م.

المقاطعات		مدارس الأمومة		مدارس الأمومة		صفّ المعلّمين	الثّانويات	المدارس
		ذكور	إناث	ذكور	إناث	ببوزريعة	والمعاهد	الإسلاميّة

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملايسات التأسيس

74	35	35	540	10143	71	112	الجزائر
47	27	/	546	7569	70	86	قسنطينة
43	24	/	467	3282	193	201	وهران
164	86	35	1553		334	399	
			23547		733		المجموع

وفي سنة 1901م كان عدد الأطفال الجزائريين في سنّ الدّراسة (633190) طفلا، أي ما نسبته 3.8% من الجزائريين كان له نصيب في المدرسة¹. هذا دون ذكر الآثار المختلفة التي يسمّم بها هذا التّعليم (أولي الحظّ) من الجزائريين.

والصورة توضّح بجلاء حالة التّردّي وسرعته، ففي الوقت الذي كان يُفترض زيادة عدد المدارس والمعلّمين، أو على الأقل الاحتفاظ بما هو موجود؛ راحت آلة الاحتلال المدمّرة تعبت بأخطر مقوّمات الأمّة، فصادرت المؤسسات التّعليميّة، وحوّلت معظمها لغير ما بُنيت له، وهُدّمت كثيرا منها، وشرّدت من فيها، وهذا في الفترة الأولى للاحتلال، ويأتي تقدير الأعمال المنجزة وتقييمها على نفس الخطوات والإجراءات، ومع شديد الأسف يتمّ الحصول على نتائج مقاربة جدّا، فإذا ما اعتبرنا أنّ نحو (25) تلميذا كان المعدّل السائد في معظم الأقسام عبر مختلف جهات الجزائر؛ فإنّ نحو ثلاثة آلاف وسبعمئة (3700) تلميذ ونحو: مئة وأربعين (140) معلّما قد أدركهم مصير مظلم في العاصمة وقسنطينة فقط ولنا أن نسحب الإجراء على غيرهما من الحواضر! ثمّ إنّ ذلك لم يكن إلّا محصّلة المشهد التّعليمي وستكون هناك إجراءات أخرى أشدّ سوءا وأعمق أثرا.

3-2-1-4- تقنين تجفيف موارد الإنفاق ومصادرة الفضاء العلمي وأثرهما على التّعليم: اتّجهت
دوائر الاحتلال -وباسم القانون مرّة أخرى- إلى قطع أرزاق القائمين على شأن التّعليم عامّة والتّعليم العربيّ في المساجد والمدارس الملحقة بها خاصّة، فبعد قرار مصادرة الأملاك الوقفيّة (1830م) يُصدر وزير الحربيّة الدّوق (دامالطي/ Damaltie) في 23 مارس 1843م "قرارا من ثمانية موادّ جاء في الأولى منه: إنّ كلّ الوصولات والمصاريف الناتجة عن المؤسسات الدّينيّة والأوقاف مهما كان نوعها قد أصبحت ملحقة بالميزانيّة الاستعماريّة الكولونياليّة"² وقد حاولت إدارة الاحتلال إظهار هذه الإجراءات

¹ - إبراهيم مهيد، المثقّفون الجزائريون في عمالة وهران خلال الحقبة الكولونياليّة الأولى، 1850-1912م (دراسة تاريخيّة واجتماعيّة)، د ط. الجزائر: د ت، دار الأديب، ص 47.

² - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، ج 5، ص 167.

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملايسات التأسيس

في ثوب خطوات تنظيمية وإدارية، تراقب من خلالها حركة أموال الوقف، بعد أن اتهمت وكلاءه بسوء تسييره، لكن الواقع أنه كان -كغيره من القوانين السابقة- طعنة ظاهرها النظري إداري تنظيمي معلن وباطنها اختراق شبكة المعلمين، والتحكم فيها، وقد كانوا يتوزعون أفقياً على معظم -إن لم يكن كل- التراب الوطني، وإشهار قانون صرف رواتبهم عوضاً عن وكلاء الأوقاف، يعني في جانبه العملي أحد أمرين:

- 1- القبول بالوضع التعليمي الجديد، والانتظام في سلك نظام محتلي، يمرر أهدافه عبر معلمي البلد وشيوخه، فيكونون أدوات هدم بعد أن كانوا أدوات بناء.
- 2- رفض الانتظام ضمن المنظومة الجديدة ذات التأطير الفرنسي في المضامين والأهداف والمصير بعد ذلك؛ خلو الساحة من الوطنيين بسبب الهجرة، أو تغيير الوجهة لضمان لقمة الرزق، وهو الوضع الذي أفرز وضعاً للعلماء أخذ أشكالاً:

• **المهاجرون والمهجرون:** والجمع بينهما هنا باعتبار أن عطاء هذه الفئة العلمي للوطن قد تقلص إلى حد بعيد، ولم يعد يحسب لهم إلا ولاؤهم للجزائر، من ذلك ما حدث للمفتي (شيخ الإسلام) محمد ابن العنابي (ت1850م) الذي نفاه كلوزيل، وابن الكبابي صاحب الموقف الشهير من معاملة الاحتلال للأوقاف واللغة العربية، وهو الذي تولى الفتوى مكان المانجلاتي بعد وفاته، وكان مصيره النفي أيضاً على يد بوجو سنة 1843م، وغيرهما كثر¹ وقد تناول القضية بتفصيل أكثر، واستحضار حالات أخرى الأستاذ أبو القاسم سعد الله² وإضافة إلى ما تركه نفي أمثال هؤلاء من فراغ علمي وروحي، فقد طرح - في ما بعد- إشكالا من نوع آخر مفاده: هل يعدّ نتاج هؤلاء في مهاجرهم جزائرياً بحكم جزائرية أصحابه؟ أم ينسب إلى الجغرافيا التي أنتج عليها، كبلاد الشام ومصر وتونس والمغرب وغيرها؟ وهو ما ستعرضه مقارنة المهاجر الجزائري.

• **المنسحبون من الحركة العلمية والثقافية:** وهي فئة كبيرة من المعلمين الذين ضاقت بهم السبل في كنف المنظومة التعليمية الجديدة التي سطرها الاحتلال، فانسحبوا إلى نشاطات أخرى -على ندرتها- يؤمنون بها لقمة العيش، إذ لم يكن الحصول على وظيفة معلم لدى الاحتلال أمراً هيناً، فهو على ندرة

¹- ينظر: أبو القاسم سعد الله "دور المهجرين الجزائريين في بلاد الشام" أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ط. خ. الجزائر: 2009م عالم المعرفة/ دار الرائد، ج4، ص192 وما بعدها.

²- ينظر: أبو القاسم سعد الله "قضية ثقافية بين الجزائر وفرنسا سنة 1843م: موقف ابن الكبابي من الأوقاف واللغة" أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ص11 وما بعدها.

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملايسات التأسيس

المناصب فيه؛ يُشترط في طالبيه شروطاً تتضمن ولاءً منقطعاً لسياسة فرنسا، والاستعداد للقبول بكلِّ المراسيم والتَّعليمات الواردة من الجهة العليا، كما تشترط فيه نظافة يده وأيدي آبائه من كلِّ ما قد يسيئ لفرنسا.

• **المُستقطَّبون من أعلام المرحلة:** كان من الاستراتيجية التي انتهجها الاحتلال، هو استخدام ثلَّة ممَّن أُلقت عليهم ألقاباً من قبيل: المُفتي، والإمام والحزَّاب (القارئ للحزب الرَّاتب) والمدرِّس وهؤلاء تعدَّدت مشاربهم الفكرية جرَّاء طبيعة تكوينهم، فمنهم ذوو التَّكوين المعرفي المتقدِّم، ومنهم من كان ذا مستوى متواضع، وقد أُسندت أستاذية المدرسة العربية الفرنسية الشَّرعية لعبد القادر المَجَّوي (ت1914م) وهو خريج القرويين، وتولَّى إدارة مدرسة تلمسان محمَّد الزَّقاي وهو خريج الأزهر وكان صحافياً، ودَّرَس حسن بن بريهمات (ت1884م) وقد تمكَّن من التُّركية والفرنسية بالمعهد النَّابليوني الذي أنشئ سنة 1857م، ودَّرَس عاشور الخنقي (ت1929م) بقسنطينة والهامل في سبعينات القرن (19) وهو خريج زاوية نفطة بتونس، ومنهم من دَرَس بالشرق ورجع، فتولَّى مناصب في حكومة الاحتلال كالطَّيب بن المختار الشَّاعر النَّاثِر، وأحمد المجاهد الغريسي، وأبو بكر بو طالب.

ولئن كان ذكرُ هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر؛ فإنَّ ذلك يأتي في سياق الاستدلال على إجراء الاستقطاب الذي أقدم عليه الاحتلال بعد أن استأمن جانب هؤلاء، إمَّا لضعف مستواهم العلمي، وإمَّا لتقيُّن مسالمة بعضهم الآخر، وإمَّا لضعف تأثيرهم في الجماهير، وإمَّا لاستغلال المعارف الواسعة لبعضهم في خدمة مشروع الاستشراق، وقد كانت هذه المواصفات هي التي يتمُّ التَّقييم على أساسها من قبل الملاحظين الأُمْنِيِّين، والمفتِّشين المُشرفين على التَّعليم. وفي كلِّ فقد أظهر المخبر الكولونيالي حنكةً عاليةً في تسيير هذه المرحلة، ولقد كان من ثمرات هذا الاستقطاب:

- إظهار فرنسا بمظهر المُتسامح الدِّينيِّ واللُّغويِّ، والرَّاعي لثقافة أهل البلد.

- استغلال نخبة المرحلة في إمداد المُستشرقين بالمادَّة العلمية العربية المختلفة.

لقد كان تَصَدُّر هذه الطَّائفة من العلماء الجزائريِّين بمثابة حلقة الإبقاء على سند التَّعليم العربيِّ متَّصلاً، بعد أن انقطعت مُعظم سلاسل سنده بفعل إجراءات الاحتلال الهمجية، والتي استهدفت حواضر العلم، وأوقافها، ومعلِّمها، وتشكَّلت هذه الطَّبقة من شيوخ ذوي نزعتين مُختلفتين -حسب سعد الدِّين بن أبي شنب- ترجعُ إلى طبيعة تكوين كلِّ فئة، فمثَّل فئة المحافظين شيوخُ من أمثال: محمَّد السَّعيد بن زكري، وعلي بن الحاج موسى، وعبد القادر المَجَّوي، وأبو القاسم الحفناوي وعبد الحليم بن سماية... إلخ

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملابسات التأسيس

فالمجّاي -مثلا- مدينٌ في تكوينه للمغرب الأقصى الذي لم يَلَحُقه عبث الاحتلال "فلم يفتن لوسائل التّفسيخ التي أخذت فرنسا تهدم بها بنيان الإسلام والعروبة حجرة بعد حجرة"¹ ومثّل فئة المجدّدين أمثال: محمّد بن مصطفى بن الخوجة، ومحمّد بن دالي عمر مصطفى الشّرشالي، عبد الرزّاق الأشرف، محمّد بن أبي شنب... إلخ، فمحمّد بن مصطفى تلميذ بن زكريّ، العارف بأساليب التّعليم الحديثة، والدّاعي إلى التّجديد؛ قد "فتح عينيه على واقع استولى فيه الأجانب على أرض أجداده، يحون شيئا فشيئا آثار ماضي الجزائر الماديّة والظّاهرة، مشيدين عوضها مباني أوربيّة ويسمّون العقول ببعث الإلحاد، فشرع بالأخطار تحيط بالأمة الجزائريّة مهدّدة عروبته وإسلامها"² وقد انتهت هذه السّياسة إلى أن أصبح المدرّسون في الجزائر كلّها لا يتجاوز (21) مدرسا، وعدد المفتّين (وهم مدرسو المساجد) كان (25) مفتيا³ ولأيّ متابع أن يحكم على وضعية اللّغة العربيّة أو أيّ تعليم من أيّ شكل في بلد ليس فيه من الذين يمكنهم التّعليم إلّا مثل هذا العدد.

3-2-1-5- فلسفة الاحتلال في تقييم التّعليم السّائد، ومبرّرات إعادة البرمجة: من الخلفيّات النظريّة التي صاغ في ضوءها خبراء الاحتلال استراتيجيّات القضاء على اللّغة العربيّة، تشريح نمط التّعليم الذي وجده الاحتلال سائدا في ربوع الجزائر، فهو تعليم بسيط، أساسه حفظ القرآن الكريم ومعرفة اللّغة العربيّة باعتبارهما "نوعا من التّعبد، وجزءا من التّعقّق في الدّين، وليس وسيلة لفهم الحياة وخوضها والصّراع الفكريّ مع الأمم الأخرى، وقد اختفت من البرنامج أو كادت دراسة التّاريخ الإسلاميّ والعلوم الطّبيعيّة والرياضيّات والحساب والجبر والطّب وعلوم الفلاحة والتّجارة"⁴ ومع ذلك فقد خضع هذا التّعليم لدراسة مستفيضة في شكله ومضمونه، وتحليل دقيق لآثاره وأبعاده، فرغم بساطة شكله، ووسائله، إلّا أن شموله وعمق تأثيره، ومستوى القابليّة التي كان يحظى بها سواء عند المتعلّمين أم عند أوليائهم؛ قد أقصّ مضاجع الفرنسيّين، وتنبّهوا إلى أنّه تعليم لن يستقرّ معه مقامهم، فهو تعليم قاعدته الأولى: القرآن الكريم، وبلسان عربيّ، فجمع بين ثنائيّة بوصفّين لطالما كانت بؤرة صراع تاريخيّ بين الإسلام والمسيحيّة.

¹- سعد الدّين ابن أبي شنب "الدراسات العربيّة في الجزائر" (مقال ملحق بكتاب: إسماعيل العربيّ، ط خ. الجزائر: 2007م، د، ص84-85.

²- سعد الدّين ابن أبي شنب "الدراسات العربيّة في الجزائر" ص84-85.

³- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، ج3، ص63.

⁴- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، ج3، ص20.

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملايسات التأسيس

الوصف الأول: تعليم عربي فصيح: إن قيام هذا التعليم على الحفظ المتقن للقرآن الكريم بطريقته التقليدية المعروفة في بلاد المغرب الإسلامي، منح القاعدة الشعبية الجزائرية العريضة حصانة لسانية صلبة، جَبَلَتْ نُطْقَهُ على أعلى مستويات الكلام العربي فصاحة، وإن لم يكن هناك ما يتبع ذلك الحفظ من الشرح والبيان، فإن الرصيد المعجمي العربي الفصيح الذي يُحَصِّلُهُ الطِّفْلُ كأثرٍ لهذا التعليم؛ لا يوفِّره له أي نمط تعليمي آخر، ومن هنا سيكون المستوى الفصيح من اللغة العربية على مسافة قريبة جدًا من اللغة الأم التي يباشر بها المجتمع الجزائري كله حياته العامة، وإن أي محاولة إصلاحية تستهدف الارتقاء بأسلوب الأداء اللغوي المأمول، ستجد أمامها أرضية عريضة من المؤهلين للاستعمال النموذجي للغة، وهذا ما سيكون به المجتمع أكثر حصانة من أي ابتلاع حضاري وارد، في وقت تعمل سلطات الاحتلال على تفتيت كل ما يعقد عليها إجراءات التفتيت.

الوصف الثاني: تعليم عقدي ديني: في تقرير أعدّه سنة (1884م) أحد أركان الاستشراق الفرنسي في الجزائر (لويس رين / Louis Renn 1838-1905) والمشتغل على الحياة الدينية والثقافية الجزائرية بنحو (10) دراسات في مواضيع مختلفة، ينقل الأستاذ سعد الله من شهادته حول الأهداف الحقيقية للاحتلال باستهداف نظام التعليم فيقول [رين]: "لقد كان هدف فرنسا منذ 1830م هو الحط من التعليم القرآني، وتعويضه تدريجيًا بتعليم أكثر عقلنة وأكثر علمية، وبالأخص أكثر فرنسية (فرنسية) وقد نجحت فرنسا في الفصل بين الدين والتعليم، وقد كانا في الماضي لا ينفصلان¹ تصريح يندرج ضمن عديد التصريحات التي تشي بعقيدة الاحتلال الصليبية، ونيته المبيتة في مسخ ما تبقى من المجتمع وإعادة صياغته حسب رؤية المخبر الكولونيالي.

3-2-1-6- تدریس العامية؛ وبداية ترسيم التآكل الداخلي للأداءات الوطنية: لقد كان الاصطدام اللغوي الأول لسلطات الاحتلال الفرنسي مع أداءات السُّكَّان المحليين مبررًا عزز مشروع تعلم الدارجة الجزائرية، واتخاذها وسيلة اتصال مباشرة، ومع العمليات العسكرية الأولى لاحتلال مدينة الجزائر ووهران ثم قسنطينة فعنابة؛ سارعت إدارة الاحتلال إلى إنشاء كراسي لتعليم الفرنسيين اللغة العربية الفصحى والعامية، وكان القصد من وراء تعلم الفصحى، هو استكشاف تراث المستعمرة الجديدة مكتبيًا، وأمّا تعلم العامية فلصّمان تواصل آمن وميسور مع سُكَّان البلاد المحتلة، مع أنها عامية لم يكن لمعهد الدراسات الشرقية بفرنسا عهدٌ بها، واستمرارًا لعملية التواصل كما يريد الاحتلال، اتخذ تعليم وتعلم العامية وسيلة

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ص23.

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملايسات التأسيس

تواصل، وتحولت مع الوقت إلى استراتيجية اخترق بها المخبر الكولونيالي البنية اللغوية العربية الفصيحة في الجزائر، ورسم بذلك بداية التآكل اللغوي (Attrition Language) الداخلي لها، ومن خلالها بثّ عاملاً خطيراً لتفتيت البنية الاجتماعية.

3-2-1-7- التّعليم وإدارة الوقف في الجزائر المحتلة مسألة عسكرية: توجّ الاحتلال الفترة الأولى من وجوده - والتي دامت نحو عقدين - بتدمير النظام التقليدي للدولة الناشئة سياسياً، واكتساح عتاة الضباط الفرنسيين للشمال الجزائري (باستثناء منطقة زواوة) عسكرياً، وقدرت الهندسة المدبرة أن يكون هناك فاصلٌ يُعاد فيه ترتيب البيت الجزائري، فتقيم الفترة السابقة، ويخطط في ضوءها لما هو قادم.

وقد كان ختام هذه المرحلة قراراً توجّ به الاحتلال شائن أعماله في الجزائر، فصدر في 16 أوت 1848م قرارٌ يقضي بتعيين الوصاية الرسمية على شؤون التّعليم في الجزائر المحتلة، ألحق فيه القرار شؤون تعليم الطائفة اليهودية و(الكولون) بوزارة التّعليم الفرنسية، وقرّر إلحاق شؤون التّعليم العربي والإسلامي في الجزائر بوزارة الحرب، وهو ما نصّت عليه المادة الأولى من القرار، بينما تناولت المادة الثالثة جانب رجوع رئيس مصلحة التّعليم في المدارس الفرنسية واليهودية إلى وزير التّعليم، بينما أُسندت مهمة النظر في شؤون المدارس العربية الإسلامية إلى الحاكم العام نفسه، فأكد القرار -مرة أخرى- أن هدف التّعليم الموجّه لأبناء المحتلين هو معارف وإعداد للحياة، بينما يُعدّ النظر في شأن التّعليم العربي الإسلامي مسألة عسكرية، يُسير فيها ما بقي من الأموال على أنه مالٌ في يد محاربين، وتُعامل مرافقها بوصفها مراكز تهديد للوجود الفرنسي، ويُنظر فيها إلى المكوّن البشري من المعلمين والمتعلمين على أنهم الأعداء القادمون، وأُردف هذا القرار بعد أقلّ من شهرين في 03 أكتوبر 1848م بقرار أُسند فيه لخبير المؤسسات الدينية في الجزائر المستشرق (بارون كارا دي فوكس / baron carra de vaux) مهمة إحصاء ما بقي من مؤسسات دينية وتعليمية ومراقبة حجم ونوع مواردها، وطبيعة موادّ الدراسة فيها ومنهجها، وحقيقة المدرّسين ومواقفهم، وغير ذلك ممّا يتعلّق بشؤون هذه المؤسسات.

3-2-1-8- تشديد الرقابة على الحدود: كان من متضمّنات اقتراحات لجنة بيدو العامة وجوب إنشاء تعليم مزدوج يُمكن فيه للفرنسية بعد أن حُوصرت اللغة العربية إلى حدّ بعيد، وهي التوصية التي تمخّض عنها إنشاء جملة من المؤسسات التعليمية المختلفة الأشكال، والمتعدّدة الأهداف، ولاستكمال الحصار ومنح فرص أكبر للغة الفرنسية في الانتشار؛ كانت التوصية بتشديد الرقابة على الإمدادات

الفصل التمهيدي: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملايسات التأسيس

المحتملة من دول الجوار، بحكم العلاقات التاريخية "ومنذ هذه الفترة (حوالي 1893م) ظلت حدود الجزائر مغلقة في وجه الهجرة نحو الشرق"¹ متذرة بتأثير أفكار الجامعة الإسلامية بقيادة جمال الدين الأفغاني، والدأعية إلى مدافعة الاستعمار الغربي للبلاد الإسلامية، وقد كان هذا الإجراء دليلاً صريحاً على أن فرنسا ماضية في سياسة أخطر، وهي عزل الجزائر عن محيطها الطبيعي، والاستفراد بعمليات المسخ الثقافي، والحصار اللغوي، دون أن يكون لها منازع يفسد عليها مشروعها.

3-2-1-9- تشديد الرقابة على الزوايا: ضمن الإطار نفسه الذي شهد إجراءات عهدة (ديقيدون)

التعسفية، شدد الاحتلال الرقابة على الحدود، فراحت فرنسا تضيق على ما تبقى من حصون الهوية وهي تلك البقية من الأقسام القرآنية المنفردة، أو الملحقة ببعض المساجد، أو تلك الزوايا المنتشرة في البوادي والأرياف، والتي بقيت آخر ما تمنعت به اللغة العربية، فحاق بها مكر سلطات الاحتلال حين قررت تعميم سلطة التفتيش على المدارس القرآنية والزوايا الخالصة للجزائريين بدعوى أن التعليم بها مصنف تعليمًا ابتدائيًا، ولا بد من مراقبته كما تُراقب بقية المؤسسات التعليمية وكما استهدفت الرقابة المواد المدرسة، ومصادر التمويل، فقد منعت غير الجزائريين من تولي التعليم في هذه الزوايا، ومن ثم يجب "قطع الطريق على المغامرين في نظر الفرنسيين، وهم أولئك المسلمون الذين يأتون إلى الجزائر من المغرب أو من تونس أو غيرهما لنشر التعليم، وتولي القضاء والإمامة بدعوى أن الجزائر قد أصبحت شاغرة من أصحاب هذه الوظائف"² وقد كانت هذه الرقابة عبئاً ثقيلاً آخر أرهقت به آلة الاحتلال القائمين على التعليم الإسلامي، الذي لا تكلف فرنسا نفسها من أعبائه شيئاً، وهي بعد ذلك تريد أن توجه هذا التعليم إلى ما يخدم وجودها ويدعمه، وتمنع عنه كل ما يهدد وجودها، ولو كان على سبيل الظن ولعل هذا الإجراء كان آخر ما بلغه صلف الاحتلال وجبروته، وبه ختمت فترة ما بعد سبعينيات القرن (19) إلى نهايته، أسوأ ما عرفت الجزائر من عهد الاحتلال كله، مع أنه ليس من أيام الاحتلال ما ليس بسوء.

وخلاصة القول؛ إن الناظر في تفاصيل إجراءات الاحتلال لإماتة اللغة العربية في الجزائر مجتمعةً سيلاحظ أنها إجراءات تبدو معزولة في محيطها، ولكن واقعها فقرات لمشروع تخطيط لغوي بتدخلات يصعب الفصل بينها، فهو مشروع متعدد في أشكال تطبيقه، متعاقب في مراحل تنفيذه، متراوح بين شق

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 6، ص 366.

² - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 3، ص 370.

الفصل التمهيدى: ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطلق وملابسات التأسيس

تشريعيّ مرّة، وبين جانبٍ رقابيّ حينا، ومتنقّل بين ميادين الحياة العامّة المختلفة، فبين التّعليم المدجّن والتّجهيل المقنّن، إلى الإعلام الموجّه، والتّضليل المموّه، ومن الخنق للحريّات، والتّضييق في الأرزاق إلى النّقي للطّاقات، والتّهجير للأعلام، ومن الهدم للمؤسّسات والمصادرة للأوقاف، إلى السّلب للمخطوطات والاستنزاف للتّراث، وبين كثير ممّا يطول ذكره ويستعصي وصفه؛ حاول هذا المبحث بناء صورة عامّة لما واجهته اللّغة العربيّة في جزائر الاحتلال من إجراءات بدأت بالإحاطة والتّضييق، وثنت بالإبعاد والتّحييد، وانتهت إلى الإبادة بقصد الإماتة.

الفصل الأول:

مشروع الإحياء اللُّغويّ في الجزائر؛
المكوّنات والتّجليّات.

الفصل الأول

مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر؛

المكونات والتجليات.

توطئة: قد لا يكون من الممكن الحديث عن افتراض وجود حركة إحياء للغة العربية في الجزائر الحديثة، ولا عن معالمها وإجراءاتها، إذا لم يسبق ذلك إثبات وصف لما يسبق الإحياء غالباً، وهو الموت أو الإماتة، وقد يكون الحديث عن موت اللغة العربية في أي فترة من فتراتنا على قدر من المبالغة التاريخية والعلمية، ليستتبع ذلك حديث آخر عن المقصود بحركة إحياء اللغة بالمعنى اللغوي للمصطلح إلا إذا كان المقصود بذلك هو التراجع الكبير للغة العربية، جراء تحييدها من مهامها الوظيفية في الحياة العامة، ولفترات متعددة وطويلة من مسيرتها، أو بما يخترق بناها من تغيير، وهما من أبرز المعايير التي تقيم بهما اللسانيات أوضاع اللغات في أمنها وتهديدها¹ ويظهر الوضع على صورة أوضح، إذا ما أُقيمت المقارنة بين حالات اللغة العربية في كل فترة، وبما كانت عليه أيام ازدهارها التي بلغت بها العالمية، وهي فترة نموذج تستشهد بها الكثير من الآراء اللسانية في معرض الدعوة إلى إعادة حضورها وإن بتمثل إجراءات وآليات تناسب كل مرحلة. ومن هنا؛ فإن استعراض مسألة إحياء اللغة العربية في جزائر القرن (20) -على افتراض وجودها- يأتي عقب ثلاث فترات كبرى، اتفقت كلها على النزول باللغة العربية من مكانتها السامية التي حازتها خلال القرون (05) الهجرية الأولى، وهي باختصار:

أ- التوقف الحضاري الذي شهدته العالم الإسلامي كله، وبمُتضمناته الفكرية والبشرية واللغوية والتي أعقبت سقوط بغداد (656هـ - 1258م) وتأكد بسقوط غرناطة (897هـ - 1492م).

ب- طبيعة الخلافة العثمانية التي كانت في جبهتها السياسية والعسكرية قوة عالمية ضاربة، وحضورا دولياً كبيراً، ولكنها كانت انتكاسة فكرية وثقافية ولغوية، تركت آثاراً سيئة على فكر التشكيلات البشرية المكونة لجسم الإمبراطورية وثقافتها ولسانها، وهو الجانب الذي تتفاوت فيه -نسبياً- هذه المكونات.

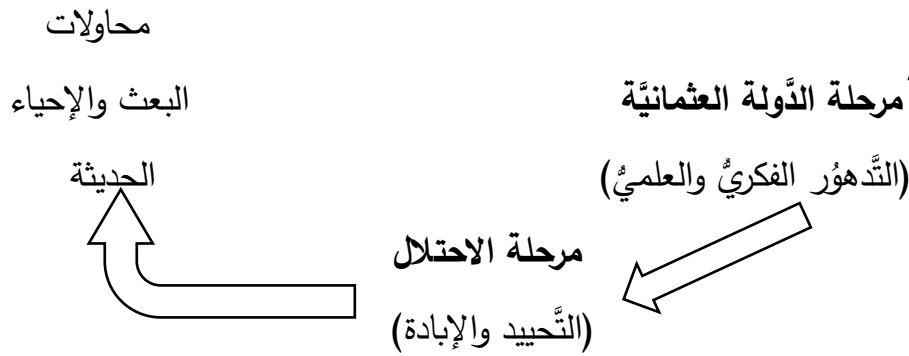
¹ - ديفيد كريستال، موت اللغة، تر: فهد بن مسعود اللهيبي، د. ط. د ب: د د، ص 50.

ج- وباء الاحتلال الذي خلفَ العثمانيين على مكونات الإمبراطورية مشرقا ومغربا، وهو الاستخلاف الذي استكمل مسيرة الضعف باستضعاف أشد في صورٍ عديدة وجبهاتٍ كثيرة، تأتي جبهة اللغة (موضوع الأطروحة) في صميم آثاره.

وقد يكون -إذن- من المنهجية العلمية والتاريخية أن تتأسس حركة الإحياء المفترضة على واقع هو صنيعة قرون متواليّة من الإهمال، وثمره فترات متلاحقة من التراجع، أفضت كل فترة إلى التي تليها بأسباب الضعف والإبعاد، فال وضع اللغة العربية في كل مرحلة إلى وضع أسوأ من سابقه. وإذا كان من المسلّمات التاريخية القول باستمرار تراجع وانحدار اللغة العربية طيلة المراحل المشار إليها؛ فإنّ أية محاولة تتحقّق فيها مواصفات وشروط معلومة، تسعى إلى عكس مسار حركة الانحدار؛ تُعدّ حركة بعث وإحياء، وهو ما يكمن إيجازه في الخطاطة:

مرحلة التوقف الحضاري

(سقوط بغداد - سقوط غرناطة)



1- السّياق التاريخي لمشروع الإحياء اللغوي في الجزائر: شهدت بداية القرن (20) حراكا اجتماعيا وثقافيا جزائريا أقل ما يقال عنه: أنّه كسرٌ للرّتابة التي عرفت العقود الأخيرة من القرن (19) وبإيراد جملة النّشاطات والتطوّرات التي عرفها العقد الأوّل والثّاني من القرن (20) وما تركته من آثار على المسألة اللغوية تحديدا، ستكون محاولة تقييم معالم الفترة باعتبارها بداية تحوّل عامٍ أشار إليه كثير من الدّارسين، ومن ثمّ رصد مدى صحّة اعتبار الفترة بداية الإحياء اللغوي في الجزائر الحديثة.

لقد عرفت هذه الفترة أحداثا وأعمالا لم تتوافق على الجملة في الزّمن، ولم تتحدّ كلّها في مسار واحدٍ بيّن، ولكنّها جاءت أحداثا أشتاتا تعدّدت أماكنها، وتداول عليها أشخاصٌ اختلف عطاؤهم كمّا ونوعا ولكنّ الميزة العامّة، كانت الاشتراك في المنزع، والاتّفاق في الوجهة والمسار، رغم غياب إطارٍ منظم واضحٍ تتفق فيه الآراء والأفكار، وتجتمع فيه الجهود والأعمال.

ولعلَّ أهمُّ ما يُلفتُ النَّظرَ خلال هذه الفترة؛ هو ظهور المشاهد التي عكست بوضوح آثار الواقع البائس الذي أصبح عليه الجزائريُّون بفعل الاحتلال، وهو واقع أشبه ما يكون بالموت، وبدا طبيعياً أن يكون ردُّ من أدركه الموت الانتفاض لعلَّه يُدرك شيئاً من الحياة.

لقد بلغ الأمرُ باللغة العربيَّة في الجزائر أنْ عُدَّتْ مَيِّتَةً، فلم يُعَدْ لها وجودٌ حاضِرٌ مقبولٌ، ولا يُؤمَل لها ظهورٌ قريبٌ مأمولٌ، فلقد أشاع الاحتلال وفاتها، وهياً أسباب وراثتها، وهو الواقع الذي حرَّك رفضاً طالما حمله الجزائريُّ لعقودٍ "ذلك أنَّ الهوية التي شكَّلَ المساسُ بها وبمكوِّناتها الاجتماعية والثقافيَّة والإثنيَّة مدخلاً أساسياً، ومُستهدَفاً مركزياً في استراتيجيَّة الاحتلال؛ سيتحوَّل مع تقدُّم الاستعمار وتفاقم مضاعفاته مصدراً رئيسياً لاستنهاض الوعي الوطنيِّ، وتحديد توجُّهاته وموضوعات معركته"¹ ولمَّا كان هذا العاملُ على درجةٍ من الأهميَّة، ترفَّعه إلى أن يكون أهمُّ أسس أيِّ حراكٍ وأقواها؛ فقد يكون من الأجدر تفصيله إلى نوعين:

أ- دافع ذاتيٍّ عامٍّ: ومثله موقفُ عامَّة الشعب، إذ رغم ما تفشَّى فيه من الأميَّة والجهل والفقر والمرض والتشريد، وما أمعن به الاحتلال من إبادةٍ ما أمكن وتدجين ما تبقي، فإنَّ بذرة الرِّفض الجمعيِّ الصَّامت تَأبَّت على التطويع، مُؤثِّرة الصُّمودَ على الخضوع والقبول، وتلك حالة ستتحوَّل رصيِّداً دافعا للأمة نحو خلاصها، وحادٍ يسوقها نحو حياتها.

ب- دافع ذاتيٍّ خاصٍّ: وأعلنت عنه تلك المحاولات الفرديَّة لطائفةٍ عن الجزائريِّين الذين حصَّلوا نصيباً من العلم والفهم والرِّفض، فكان رفضهم ناطقاً، ولو خافتا، وقد كان نطقاً علامةً على بقاء حياةٍ وإنَّ السَّعي في أيِّ نشاطٍ، ومن أيِّ نوع، وبأيِّ حجمٍ في مثل تلك الأوضاع، يُعَدُّ إنجازاً.

لقد كان ما نشأ عند نُخبة الأمة وعمومها رغبةً حقيقيَّة في خرق الرِّتابة القاتلة، وشعورا صادقا بعدم الرِّضى الذي أُعلن عنه بجملةٍ من المحاولات التي ما فتئت تتَّسع وتتنعش، وتبحث لها عن أنصار وأعوان، تُهذَّب مرَّةً بنصيحة ناصحٍ، وتُدَّعم أخرى بصوتٍ مناصرٍ، وهو الشُّعور الذي علَّق عليه أحدُ أفراد النُّخبة الجزائريَّة ذات التَّكوين الفرنسيِّ سنة 1914م ناقما على أيِّ حراكٍ لا يُشرف عليه الاحتلال ولا يُؤطره، بالقول: "هذه الطَّبقة مشبَّعةٌ بالغرور والكبرياء، وأنَّها تحلم بلعب دورٍ في شؤون الحُكم، وترتكز

¹ - محمَّد مالكي، الحركات الوطنيَّة والاستعمار في المغرب العربيِّ، د ط. بيروت: 1994م، مركز دراسات الوحدة العربيَّة ص155.

على الأهمية الإسلامية¹ ولإلقاء مزيد من الضوء على طبيعة هذا الحراك ومداه، يرى البحث استعراض الملاحظات التاريخية والاجتماعية الذي نشأت في كنفها نواة التحول الأول نحو استعادة حياة اللغة العربية، من دون إغفال أثر العامل البشري بمستواه الفكري واللغوي وحجم جهوده، باعتباره أول الأدوات المنتجة، وأساس أي نشاط.

يُرجع معظم دارسي تاريخ الحركة الوطنية في ذروتها، واستواء مظاهرها إلى بداية الثلاثينيات من القرن (20) معتبرين هذه الفترة فترة ظهور التنظيمات كاملةً محدّدة البرامج والرؤى، ومنهم من يعود بها إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى، مؤرخاً لها بحركة الأمير خالد سنة 1920م. ويردّها بعضهم في أفضل الأحوال إلى حدود 1912م على إثر تقديم وفد جزائري مطالب برفض التجنيد الإجباري إلى الحكومة الفرنسية، وقد يكون هذا التاريخ على درجة من الصواب في ما يتعلّق بالنشاط السياسي وبداية نشأة أطره وأشكاله، ولكن حركة التاريخ تنصرف في كثير من الحالات إلى أنّ ظهور "الحركات القومية للشعوب المضطّدة في أوروبا أو في غيرها، قد وُجدت أولاً في أشكال أخرى غير الأحزاب المنظمة فقد ظهرت أولاً كجمعية سرّية، وتمردات وصحافة، وانتعاش أدبي ونشاطات اجتماعية كالنوادي، ثم بدأت تتحدّى مضطّديها بطرق مختلفة² وبناءً على هذا فإن منشأ الحراك الإحيائي في الجزائر لم يكن وليد لحظة أو مناسبة؛ بل كان نتيجة تراكم جملة من الأحداث، لعل أهمّها ما كان نابعا من الذات الجزائرية المتشكّلة تدريجياً خلال العقد الأخير من القرن (19) والعقد الأول من القرن (20) استجابة لتفاعلات محلية وإقليمية ودولية.

2- حراك الإحياء، وترتيب المشاهد: أثر البحث طريقة استعراض مشهد النشأة المتدرّجة للإحياء اللغوي في الجزائر، ومتابعة حركة عناصره، ومحاولة ترتيبها حسب ما كان عاملاً دافعاً ووسيلة فاعلة وما كان منها مُنجزاً وثمرّة - على أنّ هذا التقسيم ليس على قدرٍ من الكمال الذي لا يطاله الخل، وإنما هو تقسيم إجرائي - عمدت فيه الأطروحة إلى تفصيل خطوات حركية الإحياء على سبيل إثباتها وإثبات الخصوصية الجزائرية فيها، سواءً ما تعلّق بمشروع الإحياء في ذاته، أم ما تعلّق بالسياقات المختلفة المحيطة به.

¹ - الشريف بن حبيّس، الجزائر الفرنسية كما يراها أحد الأهالي، تر: فيصل الأحمر، د. ط. الجزائر: د. ت، دار المسك، ص 141.

² - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ط. خ. الجزائر: 2011م، عالم المعرفة، ج 2، ص 95.

ومع تيقن البحث من أن كل عناصر الإحياء على درجة من التداخل الذي لا يمكن معه الفصل بين ما هو سبب وما هو نتيجة، فكل العناصر عوامل دافعة، وكلها ثمرات مستفيدة، ومنهج البحث يقتضي تقييد خطوات الحراك إقراراً لكل عنصر من عناصره بفضل السبق والتأثير، على أنه لا يعني ذلك انتقاصاً لدور عامل من العوامل، أو تقديم أحدها على الآخر.

وبناءً على الذي سبق، سيتناول هذا الفصل عناصر الإحياء التي ترى الأطروحة لها دور الإنشاء والتأسيس، وهي معلمة الإحياء باعتبارها الفاعل الحقيقي، ثم عامل الجمعيات والنوادي بوصفها الفضاء المكاني الذي نشأ فيه الحراك واستوى ثم المشهد الصحفي بوصفه الحامل الأكبر لتفاصيل الحراك والموتق لمسيرته، ثم عرض عامل التعليم الإحيائي في فلسفته ومساره، ثم مشاهد الحياة الثقافية التي عكستها ثمرات المطابع من الكتابة والتأليف، ثم نشاط المؤسسة الدينية وأثر استرجاع وظيفتها في الإحياء، وقد اختارت الأطروحة طريقة عرض الأحداث إيراداً وتحليلاً ومناقشة، بعد متابعة تطوراتها باجتزاء القطاعات المبرزة لها، من الصحافة والإعلام والتعليم وحركة التأليف وتحقيق التراث وبعث النشاط الثقافي ذي الطابع الاجتماعي من قبل الجمعيات المحلية والنوادي، وحتى المطالبات والاحتجاجات عن طريق العرائض والصحف.

إن استعراض المشهد اللغوي عبر القطاعات السالفة، يظهر بوضوح مقاطع المسار مجزأة ويجلي مستوى النضج - وإن في مرحلته الأولى - بارزة، وهو مستوى وإن كان أماراً على فترة حمل عسيرة بفعل ما أحاط بها من العقبات، وما تلبس بها من المضايقات؛ فإن ذلك قد تشكل دليلاً عن الرّفض الشعبي النوعي، الذي لم يأخذ شكل الثورات المسلحة التي لقيت المصير نفسه في كل مرة، وهو في الحقيقة امتداداً لرفض لازمه منذ الاحتلال ولعقود طويلة، ختم به الجزائريون القرن (19) بما حمل من هموم ونكبات، واستقبلوا به قرناً جديداً كانت أيامه ولياليه حُبلى بحمل عسير فكيف يا ترى سيكون المخاض؟

3- مشاهد الإحياء اللغوي في الجزائر، النشأة والمسار: يحتكم قيام حركة الإحياء من عدمه في

مختلف البيئات إلى طبيعة التحوّلات التي تعكس حقيقة تلك الحركة وفعاليتها في منطلقاتها الفكرية ومسارها في الزمن، ومداهها المكاني، وأعلامها، ونتائجها، وآثارها على الحياة العامة في مختلف مظاهرها. انطلقت حركة الإحياء العربي العام واللغوي منه تحديداً في المشرق العربي، مستندة إلى معطيات ظرفية، ووسائل متعدّدة، وموظّفة طاقات بشرية معتبرة، ومستفيدة من واقع سياسي واجتماعي مناسب إلى حد بعيد، وتبعاً لذلك انتظمت عناصر هذا الإحياء ضمن إطار متكامل تفاعلت فيه، فأنتجت حركة

إحياء واضحة المعالم والمسارات، وبرزت ثمراتها نتائج طبيعية لجهود مقدّمة، قد يُختلف في تقييمها ولكن قد لا يُختلف في ثبوت نتائجها وآثارها.

فهل سيكون النشاط العلمي والأدبي واللغوي الذي شهدته الجزائر خلال القرن (20) جزءا من حركة الإحياء المشرقي؟ من أولئك القائمون على مثل تلك النشاطات؟ وما طبيعة تكوينهم وانتمائهم الفكري؟ وما طبيعة الوسائل التي وظّفوها في نشاطهم الجزائري هذا؟ هل هي الوسائل نفسها التي اشتهر توظيفها لدى إحيائي المشرق؟ أم خصوصية تميز النشاط الجزائري عن مثيله في المشرق؟ أسئلة وأخرى سيكون هذا الفصل مخصّصا لمحاولة الإجابة عليها، على أن يكون الاستهلال بمتابعة أعلام المرحلة واستعداداتهم النفسية والمعرفية لمباشرة نشاط من هذا النوع، وفي الحالة الجزائرية ذات الوضع الخاص.

أولا: مكونات مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر

مشاهد التأسيس

ارتأت الأطروحة عرض مشاهد الإحياء على طريقة تظهر مفاصل مساره، وتتابع عوامله على ترتيب يأخذ في الاعتبار عامل التسلسل التاريخي، ويحيل على شبكة التداخلات بين عناصر الإحياء ولعل أول مشهد يفرض نفسه هو العامل البشري الذي يُنسب إليه مشروع الإحياء.

1- معلمة الإحياء، المؤثر البشري للمشروع: لقي التأليف في التراجم قبولا حسنا في كلّ الفترات وعند كلّ الأمم، ولقي في الوضع الجزائري قبولا خاصا، ذلك أنه في الحالات الطبيعية توثيق لسيرة رجال، وأعمال رجال، ولكنّه في الحالة الجزائرية - زمن الاحتلال - يزيد على ذلك بأنّه إثبات هوية وإعلان خصوصية، وترسيخ انتماء حضاري، وهو السياق الذي عُدّت فيه معلمة (تعريف الخلف) للحفناوي مدوّنة مرجعية تاريخية وحضارية أكثر من كونها مدوّنة تراجم، وهي الفكرة نفسها التي ألف لها محمد الهادي الزاهري السنوسي مدوّنته القيمة (شعراء الجزائر في العصر الحاضر) وهي الفكرة نفسها - أيضا - التي لازمت فقرة من فقرات حركة الإحياء التي كان يباشر فيها ابن باديس حلقة من حلقات درسه تحت عنوان (رجال السلف ونساؤه) انتقى فيها تراجم أعلام، للغرض ذاته، وهي الفكرة ذاتها - كذلك - التي عزم عليها الأديب رضا حوحو قبل أسابيع من استشهاده في 29 مارس 1956م وحمل الإعلان عنها مقالته المنشور بالبصائر، وهو عبارة عن مشروع ثقافي سَمّاه: (حاضر الثقافة والأدب في الجزائر) ورفع النداء به، لنشر سلسلة كُتِبَ يحمل كلّ كتاب تراجم للعلماء والأدباء والكتّاب والشعراء شبابا وشيوخا رجالا ونساء، وحرصا على إخراج هذا النتاج إلى الناس لينتفعوا به، ف"في

الجزائر ثقافة وأدب، وفي الجزائر شيوخ وشبان لهم أفكار، ولهم مواهب ولهم إنتاج... ولكن أفكارهم ومواهبهم وإنتاجهم مغمورة في مجاهل الإهمال، لا يقرأها القراء، ولا ينتفع بها الشعب¹ وهو مشروع يبدو عليه التأثير بمشروع الزاهري في (شعراء الجزائر) تسمية وطريقة إنجاز.

ولأجل هذه المكانة التي أضحت عليها تتأول تراجم المشاريع الفكرية والثقافية وأعلامها ستتعامل الأطروحة مع مسألة المعلمة الإحيائية الجزائرية على أنها اللبنة البشرية الأولى في مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر الحديثة، ولكن عارضا منهجياً سيعترض هذا العنصر من الأطروحة، ذلك أن البحث قد رأى أن معلمة الإحياء اللغوي الجزائري طبقات ثلاث، أولاها طبقة الإرهاص والعبور، وكان عطاؤها العلمي سابقاً لإطار فترة الإحياء، واستعراضها ممكن لقلّة عدد أعلامها، أمّا أعلام مرحلتين: النشوء والاستواء، والظهور والتّمكن، فإن الإحاطة بأعلامهما يحول الأطروحة إلى معجم في أعلام الإحياء لا مدونة في مشروع الإحياء.

ولما كانت الطبقتان الثانية والثالثة كثيرتا الأعلام، وفيرتا الأعمال، فإنه ليس من سبيل لتجاوز ضرورة بيان رجال الإحياء وأعلامه مجتمعين ضمن إطار الحركة الإحيائية، إلاّ استعراض أسماء بعضهم في قوائم مقرونة بشيء من أهم ما يتعلّق بهم من جهود الإحياء، اعتقاداً من الأطروحة بأنّ ذلك أنسب إلى ترسّم مشهد الإحياء في شخوصه وأعماله وجغرافيته، ومساره الزماني، على أن يُذيل المبحث بالمضامّن المفصلة للتّراجم ما أمكن، وذلك ما يجعل من الجهود الأدبية العربية والتعليمية والصحافية الصّادرة في الفترة الزمنية المحصورة بين بداية القرن (20) ومنتصفه بمختلف أجناسها وأشكالها مظنة إحياء، إلاّ ما ظهر منه للغة العربية في الجزائر يومئذ عداؤه، وبدا من فعله ما تأخّر عنها عطاؤه، وهو اجتهد قلبت فيه النّظر طويلاً لإصابة أقرب الطّرق للجمع حصراً، فما أسعفني إلاّ سبيل الإشارة بالذّكر قصراً.

1-1- الطبقة الأولى: طبقة الإرهاص والعبور: وهي طبقة اتّفق الدّارسون على نبوغها رغم تجفيف الاحتلال لمنابع العلم بهذه البلاد، واختلفوا في تقييم مواقفهم من المسك بركاب الاحتلال دراسةً وتدريباً وبحثاً وتأليفاً، ولئن سلّم من هذا المعّمز بعضهم، فإنّ منهم من لم يسلم من نقد النّقاد وتعقيب المعقّبين

¹ - أحمد رضا حوجو "حاضر الثقافة والأدب في الجزائر" البصائر، الجزائر: 21 جمادى الثانية 1375هـ - 3 فيفري 1956م س8، ع352، (سلسلة 2) ص7.

وما تعمّدته الأطروحة من إيراد تراجم هؤلاء بشيء من التفصيل، إنّما هو لإقامة معبر الإحياء في أحلك فترات التاريخ الجزائري الحديث (نهاية القرن 19) إلى منفذ الخلاص المنفرج مع بداية القرن (20).

إنّ إثبات وجود هذه الطبقة، واستعراض جهودها العلميّة المختلفة، وإن لم يجتمع أفرادها ضمن إطار من أيّ شكل، قد كانت جهودًا فردية شكّلت معبرا للعديد من أنواع الدرس، وعُدّت إرثا صامدا محليا لحركة الإحياء، ولو طُبعت بطابع من المحافظة والتقليد، فقد سرّت من طريقها المسحة الجزائرية الخاصة، وكانت دليلا تاريخيا قائما يؤكّد -بقوّة- طبيعة محلية الإحياء اللغوي والأدبي الجزائري، ويقدر للإسهام المشرقي موضعه وحجمه في حركة الإحياء الجزائرية التي قام عليها أعلام جزائريون وإن تفرقت بهم مدارس الإعداد، وتعدّدت عليهم مؤثرات الإصلاح.

1-1-1- **صالح بن مهنا** (1836-1910م) القلي مولدا، القسنطيني نشأة، العالم السلفي، ورائد الإصلاح، تعلّم بتونس والأزهر، وعاد إلى قسنطينة في 1887م، فكان إمام الجامع الكبير، والمدرّس بالزاوية الحنصالية لأكثر من عقدين، نوّه مالك بن نبي بـ "مناجاة الشيخ صالح ابن مهنة الضميرية الفردية... فإنّ صوت مناجاته كاد يوقظ أهل قسنطينة كلّها حوالي 1898م¹ حارب البدع، واصطدم مع الشاعر عاشور الخنقي في مسألة (عصاة الأشراف) من بين تلاميذه الكثيرين محمد بن مسعود حماني والد الشيخ أحمد حماني، له نحو ستين مؤلفا في فنون مختلفة: **البدر الأسمى في بيان معاني نظم الأسماء الحسنى، تنبيه المغترين والردّ على إخوان الشياطين، الرحلة الأزهرية، شرح العشماوية** وغيرها كثير من المخطوط والمطبوع، توفي سنة 1910م ودفن بمقبرة قسنطينة.

1-1-2- **عبد القادر المجاوي** (1848-1914م): وُلد بتلمسان، وبها تلقى تعليمه الأول، وتابعه في فاس وطنجة وجامع القرويين، عاد إلى الجزائر في 1875م، درّس في قسنطينة بجامع الكتّاني دروسا عامّة، وبالمدرسة الحكومية الكتّانية المنطق والبيان والمعاني واللغة والنحو والفلك، ودرّس بالمدرسة العليا بالعاصمة، ثمّ في (الثعالبية) إمام مسجد سيدي رمضان بالجزائر 1908م، واسع العلم بالعربية، فقيه متضلّع، مطلع على علوم كثيرة، كعلم الكلام، علم الاقتصاد السياسي، وعلم التربية، وعلم الهيئة. من تلاميذه: حمدان لونيبي، وأحمد الحبيباتي، والمولود بن الموهوب، وهم من أعلام حركة

¹ - مالك بن نبي، شروط النهضة، تر: عمر كامل مسقاوي، عبد الصبور شاهين، ط1. الجزائر: 1434هـ-2013م، دار الوعي للنشر والتوزيع، ص25.

الفصل الأول: مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر؛ المكونات والتجليات

الإحياء بعده، تجاوزت مؤلفاته (15) عملاً: في اللغة والنحو والبلاغة والدِّين، وعلم الفلك، توفّي بقسنطينة في 6 أكتوبر 1914م وبها دفن.

1-1-3- عاشور الخنقي (1848-1929م): ولد في خنقة سيدي ناجي (بسكرة) حفظ القرآن الكريم بقريته، ثم انتقل إلى نفطة بتونس، وأقام بها (10) سنوات تلقّى فيها العلم على يد علمائها، عاد إلى قسنطينة ومكث بها نحو (30) عاماً، ثمّ إلى التحق بالهامل، وأقام بها حتّى وفاته، مارس التدريس الحرّ في قسنطينة وفي الهامل، يؤدّيه في المدارس والمساجد والزوايا، ولم يشغل وظيفة حكوميّة. له: منار الإشراف على فضل عصاة الأشراف ومواليهم من الأطراف. وتوفّي في قسنطينة.

1-1-4- محمّد السعيد بن زكريّ (1851م-1914م): الإمام المفتي، العصاميّ، حفظ القرآن صغيراً، خرّيج زاوية اليُولي، مدرّس بالعاصمة منذ 1890م وإمام جامع سيدي رمضان في 1896م حصّل وسام الأكاديمية في (التعليم) صاحب (أوضح الدلائل في وجوب إصلاح الزوايا ببلاد القبائل) أستاذ الفقه في المدرسة الشرعيّة بالجزائر في 1896م، ومفتي المذهب المالكيّ في العاصمة، من 1908م إلى وفاته سنة 1914م.

1-1-5- الشّيخ أبو القاسم الحفناويّ بن الشّيخ (1852-1943م): مفتي المالكيّة بالديار الجزائيّة، وخرّيج زواياها، محرّر (المبشّر) ومدرّس الجامع الكبير بالعاصمة في 1897م مزدوج اللغة ذو ثقافة واسعة، جماع للكتب والوثائق، صحافيّ (كوكب أفريقيّة) والمُحاضر في جمعيّتي الرّشيديّة والتّوفيقيّة أوائل القرن (20). له: تعريف الخلف برجال السّلف، والخبر المنتشر في حفظ صحّة البشر والقول الصّحيح في منافع التّلقيح، قال أبو القاسم سعد الله فيه: "ولغة الحفناويّ جيّدة وهي تدلّ على ثقافته الأدبيّة القويّة، ولا يستعمل السّجع أو الجمل العاميّة الثّقيلة، أو المتأثّرة بالثقافة الأجنبيّة¹". من تلاميذه: الشّيخ عبد الرّحمان الجيلالي، توفي بالديس في 1943م.

1-1-6- حمدان لونيّسي (1856-1920م): المدرّس، الفقيه، المحدث، وُلد بقسنطينة، من تلاميذ الشّيخ عبد القادر المجاويّ، درّس بالجامع الكبير بقسنطينة 1881م، (30) سنة النّحو والحساب والأدب العربيّ والفقه والتّوحيد، وأوقف سنة 1910م، لأسباب يرجّح أن تكون كيد احتلال، هاجر واستقرّ بالمدينة المنورة، وظلّ مدرّساً للحديث النّبويّ بها إلى وفاته. أكثر ما حفظ النّاس من ذكره، هو أنّه شيخ: الإمام

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، ص433.

عبد الحميد بن باديس، والطبيب العقبّي، ومحمدّ البشير الإبراهيميّ ومحمود بن دالي كحول. له: القول الحنيف في الردّ على من أجاز الفتوى بالقول الضعيف. تُوفي في 1920م بالمدينة المنورة ودُفن بها.

1-1-7- المولود بن الموهوب (1863-1935م): كاتب، خطيب، شاعر، قسنطينيّ المولد والوفاة

درّس على الشيخ المجاوي، وأجازه في فنون اللغة العربيّة والمنطق وأصول الدّين، وغيرها من العلوم الإسلاميّة، له ثقافةٌ مُزدوّجة، درّس بالكثانيّة في قسنطينة عام 1895م، تولّى الإفتاء المالكيّ عام 1908م، ودرّس بالجامع الكبير، من تلاميذه فيه الإمام بن باديس، أسّس نادي صالح باي بقسنطينة وترأسه، كان من أنصار الجامعة الإسلاميّة، كتب في الصحافة، وله خطبٌ وشيءٌ من الشعر، أشهره قصيدة المنصفة، أحسن الفرنسيّة وجادل المستشرقين. من آثاره: نظم مقدّمة ابن أجروم، مختصر الكافي في العروض والقوافي، شرح منظومة التّوحيد لشيخه المجاوي.

1-1-8- محمد بن مصطفى بن الخوجة (1865-1915م): تلميذ ابن زكري، عصاميّ، واسع

الثّقافة محرّر في المبشّر بين 1896 و1951م، ومدرّس شهيرٌ بجامع صفر، شاعرٌ ناثر، متمسّك بالثّراث داعيةً إلى الإصلاح على طريقة محمدّ عبده. قال فيه عمر راسم: كان حلو الكلام، فصيح اللّسان يستشهد بالحديث والقرآن، وكأنّ الكُتب القديمة مرآة بين عينيّه، وأنّه شاعرُ الجزائر في زمنه وأنّه خبيرُ شؤون المشرق وحركة الإحياء، وأنّه أبو النهضة الجزائريّة. له كتاباتٌ اجتماعيّةٌ ودينيّةٌ وعن اللغة العربيّة، راسل الشّيخ: محمدّ عبده ورشيد رضا ومحمدّ فريد وراسلوه، صحّح تفسير (الجواهر الحسان) وبدأ تحقيق كتاب السّيوطيّ في الاجتهاد. له: اللّباب في أحكام الزّينة واللّباس والاحتجاب، ونبذة وجيزة في معنى الدّين والفقه، والاكتراث بحقوق الإناث، ونفائس في مآثر علماء الوطن.¹

1-1-9- عبد الحليم بن سماية (1866-1933م): عاصميّ المولد والوفاة، درّس في مدرسة

الجزائر، مزدوجُ اللّغة، وله اطلاعٌ على العلوم الإسلاميّة، واسعُ الثّقافة، تبنّى مذهب محمدّ عبده في الإصلاح، قارئٌ مواظبٌ للمنار، نزل الشّيخ عبده في بيته أثناء زيارته للجزائر في 1903م، حضر مؤتمر المستشرقين بالجزائر سنة 1905م، له نتاج قليلٌ من مقالات، وشعر، ونثر. وقد استأثر التّعليم بجهده معلّم مقتدر، ذو فصاحة. صحفيّ المبشر، وكتب في الإقدام وكوكب أفريقيا والمغرب تطوّع بالتّدريس

¹ - يُنظر: محمد بن مصطفى بن الخوجة، أعمال محمد بن مصطفى بن الخوجة، تح: علي تابليت، د ط. الجزائر: 2012م منشورات تالة، (جمع جامعة الجزائر 2012م، بمناسبة خمسينيّة الاستقلال).

المسجدي، ودرّس بالمدرسة الرّسميّة بالعاصمة في 1900م، ثمّ بالجامع الجديد الحنفيّ وانتقل إلى المدرسة الثّعالبيّة في 1905م حتّى تقاعده.

1-1-10- محمّد بن أبي شنب (1869-1929م): ولد بالمديّة، حفظ القرآن الكريم صغيراً والتحق بالتّعليم الفرنسيّ، تخرّج في مدرسة المعلّمين مدرّساً للغة الفرنسيّة، حصل على شهادة اللغة العربيّة بتكوين عصاميّ، فدخل الجامعة ونال الدّكتوراه، أتقن العربيّة والإيطاليّة والإسبانيّة والألمانيّة واللاتينيّة والفارسيّة والتركيّة، عُيّن في 1903م مدرّساً بكلّيّة الآداب بجامعة الجزائر، وترقّى فيها أستاذاً محاضراً ثمّ أستاذاً رسمياً في (1924م) وظلّ يشغله حتّى وفاته. حقّق كُتُباً تراثيّة ونشرها، وترجم أخرى من العربيّة إلى لغاتٍ أجنبيّة، نشر مقالاته بالجزائر وخارجها وحضر فعالياتٍ ثقافيّة، ومؤتمراتٍ علميّة ولا سيما المتعلّقة بالاستشراق، عضو المجمع العلميّ العربيّ بدمشق (1920م) والمجمع العلميّ الاستعماريّ بباريس (1924م) له نحو خمسين عملاً متنوعاً بالعربيّة في الأدب والعروض والمنطق وغيرها. من أعماله: تحفة الأدب في ميزان أشعار العرب. وأبو دلالة وشعره (أطروحة دكتوراه بالفرنسيّة) والألفاظ التركيّة والفارسيّة الباقي استعمالها في لغة أهالي مدينة الجزائر، قُدِّ وسام جوقة الشّرف عام 1922م إثر حصوله على الدّكتوراه بدرجة ممتاز.

1-1-11- عمر راسم (1883-1959م) البجائي، الصّحفي، الخطّاط، وُلد بمدينة الجزائر وتعلّم بكتاتيبها، ثمّ استكمل الطّلب عصامياً فتعلّم العربيّة والفرنسيّة، من أوائل الجزائريّين المعتقدين لمذهب محمّد عبده الإصلاح، أنشأ جريدة الجزائر في 1908م، ثمّ ذو الفقار في 1913م، سجنه الاحتلال خلال الحرب العالميّة الأولى، وكان لذلك تأثيرٌ بليغٌ عليه بقيّة حياته. له: تفسير القرآن الكريم، كتبه في السّجن، وتراجم علماء الجزائر، ومقالاتٌ كثيرة في الاجتماع والسّياسة والفنّ توفّي بمدينة الجزائر سنة 1959م¹.

1-1-12- عمر بن قدّور (1886-1930م): ولد في الجزائر (العاصمة) تلقّى تعليمه الأوّل في الكُتّاب، فحفظ القرآن الكريم وبعض المتون العربيّة والشّرعيّة، نال الإجازة العليا بالمدرسة الثّعالبيّة، أنشأ جريدة الفاروق وتولّى تحرير الصّديق، كتّب لجرائد العالم الإسلاميّ، ك: الحضارة بالآستانة واللّواء والمؤيّد المصريّين، عُرِف بولائه لفكرة الجامعة الإسلاميّة، فنفاه الاحتلال إلى مدينة الأغواط مشياً

¹ - ينظر عنه: محمّد ناصر، عمر راسم المصلح الثّائر، ط2. الجزائر: 2013م، المؤسّسة الوطنيّة للفنون المطبعيّة.

اعتزل العمل الصحفي، والتزم بيته بالعاصمة عزلة شبه صوفية حتى وفاته سنة 1930م. له قصائد ومقالات في مواضيع إصلاحية محلية وإقليمية منشورة في الصحف¹.

1-1-13- المولود الزريبي (1897-1925م): ولد ببسكرة، حفظ القرآن الكريم، ثم تعلم مبادئ العربية وبعض العلوم الشرعية في مسجد قرية ليانة، درس بالأزهر، وحصل العالمية، وعرف كبار العلماء، درس بمسجد قريته، وفي قرية الحاج بباتنة، وفي مدينة باتنة نفسها، ودرس بالمسجد الكبير بالعاصمة، وفي مدينة بوفاريك، كتب في كوكب أفريقيا، ورأس تحرير الصديق، يعد من أبرز رجال الإصلاح في العشرينيات، له: **بُذور الأفهام أو شمس الأحلام على عقائد الحبر الهمام**، له شعر جيد ضاع بعضه، عليه مسحة إصلاحية واضحة، وفي بعضه نفحة رومانسية.

1-1-14- محمد بن عبد الرحمن الديسي (1845-1921م) الأصولي المحقق، الشاعر الناثر حفظ القرآن الكريم ومتون العلوم في صغره سماعا بعد أن كف بصره، خريج الزوايا العلمية الجزائرية (زاوية بوداود) (الهامل) جلس إلى حمدان لونيبي، وأجاز ابن باديس بإجازة علمية شعرا، خلف الشيخ محمد بن بلقاسم الهاملي على الزاوية، فعرفت على عهده ازدهارا علميا بلغ الآفاق، من آثاره التي تزيد على الثلاثين: **هدم المنار وكشف العوار** (ردّ به على منار الإشراف) وله ديوان شعر منة الحنان المنان في 200 قصيدة، توفي سنة 1921م.

لقد كانت جهود هذه الطبقة إرهابا للإحياء في جبهته الداخلية، فهي التي حفظت السند العلمي رغم ما بذل الاحتلال في انقطاعه، ومثلت جهودها اللغوية والأدبية حلقة الوصل بين ماضي الحركة العلمية اللغوية - رغم ما أصابها من صدوع وارتباك - وحاضرها.

ومن أهم الخصائص العامة لأعمال هذه الطبقة، اتجاه معظم جهود أعلامها للتعليم، وهي جهود لا تُظهرها الكتب والمدونات بقدر ما كانت الذخيرة المعرفية لأعلام الطبقة الموالية، كما أن توزعها في مناطق الجزائر المختلفة، وانتسابها إلى مرافق علمية مختلفة، لم يتهيأ معه استقرار الدروس، ولا انتظامها ولا استمرارها، كما لم يتهيأ انتظام نشاط تقييد تلك المعارف وتعميمها على ما تبقى من حواضر العلم القليلة في تلك الفترة. ومع ذلك فإن عرضا مجملا لمشهور نتاج هذه الطبقة اللغوية والأدبي، سيبرز نوع الدرس الذي تناقلته هذه السلسلة وحجمه ووجهته:

¹ - ينظر عنه: صالح خرفي، عمر بن قُدور الجزائري، د. ط. الجزائر: 1984م، المؤسسة الوطنية للكتاب.

نموذج من النتاج اللغوي والأدبي لطبقة الإرهاص والعبور

الرقم	المؤلف	التأليف	ملاحظات
01	صالح بن مهنا	شرح العشماوية	دراسات نحوية
02	عبد القادر المجاوي	إرشاد المتعلمين - شرح ابن هشام - شرح اللامية المجردية في المسائل النحوية - الدرر البهية على اللامية المجردية في الجمل - نزهة الطرف فيما يتعلق بمعاني الصرف - الدرر النحوية على المنظومة الشبراوية - شرح الجمل النحوية.	دراسات نحوية وصرفية
03	عاشور الخنقي	منار الإشراف على فضل عصاة الأشراف ومواليهم من الأطراف	ديوان شعري
04	محمد السعيد بن زكري	أوضح الدلائل في وجوب إصلاح الزوايا ببلاد القبائل	مناهج التعليم
05	المولود بن الموهوب	نظم مقامة ابن أجروم - مختصر الكافي في العروض والقوافي.	نحو وعروض
06	محمد بن أبي شنب	تحفة الأدب في ميزان أشعار العرب - شرح لمثلثات قطرب - أبو دلالة وشعره - الأمثال العامية الدارجة في الجزائر وتونس والمغرب (مشروحة بالفرنسية) 3 أجزاء - الألفاظ الطليانية الدخيلة في لغة عامة الجزائر (غير مطبوع) - الكلمات التركية والفارسية المستعملة في اللهجة الجزائرية - شرح ديوان عروة بن الورد لابن السكيت - تحقيق الجمل للزجاجي - تحقيق: الممتع في شرح المقنع ، لأبي سعيد السوسي، تحقيق: منظومة تدميث التذكير في التأنيث والتذكير لبرهان الدين الجعبري.	تخصصات لسانية مختلفة

لقد أتيح لهؤلاء الأعلام من هذه الطبقة المشاركة بما أمكن في تمثيل الحركة اللغوية والأدبية والعلمية الجزائرية في وسط فرنسي خائق، فلم يكن لهم سبيل إلى توحيد الجهد التعليمي، ولا إلى تبليغه في أحسن الأحوال، وإلا فقد كان خلال هذه الفترة من الأدباء والشعراء والعلماء خلق آخرون أغلقت

عليهم سلطات الاحتلال منافذ الحركة، فلم يستطيعوا مشاركة أترابهم في أعمالهم حتى إذا أعلنت حركة الإحياء عن نفسها، وجدوا متنفساً، فأسهموا فيها بما تيسر لهم، وقد تقدّمت بهم السنّ، فاننسبوا إلى الطبقة الأولى بأعمارهم، وإلى الطبقة الثانية بأعمالهم، من أمثال: أحمد كاتب الغزالي القالمي (1873-1943م) المدرّس الشاعر الصحفي، ومحمد النجار الحركاتي (1877-1947م) الشاعر المسرحي ومنهم الشيخ السعيد البهلولي فضلاء (1860-1945م) الفقيه اللغوي المتكلم، ومنهم عمر بن حمّو بكلي (1837-1922م) الحافظ الفصيح، وغيرهم العديد ممّن حجّر الاحتلال عليهم، وضيقّت على أعمالهم ظروف ما بعده.

1-2- الطبقة الثانية، طبقة الإنشاء والرعاية: طبقة تلقى كثير من أعلامها عن الطبقة الأولى بطريق مباشر أو غير مباشر، فمنهم من استزاد بعدهم من جوامع المشرق والمغرب، ومنهم من مكث بالجزائر، حتى جمعتهم الأقدار على موعد مع العقدين الثالث والرابع من القرن (20) وهي الفترة التي أعلنت عن نضج الطبقة الثانية، وبداية ظهور تفكير أفرادها في تكثّل يجمعهم بعد أن نشأت آمالاً وأمنيات، خلال العقد (02) من القرن (20) وتحولت فكرة ملحّة كثر تداولها خلال العقد (03) واستوت ظاهرة خلال العقد (04)، وعلى طول هذه الفترة ظهرت الجهود اللافتة لرؤادٍ يضيق بهم الذكر هنا فتعمّدت الأطروحة عرض هذه القائمة من أعلام هذه الطبقة، إزالة للبس طالما تراكم في الأذهان عن فقرٍ بشريّ عانت منه حركة الإحياء، وغلطٍ في قصرٍ نشاط الإحياء على قلّة من العلماء، اشتهروا على الألسنة، فغطّت أسماؤهم مع قلّتها - على عشرات الأسماء الأخرى.

جدول بأشهر أعلام طبقة إنشاء حركة الإحياء ورعايتها

أسماء الأعلام	سمات وأعمال
عبد الحميد بن باديس (1889-1940م)	رائد الإحياء العام، والإحياء اللغويّ تحديداً.
محمدّ البشير الإبراهيمي (1889-1965م)	أمير البيان في الجزائر الحديثة.
الطبيب العقبي (1889-1960م)	الخطيب الشاعر الصحفي.
أحمد توفيق المدني (1899-1983م)	الصحفيّ الكاتب العامل.
محمدّ العيد آل خليفة (1904-1979م)	شاعر الإحياء والجزائر والمغرب العربيّ.
أبو اليقظان (1888-1973م)	الصحافي المقاوم.
الأمين العمودي (1890-1957م)	المدافع عن الإحياء العربيّ باللغة الفرنسيّة.
الفضيل الورثاني (1900 - 1959م)	حامل لواء العربيّة في فرنسا: الخطيب، السياسيّ.

الفصل الأول: مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر؛ المكونات والتجليات

سعيد الصّالحي (1902-1986م)	المدرّس الشّاعر، عضو فريق الإحياء في فرنسا.
أحمد بن يحيى الأكل (1906-1979م)	العالم الشّاعر الكاتب.
الجُنيد أحمد المكي (1893م - ؟)	الشّاعر.
محمّد بن العابد (1893-1967م)	المدرّس، القاصّ، شاعر الإنشاد المدرسيّ.
محمّد اللّقاني السّائح (1895-1970م)	النّقّطيّ الجزائريّ الصّحافيّ الشّاعر.
الطّاهر بن عبد السّلام (1890-1949م)	ابن سوق اهراس الشّاعر الصّحفيّ.
حسن بوالخبّال (1897-1943م)	الخنشليّ الشّاعر.
محمّد الصّالح خبشاش (1904-1939م)	القسنطينيّ الشّاعر الصّحفيّ.
محمّد العلميّ (1896م - ؟)	الشّاعر.
قرقر الطّرابلسيّ (1887-1948م)	الشّاعر.
رمضان حمّود (1906-1929م)	ابن غرداية، الشّاعر، النّاقّد.
إبراهيم نوح امتياز (1908-1981م)	ابن غرداية، الشّاعر، الصّحفيّ.
زهير الزّاهريّ (1908-1999م)	المدرّس الكاتب المحاضر، والصّحافيّ الجوّال.
يحي حمّودي (1883-1972م)	المناضل الإحيائيّ باللّغة المازيغيّة.
السّعيد الزّموشي (1904-1960م)	معتمد الإحياء في الغرب الجزائريّ.
السّعيد عبد اللاويّ (1889-1942م)	المدرّس، ومؤبّس جمعيّة الإسعاف ببني يعلى.
الشّريف الصّانغيّ (1889-1942م)	المدرّس في مدارس الإحياء.
عبد العليّ الخصريّ (1907-1959م)	المدرّس بالجامع الأخضر والكتّانيّة.
فرحات بن الدّراجي (1909-1951م)	المدرّس، وعضو فريق الإحياء بفرنسا.
نعيم النّعيميّ (1909-1973م)	مؤبّس المدارس، والمرشد في جيش التّحرير.
أحمد بوشمال (1899-1958م)	مدير الشّهاب، ورجل الظّل في جمعيّة العلماء.
عبد الرّحمان بكليّ (1901-1986م)	المدرّس الواعظ الصّحفيّ.
محمّد الهادي السّنوسيّ (1902-1972م)	الصّحفيّ الشّاعر.
عبد القادر بن زيّان (1887-1971م)	المدرّس والإمام الحرّ في مؤسّسات الإحياء.
باعزيز بن عمر (1906-1977م)	الصّحفيّ الكاتب العامل.
الحفناوي هالي (1911-1965م)	الأديب الشّاعر المعلّم، أمين لجنة التّعليم العليا.
أحمد رضا حوجو (1911-1956م)	الأديب الكاتب الصّحفيّ القاصّ.
مبارك جلّواح (1908-1943م)	الشّاعر عضو فريق الإحياء في فرنسا.
عبد الكريم العقّون (1918-1959م)	الأديب الشّاعر المعلّم.
عبد الملك فضلاء (1920-1957م)	مدرّس الإحياء الشّهيد.

الرّبيع بوشامة (1916-1959م)	مشرف مدارس الإحياء، الشّاعر الشّهيد.
أبو القاسم الأوجاني (1880-1954م)	المعلّم الدّاعيّة.
الطّيب المهاجيّ (1882-1969م)	الفقيه اللّغويّ.
أحمد شطّة (1908-1958م)	المعلّم الواعظ.
عبد الحفيظ الجنان (1901-1963م)	المعلّم الواعظ.

وإذا ما اقتصر على ذكر هؤلاء، فإنّ هناك قائمة طويلة لأعلام آخرين يتعدّد تقييدها هنا، وقد احتوتهم دعوة الإحياء فأجابوا، واستأنس بعضهم ببعض، فأثمرت جهودهم حياة نفوسهم بالانتماء، وحياة لغتهم بالتأليف والإبداع، وحياة وطنهم بعودته إلى أبنائه بعد مقربة من ضياع.

ولئن كان لطبقة الإرهاص فضل التمهيد والإعداد، فإنّ هذه الطبقة قد اهتمت إلى تكوين الإطار الجامع للجهود، والانتقال من سعي الفرد إلى فعالية الجماعة، فكانت حركة الإحياء إطاراً التأمّت فيه الأعمال، وتعاضدت فيه أشكال النشاط، فأثمرت بُدُوّ أمارات الحياة في الأدب واللغة والتّعليم والتأليف والصحافة، وسائر مشاهد الإحياء.

1-3- الطبقة الثالثة: طبقة الظهور والاستواء: وهي طبقة تربّت في أحضان حركة الإحياء وفي مدارسها ومساجدها وبين يدي رؤوس الطبقة الثانية، وقد واجهتها مضايقات الاحتلال حين بدت ثمار الإحياء المقاوم في الظهور، وانفتحت عليها جبهات الحركة التّعليميّة، والسّياسيّة والاجتماعيّة مع ما كانت عليه من محدوديّة قدراتها الماليّة والبشريّة، ثمّ عاجلتها ظروف الحرب التّحريريّة، والتي كانت أكبر ثمرات حركة الإحياء، بما نشرته من وعي، وأعدّته من كفاءات وإطارات، ولينظر في ذلك كتاب: شهداء علماء معهد ابن باديس لمؤلّفه: الشّيخ الصّادق ابن رابح حمّاني، والذي أورد تراجم وأسماء طلبة معهد عبد الحميد بن باديس، وكذا قوائم الطّلبة على صفحات البصائر والشّهاب التي كانت تنشرها الجمعية في مناسبات مختلفة، كالإعلان عن قائمة توجيه المعلّمين إلى أماكن تدريسهم، أو توجيه الوعّاظ والدّعاة إلى مساجد القُطر، أو قوائم طلبة المستوى العالي في الجزائر أو البعثات إلى الدّول العربيّة التي قيّدها الشّيخ محمّد خير الدّين في الجزء الأوّل من مذكّراته¹ لنقف على طبقة من مئات الأعلام الذين وثّقت المصادِر شيئاً من أعمالهم، ومنهم من كان وقوداً للنّورة التّحريريّة، ومنهم من استبقته الأقدار لجزائر ما بعد الاحتلال، فكانوا الحلقة الباقية بعد حركة الإحياء، وقد كان هذا القيد

¹ - ينظر: محمّد خير الدّين، مذكّرات، ط2. الجزائر: 2002م، مؤسسة الصّحى، ج1، ص114-225.

(إدراك الاستقلال) معيار تصنيفهم في الطبقة الثالثة، مع أنّ منهم من طال عمره فأدرك من الطبقات الثلاث، وممن وثقت مصادر الإحياء أسماءهم من هذه الطبقة، نذكر مثالا لا حصراً:

جدول بأبرز أعلام ثمرة حركة الإحياء

أسماء الأعلام	سمات وأعمال
إبراهيم مزهودي (1922 - 2010م)	الواعظ، العالم الاجتماعي، والسياسي الخبير.
أحمد بن زياب (1920 - 1986م)	العالم الأديب المعلم.
الصديق سعدي (1907 - 1970م)	الأديب والسياسي الخفي.
الطاهر سعدي (1926 - 1981م)	أستاذ اللغة العربية في مدارس الإحياء.
مصطفى بن حلوش (1907 - 1980م)	المعلم الكاتب.
عبد اللطيف سلطاني (1902 - 1984م)	المعلم الداعية الجوال.
أبو بكر بن حمون (1921 - 1984م)	المعلم الأديب الشاعر.
محمد الغسيري (1919 - 1974م)	المعلم الكشفي الكاتب.
الصادق حماني (1915 - 1983م)	العالم المعلم الكاتب.
شامة بوفجي (1922 - 1987م)	المعلمة مؤسسة مدرسة (شريعة الأعمال)
زهور ونيسي (1937 - ...)	الروائية والكاتبة والسياسية.
محمد خير الدين (1902 - 1993م)	المعلم الكاتب الداعية.
الطاهر الحركاتي (1887 - 1974م)	الفقيه العالم الخطيب المعلم.
علي بن سعد خيران (1908 - 1974م)	الصحفي المدرّس.
عمر البسكري (1899 - 1968م)	المعلم الصحفي الشاعر.
مفدي زكريا (1913 - 1977م)	الشاعر الكاتب العامل.
علي مرحوم (1913 - 1984م)	المعلم الكشفي الصحفي الجوال.
موسى الأحمد نويوات (1903 - 1999م)	الكاتب اللغوي الشاعر.
محمد الصالح بن عتيق (1903 - 1993م)	العالم المعلم مسير مدارس الإحياء.
أبو القاسم الزغداني (1901 - 1979م)	المعلم المرشد العامل.
محمد الأمير صالح (1921 - 1985م)	العالم المعلم الأديب.
أحمد جلّول البدوي (1906 - 1999م)	المعلم الشاعر العامل.
أحمد سحنون (1907 - 2003م)	الشاعر الواعظ الصحفي.
حمزة بوكوشة (شئوف) (1907 - 1994م)	الكاتب الشاعر الناقد.
عبد الرحمان الجيلالي (1908 - 2010م)	العالم الفقيه الكاتب المؤرخ.

الفصل الأول: مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر؛ المكونات والتجليات

العَبَّاس بن الشَّيْخ الحُسَيْن (1912-1989م)	العالم الدَّاعية السِّيَاسِي النُّشْط.
عبد القادر الياجوري (1912-1991م)	العالم المَعْلَم الواعظ.
عبد الرَّحْمَان شيبان (1918-1911م)	الأديب الكاتب العالم المَخْطَط التَّربُوي.
علي المغربيّ الفرفاريّ (1915-1999م)	المَعْلَم العامل مدير مدارس الإحياء.
محمَّد الشُّبُوكِيّ (1916-2005م)	المَعْلَم الشَّاعر.
أحمد حمَّاني (1915-1998م)	العالم الفقيه الكاتب المفتي.
أبو بكر حاج عيسى (1912-1987م)	المَعْلَم الكاتب.
محمَّد الأخضر السَّائِحِيّ (1918-2005م)	الأديب الشَّاعر الصُّحْفِيّ الكاتب.
محمَّد الطَّاهِر فضلاء (1918-2005م)	المدرِّس المسرحيُّ الكاتب الشَّاعر.
العربي سعدوني (1923-1992م)	المَعْلَم العامل.
محمَّد الصَّالِح رمضان (1914-2008م)	الكاتب الشَّاعر الباحث الأديب المَعْلَم.
الحسين كوايمية (1914-1989م)	الأديب الشَّاعر، والخبير التَّربُوي.
محمَّد الطَّاهِر السَّاحِلِيّ (1908-1990م)	المَعْلَم الواعظ.
عبد الرِّزَّاق قُشُوم (1930- ...)	المَعْلَم الأديب الصُّحْفِيّ الأكاديمي.
محمَّد الأكل شرفاء (1925-2015م)	المَعْلَم الخطيب الدَّاعية الصُّحْفِيّ.
أبو القاسم سعد الله (1930-1913م)	الباحث الشَّاعر الأديب المؤرِّخ.
أحمد شقَّار الثَّعالبيّ (1927-1913م)	المَعْلَم الكاتب الشَّاعر الأديب.
محمَّد الطَّاهِر التَّلِيلِيّ (1910-1903م)	الأديب المصلح اللُّغويّ الموسوعي.
عمر دردور (1913-2009م)	حامل لواء الإحياء في الأوراس.
أحمد قصيبة (1919-1994م)	الصُّحْفِيّ المَعْلَم الواعظ.
حسن حمُّوتن (1913-1982م)	المَعْلَم الأديب الشَّاعر.
رابح بونار (1923-1974م)	المَعْلَم الباحث الصُّحْفِيّ.
السَّعيد البيباني (1908-1976م)	المَعْلَم عضو فريق الإحياء في فرنسا.
أحمد بَرِّي (1922 - ؟)	المَعْلَم الكاتب.
مولود قاسم آيث بلقاسم (1927-1992م)	الكاتب السِّيَاسِيّ المؤرِّخ اللُّغويّ.
زهرة بوهنيّ (ساحلي) (1922 - ؟)	المعلِّمة خريجة دار الحديث بتلمسان.

هذا ولا تزال قائمة أعلام الإحياء من هذه الطَّبقة طويلة، ولا يسع المكان لتقييدها كلّها، ولكنَّ ما قُيِّد منها ينقل بوضوح الامتداد البشريّ لحركة الإحياء الذي عبر مرحلة ثورة التَّحرير، واشترك في حراك

الفصل الأول: مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر؛ المكونات والتجليات

ما بعد الاستقلال، ولكنه اشتراك بصفة فردية بعد أن تفككت الحركة العلمية، وأصبحت إعادة تجميعها في ظروف ما بعد الاستقلال أمراً عصياً.

هذا ومحاولة لاستدراك عدم إمكانية ذكر كل أعلام الإحياء في الطبقتين الثانية والثالثة، يختم هذا البحث على قائمة -ليست نهائيةً أيضاً- في مظان أعلام الإحياء ورجاله، بل وحتى نسائه، ممن لم يتيسر للأطروحة ذكره، والوقوف على جلائل أعمال هؤلاء في مقام البسط والتفصيل.

- موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، مجموعة من الأساتذة، وإشراف رابح خدوسي.
- معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، عادل نويهض.
- الأعلام، خير الدين الزركلي.
- شعراء الجزائر في العصر الحاضر، محمد الهادي الزاهري السنوسي.

- معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين على العنوان:

www.almoajam.org/general_index.php

- أعلام الإصلاح في الجزائر، محمد علي دبوز.
- تاريخ الصحافة في الجزائر، الزبير سيف الإسلام.
- أعلام الإصلاح الإسلامي في الجزائر، أحمد عيسوي.
- أعلام الفكر الجزائري من خلال آثارهم المخطوطة والمطبوعة، محمد بسكر.
- شهداء علماء معهد ابن باديس، الصادق بن رابح حماني.
- من أعلام الإصلاح في الجزائر (3 أجزاء)، محمد الحسن فضلاء.

هذا وقد تعمّدت الأطروحة إيراد ما أمكن من الأسماء المغمورة التي كان لها أدوار إعلامية أو تعليمية أو ثقافية، ممّا يضع الدّارس في إطار الجوّ العام لمشروع الإحياء، وما كان فيه من حركية كثير من الأعلام الذي غطّت أوضاع الاحتلال قبل 1954م، وأوضاع حرب التحرير وما بعدها.

2- الحراك الجمعي

نواة المؤسسة الثقافية والاجتماعية الإحيائية الجزائرية البديلة:

كان من أكبر سيئات الاحتلال الفرنسي -وأفعاله كلها سيئات- إجهاده على مؤسسات الدولة الجزائرية، وتعطيل نظم عمل هياكلها العامة، سواء منها ذات الصبغة الرسمية كالمجالس العمومية الحضرية، أم الشعبية كمجالس تسيير الأوقاف، والتنظيمات القبلية والاجتماعية المحلية، وقد خلف هذا الإجراء آثارا وبيلة على المجموع الجزائري، بحيث أصبح محكوما بنظام العصور الأولى للإنسان خلوا من أي رابطة سياسية أو اجتماعية تنظر في أوضاع الجزائريين (الرعايا) وتتبنى قضاياهم العامة، ولم تكن الهياكل السياسية والتنظيمية للاحتلال -والتي تشهد تحسنا وتطويرا كل يوم- إلا فضاءات تنظر في مطالب المعمرين المحتلين المتصاعدة، وتحرس مصالحهم المتزايدة.

لقد ولد هذا الوضع الذي همّش الجزائريين، إحساسا بوجوب الاحتماء بتنظيمات جماعية تؤمن لهم فضاء بديلا عن هياكل الدولة المدمرة، وأخذ ذلك الإحساس يزداد يوما بعد يوم، ولكن قوانين الاحتلال الرديئة لم تكن لتسمح بمثل هذا المظهر الحضاري المعبر عن نصيب من الوعي، وهي ترى فيه مهددا حقيقيا لمشروع الاحتلال، ولم تتحقق للجزائريين خطوة التمثيل الجمعي إلا في كنف فرنسي متعاطف إنسانيا واجتماعيا "بدفع من الإدارة الأهلية نفسها، لأغراض تتماشى مع سياسة العناية بالجزائر الأهلية التي جاء بها شارل جوناك بالخصوص، وسانده في ذلك دومينيك لوسيان¹" وقد بدأ النشاط الجمعي للجزائريين بمبادرة فرنسيين متعاطفين، ثم بريادة النخبة الجزائرية الاندماجية، وذلك خلال العقد الأخير من القرن (19) ويبدو أن الفصل بين ظهور الجمعيات ونشاط النوادي متعذر، ذلك أن نشاط النوادي كان أول ما ظهر من عناصر الإحياء، فقد بدأ ظهور النوادي "في العاصمة وقسنطينة ابتداء من عام 1893م² وبحكم الوضع الجزائري تحت الاحتلال، فإنه لم يكن يُسمح بتلك التجمعات العفوية في المقاهي والأماكن العامة، وهو ما عجل بتنظيم ذلك ضمن نشاط جمعي مرخص، وبتأسيس الجمعية الرشيدية عام 1902م والجمعية التوفيقية سنة 1908م، انفق حراك النوادي مع نشاط الجمعيات على

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، ص313.

² - خير الدين شترة، مقبلة تحقيق تعريف الخلف برجال السلف، ط1. الجزائر: 1433هـ-2012م، دار كردادة للنشر والتوزيع ج1، ص22.

المناهضة السلمية لمشاريع الاحتلال في طمس معالم الهوية، وإذابة الكيان الجزائري، وانتظمت نشاطاتهما في إطار الحفاظ على المقومات الكبرى للأمة من ثقافة ولغة ومظاهرهما، وقد كان لمشروع النوادي آثار في الشبان تساوي آثار المدرسة في الأطفال، وتفق آثار المساجد في الشيوخ والكهول ومن النوادي خرج الشبان إلى المسجد يؤدون حق الله، وإلى ميادين العمل يؤثرون واجبات المجتمع¹ ثم توسع النشاط إلى مبادرات فنية ورياضية وكشفية.

وقد تعاملت الجمعيات من خلال هذه النوادي مع عدد من المثقفين الجزائريين المحسوبين على الجناح المعرب، كابن الموهوب والمجاوي والحفناوي، كما استضافت محسوبين على الجناح الاندماجي كابن حبيلس وبلقاسم بن التهامي، ومحمد صوالح، والطبيب مرسللي، ومختار الحاج سعيد، وقد كانت المحاضرات والنشاطات مختلفة المواضيع، فمن توعية الشباب، وحثه على العمل إلى معالجة مواضيع تراثية وأدبية وعلمية وتاريخية، تلقى باللسانين العربي والفرنسي، وبين يدي القارئ هذه الترسمة:

نشاط جمعية الرشيدية مع أسماء المحاضرين ولغة المحاضرة²:

الرقم	عنوان المحاضرة	المُحاضر	لغة المحاضرة
01	حسن التعليم وفوائده	إبراهيم فاتح	عربية
02	السُّلُ الرُّبُويُّ	أبو القاسم بن التهامي	فرنسية
03	آلات الحرب الحديثة وقوة فرنسا العسكرية	الضابط لوجلاي	فرنسية
04	الأدب العربي	عبد الحليم بن سماية	عربية
05	النظام الشرعي في الجزائر	عبد الرزاق الأشرف	عربية
06	الإسلام يسمح بدراسات اللغات والعلوم، بل يوصي	محمد السعيد بن زكري	عربية
07	حضارة العرب قبل الإسلام وبعده	عبد القادر المجاوي	عربية
08	الفن العربي	شارل دي جلان	فرنسية
09	النظام السياسي الفرنسي	المحامي ابن الحاج	عربية
10	اختصاصات النور وتطبيقها	عمر قندوز	عربية

وقد أخذت الجمعيات في التوسع أفقياً حتى شملت مناطق كثيرة من القطر الجزائري، وأصبح نشاطها مشهداً لمجتمع يتشكل، والترسمة المولية تختصر جغرافيا نشاط النوادي والجمعيات ونوعه وبعض

¹ - محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج4، ص174.

² - سعد الدين بن أبي شنب "النهضة العربية بالجزائر" (ملحق) إسماعيل العربي، الدراسات العربية في الجزائر في عهد الاحتلال الفرنسي، د. ط. الجزائر: 2007م، د د، ص101 (بتصرف).

الفصل الأول:

مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر؛ المكونات والتجليات

أعلامه، وحتى دلالات تسمياتها، والفترة التي بلغت فيها أوج نشاطها، لنقف على أن عناصر الإحياء التي تُوردها الأطروحة هنا، كانت تسير جنباً إلى جنب في تناغم واضح، وتفاعلاً مطبوعاً بطابع التحدّي وإثبات الذات.

جدول بأسماء نوادي الإحياء في الجزائر وأماكنها وأسمائها¹

(مرتبة حسب تاريخ الإنشاء)

البلدة	اسم النادي	التأسيس	ملاحظات
الجزائر	الجمعية الرشيدية	1902	إنشاء النخبة الجزائرية الفرانكفونية.
الجزائر	الجمعية التوفيقية	1908	إنشاء النخبة الجزائرية الفرانكفونية.
المدية	جمعية ثقافية مسرحية	1911	اسكندر محمد القاضي عبد المؤمن.
الجزائر	جمعية مسرحية	1911	قدور بن محي الدين الحلوي.
البلدية	جمعية مسرحية	1911	القاضي محي الدين بن خدة.
الجزائر	ج- الآداب والتمثيل العربيين	1921	على شريف الطاهر.
الجزائر	ن - الترقّي	1927	مقر جمعية العلماء الرئيس.
معسكر	ن- الشبيبة الإسلامية	ق1930	مقر نشاط محمد السعيد الرّموشي الصّانغي.
مستغانم	الاتحاد الأدبي الإسلامي	ق1930	نادٍ ثقافي ثمّ إصلاحي ثمّ سياسي.
بجاية	ج- الإصلاح	1930	/
عنابة	ج- مزهر البوني	1931	جمعية ثقافية ذات اهتمام تربويّ وتعليمي.
تبسة	الشبان المسلمين	1930	نادٍ تحت إشراف الشيخ العربي التبسي.
قالمة	العندليب	1931	جمعية فنية متعاطفة مع جمعية العلماء.
المدية	ن - المولودية	1932	حلّه الاحتلال سنة 1934م.
البلدية	ن - النهضة	1932	بدأ إصلاحياً ثمّ آل إلى الشيوعيين المنتخبين
تيزي-وزو	ن - السلام	1933	حاضر به ابن باديس 1934 والعقبي 1937م
العلمة	ن- الثقافة الإسلامية	1932	/
برج بوعريّج	ج- الإصلاح	1932	/
بوفاريك	ن - بوفاريك	1933	ثقافيّ إصلاحيّ.
باتنة	ن - الإصلاح	1933	حاضر به ابن باديس مرّات.

¹ - عمّار هلال، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة 1832-1962م، ط2. الجزائر: 2016م، ديوان المطبوعات الجامعية، ص 270-283 (بتصرف).

الفصل الأول: مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر؛ المكونات والتجليات

جيجل	ج- التربية والتعليم	1933	/
عين مليلة	ن- الأخوة	1933	/
المدية	ن- الشبيبة الإسلامية	1934	حلّ محل النادي السابق
الجزائر	ن- الإصلاح	1934	حاضر فيه العقبي، ومحمد العيد آل خليفة.
عين مليلة	الجمعية الإسلامية	1934	جمعية تربوية تعليمية أساسا.
بسكرة	الجمعية الإسلامية	1934	جمعية تربوية وتعليم.
ميلة	ن- يحي الشباب	1934	/
سوق اهراس	ن- الشباب الإسلامي	1934	/
بلعباس	/	1934	لا يُعرف اسمه، ودشنه الإمام إبراهيمي.
البليدة	ن- النّقد	1935	نادٍ إصلاحيّ عوّض (النهضة) السابق.
الشلف	ن- الإصلاح	1935	ثقافيّ إصلاحيّ.
ميلة	النادي الإسلامي	1935	تسيير وإشراف الشيخ مبارك المليّ.
بوسعادة	ن- الإخاء	1935	نادٍ ثقافيّ إصلاحيّ.
سطيف	ن- الإرشاد	1935	برئاسة فرحات عباس، ويقدم دروسا وعظية.
عنابة	الاعتدال الإسلامية	1935	جمعية ذات ميول سياسية.
جيجل	ج- المسلمين	1936	/
جيجل	الشبيبة الرياضية	1936	متعاطفة مع جمعية العلماء.
بسكرة	الكشافة الجزائرية	1936	إشراف جمعية العلماء والدكتور سعدان.
سكيكدة	نادي الأمل	1936	اهتمامات تعليمية، وله مدرسة عربية.
مليانة	ن- الاتحاد	1936	ثقافيّ إصلاحيّ.
العروسيّة	ن- الاتحاد	1936	يحيوي مكتبة مهمة جدًا.
شرشال	ن- الأخوة	1936	ثقافيّ إصلاحيّ.
تنس	ن- السلامة	1936	مقر اجتماعات جمعية العلماء والكشافة
قالمة	ن- الشبيبة الإسلامية	1936	/
واد سقين	الجمعية الدينية	1936	/
بسكرة	ج- إعانة الفقراء	1936	بتسيير الدكتور سعدان ومحمد خير الدين.
بسكرة	ن- الشباب	1936	/
وادي الزناتي	الثقافة الإسلامية	1936	ناد ثقافيّ.
بسكرة	الشبيبة الجزائرية	1937	إشراف شعبة جمعية العلماء.
باتنة	الجمعية الإسلامية	1937	تربوية تعليمية، مقرها المسجد الجامع.

الفصل الأول: مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر؛ المكونات والتجليات

قسنطينة	كشافه الرجاء	1936	ذات علاقة وطيدة مع العلماء.
قائمة	نادي الترقّي	1936	يُخصّص دروسا باللغة العربيّة لمرتاديه.
ميلة	الجمعية الإسلاميّة	1936	جمعية ذات اهتمام تربويّ تعليميّ.
البلدية	ج- الشّبيبة الإسلاميّة	1937	جمعية ثقافيّة تربويّة.
عين عبيسة	ن- الإصلاح	1937	/
قرقور	ن- الشّباب	1937	موالٍ لحزب الشّعب علنا.
بجاية	ج- الإصلاح	1937	من إنشاء تلاميذ المدارس العربيّة الحرّة.
بجاية	ج- الشّباب الفنّي	1937	جمعية فنيّة متعاطفة مع جمعية العلماء علنا.
سيدي عيش	ج- الاتّحاد	1937	جمعية تربويّة تهذيبية.
بني ورغليس	وداديّة بني ورغليس	1937	/
قسنطينة	ج- الشّباب الفنّي	1937	جمعية موسيقيّة متعاطفة مع العلماء.
قسنطينة	ن- صالح باي	/	/
تبسة	الأوتار الجزائريّة	1937	جمعية موسيقيّة متعاطفة مع العلماء علنا.
أم البواقي	ن - التّهذيب	1937	مقرّ اجتماع وتنسيق شعب جمعية العلماء.
ميلية	قدماء تلاميذ المدارس الأهليّة	1937	جمعية متعاطفة مع جمعية العلماء.
عين مليلة	الجمعية الإسلاميّة	1937	ذات نشاط دينيّ إصلاحيّ.
بني صاف	ن- التّحدّي	1937	نادٍ ثقافيّ ثمّ إصلاحيّ ثمّ سياسيّ.
وهران	ن- الفلاح	1938	مقرّ اجتماعات الإصلاحيين والوطنيين.
تلمسان	ن- الشّبيبة الإسلاميّة	/	أقدم نادٍ في تلمسان.
تلمسان	ن- السّعادة	/	كان الشّيخ الإبراهيميّ أهمّ منشطيه.
تلمسان	ن- الرّجاء	/	له ميول سياسيّة واضحة لحزب الشّعب.
تلمسان	الجمعية الإسلاميّة	/	برئاسة طالب عبد السلام.
دلّس	ن - السّعادة	/	أسسه حمزة بوكوشة تلميذ ابن باديس.

لقد مثّلت هذه المؤسّسات دور استرجاع المؤسّسة الثقافيّة الجزائريّة المصادرة، ومثّل رُوداها ومرتادوها والمتعاطفون معها الشّبكة الثقافيّة النّاشئة في الجزائر وسط مضايقات الاحتلال، فكان تساندها مع تنوّع اهتماماتها مشهدا من الوعي المتنامي، وكان توزّعها الجغرافيّ المتّسم بالشّمول النّسبيّ دليلا على عموم حالة الإحياء وانتشار مداها، رغم ما كانت عليه من قلّة ظاهرة في الغرب الجزائريّ وجنوبه وانتعاش في الشرق والوسط لاعتبارات بشريّة وجغرافيّة، ترجع في معظمها إلى كون معظم رُوداء حركة البعث والإحياء من المنطقة الشرقيّة والوسطى، ومع ذلك فقد أُدرجت المنطقة الغربيّة ضمن مخطّط الإحياء العامّ، من

طريق إرسال العلماء والمصلحين كالإمام الإبراهيمي بمنطقة تلمسان وما جاورها وحلّ الشيخ محمد الصغير الرّموشي بمنطقة وهران وضواحيها، وبانخراط جميع جهات القطر ضمن شبكة نشاط من هذا النوع؛ اكتمل ارتباط المجتمع برباط من الإحساس الجماعيّ بالتمييز عن مجتمع الاحتلال وثقافته ولغته، ومعها نشأ اليقين بالقدرة على الوثوب والانطلاق "والمعلوم أنّ أول عمل يؤدّيه مجتمع معين في طريق تغيير نفسه، مشروط باكتمال هذه الشبكة من العلاقات وعلى هذا؛ نستطيع أن نقرّر أنّ شبكة العلاقات هي العمل التاريخي الأول الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاد¹ فمن طريق النشاط الجوّاري الذي مارسه النوادي والجمعيات، نشأت شبكة من العلاقات الاجتماعية والثقافية، نجم معها شعور جمعيّ غامر بخصوصية المجتمع وفرادته، وكانت تلك لحظة إدراكه لذاته، وتحقيق وجوده.

لم تكن هذه النوادي على هيئة مثالية في مرافقها وتجهيزها واستيعابها، ولكنها كانت مأمنا اجتماعيا لفئة الشباب الذي أفضت به البطالة والأميّة والفراغ إلى اليأس والإحباط، ولم تكن مهية لتقديم تعليم متخصص، ولا يلزم مرتادوها بالحضور المنتظم، ولكنها كانت مؤسسات لا يقل شرف إسهامها، وجميل عطائها للحراك عن مؤسسات الإحياء الأخرى، وستبقى طبيعة ردّ الفعل الفرنسي وحجمه إزاء مشاهد حركة الإحياء وأعمال رجاله شاهدا على مدى فعالية المشهد، ودرجة الأضرار التي ألحقها بمشاريع الاحتلال الآنية والمستقبلية، وهو الأمر الذي التفت بسببه الاحتلال إلى النوادي فأصدر في شأنها مرسوما غريبا من خمسة فصول، أعدّ في باريس، وصدر في الجزائر في: 20 جانفي 1938م، مشيرا إلى حرية الاجتماعات الوارد في قانون 01 جويلية 1901م ولكنه نصّ في بنده الأول على أنّ "أي جمعية جزائرية لا يباح لها أن تقدّم -مجّانا أو بيعا لأعضائها أو الواردين عليها- أي مشروب يُشرب هناك، إلّا بإذن من الوالي العام للقطر الجزائري"² وجاءت البنود الأربعة الباقية على صيغة الإحياء بأن العملية عملية رقابة ضريبية تجارية، ولكن واقعا تجفيف للمورد المالي الذي يُسيّر هذه النوادي، ليكون الغلق مصيرها.

¹ - مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، تر: عبد الصبور شاهين، ط3. الجزائر - دمشق: 1406هـ - 1986م، دار الفكر - دار الفكر ص26.

² - أبو بكر بن بلقاسم "آخر سهم مسدّد للقضاء على النهضة الجزائرية" البصائر، ع 108، س3، 14 صفر 1357هـ - 15 أفريل 1938م، مج 3، (سلسلة 1) ص 151.

وإذا كانت هذه النوادي على هذا القدر من الخطر بحسب رؤية الاحتلال؛ فإننا ندرك بالمقابل قيمة النشاط الإحيائي الذي كانت تمارسه وفعاليته، وحجم الإقبال الذي كانت عليه، ومستوى الوعي الذي راحت تنشره بين مرتاديها، وهو الأمر الذي يخشاه أشد الخشية مخبر الاحتلال.

3- التجربة الصحفية العربية الجزائرية

مدونة الإحياء السيارة

تعدُّ الظاهرة الصحفية في الجزائر أبرز الوسائل التي جلت حقيقة الأوضاع الجزائرية في فترة من أدق فترات تاريخها الحديث، وتبنت دور الدعوة إلى الأفكار الجديدة، التي كانت فكرة الإحياء بمضامينه العامة -والإحياء اللغوي تحديداً- أبرزها، ثم إن هذه الصحافة كانت الوسيلة الأهم التي وثقت كثيرا من تفاصيل المرحلة وأحداثها، فأدت دورا محوريا، جمعت فيه بين كل عناصر الإحياء يومذاك، وبتوثيقها لباقي لمعظم تلك الأعمال والنشاطات والأحداث، أصبحت شاهدا مكتوبا على إنجازات وممارسات ومواقف وأحداث.

عرفت الصحافة الوطنية الجزائرية ولادة عسيرة، في رعاية فرنسية مأكرة، نهاية القرن (19) وعاشت طفولة بائسة، بداية القرن (20) إلى ما بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، ثم اشتد عودها واستوى قوامها بداية من العقد (04) من القرن (20) وهي مرحلة شبابها التي أصدرت فيها عناوين صُنفت من عيون العناوين العربية والإسلامية، وأثمرت أشكالا من الإبداع أثبتت به الجزائر طبيعة انتمائها ووجهتها ولحقت سريعا بركب صحافة عربية سبقتها في الوجود عقودا.

3-1- وضع الصحافة العربية في الجزائر بداية القرن العشرين: لعل من عناصر مشروع الإحياء

التي تعكس المشهد الحقيقي للوضع الجزائري خلال هذه المرحلة، هو عنصر الصحافة بوصفها إثباتا لوضع حرج بداية بطبيعة الصحف الصادرة، ولغتها، وتعدد أفكار أصحابها واختلاف توجهاتهم من جهة، ثم لأنها التوثيق الباقي الذي شهد على نفسه وغيره من جهة أخرى، ويكفي الدارس الإحاطة بالجو الصحفي الذي كان سائدا يوم ذاك، ليكتشف المسار الذي تسَلَّلت في مسالكه الصعبة الصحافة الوطنية الجزائرية.

وسيحاول هذا الحيز من الأطروحة استعراض المدونة الصحفية الوطنية الأولى التي يُنسب لها فضل تصوير مشروع الإحياء، وتوثيق مساره العام، ومسالكه الفرعية، بتوثيق ميلاد الصحافة الإحيائية وسط ركام من الجهود الإعلامية التي اختلفت منابعها، ووجهاتها، وتباينت رسائلها وغاياتها، وتحديد

الفترة الزمنية لذلك بنهاية القرن (19) إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى، ذلك أنّ هذه الفترة كانت مهداً مغموراً لجهود صحافية لافتة، نُسي فضلها بعد أن غطت عليها جهود صحافة ما بعد الحرب التي تبدو نموذجاً الاستشهاد على الإحياء، فهي على كثرة لا يمكن التعرّض له هنا، كما أنّه المشهد الذي اكتملت فيه -إلى حدّ بعيد- صورة الإحياء اللغوي واضحة.

إنّ اعتبار المدونة الصحفية العربية الجزائرية الركن الثالث من أركان الإحياء، نابع من كونها مصدراً لم يُشرف عليه الاحتلال، ولم يستطع أن يوثّق فيها ما يشاء وكيف يشاء من وجوده في الجزائر فيكون الأخذ بذلك عن مصدر وطني وسيط آمن.

ولعلّ من تمام الإنصاف العلمي والتأريخي، الإقرار بأنّ الصحافة العربية الإحيائية لما بعد الحرب مدينة لجهود لا ينبغي إغفالها، بل إنّه من غير المنصف اقتطاع البداية بخصوصيتها وظروفها والإشادة بالمنجز المكتمل، وقد ولّينا ظهورنا لأسباب اكتماله، وأسلم المسالك لتصوير المشهد الصحفي لهذه الفترة، هو مسح يعتمدُ العنصر اللغوي أساساً في العرض والتقسيم، بحكم الوجهة العامة للأطروحة فيكون إطاراً يُستعرض فيه المشهد الصحفي.

3-1-1- الصحف العربية اللسان: ختم القرن (19) في الجزائر على أربع صحفٍ تتزيّ بالحرف العربيّ هي المبرّش، في نسختها العربية لسان حال الاحتلال (1847م - 1926م) المنتخب الاندماجية (1882 - 1883م) الحق (1893 - 1894م) النصيح (1899م - 1900م) لمستعرب فرنسيّ يبدو أنّه أراد الاستغلال الماديّ للجفاف الصحافيّ العربيّ، وتستثنى (الحق) التي كانت أوّل محاولة إعلاميّة عربيّة وطنيّة المضمون بعد العدد (15) لمسلمين جزائريّين، ولا يوجد منها سوى (26) عدداً بالحرف العربيّ، ولو مع ضعف لغتها؛ أمّا بقيّة الصحف -على قلّتها- فقد كانت إمّا ذات مضمونٍ استعماريّ وإمّا ذات لغة عربيّة ركيكة جدّاً، وإمّا قد جمعت بين السّينتين.

3-1-2- الصحافة الفرنسية اللغة والمضمون: وهي صحافةٌ موجّهة للفرنسيّين تعالج قضاياهم وتحمل أفكار الاتجاهات السياسيّة والاقتصاديّة المتدافعة بينها، والمنقّقة على استدماحه الاحتلال وإن اختلفت في ذلك أشكاله وصيغُه، وهي صحافة لا تعني الأطروحة إلّا من زاوية أنّ بعضها -وعلى قلّة- أردف ملحفاً عربياً نفعياً، وفي أحيانٍ كثيرة مؤقتاً، كما فعلت جريدة الأخبار التي رغم اسمها العربيّ فهي تصدر بالفرنسيّة منذ 1839م وعاشت قرناً من الزمن، إذ توقّفت في 1938م، وتبنّت الموقف الرّسميّ للاحتلال، وفي عهد (فكتور باروكان) جعل الجريدة أسبوعيّة، وأنشأ لها قسماً عربياً استمرّ من

(1903 إلى 1914م) أُسند إلى الصحافي عمر بن قُدور، وكان إنشاؤه خلال هذه الفترة بغرض متابعة الحركة الثقافية الجزائرية، ومحاولة تطهيرها بلغة البلد كما ألحقت مجلة (البروقري دي ليست) الصادرة بقسنطينة ملحقا سمته (المنتخب) لمجرد الردّ على صدور كتاب الأستاذ عبد القادر المجاوي (إرشاد المتعلمين) فهاجمت الثقافة العربية، ودعت إلى الإدماج، ويذهب الأستاذ أبو القاسم سعد الله إلى أنها "نشرة صدرت مؤقتا عن (البروقري) لتؤدي مهمة عاجلة، وهي الإساءة إلى الثقافة العربية ولدعوة المجاوي¹" وهذا النوع من الصحافة لا أمل فيه ولا استقرار.

3-1-3- الصحافة العربية اللسان الفرنسية المضمون: وهو شكل آخر من أشكال الترويض الفرنسي للحراك الجزائري، واستراتيجية أخرى من استراتيجيات الاحتلال لتمرير أفكاره ونشر ثقافته، وقد أشرف على هذا النوع من الصحافة أصناف ثلاثة: مستعربون متوطنون، أو جزائريون مغتربون، أو فرنسيون منصفون، وقد عرفت الصحافة خلال فترة الإحياء نماذج من كل منها:

3-1-3-1- صحافة المستعربين المتوطنين: وهي صحافة أدارها فرنسيون تعربوا، واطَّلَعُوا على طبيعة المجتمع الجزائري في ظلال مدرسة الاستشراق، فتكفلوا بتوجيهه إعلاميا عبر منابر عديدة، وقد وقف الاحتلال خلف هذه الصحف بشكلٍ ما، سواء بالتمويل، أم بالإمداد بالمادة الإعلامية، أم الترويج ومن هذه الصحف (النصيحة للأجيال) التي صدرت سنة 1896م باللغة العربية في فرنسا، وترسل الى أعيان الأهالي غير المتفرنسين لنشر التأثير الفرنسي باللغة العربية، واستدامة ولاء هذه الفئة التي استنقت لها فرنسا بعض مصالحها، مقابل ولائها، ومنها جريدة (النصيحة) التي أصدرها (قوسلان / Gosselin) (1899م-1900م) بلغة عربية مشوهة وأسلوب ركيك، فكانت أقرب إلى العامية، وقد ظهرت انتهازيتها المادية، ورغبة صاحبها في استقطاب القراء الجزائريين في ظل الجفاف الشديد من الصحف العربية وتوقفت بعد (62) عددا.

واستهل مدير الشؤون الأهلية (لوسيان / Luciani) القرن (20) بإصدار أول صحيفة بالحرف العربي، بعنوان: (الجزائري) محاولة منه لإرضاء نهم الجزائريين للصحافة العربية المتسللة إلى الجزائر والتي كان الاحتلال يخشاها على نفسه، ولكنها احتجبت بعد (04) أعدادا لتتسلل الحكومة الفرنسية مرة أخرى عبر صحيفة (المغرب) (1903-1904م) للفرنسي (بيار فونتانا / P. Fontana) مالك المطبعة الشهيرة، وقد كانت نافذة للنخبة الجزائرية المثقفة ك: ابن سماية والمجاوي، وابن زكري ومحمد بن أبي

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، ص232.

شنب، وغيرهم، وما لبثت أن توقفت لقلة قرائها، وكانت تنقل عن (المؤيد) المصرية، إظهارا لشيء من السّماحة المقنّعة، واستمرت سنة واحدة كما أثبت محمّد ناصر خلافا لسعد الله وعلي مراد اللذين نقلتا استمرارها إلى سنة 1913م خطأ.

ومنها صحيفة (أخبار الحرب) (1914-1918م) وهي الجريدة العربية الوحيدة التي أصدرها الاحتلال، وبإشراف (جان ميرانت) نفسه، ووجهت إلى الأهالي، تُطبعهم على أخبار الحرب، وتقتل فيهم تعاطفهم مع تركيا، واحتجبت بعد نهاية الحرب مباشرة.

والميزة العامة لهذا الشكل من الصحافة هو توظيف الحرف العربي لتحقيق منفعة أكبر من نشره على الصحف، وقد لجأ مخبر الاحتلال لذلك اضطرارا، ولذلك لم يُبد أيّ اهتمام لسلامة اللغة، ولا لصحة التراكيب، بل كان يكفيه منها أن يبلغ الأهالي ما تريد فرنسا تبليغهم، بأيّ مستوى من مستويات اللغة ويكفي أن نقرأ من (النّصح) مثلا: "يجتمع المجلس المذكور يوم 6 من شهر الداخل وينبغي أن نوصوا احبابنا على المسائل خاصة لحقوقهم وربما احتاجوا أعضاء المجلس إعانة جريدتنا فيرسلون لنا مفيد كلامهم ونحن نخرجوه في جريدتنا بحيث ينشر في الوطن ويسمع به كل أحد"¹ وهو الأسلوب الغالب على كتابة الصحيفة كلّها، وتوقفت بعد (62) عددا.

3-1-2-3- صحافة المستعربين المُنصفين: وهي جهودٌ صحفية لافقة من زاوية أنها صدرت من فرنسيين، يلمس المتابع لهم صدق اللهجة وحسن النية والإنصاف، ومن نماذج هذه الصحافة (الهلال: 1906-1907م) المزدوجة اللغة لمديريها (Vulpillere) ومن أشهر كتّابها (Spilman) الفرنسي المشهور بالدفاع عن حقوق الأهالي، وتولّى صفحتها العربية عمر بن قُدور ومحمّد بريزين في ردود على الصحافة الفرنسية، وتبنّى المسألة الوطنية، وتوقفت في مارس 1907م.

ومنها أول مجلة عربية صدرت بالقطر الجزائري، وحملت اسما لافتا هو (الإحياء) وصدرت بالعاصمة في 14 فيفري 1907م، ولكنّ العنوان على جمال وقعه وقوة دلّاته، كان من إطلاق المستشرق (جان ديرايو/ جمانة رياض) وقد كانت صحيفة ذات "أهمية خاصة في تاريخ الإصلاح الجزائري، فقد كانت محرّرة بأسلوب عربيّ مبين"² وقد تبنّت دعوة الجزائريين إلى التمسك بلغتهم العربية، والتزام المبادئ

¹ - أدوارد قوسلان " مجلس الديليقياسيون" النّصح. 31 أكتوبر 1899م، 27 جمادى الثّانية 1317هـ ع2، س1، ص1.

² - محمّد ناصر، الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1954م، ط3. بيروت: 1427هـ-2007م، دار الغرب الإسلامي ص64.

الصَّحِيفة للدين، وتوقَّفت في العام نفسه بعد (07) أعداد، والصَّحِيفة وإن لم تكن ذات مصدر وطني؛ فإنَّها قد حملت شهادة من فرنسيَّة مسلمةٍ منصفَةٍ على ما آل إليه الوضع الجزائريُّ يومذاك، كما كانت تعبيراً صادقاً عن المشهد الذي يَضيقُ به كلُّ متابعٍ لمظاهر الموت الذي لا مخرج منه إلاَّ الدَّعوة إلى الإحياء، ورغم أنَّ صدور هذه الصَّحِيفة كان من طرف فرنسيَّة؛ إلاَّ أنَّها حين لم تُسأِر مشروع الاحتلال فقد كُتِمت أنفاسُها بعد تصنيفها في عمود الصَّحافة المخالفة لقانون تثبيت الاحتلال وأركانها، ولو كان المنشئ والكاتب فرنسيَّان.

وغير بعيد عن هذا الخط؛ كانت جريدة (الحقَّ الوهراني 1911-1912م) التي صدرت باللُّغة الفرنسيَّة بداية من أفريل 1912م وفي عددها (31) ألحقت صفحةً باللُّغة العربيَّة ثمَّ صفحتين، وقد كانت تحت إدارة الفرنسيِّ (تابي / Tapié) وقد وقفت هذه الصَّحِيفة ضدَّ حملة التَّجنيد الإجماليِّ، ودعت الجزائريين إلى الاحتفاظ بهويَّتهم على لسان مديرها الذي نقل إسلامه وحماسه لتعاليمه، وهو ما شجَّع بعض الأقلام الجزائريَّة للكتابة فيها، كعمر راسم، وبسبب اتِّجاهها هذا أوقفتها رقابة الاحتلال بعد (46) عدداً.

إنَّ مثل هذه المحاولات لا يمكن النَّظر إليها إلاَّ من زاوية احترام إنسانيِّ، وإلاَّ فهي ليست إلاَّ شكلاً من أشكال التَّعاطُف، إذ لن تستطيع أن تتحمَّل همّاً وطنياً بحجم الهمِّ الجزائريِّ حينئذٍ، ولم يكن للجزائريين على الجهة المقابلة أن يعلنوا ولاءهم المطلق لمثل هذا النَّمُودج من الصُّحف، بفعل طبيعة مصدرها الذي وإن كان لا يُشكُّ في نيَّة أصحابها، ولا في صدق توجُّههم، ولكنَّ مجالات تضحيتهم وحدود استمرارهم، لن تكون بحجم تضحيات وآفاق الصَّحافة الوطنيَّة المنشأ والانتماء.

3-3-1-3 صحافه الجزائريين المفرنسين: تولَّى ريادة هذا الشَّكل من الصَّحافة نخبةٌ من صنائع مدرسة الاحتلال العلميِّ في الجزائر، فقد مثَّل هؤلاء دورَ الجزائريِّ المُوالي، النَّاقل للرَّضى الجزائريِّ بالاحتلال، فكان بذلك حُجَّة فرنسا على العالم في إثبات القبول الجزائريِّ بفرنسا الحضارة والفكر والعلوم واللُّغة، وإن لم يكن من العدل اتِّهامُ هذه الأقلام بالولاء الفكريِّ للاحتلال فإنَّ لجوءهم الاضطراريِّ إلى اللِّسان الفرنسيِّ، أو تبني المضامين الكولونياليَّة بحرف عربيٍّ؛ كان عاملاً في إثبات ولائهم الوطنيِّ من عدمه، ولذلك كان هذا الشَّكل من الصَّحافة إشكالاً أشبه المكتوب منها بلغة فرنسيَّة، إشكال الأدب الجزائريِّ المكتوب باللُّغة الفرنسيَّة، وفَضحت مضامينه المُواليَّة للاحتلال -وإن تزيَّت بالحرف العربيِّ- أصحابه، وصنَّفهم ضمن القائمة التي مدَّت في عمر الاحتلال، ويسَّرت كثيراً من مهمَّاته.

ومن هذه الصحف (كوكب أفريقيا/ 1907-1914م) فرغم أنها صدرت باللغة العربية؛ فهي "لا تختلف عن أي صحيفة استعمارية إلا باللغة العربية الجيدة نسبياً"¹ إذ كانت تحت إشراف: محمد كحول الموظف لدى سلطات الاحتلال، فكانت تمونها، وتوجه خطها، وبفعل موالاة مضامينها لأهداف الاحتلال ومشاريعه؛ فقد استمرت في الصدور حتى بداية الحرب 1914م.

ومنها صحيفة (المصباح/ 1904م) التي تُصنّف ضمن الصحف التي أصدرها الاحتلال باللغة العربية تحت إشراف المستشرقين والسياسيين بغرض استدامة وضع الاحتلال، وما توظيف اللغة العربية واستقطاب بعض الأقلام الشهيرة إليها، إلاّ تسويق لما تزعم فرنسا أنه حرية صحافة، وهي وإن اضطرت اضطراباً لاستخدام الحرف العربي؛ فهي لا ترضى بأقل من أن يحمل هذا الحرف من الفكر الفرنسي والثقافة الفرنسية للجزائريين ما يعوّض تضحيتها بظهور هذا الحرف على هذه الصحف.

3-1-3-4- الصحافة المزدوجة اللغة؛ مأساة شكل التعبير ومضمونه: إذا كان هذا الشكل من الصحافة قد اختفى وراء الحرف العربي والانتماء الجزائري، لتمويل المشاريع والأفكار الفرنسية؛ فإنه قد عكس بشكل آخر مُعاناة التعبير بالحرف الفرنسي عن المضامين الوطنية في ظل الاحتلال، وفي فترة البحث عن الذات، وفكّ أزمة شكل التعبير ومضمونه، فاضطرّ الجزائريون لتبليغ مضامين وطنية بالحرف الفرنسي لأسباب جمعت بين إجادتهم له، وبين استرضاء مقصّ الرقابة واستدراار صمته، وضمن هذا الشكل نجد ما قد يتفق على تسميته بالصحافة المزدوجة اللغة، وهو شكل تفرّع عنه نماذج، فمنها ما بدأ فرنسي اللغة ثم ألحق ملاحق عربية، وبمضامين اندماجية في بعض الأحوال، مثل ذلك جريدة (الأخبار/ 1839-1938م) العتيقة التي ألحقت ملحقا عربياً مكيفاً مع الحالة الجزائرية، بداية من 1903م، واستمرّ حتى 1924م، ولكن القسم العربي لم يكن على ما كان عليه القسم الفرنسي تماماً فجاء مظهرًا للتقرب من الرأي الإسلامي العام حسب رأي المشرف عليها فيكتور (باروكان/ Barrucand) وصنّف خطابها الجزائريين أهالي يسعون للبحث عن مرتبة (جزائريين) ومنها جريدة (المصباح) وقد أنشأها العربي فخّار أحد المعلمين المتقنين بالفرنسية سنة 1894م، ومثلت منظمة (الشباب الجزائريين) بداية القرن (20) وتطبيقاً لشعارها: لفرنسا بالأهالي (pour la France par les Arabes) جاء أسلوب خطابها متملقاً ضعيفاً، "أمّا لغتها العربية فكانت مزريّة حقاً"² ولم تكن - مثل

¹ - محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية، ص 65.

² - محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية، ص 62.

هذه الصحافة لتُقلق سلطات الاحتلال، وهي ترى منها نصّاً متهاكاً للغة، مهترئ المضمون، ومن مثل ما نقله العدد الثاني منها: "أيها القارئ بعد إهداء أشرف السّلام على سيادتكم أعرض على مسامعكم أنّ جريدة المصباح وهي هذه الورقة فقد أحدثها بإعانة ذوي المعارف الطالبون جلب الفائدة لحضرتكم فتجدون فيها جميع الأخبار الواردة من كلّ جانب والمسائل الأدبية ما عدا السياسة المعروفة بالبوليتيك"¹ وعلى هذا السبيل لم تصبر (المصباح) إلّا نحو (30) شهراً، فتوقّفت في فيفري 1905م.

وإذا ما اشترك النموذجان (الأخبار) و(المصباح) في ازدواجية اللغتين الفرنسيّة والعربيّة على نفس السطح الصحفيّ مع انحياز واضحٍ للحرف الفرنسيّ، وميلان جانب المضمون إلى صفّ الاحتلال غالباً، فإنّ هناك صحافةً مزدوجة اتّسمت بشيءٍ من الإنصاف والتّعاطف مع الوضع الجزائريّ من ذلك صحيفه (الهلال/ 1906-1907م) المزدوجة السّالفة الوصف. ومنها جريدة (الحقّ 1893-1894م) الأسبوعيّة، والصّادرة بعناية على يد سليمان بن بنقي وعمر السّمار و خليل قايد العيون، وقد نشأت فرنسيّة اللّسان ثمّ مزدوجة، وأظهرت شيئاً من التّعبير عن الشّعور الوطنيّ بحذر، وهاجمت المتجنّسين وأبدت امتعاضها من ممارسات الاحتلال التّمييزيّة "وهي رغم ضعف أسلوبها وركاكة لغتها؛ كانت مفيدة المحتوى"² فعُرفت باتّجاهها الوطنيّ الصّريح، وتوقّفت بسبب ذلك عند العدد (15) ليصدر العدد (16) باللّغتين بدايةً من جانفي 1894م، كما كانت أوّل جريدة تصدر لوطنيين جزائريين، وقد انفتحت على الصّحافة المشرقيّة، فنقلت عن (أبو نظارة) و(أبو الهول) وبقيت الأعداد (26) منها بالحرف العربيّ ومضامينها الوطنيّة شاهدةً على أوّل محاوله للصحافة العربيّة الحرّة في الجزائر.

ومن الصّحافة المزدوجة اللّغة صحيفة (الإسلام 1910م) التي ظهرت بعناية على يد الصّادق دندان ثمّ انتقلت إلى العاصمة 1912م، وأصدر منشئها نسخةً عنها بالعربيّة في جويلية 1912م من تعريب عزّ الدين القلال التّونسيّ، لتتوقّف النّسخة العربيّة في 1913م، وتستمرّ النّسخة الفرنسيّة إلى بداية الحرب 1914م. وخلفت النّسخة العربيّة المتوقّفة صحيفة (البريد الجزائريّ/ 1913م) من إصدار القلال نفسه في أوت 1913م وجاءت "بعبارة بسيطة، ولغة واضحة بدون أدنى ترصيع ولا تنسيق، حتّى لا يُحرّم من فهمها القاصرون في فنون اللّغة العربيّة"³ ومرة أخرى تقف الجبهة الصحفيّة الإحيائيّة

¹ - محمّد ناصر، الصّحف العربيّة الجزائريّة، ص 62.

² - محمّد ناصر، الصّحف العربيّة الجزائريّة، ص 54.

³ - محمّد ناصر، الصّحف العربيّة الجزائريّة، ص 76، نقلا عن البريد الجزائري، 28- 8- 1913م، ع 1.

الفصل الأول: مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر؛ المكوّنات والتّجليات

الجزائريّة في مأزق الحرف والمضمون، فقد كانت أوضاعُ الصّحف محكومةً في كلّ مرّة إلى منشئها الذين كانوا أربعة أصناف:

- فرنسيّون بعقليّة الاحتلال ومُنصرة مشروعه.
 - فرنسيّون معتدلون منصفون.
 - جزائريّون مغتربون أو اندماجيّون على أفضل الأحوال.
 - جزائريّون وطنيّون اختلط لسانهم بين الفرنسيّة والعربيّة.
- وبناء على التّركيبة البشريّة التي كانت وراء الصّحافة المحليّة في الجزائر خلال هذه الفترة صدرت الصّحف محكومةً بحكم اللّغة والمضامين أنواعاً، فمنها:
- صحافة فرنسيّة اللّغة والروح.
 - صحافة فرنسيّة الروح عربيّة اللّسان.
 - صحافة فرنسيّة اللّغة وطنيّة المضمون.
 - صحافة عربيّة الروح واللسان.

3-1-3-5- الصّحافة ذات الخطّ الوطنيّ روحاً ولساناً: إذا ما استثنينا الملحق العربيّ لجريدة (الحق) التي صدرت في عنّابة بدايةً من عددها (16) فإنّ أوّل نموذجٍ للصّحيفة العربيّة الروح واللسان في فترة ميلاد الإحياء كان صحيفة (الفاروق/1913-1915م) التي أنشئت في جوّ إقليميٍّ ومحليٍّ ودوليٍّ مشحونٍ، فنُذِر الحرب العالميّة الأولى يتسارع وقعها، والحراك السياسيّ والثّقافيّ في المشرق وتونس على أشده، والحرب الإيطاليّة على ليبيا وآثارها تتناقلها الرّكبان، والصّراع التّركيّ الفرنسيّ يأخذ في كلّ يومٍ أبعاداً جديدة، وفي هذه الأجواء تظهر (الفاروق) للصّحفيّ القدير عمر بن قُور، ويرتقي بها إلى مصاف الصّحف العربيّة الرّائدة يومئذ، وقد غدّتها أقلامٌ وطنيّةٌ واعدة من مثل: سعد الدّين بن بلقاسم الخمار، وأبي اليقظان، وعبد الحفيظ بن الهاشمي من الجزائر، وتوفيق المدني وحسن الجزيري والطّيب بن عيسى من تونس.

وتبدو صحيفة (الفاروق) مبادرةً مكتملةً منذ البداية، ذلك أنّ صاحبها قد استكمل الجوانب الفنيّة في العمل الصّحافيّ الفرنسيّ في الجزائر، كما كانت علاقاته مع صحف المشرق رصيداً خرجت به (الفاروق) متميّزة إلى حدٍّ بعيدٍ، فقد كان مراسلاً لـ (اللوّاء) المصريّة سنة 1906م وهو ابن (20) عاماً ونشر في (التّقْدُم) التّونسيّة 1908م، وراسل (الحضارة) في إسطنبول سنة 1911م، وكتب في نحو

الفصل الأول: مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر؛ المكونات والتجليات

(10) دوريات عربية أخرى مشرقا ومغربا، وللاستاذ صالح خرفي جهدٌ مشكور جمعه لعمر بن قُذُور هو الكتاب الثاني ضمن سلسلة: في الأدب الجزائري الحديث، عرض فيه لجهود الرجل، وأورد في آخر الكتاب نماذج من شعره ونثره، يرى المطلع عليها مستوى محمودا للكتابة العربية، إن من حيث المضمون وطريقة العرض، وإن من حيث أسلوب الكتابة وصفاء العبارة ووضوحها، وكانت تلك بداية جديدة للكتابة الصحافية العربية الحديثة في الجزائر، وقد بدأت تتخلص من أعباء المرحلة القديمة بكل مظاهرها.

ومن الصحف ذات الخط الوطني مضمونا ولسانا، صحيفة (ذو الفقار/1913-1914م) لصاحبها عمر راسم، وقد صدرت بعد (08) أشهر من صدور (الفاروق) وأسهم صاحب (ذو الفقار) في تأسيسها وهي "أول جريدة عربية جزائرية يقوم بأعباء تحريرها وكتابتها ورسم صورها وإخراجها وطبعها شخص واحد"¹ وعُرفت بخطابها الاجتماعي الديني التائر على الطبقة والتميز الاجتماعي، فتبنت شعار: (جريدة عمومية اشتراكية انتقادية) وفيها ظهرت أول بذور المذهب الاشتراكي تحت بغي الاحتلال وطغيانه، وقد كان الخط العام للجريدة لمدينا للفكر العبدوي، حتى عد محمد عبده (مدير الجريدة الديني) إثر التأثير الكبير الذي أبداه راسم بدعوته إلى الإصلاح الاجتماعي والديني، ومجانبة السياسة، ولم تصمد الجريدة طويلا، إذ كتم الاحتلال أنفاسها بعد (04) أعداد بحجة الحرب.

وإذا كان هو المشهد الصحفي الذي ختم على العقدين الأولين من القرن (20) فصور مأساة الصحافة العربية الوطنية الجزائرية في بدايتها، فإن هذا المشهد سيعرف تحولا واضحا بعد الحرب العالمية، ليكون مسرحا لمشهد صحفي جزائري إحيائي لافت، يتعدى على الأطروحة الإفاضة فيه تفصيلا، لذلك سيتم التعرض للصحف ذات التأثير البين بشيء من مزيد البيان، على اعتبار أنها المعالم المضيئة في خط سير الصحافة الإحيائية الجزائرية، والتي ارتقت بالمشهد الصحفي ليكون ركنا أساسا للإحياء اللغوي في الجزائر الحديثة.

3-2- مشهد اللغة العربية في الصحافة الجزائرية بعد 1920م: قد يبدو استعراض شيء من جهود هذه المنابر الإعلامية، وإسهاماتها في الإحياء اللغوي، إن على صعيد المتن أو الوضع مملا أو شاغلا لحيز معتبر من صفحات الأطروحة، أو قولا مكرورا عن مادة صحفية تداولتها العديد من الدراسات والبحوث، ولكن هذا الاستعراض سيكون من الأطروحة الوجه الأكثر إبانة عن طبيعة مسار الإحياء وأقطابه وتحدياته.

¹ - محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية، ص 77.

النجاح (قسنطينة، 1919-1956م): من أوائل الصحف العربية ظهوراً، وبعد تعثرها في السنوات الأولى، تحولت يوميةً بنحو (5000) نسخة يوميةً، ولعلَّ نهجها الانتفاعي الذي أثار عليها الإصلاحيين هو الذي منحها فُسحة في حياة طويلة، وكفَّ عنها بطش الاحتلال لأكثر من نصف قرن، ومع ما عُرِفَتْ به هذه الصحيفة من التزامها الحرف العربي المزعج للاحتلال؛ إلاَّ أنَّها كانت سيفاً مُصلِلاً على الإصلاحيين، وقد رضيت سلطاته بما تحقَّق لها من إرهاب مشروع الإصلاح، ذات حرف عربيٍّ ومضمون متواطيء.

الصديق (الجزائر، 1920-1922م): صدرت في أوت 1920م، برئاسة عمر بن قُدور صاحب الفاروق قبل الحرب حتَّى العدد (07) فتبنَّت لهجةً هادئةً، دعت الجزائريين إلى تعلُّم اللغتين، وطالبت سلطات الاحتلال بتسهيل ذلك. كانت عربيةً اللسان، ووطنيةً التوجُّه. توقَّفت في مارس 1922م بعد (18) شهراً.

الإقدام (الجزائر، 1920-1922م): لسان حال حركة الشباب الجزائريين، ممثَّلين في الصادق دندان -مدير (الإسلام) سابقاً- والحاج عمَّار مدير (الرَّاشدي) والأمير خالد، صدرت في فيفري 1919م باللغة الفرنسية، ثمَّ التحق دندان بابن التُّهامي وفريقه الداعي إلى التَّجنُّس، ظهرت الإقدام بصفتين عربيتين في سبتمبر 1920م بإشراف الأمير خالد حتَّى استقال في سبتمبر 1921م، ومع كونها منبراً سياسياً؛ فقد كانت "تنشر المقالات التربوية والاجتماعية، وتهتمُّ بالإنتاج الأدبيِّ الجزائريِّ شعراً ونثراً¹". كانت وطينةً الاتِّجاه، بدأت مزدوجةً اللسان ثمَّ تحولت فرنسيةً، وباللسان الفرنسي عاودت الظُّهور بين (1931-1934م).

الاستقبال الجزائريُّ (الجزائر 1920م): لسان حال الخصومة بين ابن التُّهامي المتجنِّس والأمير خالد لهذه الفترة، ظهرت بأعداد قليلة "هزيلة المادَّة، ركيكة اللغة"². النصيح (الجزائر، 1920): خلفت (الاستقبال) بلسانٍ مزدوجٍ والضَّحالة اللغوية ذاتها، توقَّفت قبل نهاية العام.

¹- محمَّد ناصر، الصحف العربية الجزائرية، ص 88.

²- محمَّد ناصر، الصحف العربية الجزائرية، ص 91.

لسان الدين (الجزائر، 1923م): أنشأها أحمد بن عليوة منبرا داعيًا إلى ضمّ الطرق الصوفية تحت إمرته، وتوقّفت في العام نفسه، ثمّ عاودت الظهور بالعاصمة في 1937م واستمرت حتى 1939م، ثمّ توقّفت نهائياً. جريدة عربية اللسان طرقيّة التوجّه، مناوئة للإصلاحيين.

التّقدّم (الجزائر، 1921-1931م): استغلّت توقّف الإقدام، فخلفته في ماي 1923م، صدرت مزدوجة اللّغة بغرض استقطاب الرّأي العام، مكّنها مشربها المتفرنّس من الوقوف مدّة طويلة، لكنّ نسختها العربيّة توقّفت سنة 1926م، اندماجية التّوجّه، مزدوجة الحرف، ثمّ فرنسيّة.

المنتقد (قسنطينة 1925): نقطة إعلان الحركة الإصلاحيّة عن نفسها، وبداية تحوّل إحيائيّ بوصف جديد، أسّسها بقسنطينة في جويلية 1925م عبد الحميد بن باديس، وأسند إدارتها لأحمد بوشمال، "فما كاد يبرز العدد الثّاني منها حتّى ظهر في الجزائر كتّاب لم يجدوا مجالا لأقلامهم قبلها، فانظموا إلى تحريرها"¹ فأضحت منبر شباب الإحياء العربيّ العائد من المهاجر العربيّة من مثل: مبارك الميليّ الطيّب العقبيّ، أبي اليقظان، الشّاعر محمّد العيد، الهادي السّنوسيّ، وعُدّت "تحوّلا مهماً في تاريخ الحركة الفكرية والأدبية في الجزائر، لأنّها تختلف كلّ الاختلاف عن الصّحف التي سبقتها، سلاسة أسلوب، ومثانة لغة، وعمق أفكار"² وعُدّت إحدى البدايات المتميّزة التي أجلّت وجه الإحياء اللّغويّ في الجزائر لما بعد الحرب، فكانت لغنّها المتينة، ومقالاتها التي تبنّت قضايا اللّغة العربيّة متنا ووضعا مشهدا صريحا أسفر عن معالم وجهة الإحياء القادمة بأعلامها وميادين عملهم، وكشف عن روح الفريق العامل الآخذ في التّشكّل شيئا فشيئا. كانت بمواضيعها ولغتها طفرة في الإعلام الوطنيّ الجزائريّ في روحه ولسانه.

الجزائر (1925): أصدرها محمّد السّعيد الرّاهريّ مُعاضِدة للمنتقد، ومكمّلة مسيرة (الإقدام) فحملت "مقالات بليغة في مثانة تعبير، وسموّ فكر"³ أعلنت عن وطنيّة روحها، وعربيّة لسانها.

الشّهاب (قسنطينة 1925-1939م): ظهرت هذه الصّحيفة في نوفمبر 1925م، وقد خلفت المنتقد على جبهة الإصلاح الدينيّ والاجتماعيّ، والإحياء اللّغويّ، وسرعان ما تحوّلت إلى منبر يؤرّخ للحركة الجزائريّة في كلّ وجوهها، وبخاصّة في جانبَيْها الفكريّ والثّقافيّ، ويعرض مشاهد كثيرة لوضع اللّغة

¹ عبد الحميد بن باديس "بعد عقد من السنين" الشّهاب، الجزائر: غرة محرّم 1354هـ-5 أفريل 1935م، س11، مج11 ص6.

² محمّد ناصر، الصّحف العربيّة الجزائريّة، ص97.

³ عبد الحميد بن باديس، "الصّحافة العربيّة" المنتقد، الجزائر: 11 محرم 1344هـ، 30 جويلية 1925م، س1، ع5، دار العلا للنّشر والتّرجمة والتّوزيع، ص95.

العربية في الجزائر في ما بين الحربين، وتجاوزت في مدة يسيرة حد اعتبارها مجرد منبر إعلامي إحيائي وطني حر، إلى اعتبارها مدرسة فكرية وأدبية ولغوية لنحو (15) عاما (نوفمبر 1925 - أوت 1939م) إذ اجتمع حول أبوابها القارة - غالباً - أشهر الأدباء والشعراء، ورجال الفكر من الجزائر ومن خارجها حتى أنه يمكن عد هذه الصحيفة -بمرحلتها الأولى التي كانت فيها جريدة، والثانية التي تحولت فيها إلى مجلة- أحد معالم الإحياء اللغوي البارزة في الجزائر الحديثة.

صدي الصحراء (بسكرة 1925-1926) ثم (1934): أنشأها أحمد بن العابد العقبي، وظهرت في بداية أمرها مُساندة للدعوة الإصلاحية الناشئة التي أعلن عنها (المنتقد) و (الشهاب) و (الجزائر) واجتمعت حولها أقلام أمثال: الطيب العقبي، ومحمد العيد آل خليفة، والفرقد (سليمان بن يحي بوجناح) ومع قصر عمرها، فهي إضافة نوعية للإعلام الإحيائي، والأهم من ذلك هو إعلان التحاق منطقة الصحراء (بسكرة وما جاورها) بمشروع الإحياء، وفي ذلك ما يكفي من الدلالة على الاتساع والشمول الذي أخذت الحركة الإحيائية تكتسب فيه كل يوم مناطق أخرى، وطاقت جديدة، فقد اكتشفت الصحيفة على صفحاتها أقلاماً أخرى، وأثرت ساحة النقاش الأدبي والفكري، ورفدت النهضة الفكرية والأدبية الجزائرية، وذلك خلال مرحلتها الأولى (1925-1926م) أما بعد سنة 1934م فقد تحولت منبرا حزبياً متأثرة بالتدافع المستعر خلال تلك الفترة.

وادي ميزاب (الجزائر 1926-1929م): أنشأ هذه الصحيفة الظاهرة الصحفية الجزائرية دون منازع أبو اليقظان في أكتوبر 1926م، جاء في عددها الأول "وإن كانت كلسان حال الأمة الميزابية إلا أنها قبل كل شيء لسان حال الفكر الإسلامي عموماً والجزائر خصوصاً"¹ وبهذه العبارة يعلن هذا المنبر التحاق منطقة ميزاب بمشروع الإحياء الوطني العام، وقد افتتح بها أبو اليقظان بها حلقة من سلسلة مقاومته الصحفية، وأعلن من الأهداف: "حث الأمة على اكتساب العلوم والمعارف وإحياء اللغة العربية"² وقد أظهرت صفحاتها وعياً فكرياً متنامياً، ونضجاً ثقافياً وأدبياً واضحاً، وعالجت أبرز قضايا الفترة بأقوى الأقلام الفكرية والأدبية الشعرية من الجزائر وخارجها، ودوّنت قصائد مفدي زكريا وبكير بن سليمان وأحمد بن الحاج يحي، ورمضان حمّود، ومحمد الهادي السنوسي، وتطرّزت بمقالات أمثال: عمر بن قدّور ومبارك الميلي والمولود الحافظي، وهي الأسماء التي كانت أركان الكتابة الصحفية الإحيائية

¹ - محمد ناصر، أبو اليقظان وجهاد الكلمة، ط2. الجزائر: 1983م، المؤسسة الوطنية للكتاب، ص179.

² - محمد ناصر، أبو اليقظان وجهاد الكلمة، ص181.

يومذاك، كما يُحسب لها تكوين الكتاب الناشئين، بنشر إسهاماتهم تشجيعاً لهم وصقلاً لمواهبهم، وتعريف القراء بهم، من مثل: سليمان بوجناح، وعبد الرحمان بن عمر، وعيسى بن عبد الله، وبما كانت تنشره من نتاج أدبي جزائري وعربي، عُرفت بروحها الوطنية، ولسانها العربي ولهجتها الإصلاحية.

الحق (بسكرة، 1926م): محاولةٌ صحفيةٌ لعلي بن موسى العقبي، انصرف القراء والكتاب عنها بعد أن تخلّى عنها الطيّب العقبي، والصالح خبشاش، وقد تكون نزعته الطرقية العليوية سبباً في خمود ذكرها، شاع عنها هزلة مواضيعها، وضعف إخراجها.

البلاغ الجزائري (مستغانم ثم الجزائر، 1926-1943م): أسسها أحمد بن عليوة لسان حال الطريقة العليوية في ديسمبر 1926م بمستغانم، ثم تحولت إلى العاصمة بداية من فيفري 1930م، عُرفت بتوجهها الديني المحافظ، وتشهد لها مواقفها المناهضة للتجنيس، وفصح طرائق المبشرين، ومقاومة الإلحاد، وهي مشاهدٌ مضيئة في مسيرتها الصحفية، لولا أن صراعها مع الحركة الإصلاحية قد انجرت معه إلى مزالق كلامية شرسة، فكان بينها وبين (الشهاب) و(البرق) والزاهري و(الإصلاح) للعقبي و(المغرب) لأبي اليقظان، مساجلات عنيفة أشبهت مشاهد فترة شعر النقائص، مع فوارق بينة، فقد بلغ الأمر بالحافظي والعاصمي وأحمد الأكل أحياناً حدّ الإسفاف في اللفظ، والغلظة في القول لأعلام الإحياء، ولعلماء جمعية العلماء خاصة، حين اشتدت بينهم وبين رجال الطرق الخصومة بعد إنشاء جمعية السنة إثر الانفصال الشهير لهؤلاء.

عرفت هذه الصحيفة اضطراباً في الصدور، لم يمنعها من أن تكون من أطول الصحف العربية الجزائرية عمراً، وقد أرجع الأستاذ محمد ناصر ذلك إلى موقف سلطات الاحتلال منها، وقد رأتها عونا لها -بوجه ما- في مواجهة الحركة الإحيائية وعرقلة مسيرتها، وإجمال القول فيها: اعتبارها عربية الروح واللسان، طرقية المنزع والاتجاه.

البرق (قسنطينة، 1927م): لمحمد السعيد الزاهري، خلفت (الجزائر-1925م) وهي وثيقة قيمة لدراسة الأدب الجزائري في هذه الفترة الحرجة، ومعلم على وضع الكتابة العربية الجزائرية، وقد اجتمعت عليها أقلام وتوقعات الزاهري (تأبط شراً) والأمين العمودي (سمهري) ومبارك الميلي (بيضاوي) والطيّب العقبي (السلفي) والحافظي الأزهري، وشكلوا فريقاً قاسي اللهجة، حادّ اللغة على خصوم الإحياء من المعمرين، وشيوخ الطرق، والمتجنّسين، وهو الأمر الذي أسقط الصحيفة في سبتمبر من العام نفسه.

الإصلاح (بسكرة ثم الجزائر، 1927-1948م): صدرت في سبتمبر 1927م على يد الطيب العقبي بسكرة، التفت حولها أعلام راقية، وحملة أفكار واعون، وقائلو الشعر الهادف، من مثل: مبارك الميلي ومحمد الأمين العمودي، ومحمد السعيد الزاهري، والطيب العقبي، ومحمد العيد، وحسين بوالحبال ومحمد بن بسكر، وعلي بن صالح القرارمي، ومفدي زكريا، ورمضان حمود، وأبو اليقظان وغيرهم واللافت فيها تخصيصها صفحتين للشعراء والأدباء، وركنا للمسابقة في الشعر وتشطيره، وركنا آخر للأقوال المأثورة من الأمثال والحكم، وخصت بعض رجال الفكر والأدب بالترجمة والتعريف، كناصر الدين دينيه، ورمضان حمود، وقد كانت على الإجمال وطنية الروح، عربية اللسان، إصلاحية اللهجة سلفية المنزع.

ميزاب (الجزائر، 1930): خلف بها أبو اليقظان (وادي ميزاب) بعد عام من إيقافها، صدر عددها الأول بتونس في جانفي 1930م، وأوقفت بعده مباشرة.

المغرب (الجزائر، 1930-1931م): خلف بها أبو اليقظان ما أوقف من صفحه، خصص الصفحة الثالثة منها لمادة أدبية شعرية غالبا، وبحكم طبيعة المرحلة التي تزامنت مع الاحتفال المؤي الذي أطال الاحتلال مدة التحضير له والدعوة إليه؛ فقد كانت معظم مادة الصحيفة انتقادا لذلك، وقد تداولت على صفحاتها الأقلام نفسها التي عرفتتها صُحف أبي اليقظان السابقة، ونقلت الشهاب نعي المغرب في عدد أفريل 1931م. كانت ذات خطٍ وطني، ولسان عربي، ووجهة إصلاحية.

النور (1931-1933م): استخلف بها أبو اليقظان (المغرب) في سبتمبر 1931م، وأوكل أمرها ظاهرا إلى عدون بن بلحاج شريفي (سعيد) رفقة قلم الشيخ عبد الرحمان بن عمر، هروبا من متابعة الاحتلال، ومع صعوبة الوضع الذي عاشته الصحيفة، فإنها أولت اهتماما بالغا لشأن اللغة العربية والارتقاء به، بما كانت تنشره من عيون الشعر العربي القديم والحديث، والتعريف بأعلامه، وفسحها المجال للمنافسة الفنية والإبداع الأدبي، وحرصت على وصل جهودها بجهود الإصلاح، والإحياء اللغوي والأدبي بمنطقة ميزاب.

المبصر الإفريقي (قسنطينة، 1931م): صدرت مزدوجة اللغة في نوفمبر 1931م داعمة لابن جلول في الانتخابات، وتولّى قسمها العربي محمد الصالح خبشاش، وصدرت منها أعداد قليلة.

التلميذ (1931م): ثالث مجلة عربية في الجزائر بعد (الإحياء 1907م) و(الشهاب 1925م) أصدرتها الجمعية الودادية للتلاميذ المسلمين بأفريقيا الشمالية، برئاسة بوعلام علواش، تصدّت لفرنسة

الفصل الأول: مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر؛ المكونات والتجليات

المتخريجين الجزائريين في مدارس الاحتلال، فعرضت مظاهر التّوجّه العربيّ والإسلاميّ ومعالهما الأدبيّة والفكريّة والحضاريّة فعُدّت "أهمّ المجلّات والدّوريات الجزائريّة في تلك الفترة لعنايتها الفائقة بالثّراث العربيّ والإسلاميّ"¹ وجمعها بين المقالات العلميّة الموجهة للنّخبة، ونماذج شعريّة ونثريّة عربيّة راقية، كما نقلت عن (الهلال) و(الإخاء) المشرقيّين.

المرصاد (الجزائر، 1931-1933م): أصدرها محمّد عباس عابسة الأخضر، بامتياز (جوكلاي) في ديسمبر 1931م، بدت حاملة لدعوة جمعيّة العلماء، قارعت الخرافة، ودعت إلى نشر التّعليم العربيّ ونبذ الفرنسية والتّغريب، واهتمّت بالأدب واللّغة فنشرت قصائد شعراء الفترة: محمّد العيد ومفدي زكريا، وقثور الحلوى، وعمر البسكري، وراحت ضحيّة خصومتها مع (البلاغ) العليويّة و(الإخلاص) لسان حال جمعيّة علماء السّنة، شهدت أعدادها على وطنيّة خطّها، وعروبة لسانها وتوجّهها الإصلاحيّ.

الإخلاص (الجزائر، 1932-1933م): أشرف على صدورهما المولود الحافظيّ في ديسمبر 1932م وكانت لسان حال جمعيّة علماء السّنة بعد الانفصال الشّهير عن جمعيّة العلماء المسلمين، وهي إحدى صحف السّجال الشّهير بين الجمعيّتين الغريمتيّين، وتوقّفت خلال سنة 1933م.

المعيار (الجزائر 1932-1933): رصيفة (الإخلاص) وشريكها في عنف لفظيّ بالغ ضدّ الإصلاحيّين، فكانت هجاء للجمعيّة وعلمائها وخطّها، وكثيراً من بذى القول، وفاحش الكلام، وتوقّفت في جوان 1933م ومعها توقّف سيلّ السّباب الذي وصم صحافة المرحلة بأقبح الوصمات.

السّنة النّبويّة (قسنطينة، 1933م): أوّل ألسنة جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين، قام عليها عضوان من إدارتها هما: الطّيب العقبيّ الخطيب، والصّحفيّ محمّد السّعيد الزّاهريّ صاحب الكتابة الرّاقية والأسلوب السّلس والنّفس الطّويل، عرفت بتوجّهها الدّينيّ، ومسايرتها لظروف المرحلة، ولم يكن للمسألة اللّغويّة في الصّحيفة موقع كبير إلّا ما كان من مستوى الكتابة العربيّة واللّغة القويّة السّليمة وهو المشهد الذي افتقدته الصّحافة العربيّة في الجزائر عقوداً طويلة.

تلقت إحدى المقالات النّظر إلى استواء النّظرة إلى المسألة اللّغويّة عند رواد الإحياء بما نشره الزّاهريّ في العدد الأوّل بعنوان "بين العرب واليهود، الصّهيونيون يستعمرون لغتنا أيضاً" ومن خلاله نقل حواراً جمعه بأحد اليهود مفاده: شروع اليهود في إحياء لغتهم العبريّة، واستنادهم في ذلك إلى اللّغة العربيّة

¹ - محمّد ناصر، الصّحف العربيّة الجزائريّة، ص 180.

ناقلا عنه قوله: "فقد أخذنا مثلا كلمة (رسم) العربية و"عبرناها" فقلنا فيها "ريشيم" وهكذا¹ وتناول قضايا كهذه في تلك الظروف ينم على درجة متقدمة من وعي رواد الإحياء بطبيعة القضايا اللغوية وتداعياتها لكن ظروف المرحلة حالت دون إعطائها الأولوية الكافية، ولم يكن تعطيلها بسبب مضمونها، بقدر ما كان بسبب لسانها العربي، وهي من الصحف الإصلاحية ذات المستوى اللغوي المتقدم جدًا.

الجحيم (قسنطينة، 1933م): جاء ردًا على إسفاف (المعيار) الفاحش، فانصب نفر من الشباب الإصلاحي من مثل: محمد السعيد الزاهري، وعبابسة الأخضر، ومحمد الأمين العمودي، فكالوا للمعيار الكيلين، وقد أسعفتهم براعتهم في الأسلوب الساخر، والعبارة اللاذعة، وعُدَّت الصحيفتان رأس الحجاج الصحفيّ العنيف في هذه الفترة. صدر قرار التّعطيل -بعد إصدار ثلاثة أعداد- من الدّاخلية الفرنسية في 03-05-1933م في ما أبقت جهة التّوقيف نفسها (المعيار) خصيم (الجحيم) إلى أوائل جوان 1933م.

الحياة (الجزائر، 1933): أشرفت عليها جمعية الوفاق تحت إدارة كاتبها باسعيد عدون، ومن بين أعضائها مفدي زكريا، عرفت باهتمامها بقضايا الشباب الميزابي ضمن الخطّ الإصلاحي العام.

البستان (الجزائر، 1933): عنوان لأسلوب صحافي آخر، لجأت إليه حركة الإحياء، وهو الأسلوب الهزليّ التّهكميّ الفكاهي، وقد اتخذ معبرا ذكيًا لدفع التّوقيفات المتكرّرة، فخرجت على حياة خواطر وتخلّت عن الإسهاب والتّحليل واكتفت بالإشارة اللاذعة، والغمزة المعبرة، وذلك مدعاة التنازل عن صرامة اللغة الفصيحة إلى توظيف المسكوك الشعبيّ الساخر، وتولّى اللسان الشعبيّ الساخر وظيفة توعية الجماهير المرهقة بالأمية.

الشريعة النبوية المحمدية (قسنطينة 1933م): خلفت الشريعة السنّة بنفس طاقمها بعد 17 يوما في 17 جويلية 1933م، فحملت أرضية جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ورؤيتها في الإصلاح الديني، والنّهوض الاجتماعي، والإحياء اللغوي، وأعلنت موقفها من عناصر الهوية، والخطّ العام لمشروع الجمعية، على لسان الشيخ الإبراهيمي في مقال افتتاح العدد (04): "إنّ جمعيتكم هذه أسست لغايتين شريفتين، لهما في قلب كلّ عربيّ مسلم بهذا الوطن مكانة لا تساويها مكانة، وهما: إحياء مجد الدّين

¹ - محمد السعيد الزاهري "بين العرب واليهود، الصّهيونيون يستعمرون لغتنا أيضا" السنّة النبوية، الجزائر: 29 ذو الحجة 1351هـ

24 أبريل 1933م، ع3، س1، ص6.

الإسلامي، وإحياء مجد اللغة العربية¹ وبعد أن صاغ المُبررات العقدية والتاريخية التي رآها كافية لصياغة هذا الموقف، وهو إصلاح وضع ساد لقرون، وإعادة اعتبار لما امتُهن من المقومات قال: "وكلّم يعلم أنّ هذا اللسان ضاع من بيننا، فأضعنا بضياعه كلّ ذلك الثّراث الغالي النَّفيس من دين وتاريخ، وأنّ اللغة هي المقوم الأكبر من مقومات الاجتماع البشريّ، وما من أمة أضاعت لغتها إلّا وأضاعت وجودها، واستتبع ضياع اللغة ضياع المقومات الأخرى²". وعلى مثل هذا المستوى من لغة التعبير، والقدر من التفكير ختم على مسيرة (الشريعة) بصدور قرار النّعطيل.

النّبراس (الجزائر، 1933م): وكانت كعادة صحف أبي اليقظان قويّة الأسلوب، سليمة اللغة صادقة اللهجة، حوت مقالات اجتماعيّة إصلاحيّة، وختم عليها التّوقيف.

الحارس (الجزائر 1933م): أصدرها عبد الرّحمان غريب انتقاديّة فكاهيّة، والظاهر أنّه ولج بها مستنقع الصّراع العنيف، منتصرا للإصلاحيّين على خصومهم "خدمة للأمة وحراسة مصالحها"³ ويصنّف أسلوبها ضمن الكتابة الساخرة، الميال إلى استخدام اللفظ العامّي والمثل الشعبيّ.

الأمة (الجزائر، 1933-1938م): بدت امتدادا للنّبراس المعطلّ قبل أسبوعين، وهي من الصّحف المُصابرة، قاومت التّضييق والتّوقيف المؤقت، واستمرّت وفيّة لخطّها الوطنيّ المقاوم، واستقطبت أدباء وكُتّابا ومراسلين. سايرت أحداث العقد (04) من القرن (20) وشهدت ذروة صراعاته، وتابعت نشوء الأحزاب السّياسيّة، وظهور معالم الحركة الوطنيّة بأطيافها، ورافقت حزب النّجم، وساندت مواقف رئيسه مصالي الحاج، حتّى عُدت لفترة لسان الحزب، وطنيّة الخطّ، ذات لغة عربيّة قويمّة.

الصّراط (قسنطينة، 1933-1934م): ثالث السنة جمعيّة العلماء، وخرج امتدادا ظاهرا للسّنة والشّريعة، وعرفت بلغتها العربيّة المتينة، وأساليبها الحجاجيّة الرّصينة.

الثّبات (الجزائر، 1934-1935م): أصدرها مدير (المرصاد) المعطلّ سابقا محمّد عابسة الأخضرّي، ولكنّها أصبحت ذات اهتمامات سياسيّة واقتصاديّة، متحوّلة عنها من الكتابة التّهذيبيّة ذات النّبرة الوطنيّة، واللّغة القويّة، والأساليب العربيّة الصّحيحة.

¹ محمّد البشير الإبراهيمي، الشّريعة المحمّديّة، الجزائر: غرّة ربيع الثّاني 1352هـ-07 أوت 1933م ع4، س1، ص2.

² محمّد البشير الإبراهيمي، الشّريعة، ع4، س1، ص2.

³ محمّد ناصر، الصّحف العربيّة الجزائريّة، ص238.

أبو العجائب (قسنطينة، 1934م): إحدى الصحف السّخرة الخارجة من عباءة جمعية العلماء فمنشئها محمّد العابد الجَلّالي، ومديرها أحمد بوشمال، اعتمدت كتابة أدبيّة جمعت بين السّلامة اللّغويّة وسخريّة الأسلوب، جامعة بين التّعريض والتّوريّة، والرّمز والحوار الافتراضيّ، عسى ذلك أن يديم لها الصّدور، لكنّ ذلك لم يشفع لها، فأوقفت.

الفضيلة (البليدة، 1935م): من المجلّات القليلة في الجزائر، شهريّة، أصدرها موسى خداوي أظهرت نزعةً مسالمة، وبدا ميلها إلى المحافظين لتتويهاها بالشّيخ الحافظي، وكذا التّرحيب الذي قرّضتها به جريدة البلاغ، ولم تدم طويلاً.

البصائر (الجزائر، 1935م): (السّلسلة الأولى) رابعة صحف جمعية العلماء، ومن أكثر الصحف الجزائريّة انتشاراً، أسندت الجمعية رئاسة تحريرها إلى الشّيخ الطّيّب العقبي، وامتيازها للشّيخ محمّد خير الدّين، وشكّلت البصائر مدوّنة قيّمة، سجّلت الكثير من تفاصيل الحركة الإحيائيّة في قطاعاتها الكبرى الدّينيّة والاجتماعيّة واللّغويّة والأدبيّة، ووثّقت جوانب ذات قيمة تاريخيّة وفنّيّة عالية، ممّا لا يزال أحياء بكرة لدراسات وبحوث متخصصة، "يستطيع الباحث في الصّحافة العربيّة المعاصرة في الجزائر، أن يعتبر البصائر أرقى صحيفة عربيّة ظهرت في وطننا حتّى الآن، من حيث الأناقة اللّفظيّة، والرّوعة الأدبيّة"¹ وقد اجتمع إليها يومئذ خيرة كتّاب وشعراء وخطباء ومفكّري الجزائر ذوي الاتّجاه الإصلاحيّ والمسلك الإحيائيّ: محمّد البشير الإبراهيمي، وابن باديس، والطّيّب العقبي، ومحمّد خير الدّين، وفرحات الدّراجي، وأبو يعلى الزّواوي، وباعزيز بن عمر، ومبارك الميلي، وحمزة بوكوشة، ومحمّد بن العابد وعلي مرحوم، وأبي مدين الشّافعي، ومحمّد العيد آل خليفة، وهم الطّبقة العليا التي رفعت أعلامها (البصائر) إلى مصاف الصحف العربيّة الأولى، وبين أعمدتها تكوّنت الطّبقة الثّالثة من طبقات الإحياء من أمثال: أحمد سحنون، أحمد بن زياب، جلواح العبّاسي، جلّول البدوي، علي الزّواق، ومحمّد بن منصور العقبي، وآخرين كثر، وبلغ من انتشار البصائر أن أصبح يُطبع منها (4000) نسخة، ومع ما كانت عليه البصائر الأولى من قيمة تُفوق ما دُكر بكثير؛ فإنّ البصائر الثّانية كانت أعظم أثراً وأكبر خطراً، ويمكن اعتبارها أعلى ما بلغته الكتابة العربيّة في الجزائر منذ عهود طويلة.

¹ - عبد الملك مرتاض، نهضة الأدب العربيّ المعاصر في الجزائر 1925-1954م، ط2. الجزائر: 1983م، الشركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، ص112.

الليالي (الجزائر، 1936-1937م): أصدرها علي بن سعد، في فيفري 1936م، ودعّم خطّها سرّاً حمزة بوكوشة، عُرِفَتْ بأسلوبها الأدبي الجميل الساخر الذي أبدعته أقلام برعت في هذا النوع من الكتابة من أمثال: محمّد السعيد الزّاهري، حمزة بوكوشة. والشّاعران: الطّاهر بوشوشي ومفدي زكريا وعلى صفحات (الليالي) تناول هؤلاء قضايا الفترة.

سيدي هنيّ (الجزائر، 1936م): أصدرها الشّيخ بجو محمّد الطّاهر في ظروف انعقاد المؤتمر الإسلاميّ الشّهير جوان 1936م، وأبانت عن ميلها سياسياً لحزب نجم شمال أفريقيا، فأوقفت خلال 1937م، ثمّ عاودت الظّهور في فيفري 1938م بعددها (08) وما يلاحظ على هذه الصّحيفة إيثارها لغة تحريرٍ دارجة، مستعملة تهكّماً قاسياً، وسخريةً لاذعة في أحيان كثيرة وأبدت "عناية فائقة بالشّعر الملحون"¹ ذي المعاني الساخرة والمعاني اللاذعة. ولقيت مصير التّوقيف خلال هذه الفترة كبقية صحف هذا الاتّجاه.

الشّعب (الجزائر، 1937م): لسان حزب الشّعب الجزائريّ (PPA) المؤسّس على أنقاض حزب نجم شمال أفريقيا المحلّ، وترأسها مفدي زكريا، ولم تمكث الصّحيفة أكثر من شهرين. المغرب العربي (وهران، 1937م): أسبوعيةٌ أصدرها حمزة بوكوشة، وكان من محرّريها: علي مرحوم، والشّاعر جلواح العبّاسي، عُرِفَتْ بأنّها لسان حال الشّباب المسلم، سبّبت لها لهجتها ونسبتها الحرمان من التّوزيع، وصُوِّقَتْ مضايقة شديدة، فاضطّرت إلى التّوقّف.

الميدان (قسنطينة، 1937-1938م): برزت مُعلنة نزعتها الوطنيّة الصّريحة منذ البداية، بنشر صور زعماء الوطنيّة الأمير عبد القادر، والأمير خالد، وعبد العزيز الثّعالي، وأظهرت ولاءها لكتلة الثّواب المسلمين بقيادة محمّد الصّالح بن جلّول، مُصرّة على هويّة الشّعب إسلاميّة جزائريّة، وهو ما جلب لها عداوة الكولون واليهود والشّيعيين والمتجنّسين، فأوقفت.

الرّوح (البليدة، 1937-1939م): أسّسها المحافظ أبو العلا بكير لثلب أعراض أعلام الحركة الإصلاحية الميزابيين كالشّيخ بيّوض، وأبي اليقظان، وقد استاءت لوفاق الإصلاحيين في مناطق القطر وهاجمت أعلامه، وقد جرّ عليها سوء منطقها وبذاءة كتابتها إغراض النّاس عنها، فتوقّفت.

الوفاق (وهران، 1938-1940م): ثالثُ صحف محمّد السعيد الزّاهري، بعد (الجزائر 1925م) و(البرق 1927م) وكانت لسان كتلة الجمعيات التي أنشأها الزّاهري في عمالة وهران، وقد ساعدت

¹ - محمّد ناصر، الصّحف العربيّة الجزائريّة، ص298.

الخبرة الصحافية لمنشئها على جعل الصحيفة ذات بعدٍ محليٍّ وعربيٍّ، وغلبت السياسة على موادّها متأثرة بالظروف العالميّة لما قبل الحرب، ثمّ دخلت في سجالٍ مؤسفٍ نقلت فصوله (البصائر) من جهة و(الوفاق) من جهة أخرى، بعد أن تحوّل الزّاهريّ إلى جبهة مشايخ الطُّرق، فتوقّفت.

الرّشاد (الجزائر 1938-1939م): تولّى إدارتها عبد الحفيظ القاسميّ ناطقةً باسم جامعة الزّوايا والطُّرق الصّوفيّة، ومع أنّها كانت على خطٍّ مواجهة الإصلاحيين، إلّا أنّ خطابها كان بعيداً عن التّلب والإقذاع، وتناولت -بجدّيّة- مواضيع ذات قيمة علميّة واجتماعيّة، كالنّعلّم والاقتصاد والزّراعة، ومع مؤاخذتها للإصلاحيّين اشتغالهم بالسياسة وقد صرّحوا باجتماعها؛ إلّا أنّها لم تستطع تحاشي الدّعاية للاحتلال أثناء الحرب العالميّة الثّانيّة والتّصريح بموالاته، ولم يشفع لها ذلك في توقيفها.

الفرقان (الجزائر 1938م): صدرت بعد توقيف الأمّة، لم تفرد الصحيفة حيّزاً للنّشاط الإبداعيّ الأدبيّ، ولكنّ لغة كتابتها كانت على درجة عالية من السّلامة في التّعبير والقوّة في التّأثير، على عادة صحف أبي اليقظان، وكانت (الفرقان) خاتمة صحفه الثّمانيّة خلال ثلاث عشرة سنة.

المنجنيق (الجزائر، 1938م): أصدرها محمّد بن الحنفيّة، تبدو بلا انتماء لأيّ جهة، ذات وجهة اجتماعيّة، تبنّت قضايا المظلومين، والدّفاع عنهم، ميّزها أسلوبها المتهاك ولغتها المتواضعة. **تغنّات** (بسكرة، 1935م): نشرة أصدرها سفير أحمد العربيّ سندا لجمعية النّواب برئاسة ابن جلول توقّفت وليس لها ما تُذكر به.

صوت الأحرار (الجزائر، 1943م) نشرة سرّيّة صدرت إبّان الحرب العالميّة الثّانية، حاملة مواقف حزب الشّعب المحظور، وقد كان اهتمامها السّياسيّ مانعاً عن الإبداع الأدبيّ واللّغويّ. **النّصر** (قسنطينة): أصدرتها سلطات الاحتلال دعايةً لمصالحها أثناء الحرب، ووجّهتها للمجنّدين في صفوفها من الجزائريّين.

الوطن (الجزائر 1948م): لسان الاتّحاد الدّيموقراطيّ للبيان الجزائريّ، بإدارة فرحات عبّاس وتحرير عبد الله النّاكلي، صدرت بأعداد قليلة، ثمّ توقّفت.

أفريقيا الشّماليّة (الجزائر 1946م): للكاتب الأديب إسماعيل العربيّ، كانت منبرا مزدوجاً لحزب الانتصار وجمعية العلماء (فترة النّحالف)، ثمّ توقّفت لظروف ماليّة.

الجزائر الجديدة (الجزائر 1946م): لسان الحزب الشيوعي لعمار أوزقان، ومسؤول النشر أحمد محمودي، ثم الحاج علي، نشرت مقالات تبنت فيها الدفاع عن اللغة العربية، ويبدو ذلك منها ترلفا سياسيا، وتموقعا انتخابيا.

السلام (الجزائر، 1946م): أصدرها حمزة بوبكر إمام مسجد باريس، وهي مجلة ظهرت عمالتها للاحتلال في تمرير مشاريعه.

المُرشد (مستغانم، 1946م): صدرت لمديرها ابن تونس رشيد، لسان حال الطريقة العليوية مزدوجة اللغة واستمرت حتى 1952م، وتوقفت عند عددها (60).

العبرية (تلمسان، 1947م): صدرت للأديب عبد الوهاب بن منصور بمساعدة تلاميذه، في أفريل 1947م، إصلاحية الوجهة، لم يصدر منها إلا أعداد قليلة.

المغرب العربي (الجزائر، 1947م): رأس تحريرها محمد السعيد الزاهري في نخبة من الكتاب، لسان انتصار الحريات الديمقراطية، بلغ مشتركوها نحو 1600 مشترك، وبلغ سحبها 2000 نسخة، ثم ظهرت لسان حال المصاليين المنشقين، وتوقفت باغتيال الزاهري.

البصائر الثانية (الجزائر، 1947م - 1956م): عادت بعد الحرب الثانية لسان جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، بإدارة الشيخ الإبراهيمي، ومبارك الميلي، والتفت حولها أقوى الأقلام الجزائرية يومئذ، بقيادة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، وتدعم صف كتابها بأسماء أخرى، محمد علي دبور أحمد رضا حوجو، عبد الكريم العقون، أحمد سحنون، باعيز بن عمر، أبو القاسم سعد الله، الربيع بوشامة، زهور ونيسي، محمد الأكل شرفاء وآخرون، وعدت من أرقى ما بلغته الكتابة الصحفية الجزائرية وطنيا وعربيا "كانت تُعنى باللغة العربية الفصحى عناية فائقة"¹ والحق أنه لا يمكن الوفاء ببيان ثقل هذه المدونة في حركة الإحياء في هذه الفترة، حتى إنها أصبحت عنوانا يقاس به المستوى الذي بلغه الإحياء اللغوي في الجزائر في مراحلها المتقدمة. توقفت البصائر طوع نفسها بسبب ظروف حرب التحرير عند العدد 360.

صوت المسجد (الجزائر 1948م) أصدرها محمد العاصمي، لسان (الجمعية الودادية لرجال الديانة الإسلامية في القطر الجزائري) برعاية حكومية لعرقلة الإحيائيين، وتوقفت بعد وفاة رئيسها.

¹ - محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية، ص 345.

الفصل الأول: مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر؛ المكونات والتجليات

الشُّعْلة (قسنطينة 1949م): صدرت بإدارة أحمد بوشمال، وامتنياز الصادق حمّاني، وتحرير رضا حوحو، وكلّهم خريجو مدرسة الإحياء، لها اهتمامات أدبيّة وفكريّة راقية، خصّصت حيّزا للشعر الشعبي (تحت السّياط نُغني) وحيّزا للنقد (مسامير للنقد).

عصا موسى (الجزائر، 1950م): صدرت لصاحبها مبارك بن عبد القادر، بدت متعاطفة مع تيّار الشّيخ الطّيب العقبيّ، فهاجمت صحافيّ الشُّعْلة، ورئاسة تحرير البصائر، وتوقّفت سريعا. الدّاعي (الجزائر، 1950م) أصدرها أبو بكر جابر الجزائريّ، دعت إلى الدّين الصّحيح بعيدا عن الأحزاب، ولم تجد رواجاً كافياً فتوقّفت.

طريق السّلام (الجزائر، 1951م): فرع لجريدة ذات بُعدٍ عالميّ، تصدر نسخة منها في لبنان وأخرى في الجزائر، دعواها الانخراط في خدمة السّلام الإنسانيّ دون اعتبار لدين أو لغة أو عرق، ولم تلبث أن توقّفت.

اللّواء / شباب الموحّدين (الجزائر، 1952م): صدرت لأبي بكر جابر، امتدادا لجريدة الدّاعي في أفريل 1952م، ودعواها الانتصار لخدمة العقيدة بعيدا عن السّياسة، ولم تلبث أن توقّفت.

المنار (الجزائر، 1951م): لسان انتصار الحريّات الديمقراطيّة، رأس تحريرها محمود بوزوزو، من أبرز الصّحف العربيّة بعد الحرب الثّانيّة، نالت القضايا اللّغويّة والأدبيّة على صفحاتها اهتمام عديد الكتّاب من ذلك: (12-12-1952م، ملاحقة العربيّة في عقر دارها) تابع فيه المراسل محاكمات معلّمي اللّغة العربيّة في القطر الجزائريّ (11-04-1952م، الاستعمار في حربهِ للعربيّة) (25-04-1952م واجبنا نحو لغة الضّاد) (26-12-1952م أدباؤنا لا يؤمنون برسالة أدبيّة، عبد الحميد مهري) (27-02-1957م، الجزائر لا تعرف العربيّة؟! مولود قاسم نايت بلقاسم من القاهرة) (10-04-1953م الجزائر غريبة حتّى في الجزائر، مولود قاسم نايت بلقاسم من القاهرة) إضافة إلى اهتمامها بقضايا نقدية وأدبيّة في سياق المعركة الأدبيّة التي شهدتها هذه الفترة، وأدارها أدباء جزائريّون في الصّحف الوطنيّة الجزائريّة.

القبس (الجزائر، 1952م): أصدرها أبو القاسم ديغر، لسان حال الشّباب الموحّدين، خلفت اللّواء توقّفت بعد (03) أعداد.

صوت الجزائر (الجزائر، 1953م): أصدرها حزب الانتصار، برئاسة مصطفى فروخي، ذات مستوى فكريّ راقٍ، ولها بُعدٌ مغاربيّ تبعا للتّوجّه السّياسيّ للحزب، توقّفت مع انطلاق الثّورة.

صوت الشعب (الجزائر، 1954م) أصدرها مولاي مرباح ممثلة للاتجاه المصالي المنفصل عن الانتصار، توقفت بعد (09) أعداد.

شمال جنوب (الجزائر 1954م) أصدرها خليل أحمد نسخة عربية لجريدة الصحراوي الفرنسية، لها اهتمامات اقتصادية متعلقة بالصحراء، ولم تدم طويلا.

لقد كانت الصحف العربية الجزائرية الفضاء التواصلية الوحيد الذي حمل مشاهد الإحياء اللغوي المكتوب، وأمام محدودية حركة التأليف والتحقيق التي تتطلب ظروفًا أنسب، ووقتًا أطول، واستعدادات بشرية أكفأ وأقدر؛ فقد كان من السهل -نسبيًا- نشر مقال أو قصيدة، بينما يبدو ضربًا من المستحيل في كثير من الأحيان طبع كتاب أو تحقيق مخطوط. ولهذا، يمكن عدّ المدونة الصحفية العربية الجزائرية الأساس الأول الذي تستند إليه مقولات الأطروحة بشأن حقيقة الإحياء وطبيعته، بينما مثّلت المشاهد الأخرى مواقع ذات خصوصيات ظرفية، إذ لم يكن من سبيل لمعرفة حقيقة مكونات الإحياء وخصائصها إلا من طريق أهم مصدر في دراسة حركة الإحياء، وهو الصحف، بمتابعتها المفاصل الكبرى للحراك ومساره العام. كما كانت هذه الصحف سطحًا شهد عودة الحرف العربي إلى الساحة الجزائرية العامة من خلال الصحافة العربية، وعادت معها صورة سيميائية مشحونة بدلالات التميز والانفراد، وهي أمور لطالما اشتاق الجزائريون لرؤيتها، وربما أخذت الكثير منهم الدهشة لرؤية الحرف العربي يعود إلى باحات البيع شيئًا فشيئًا، بعدما انفرد بها الحرف الفرنسي لعقود.

ثانيا: مكونات مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر

التجليات

1- التعليم الإحيائي؛ طبيعته وفلسفته: قام التعليم العربي الإحيائي في الجزائر إثر الاستعمار البالغ الذي عامل به الاحتلال هذا التعليم منذ نزوله، لتوثق المصادر حقيقة صدمة مفادها أن عدد المعلمين الجزائريين في القطر كله سنة 1905م لا يتجاوز (183) من بينهم الممرّنون، وبناء على إحصاء سنة 1907م؛ فإن عدد المعلمين من الجزائريين هو: (198) بين مساعد وممرّن¹، ودع الحديث عن تعليم اللغة العربية، وعدد معلّميها، والمستوى العلمي السائد، والمقررات التعليمية المتداولة، والنصيب الزمني المقدّر لها، وهل هي اللغة العربية الفصيحة، أم العامية؟

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ص421.

استغلّ الجزائريون قانون 18 أكتوبر 1892م الذي منح فرصة الفتح المشروط للمدارس الحرة والتي كانت خطة فرنسية لمراقبة الكتاتيب والزوايا التي بقيت محافظة على استقلاليتها التعليمية، وأبدت قدرا من الصمود يناسب الحجم الهائل من مضايقات الاحتلال لها، وهو تضيق كان يستهدف عناصر الهوية: الإسلام والعربية، فقد كانت الكتاتيب والزوايا آخر المؤسسات الوطنية التي صابرت طويلا للحفاظ على تلك العناصر طيلة القرن (19) إلى أن تأسست أول مدرسة قرآنية عصرية حرة في تبسة سنة 1913م برعاية عباس بن حمّانة، وتأسس (الجمعية الصديقية الخيرية للتربية الإسلامية والتعليم العربي والإصلاح الاجتماعي) وبصرف النظر عن حجم مشروع المدرسة ورؤيته؛ وما يمكن أن يُقدّمه لوطن منكوب؛ فإنّ موطن النظر فيه ينصرف إلى أنّه كان نقطة التحول الأولى في مسيرة الإحياء العربي من طريق تعليم جزائري مستقل، بعد أن يؤسّس الوطنيون الجزائريون من التعليم الذي يشرف عليه الاحتلال، ويُرجع الأستاذ سعد الله ظهور المدرسة الحرة في الجزائر بداية القرن (20) إلى تأثير تونسي نقله النّجّاح الكبير لمدرسة الشّيوخ بشير صفر، التي تأسست سنة 1907م، وقد كانت نموذجا رائدا حسب ما نُقل من وصف برنامجها، والمرافق الاجتماعية الملحقة بها، غير أنّ أهمّ ما يتعلّق بشأن مدرسة تبسة -من وجهة نظر الأطروحة- هو القانون الداخلي للمدرسة الذي تضمّن نصّا جاء فيه أنّ هدف المدرسة هو "إحياء اللغة العربية في تبسة"¹ ورغم إجهاض المشروع بعد أشهر بمقتل بن حمّانة وحلّ جمعيته؛ إلّا أنّ الخطوة وضعت الجزائريين أمام طبيعة التّحدّي القادم، كما سجّل تأريخ الإحياء اللّغويّ العربيّ في الجزائر أولية التّعليم الحرّ لبن حمّانة الذي "يُذكر على أنّه أول جزائريّ عمل على بعث اللغة العربيّة في البلاد، وبفضله ارتفعت ضمن أسوار تبسة جدران أول مدرسة"² وستبقى تجربة المدرسة الحرة الأولى في الجزائر رصيда تختزنه الرّغبة الوطنيّة، ونموذجاً نسخت منه الحركة الإحيائيّة بقيادة جمعيّة العلماء وجمعيّات أهليّة وأحزابٍ وطنيّة بعد سنوات نماذج أخرى، رعت فيها نشاطها التّعليميّ المستقلّ، ولكنّ تجربة ابن باديس كانت الأعمّ والأشمل والأنجع، فقد بدأ ابن باديس بدايةً حذرةً لم يأبه فيها لضخامة الهياكل بقدر ما اعتمد العناية بالعنصر البشريّ، ولربّما استغلّ (ابن باديس) انشغال فرنسا بأحداث الحرب العالميّة الأولى التي كانت فرنسا نفسها ساحة لها، وهي الفترة التي خفت فيها الأصوات، فانزوى ابن باديس يكوّن الرّصيد البشريّ للقاعدة للفترة القادمة، ثمّ ظهرت عقب الحرب

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ص242.

² - مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن، ط 2. دمشق: 1404هـ-1984م، دار الفكر، ص27.

العالمية الأولى محاولة إنشاء مدارس حرّة أخرى، لعلّ أولها بالذّكر محاولة مصطفى حافظ العائد من مصر، والمتأثر بحركتها في إصلاح المدارس القرآنية، وهي التجربة التي عرضها عبد العزيز جابوش ومحمد فريد في مؤتمر المستشرقين سنة 1905م، غير أنّ تجربة حافظ كانت فردية فلم تستمر، وعلى منوالها ظهرت مدرسة السّلام 1930م وجمعيتها لتعليم البنين والبنات برئاسة عمر إسماعيل، وكانت تضمّ نحو (200) تلميذ بالعاصمة، ومنها مدرسة الفلاح وجمعيتها سنة 1927م، برئاسة محمد علي دامجي، وكانت الغيرة على اللغة العربية والقرآن والتّعليم الإسلاميّ، أبرز دافع لتأسيسها، وهي المدرسة التي سيضع محمد العيد آل خليفة، وعبد الرحمن الجيلالي، ومحمد الهادي السنوسي بصماتهم عليها.

انتصبت ملامح التّعليم الإحيائيّ مشهدا من مشاهد مشروع الإحياء اللّغويّ مع بداية العقد (04) من القرن (20) وأخذ صبغة قومية أخذت في الانتظام والاستواء شيئا فشيئا، على أيدي رواد الإحياء من رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين، فبعد أن أخذ هذا التّعليم شكل مبادرات محلية معزولة بدأت محتشمة خلال العقود الثلاثة الأولى، كان لها من الفضل تكوين الطّبعة الأولى من حملة الإحياء بدايةً من العقد (04) وتأسّس جمعية العلماء طرفا أدّى عن الأمّة دور وزارات التّعليم والمعارف في البلاد المستقلّة، فهي التي ندبت الأمّة إلى إعادة رفع قواعد المدارس بمال الأمّة، ثمّ ندبتها مرّة أخرى إلى تمويل التّعليم نفسه، وقامت على تكوين المعلّمين وتوجيههم وأطّرت العملية التّعليمية بما لديها من وسائل وطاقت، فاننقت برامجها، ونظّمت أعمال التّفتيش والامتحانات، ولم تزل تنتقل به من طور إلى طور، يقاوم ليقوم بنفسه، ويواجه عنت الاحتلال حتّى لا يلقى حتفه.

1-1- مراحل التّعليم الإحيائيّ في الجزائر: يمكن تقسيم مسيرة التّعليم الإحيائيّ الحرّ في الجزائر

القرن (20) إلى ثلاثة مراحل بارزة الملامح:

1-1-1- مرحلة الإعداد والتّحضير (1913-1930م): وقد ميّزتها المبادرات الفردية المعزولة

وتفاوت مستويات التّعليم، واختلاف برامجها، وعدم القدرة على المواصلة والاستمرار، ويحسب له تكوين قاعدة مقبولة، ستكون سند المرحلة الثانية، ولعلّ أعمق جهود التّعليم خلال هذه الفترة هي الأقسام التي فتحتها بعض المتخرّجين من الجوامع الشهيرة كالزّيتونة والأزهر، وبعد اطلاعهم على نماذج حديثة من التّعليم الحديث وشؤونه، وكذا نتاج بعض الحلقات المسجدية القليلة التي كانت الجذوة الأولى لحركة تعليم إحيائيّ ناشئ، بدت بواكيره بعد الحرب العالمية الأولى.

لقد وجد الجزائريون ضالتهم أخيراً في هذه المدارس، رغم ما كان يلاقيه الشعب الجزائري من مشاق مادية وقانونية أثناء تأسيسها، وعند ممارستها نشاطها، ومع ذلك فقد تكاثرت المدارس الحرة في العشرينات، وتبناها الشعب، وأقبل عليها إقبالاً كلياً¹ والتقى فيها إحسان المحسنين كالدّامرجي وعمر إسماعيل، وحماس الشيوخ من أمثال ابن باديس والعقبي والميلي والبشير الإبراهيمي والهادي الزروقي وقد كانت مدرسة التربية والتعليم التي باشر فيها الإمام ابن باديس نشاطه التعليمي الأول مشتلة التعليم الإحيائي في المرحلة الأولى.

1-1-2- مرحلة المواجهة والتّمكن (1930-1945م): وهي مرحلة أخذ فيها التعليم الحرّ منحى أفتحاً أخذت مدارسُه في الانتشار، "قبلت سنة 1935م نحو سبعين (70) مدرسة، تضمّ حوالي سبعين ألف طفل وفتاة"² يتلقون دروساً نوعيّة في العلوم الدّينية والخُلفيّة من القرآن الكريم والحديث الشريف، والعلوم اللّسانية، كقواعد اللّغة العربيّة والمحادثة والإنشاء، إضافة إلى مبادئ في الحساب والتّاريخ والجغرافيا، واستمرّت وتيرة على نسقٍ يكشف جهد رجال الإحياء في نشر الوعي في الأمّة بضرورة الخطوة ونجاحاتها، كما يكشف بالمقابل مدى الوعي الذي جسّدته في التّفاعل المتنامي والعطاء الواسع على قلة ذات اليد.

وعلى قدر ما كان هذا الحراكُ مشهداً من مشاهد الإحياء الفارقة التي يعتزُّ بها الإحيائيون ويؤمّلون فيه الحياة؛ كان مخبرُ الاحتلال يراقب عن قرب، ويقدر للجهود آفاقها وغاياتها، فأنزل بهذا النّشاط أشدّ أنواع العقوبات، وأصدر خلال هذه المرحلة من القوانين ما يكفي وسم فرنسا (الدّيموقراطية) بأقبح النّعوت وقد منعت الجزائريين حقّاً فطريّاً لا يُجادلُ فيه، وأضافت إلى ركام القوانين ذات العلاقة بمسألة اللّغة العربيّة مرسومين من الصّوري تناولهما هنا، وهما: منشور ميشال الصّادر في 1933م والقاضي بمنع رواد الإحياء من أيّ نشاط علميٍّ أو دعويٍّ في المساجد، ومراقبة التّعليم العربيّ فيها، وقانون شوطان في 1938م القاضي بمنع تعليم اللّغة العربيّة باعتبارها لغةً أجنبيّة في الجزائر! وتأتي ضرورة الإشارة لهذين القانونين هنا تحديداً باعتبارين:

أمّا أولهما، فقد كشف حجم خطر النّشاط التّعليمي الإحيائي على مشاريع سلطات الاحتلال، من خلال ملاحظتها إقبال الجزائريين النّوعي على هذا التّعليم، وتصادُ احتضانهم للمشروع الإحيائي بكلّ

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ص251.

² - حميدي أبو بكر الصّديق، دراسات وأعلام في الحركة الإصلاحيّة الجزائريّة، ط خ. الجزائر: 2015م، دار المتعلّم ص66.

عناصره، فها هم يبنون المدارس، ويعمرون النوادي بالنافع من سماع المحاضرات، وينشئون الجمعيات ويفتتحون شعباً فرعية للجمعية، وتلك أمورٌ كافية اضطرت معها سلطات الاحتلال إلى الإقدام على خطواتٍ بمثل هذه الشراسة والشدة.

وأما ثانيهما، فهو الصدى الذي أحدثه كلٌ منهما، إذ استمرت الاحتجاجات الشعبية على قرار المنع هذا عبر الصحف، وتنظيم المسيرات لأكثر من سنة، وهي الاحتجاجات التي حركت الطبقة السياسية وأصبحت قضية اللغة العربية قضية هوية، وقضية رأي عام، ومطلباً سياسياً وشعبياً، وأظهر أن حركة الإحياء بتأثير جمعية العلماء الفاعل خلال هذه الفترة قد استطاعت أن تستقطب الرأي العام الجزائري حول قضية تعليم اللغة العربية، كما أنها كانت الفرصة الأولى للشعب الجزائري ليقف جبهة واحدة في مواجهة فرنسا¹ فقد انخرط الجزائريون في هذه الحركة الاحتجاجية على اختلاف منازعهم الفكرية والإيديولوجية، وهذه صوت الأهالي (La Voix Des Indigene) لسان حال الاندماجين تُصدر عدداً خاصاً في 18 ماي 1934م تهاجم فيه اللجنة المؤسسة للنظر في مسألة تدريس اللغة العربية وترفض تدخلها هذا.

تعرض القائمون على التعليم الإحيائي لصور العسف والبطش، وسيق معلّموه إلى المحاكم وتعرضوا للسجن والتعريم، وتضاعف التشديد على فتح المدارس والمساجد، ووضعت الشروط القاسية لذلك، وأُغلق العديد منها بقرارات فردية، ولكن ذلك كان إضافة نوعية قوّت حركة الإحياء وازدادت شعبيتها، وكان ذلك عاملاً قوياً لبعث مكامن الحياة في الأمة الجزائرية، وتحريكها نحو بناء مجتمع مختلف عما حوله. وأما قانون (شوطان / Camille Chautemps) فقد جاء بعد أسابيع قليلة من صدور قانون النوادي (جانفي 1938م) وأصدره رئيس الوزراء الاشتراكي المتطرف في 8 مارس 1938م بخصوص المدارس الحرة، مُعلنًا أن فتح المدارس دون رخصة يعرض صاحبه لعقوبة السجن والتعريم، استناداً إلى أن تعليم اللغة العربية هو تعليم للغة أجنبية؟! ومشدداً الرقابة على المدارس الموجودة، وعلى الوجهة الفكرية لأصحابها، ليُطلق القانون يد الحكومة في غلق ما بدا لها غلقه، واسترداد الرخص الممنوحة من قبل. لقد نزل هذا القانون على الجزائريين نزولاً صاعقاً، وواجهته الصحافة العربية والتنظيمات المختلفة مواجهة شديدة لم يسبق أن عرفت الساحة الجزائرية، وقد ظهر جلياً أن ممارسات الاحتلال إزاء اللغة

¹ - مازن صلاح حامد مطبقاني، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية، د ط. الجزائر: 2011م، مؤسسة عالم الأفكار، ص204.

العربية قد تجاوزت مرحلة التضييق بهدف الإماتة المتدرّجة إلى مرحلة القتل اللغوي (Language Murder) وهو ما قابلته حركة الإحياء برفض أشدّ، وإصرار أكبر، فأرسلت برقيات الاحتجاج والرسائل المفتوحة إلى الجهات المختلفة، وأخذت المسألة صدارة الصحف الوطنية شجبا ومطالبة وتحسيسا فصدر العدد (107) من البصائر في محرّم 1357هـ - أبريل 1938م بمقال لابن باديس: "يا لله للإسلام والعربية في الجزائر" وبيان وجهه إلى القائمين على المدارس من المشرفين والمعلّمين لمكاتبة الجمعية في كلّ ما قد تتعرّض له المدارس أو القائمون عليها تحت عنوان: "الدّفاع عن الإسلام والقرآن ولُغتهما" وقد ظهر تغيّر واضح في لهجة ابن باديس، وكان قد عُرف قبل بشيء من المسالمة والموادعة، وقد رأى أنّه قد حان الوقت للتخلّي عنهما، حين أيقن تمكّنا مقبولا لمشروع الإحياء في الأوساط الشعبيّة وبخاصّة بعد الالتفاف المُعتبر الذي حظيت به مقومات الأمة بعد المؤتمر الإسلاميّ جوان 1936م. وكان ممّا قاله: "وإنّا نعلن لخصوم الإسلام والعربية أنّنا عقدنا على المقاومة المشروعة عزمنا وسنمضي - بعون الله - في تعليم ديننا ولغتنا رُغم كلّ ما يُصيّبنا، ولن يصدّنا عن ذلك شيء، فنكون قد شاركنا في قتلها بأيدينا"¹ ورغم ما صار يُكال للتعليم الإحيائيّ من التّهم، وما يلاقيه من المضايقات والعوائق فقد ختمت هذه المرحلة على حقيقة مفادها أنّ هذا التّعليم أصبح واقعا ملموسا، وأنّه في حضن أمة أدركت طريق حياتها، وأنّ القائمين عليه ساروا به مرحلة لا يُمكن التّراجع عنها، ولا التّفريط في ما حقّقوا منها، وهو الوضع الذي ستستقبله مرحلة ما بعد وفاة الشّيخ الرّئيس الإمام ابن باديس الذي كانت له اليد الطولى في هندسة مسار هذا التّعليم نشأة وتطوّرا واستواء، وسيكون لما بعد الحرب العالميّة الثّانية مع التّعليم الإحيائيّ شأن آخر، وقد تولاه بعد ابن باديس رفيقه الإمام الإبراهيمي.

1-1-3- مرحلة تعزيز الانتشار ونشدها الجودة والتّخطيط للآفاق: (1945م - 1956م): كانت

الحرب العالميّة الثّانية مناسبة استثنائيّة للاحتلال عطّل فيه كلّ شيء، وبعد الحرب أطلق سراح الإمام الإبراهيمي من منفاه، فاستلم قياد حركة الإحياء من جديد، حتّى لقد بلغ أن أسّس الجزائريّون برعاية جمعيّة العلماء خلال سنة 1943م وحدها (70) مدرسة، وبلغت في حدود سنة 1953م (140) مدرسة منها ما يتوفّر على (18) فصلا، يؤوب إليها نحو (50000) تلميذ من بنين وبنات في المرحلة الابتدائيّة، وقد تخرّج فيها نحو (250000) وبلغ عدد المعلّمين نحو (400) معلّم كلّهم خريجو مرحلة

¹ - عبد الحميد بن باديس، "يا لله للإسلام والعربية في الجزائر" البصائر، الجزائر: محرّم 1357هـ - أبريل 1938م، ع107 س3، مج3، (سلسلة1)، ص144.

الإحياء الوسيطة، و"مع هذا الجهد العظيم الذي تبذله جمعية العلماء والأمة من ورائها في التعليم العربي ومع أنّ حركة بناء المدارس كلّ سنة في ازدياد فإنّها لم تستوعب إلّا جزءاً من (30) جزءاً من أطفال الجزائر المحرومين من التعليم، وما زال في الجزائر (1500000) من أطفال الأمة العربية المسلمة مُشرّدين في الشوارع، محرومين من التعليم العربي والفرنسيّ معاً¹ فبعدما كان هدف حركة التعليم العربيّ هو إثبات وجوده كمشهد من مشاهد الحياة الطبيعيّة للجزائريّين، ها هو اليوم يسعى إلى تعميمه ليستغرق كلّ الجزائريّين، ومع النتائج الطيّبة التي حقّقها هذا التعليم في مثل ظروف الاحتلال الخطيرة؛ فقد أصبح يُنظر إلى ما لم تبلغه حظوظ التعليم، لا إلى ما أنقذه من مخالب الجهل والأمية، على اعتبار أنّ الأصل في طبيعة الأشياء هو إعطاء فرصة التعليم للجميع، وأنّ الحرمان منه هو العارض الشاذ الذي يجب مقاومته، ورده إلى وضعه، ولأجل هذا بادرت حركة الإحياء إلى استكمال مسار المتعلّمين في مراحلها الأخرى، وهنا لاقت من صعوبات التّجهيز والتأطير ما لا تقدر عليه.

افتتحت حركة الإحياء مسار الاستكمال هذا بفتح المعهد الباديسيّ سنة 1947م ذي الخمس سنوات والذي استقبل سنة 1951م (702) طالبا، وفي 1955م (913) طالبا "يدرسون - على المناهج الحديثة- علوم الدّين وعلوم اللّسان العربيّ ومنها الأدب، وتاريخ الإسلام والجغرافيا والرياضيّات، ويأخذون فيه أصول الدّعوة وأصول الخطابة مع التّمرّن عليها عمليّاً، وفيه أقسام إضافيّة للفرنسيّة خاصّة بحاملي شهادتها الابتدائيّة، لإرسالهم إلى أوروبا للتّخصّص في العلوم الصّناعيّة، وستكون بعثات جمعيّة العلماء إلى الشّرق كلّها من تلامذة هذا المعهد. يقوم بالتّدريس في هذا المعهد (15) أستاذا كلّهم من حاملي الشّهادات العليا من جامع الزيتونة، ومعهم طائفة من معاونين والكتب، ولجان للمراقبة والماليّة والألعاب الرياضيّة² وإذا كان هذا جزءاً من رؤية مشروع التعليم الإحيائيّ، فإنّه يمكن القول بأنّ الدّور قد أتى على الوسائل والموارد، وهو العائق الماديّ الذي رهن مسار حراك التعليم الإحيائيّ، ووقف عقبة أمام اكتمال المشروع بما سطره من آفاق، وأمّله من أهداف.

وفي هذه المرحلة اشتدّ أزر التعليم الإحيائيّ بتكوين (لجنة التعليم العليا) في 13 سبتمبر 1948م وأسند لها أمر التّكفّل بشؤون التعليم من برامج، ومراقبة وتفتيش وتدريب، وتنظيم الامتحانات، وتعيين المعلّمين، ونظّمت لقاءات دوريّة وزيارات توجيهيّة، ولقاءً عامّاً يسبق الاجتماع السنويّ العامّ للجمعية.

¹ - محمّد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج4، ص176.

² - محمّد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج4، ص176.

ولقد عرف التعليم الإحيائي بإنشاء هذه اللجنة توحيد مقرراته، وتنظيم مواقيته وحصر احتياجاته والتكفل بانشغالات التلاميذ ومعلميهم، وراستلت الجمعيات المحلية جمعية العلماء بشأن المعلمين ومدارسهم الأهلية، وتوحدت برامج التعليم، فأصبح تعليمًا بروح إسلامي، وبعد وطني، وبلغه عربيّة.

اتّجه الإمام الإبراهيمي نحو المشرق في رحلة استمرت من 1952م إلى 1954م معرّفًا بالقضية الجزائرية المنسية، وعارضا حالتها على أشقائها من العرب والمسلمين، وساعيًا لدى ساستها وأولي الرأي فيها بفتح آفاق التعليم الإحيائي في الجزائر، إمّا باستقبال الطلبة الجزائريين في البلاد المشرقية على نفقتها، وإمّا بالمساعدة على رفع معاهد في الجزائر تستقبل المقبلين على مراحل التعليم العليا لفائدة الجزائريين، ولقد حمل الجزء (04) من آثار الإبراهيمي ما وثّقه من رحلته هذه تفصيلًا، وأيًا كانت النتائج المرجوة من هذه الرحلة، وبصرف النظر عما تحقّق منها للتعليم الإحيائي في الجزائر، أم لم يتحقّق؛ فإنّ ما يُشار إليه هنا، هو أنّ هذا التعليم تجربة إحيائية خاصّة جدًّا في نشأتها ووسائلها وفلسفتها وعوائقها، وخاصّة جدًّا في ما تحقّق للجزائر الحديثة منها، ومع المصابرة الطويلة التي عرفها هذا الحراك، والظروف القاسية التي نشأ فيها واستوى، فإنّه يُصنّف ضمن أحد مشاهد الإحياء اللغوي في الجزائر بامتياز، وهو الإحياء الذي أفضى إلى إحياء مجتمعي عام، أحوال على نقلة مجتمعية هائلة وشاءت حركة التاريخ أن تتوقّف مسيرة هذا التعليم عند دورة الامتحان الأخيرة سنة 1955م وقد اشتدّ عود الثورة التحريرية، واتّسع مجال انتشارها، فلم يبق لأيّ نشاط مدني آخر مجال، وقد اتخذت هذه الثورة من خريجي مدرسة الإحياء رصيدا نوعيًا وحملّة أوفياء.

وإذا كان من نموذج نُقيّم به طبيعة التعليم الإحيائي الذي كانت تشرف عليه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين؛ فهو نصّ تعبيريّ للتلميذة زهور ونيسي، المتخرّجة بالشهادة الابتدائية عام 1954م، وقد كتبت هذا النصّ يومها، تستحضره الأطروحة نموذجًا تقارب به مستوى التعليم الذي كان سائدًا في مدارس التعليم الإحيائي، وتعرض من خلاله النصيب الذي استرجعته اللغة العربية في الجزائر، وهو وثيقة أثبتتها محمد خير الدين في مذكراته.

النص:

فائدة العلم والعمل¹

¹ - محمد خير الدين، مذكرات، ج1، ص149-150.

ابتلينا نحن مسلمي العصر الحديث بكثرة القول وعدم العمل، نعم، فلو أن كل ما ورثناه من آيات كريمة وأحاديث شريفة طبقناه بالفعل كما كررناه بالقول لما آلت حالتنا إلى مثل هذا، ولكننا خير أمة أخرجت للناس حقيقة لا شك فيها، ولكانت لنا نعم المعين والنصير، كما كانت يستعان بها ويتبع هداها في ذلك العصر الزاهر عند الحروب والمصائب، لأن في القرآن والحديث ما يغنينا عن جميع الأخلاق، وما الأخلاق الفاضلة الهادية إلى سواء السبيل إلا القرآن والحديث لا شيء آخر عداهما، ولكننا اكتفينا بالقول وتكراره، وغرسه في العقول لجيل بعد جيل ولم نطبق منه شيئا تطبيقا ملموسا، ولم نستخرج منه اللباب والفائدة التي ما بعدها فائدة، عرفنا أن القرآن فيه كل الدين والعلم والحياة، وعلمنا أنه أنزل لمحاربة الأخلاق الرذيلة التي أخذت مكانها في قلوبنا، ولكننا لم يخطر ببالنا يوما أن نحلل ما حلله [كذا] ونحرّم ما حرّمه، عرف كل واحد منا واجبه المقدس نحو أمته، فللرجل واجب وللمرأة واجب وللفتاة أكبر الواجبات.

سوف يدهش القارئ الكريم من كلمتي هذه، ولكن سرعان ما يسترجع هدوءه عندما يعلم -وهو أعلم بذلك مني- أن الفتاة هي الركن الوحيد الذي يعول عليه في إنشاء جيل متبع لأخلاق كتابه الكريم وأحاديث نبيه الشريفة نعم سوف تنتقف وتكبر وتنشئ مجتمعا صغيرا في بيتها تكون هي قائده فتسيره كما شاءت، لها ثقافتها وتعليمها ومدنيّتها، هذا هو الأمل الوحيد للنهوض بهذه الأمة الداوية.

وما أسرع ما يذهب هذا الأمل أدراج الرياح عندما نرى فتياتنا يقرأن ولا يطبقن، ويقلن ولا يفعلن، فأئي فائدة يا ترى من القراءة والتعليم؟

يتمنى كل إنسان أن يكون له حق في بلاده، وأن يكون سيد قومه، ومالك وطنه، يعيش فيه رافع الرأس عزيزا مكرّما، وما أشد وطء الصدمة على قلبه عندما يعلم أن ذلك أضغاث أحلام، ويفيق من نشوته ليجابه الحقيقة المرة، لا يعمل ويمني نفسه الأمانى الباطلة التي تزود دائما برصيد من الحيرة والبلبل.

لقد كان القرآن في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- سراجا منيرا يأخذ بأيدي المسلمين إلى قمة المجد والسؤدد بالعمل لا بالقول، فكوثوا خير أمة عصرهم وأعلاها وأمجدها. ولقد عبّر الفيلسوف الأكبر الأستاذ محمد البشير الإبراهيمي -حفظه الله ورعاه- عن هذا الداء المتأصل في قومه بقوله المؤثر: فخالوكم على البعد أعمالا فوجدوكم على القرب أقوالا. لله درّه من حكيم فذ.

ويجدر بالفتيات المتعلّمات -على الأخص- مداواة أدوائهنّ ومعالجة أمراض مجتمعهنّ، فهنّ نور بنات جنسهنّ الضئيل في هذه البلاد الفاقدة لنور الحياة. فلنعمل قدر طاعتنا في الأفراح والأتراح والاجتماعات والحمّات وكلّ ملتقى للنساء، فنفوز بما نتمناه ولا يبعد ذلك إذا اتبعنا طريق القرآن واهتدينا بفوزه المبين فنكون قدوة لإخواننا وأسوة حسنة للجيل الجديد، ومثال من منشآت مدارسنا.

زهور ونيسي، 1954م.

وليصدر القارئ حكمه على إنشاء تلميذة أكملت المرحلة الابتدائية، إن شاء بمقارنته بإنشاء تلاميذ

في مثل مستواها التعليمي، وإن شاء بمقولات خبراء التربية والتعليم، وما يقدرونه من تقييم مستوى

الإنشاء، تحكُّمًا في المفردات، وحسن توظيف للأساليب، وإجادة المقابلة بين الثروة اللغوية والإفصاح عن الرغبات التعبيرية، لنقف على جانب من مخرجات هذا التعليم.

2- حركة المطابع والتأليف والتَّحقيق والتَّرجمة: يربط هذا العنصر عمدا بين حركة التأليف وظهور

المطابع، لطبيعة العلاقة بينهما في الحالة الجزائرية، فقد كانت حركة التأليف الجزائرية نهاية القرن (19) وبداية (20) محكومة بحالة الطباعة من جهة، وظروف الكتاب والمؤلفين التي عُرِضَ شَيْءٌ منها سابقا من جهة أخرى.

2-1- المطابع الجزائرية وحركة الإحياء: بلغت الطباعة الفرنسية في الجزائر شوطا بعيدا فسايرت

كلَّ تطوُّر جديد طيلة هذه الفترة؛ فكان بالعاصمة مطبعة براشيه وباستيد بساحة الحكومة التي نشرت سنة 1833م كُتُبا مدرسية، منها كتاب في النحو العربي، ثم تحوّلت إلى مطبعة باستيد وجوردان، ثم تحوّلت إلى مطبعة كاربونيل، وأسست مطبعة بروسبير روادو، بالبلدية، وانتقلت سنة 1853م إلى سيدي بلعبّاس، وكانت مطبعة هاينز في وهران منذ 1875م، وازداد عدد المطابع في عهد الجمهورية الثالثة فكانت مطبعة فونتانة، وأمبير، وغيشين، وغيرها، ثم ظهرت مطابع تطبع بالعربية مثل: القبطان وسارلين، و"حسب إحصاء جرى سنة 1957م، فإنَّ عدد المطابع الفرنسية في الجزائر بلغ (280) مطبعة كانت تشغل (4500) عاملا¹ أمّا الجزائريون فلم يكن لهم من مطابعهم الوطنية شيء حتّى حدود 1896م بظهور المطبعة الثَّعالبيَّة للأخوين رودسي مراد وقُدُّور، وهما اللذان كانا يمتهانان تجارة الكتب مع مصر ولبنان خاصّة، وتحوّلت مطبعتهما ومكتبتهما إلى نقطة استقطاب علمية وأدبية إلى بداية الحرب الأولى، وسمح الاحتلال بطباعة ما لم ير ضررا في طبعه، بل وسمح بتوريده إلى المستعمرات الفرنسية في أفريقيا، ثمَّ أنشأ عبدالحفيظ بن الهاشمي ومامي إسماعيل مطبعة النّجاح بقسنطينة سنة 1919م، وكان أكبر همّها طبْعُ جريدة النّجاح اليومية، ثمَّ أنشأت الطَّريقة العليويَّة مطبعة البلاغ بمستغانم سنة 1924م، ونقلتها إلى العاصمة وكانت تطبع جريدتها (البلاغ الجزائري) وبها دخلت الطُّرق الصُّوفيَّة معترك الكتابة الصحفيَّة، وتدعّمت الحركة الإصلاحية الناشئة تحت قيادة الإمام ابن باديس بالمطبعة الإسلامية الجزائرية بقسنطينة سنة 1925م، ورعى شؤونها أحمد بوشمال، وطبع بها ابن باديس صحيفتيه: المنتقد ثمَّ الشَّهاب، وطُبعت بها البصائر من بعد وصدي الصَّحراء لأحمد بن العابد العقبي، والموالية لحركة الإصلاح، كما تعاملت مع الطَّبع التجاريّ ثمَّ كانت المطبعة العربية بالعاصمة 1926م، ويرجَّح أنَّها

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، ص306.

"مشروع" اشترك فيه النجار الميزابيون وغيرهم... وهي التي تطبع الصحف التي أنشأها الشيخ أبو اليقظان منذ 1926م¹ ثم أسس الشيخ الطيب العقبي المطبعة العلمية في بسكرة لطباعة جريدة الإصلاح بعد أن اجتهد في طبعها بتونس ثم قسنطينة، وتعثّر مشروع هذه المطبعة، فلم يخدم الحركة الثقافية بما يجب. وفي سنة 1937م أعلن الشيخ حمزة بوكوشة رئيس تحرير جريدة المغرب العربي بالتعاون مع محمود بلّة، من وهران عن تأسيس مطبعة المغرب العربي باللغتين.

ومن غريب أمر جمعية العلماء على جلال قدر أعمالها، وحسن تقدير الأولويات، أن تأخر اقتناؤها لمطبعة البصائر حتى سنة 1954م، ولعلّ انشغالها ببناء المدارس، ورفع المساجد كان فيه انشغالا عنها، وعدّ ذلك على تأخره من أهم إنجازات الجمعية.

ومن اللافت الإشارة إلى أن الهدف الأول من حركة انتقاء المطابع خلال الشطر الثاني من فترة نشأة حركة الإحياء، وهي التي تزامنت مع ما بعد الحرب الأولى إلى نهاية العقد (03) من القرن (20) كان ذا وجهة صحافية، حتى سميت المطابع باسم الصحف المنشأة، وباستثناء بعض التأليف ذات القدر من مخرجات هذه المطابع؛ فإن حركة التأليف في العلوم والفنون، لم تكن بحجم النتاج الصحفي الذي استحوذ بشكل كبير على مخرجات هذه المطابع.

2-1-1- حركة التأليف ومؤلفات الإحياء الفارقة في الجزائر الحديثة: ما دام الإحياء الجزائري

ذا خصوصيات عامّة تختلف عن مثيلاتها في البلاد العربية؛ فقد نالت حركة التأليف الإحيائي حظّها من هذه الخصوصية، فميزتها قلّة جعلت من الكتب التي رافقت حركة الإحياء ذات فاعليّة وتأثير كبيرين، ومع أنّها جاءت على فترة من يأس، وانقطاع من أمل، فقد نزلت في ساحة الإحياء بردا وسلاما بما لقيته من احتفاء، وبما أحيته من انتماء، وبما قابلها من مباركة الكتاب والعلماء، كما توزّع اهتمامها على فروع مختلفة من جوانب الحياة العلمية الجزائرية المهددة بالموت، وقد كان الجانب اللغوي المتخصص فيها أقلّها حظّا، ولكنها خدمت اللغة العربية من ناحية ما كُتب منها من العلوم والفنون، فقد كان من فخر الإحياء أن يكتب المديني كتاب الجزائر في الجغرافيا بالعربية، ويكتب الميلي تاريخه بالعربية، ويقاس على ذلك كل ما كتب في التخصصات المختلفة بلغة عربية، لأنّ ذلك كان مقابلة لما يُكتب في هذه التخصصات بالفرنسية.

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، ص311.

وبعد مسح فترة نهاية القرن (19) وبداية القرن (20) وتفقّد ما كان من تأليف ذات شأن كانت النتيجة -في ما بلغه الجهد- هذه المجموعة من المؤلفات المتنوعة في أبوابها، ولكنّ انتقاءها على أنّها جزء من الإحياء اللغوي، قد جاء على خلفيّة اللّغة الجيدة التي كتبت بها، ثمّ تناولها مواضيع تاريخيّة وعلميّة باللّغة العربيّة التي أصبح حضورها مطلوباً لها في ذاتها، بل وجوب حضورها لغةً للجهود الإحيائيّة في مواضيع وقضايا مجاورة، وقد رُتبت هذه المدونات حسب تاريخ صدورها.

2-1-1-1-2- إرشاد المتعلّمين لعبد القادر المجاوي: لعلّ هذا العنوان من أبرز الكتابات اللافتة التي

أعلنت عن شيء من الحياة اللغويّة والعلميّة والأدبيّة في الجزائر سنة (1877م) ويكفي الكتاب قيمة ما أحدثه من ردّ فعل فرنسيّ بلغ بها أن أصدرت جريدة (البروقري دي ليست) الفرنسيّة ملحقاً صحفياً باللّغة العربيّة (المنتخب) للرّد على الكتاب، وتشويه وجهته، وكانت تلك أوّل محاولة إحيائيّة للتأليف اللغويّ العربيّ، والكتاب رسالة مختصرة جاءت في مقدّمة بشواهد في فضل العلم والتعلّم، وما يجب العلم به وأربعة فصول: الأوّل منها في علوم اللسان، والثاني في علوم الأديان، والثالث في علوم الأبدان، والرابع في المعاش، وخاتمة في آداب وحكم وأمثال، والكتاب في جملته إرشادٌ إلى سلوك سبيل تعلّم العلوم اللغويّة العربيّة، ومدخلا إلى التّفقه في علوم الدّين، وما يقيم حياة الإنسان من علوم الكيمياء والطّب وعلم النّبات وعلم الحيوان وغيرها، ثمّ العلوم التي تقيم معاشه من الصّنائع والزّراعة والتّجارة والتّكسّب فجاء كتاباً ارتعدت له فرائس مراقبي نوم الجزائريّين، وقد طرق سبيل الجمع بين الدّين والدّنيا، فواجهته مراقبة الاحتلال بمعارضة شديدة، ولم يُسند بمحاولات أخرى، إلّا بعد سنوات.

2-1-1-2- مستقبل الإسلام: لمحمد بن رّحال، وأصل الكتاب بحثٌ أُلقي سنة 1897م في مؤتمر

المستشرقين ببّاريس، ونشرته المجلة الشهيرة (المسائل الدبلوماسية والاستعماريّة) مقالات بالفرنسيّة مسلسلا على شهور: جويلية، أوت، أكتوبر، نوفمبر 1901م. وهو دفاعٌ عن الإسلام ومواجهة لعلماء الغرب ومستشرقهم، ومنافحة عن الثقافة الإسلاميّة، معتبراً أنّ من أسباب التّخلف في البلاد العربيّة والإسلامية، حالة التّعليم التي رسمها الاحتلال، وقد اشتهرت مطالبة مؤلّفه منذ 1887م بنشر اللّغة العربيّة في الجزائر، فكان الكتاب انعكاساً لمواقفه العامّة، إذ كان عضواً متكلّماً باسم الجزائريّين أمام لجنة جول فيري سنة 1892م. وظلّت مواقفه كذلك إلى عشرينيّات القرن (20) وقد عرض الشّيخ الإبراهيمي للكاتب في سلسلة محاضراته حول تاريخ الجزائر، ولتأثيره السّياسي والاجتماعي خلال تلك الفترة، مشيداً به وبمواقفه، ومع أنّ بن رّحال خريج المدرسة الفرنسيّة، وذو ثقافة فرنسيّة، فإنّ ولاءه

لأصوله العربية الإسلامية لم يخب، فكان بذلك امتدادا لجذوة الرّفض السّارية من أعقاب القرن (19) إلى بدايات القرن (20) وفي كنف تلك المواقف صدر كتابه هذا.

2-1-1-3- أوضّح الدلائل في وجوب إصلاح الزّوايا ببلاد القبائل: تأليف لمحمد السّعيد بن زكريّ، صدر سنة (1903م) تابع به الأوضاع الاجتماعيّة والتعليميّة في بلاد زواوة، والتي كان ابن زكريّ أحد خريجيها، وقد لبث بها سنين طويلة يتعلّم القرآن فقط، فخرّ أمرها، وتنبّه إلى كثير من الخلل في طريقة التّعليم بها، فكان كتابه هذا دعوة إلى تجديد مقرّرات الزّوايا. وخصّ بالذّكر منها زاوية سيدي منصور، وشيوخها، كالشيخ محمد الطّاهر الجنادي، والشيخ البوجليلي.

جاء الكتاب في مقدّمة وأربعة فصول وخاتمة، ويدور مضمون الرّسالة على الاستفادة من مسالمة الفرنسيّين، وإحداث قدر من الوفاق بين سكّان زواوة والسّلطات الفرنسيّة، حتّى ليكاد القارئ يشكّ في أنّ التّأليف كان بإيعاز فرنسيّ، وقد كان توجّس الاحتلال من قيام ثورة أخرى كثورة 1871م، لكنّ الأقرب هو أنّ الكتاب أبان عن رأي ابن زكريّ في مبدأ الإصلاح على منهج محمد عبده، الذي يقوم على نشر التّعليم الصّحيح، وبثّ الوعي في النفوس، وذلك أساس لما بعده، فكان تركيزه على عمارة الزّوايا بتعليم ناجع وفعل، وهو الذي تضمّنه الفصل الثّالث الذي يعد أهمّ ما في الكتاب، ولعلّ ما يؤيّد هذه الوجهة هو تأليف الكتاب بعد زيارة علمين بارزين هما: الشيخ محمد الخضر حسين 1903م و1904م، وكان لابن زكريّ معه جلسات، ثمّ زيارة الشيخ محمد عبده سنة 1903م، فكأنّ الكتاب كان أوّل ثمرات هاتين الزّيارتين، وأوّل الاستجابة لدعوة الإصلاح على منهج الزّائرين.

2-1-1-4- تعريف الخلف برجال السّلف: لأبي القاسم الحفناويّ، أصدرت مطبعة فونتانا جزءه الأوّل سنة 1906م، وجزؤه الثّاني سنة 1908م، وهو كتاب ضمّ ترجمة (419) شخصيّة جزائريّة خلال قرون. وهو من أشهر ما ألف الحفناويّ، ويعدّ من مصنّفات الإحياء رغم موقع صاحبه من سلطة الاحتلال في الجزائر، والعناية الماليّة والأدبيّة التي خصّته به، والظّروف التي صنّف فيها حين لم ير الفرنسيّون بأسا في نشر وتحقيق تراجم جزائريّة للوقوف على مسيرتهم، وإظهار الاهتمام بالتّراث الجزائريّ في إطار الجزائر الفرنسيّة، ولكنّ "النتيجة كانت عكس ما توقّعه، فقد بعث تعريف الخلف في النفوس الحميّة والوطنية والغيرة على التّراث والاعتزاز بالآباء والأجداد، ويمكن اعتبار ظهوره صفحة جديدة في اليقظة الوطنيّة والشّعور بالذّات"¹ وما يميّز هذا الكتاب عن غيره من كتب التّراجم التي طُبعت خلال

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافيّ، ج7، ص435.

هذه المرحلة ممّا له علاقة بتوجّه الأطروحة؛ هو المنهج الذي أُلّف عليه الكتاب، حيث عمد فيه مؤلّفه إلى سَوِّق نماذج أدبيّة ولغويّة كثيرة ومتنوّعة، واستعرض فيه الأحوال العامّة التي عاصرت المترجم لهم فلم يصبح بذلك تعريفُ الخلف كتاب تراجم؛ بل تعدّى ذلك إلى أن أضحى "من كنوز اللّغة العربيّة في الجزائر"¹ ومصدرا اجتماعيًّا وأدبيًّا ولغويًّا وصل جهود العلماء ورجال الإصلاح في القرن (20) بسلفهم واتّصلت بذلك حلقات العلم بعد أن رقّ حبلها.

وإضافة إلى ما كان عليه الكتاب من قيمة علميّة، وما يُحيل عليه من أبعاد قوميّة وحضاريّة؛ فإنّ "لغة الحفناوي جيّدة، وهي تدلّ على ثقافته الأدبيّة القويّة، ولا يستعمل السّجع أو الجمل العاميّة الثّقيلة أو المتأثّرة بالثقافة الأجنبيّة"² وبذلك أضحى الكتاب وثيقة لغويّة تقدّم فنّ التّراجم خلال فترة الإحياء في قالب لغويّ سليم، لا يكفي بالإشارة إلى قيمة المضمون، بل يضيف لها جودة لغة العرض ونصاعته.

2-1-1-5- الدّعاية إلى سبيل المؤمنين: لإبراهيم أطفيش، ابن أخ محمّد بن يوسف أطفيش الشهير، صدر الكتاب سنة (1923م) في مصر حيث كان مقيما، وتناول فيه وضع العالم الإسلاميّ مضمّنا إياه الدّعوة إلى الاشتغال بالعلوم باعتبارها مسلك النّهوض والإصلاح، مشيدا بعلوم: التّاريخ والجغرافيا والفلك والأدب والصّحافة، والصّحّة، ودعا إلى تعلّم اللّغات الأجنبيّة، وعالج فيه مسائل التّقليد والتّجديد، وشنّ فيه حملةً على أدعياء التّدئين ممّن يستخفّون بالدين لغاياتهم، وشنّع عليهم علاقاتهم المشبوهة بالسلطات الحاكمة. فجاء الكتاب دعوة صريحة إلى الإصلاح، "وإحياء ما اندرس من المبادئ ورفض الاستكانة والجمود والدّعوة إلى مجارة العاملين من الأمم"³. كما ضمّن كتابه دعوة علماء الدين إلى الاطّلاع على علوم العصر، ومنتجاته حتّى تستقيم أحكامهم على مستجدّات الحياة.

2-1-1-6- الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير: لمحمّد السّعيد الزّاهريّ أحد مرافقي مشروع الإحياء إلى عهد استوائه، وهو صحافيّ بارع وشاعر وكاتب، عُرفت عنه غيرته على الجزائر والإسلام وشهدت أواخر حياته تقلّبات في مواقفه، صدر الكتاب بالجزائر سنة 1925م، وتناول مسألة مواجهة التّبشير بين الجزائريّين، فكشف الزّاهريّ وسائل المبشرين، ودعا المسلمين إلى مواجهة التّبشير بنشر تعاليم الإسلام وأخلاقه، وتبليغها للشّباب ذكورا وإناثا، مدعّما آراءه بأمثلة من الواقع، فجاء الكتاب وكأنّه

¹ - خير الدّين شترة، مقدّمة تحقيق تعريف الخلف برجال السّلف، ج1، ص21.

² - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، ص433.

³ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، ص168.

محاولة في الكتابة القصصية الاجتماعية، وقد أضاف الكتاب إلى الحركة الإحيائية التنبيه إلى خطر التبشير، كما كان في الوقت ذاته شكلا جديدا من أشكال الكتابة الأدبية في قضايا المجتمع، ليصنّف كتابا في الأدب الإصلاحي الاجتماعي. وقَرَّط الكتاب شعرا ونثرا من علماء الفترة: شيخه عبد الحليم بن سماية، الحفناوي بن الشيخ، ومحمود كحول، ومحمد مصطفى بن المكي بن عزوز، ومحمد بن عبد الرحمن العلمي، ومصطفى فخار، مفتي المدينة، وأعلن عنه ابن باديس في الشّهاب فأشاد بالزّاهري قائلا: "عرفناه كاتباً رحب البيان بليغا، وعرفناه في هذا الكتاب داعيةً إسلامياً كبيراً"¹ ومتعرّضا إلى منهج الكتاب في سوق الحقائق وإيراد الرّدود، وإلى أسلوب الكاتب الذي "ساق ذلك كلّ في أسلوب من البلاغة الشّبيه بالروائي، سهل جذّاب"² فإضافة إلى إكبار علماء الفترة جهد المؤلّف في مضمونه، كانت لغة كتابته السّليمة محمّدة أقرّ له بها ابن باديس نفسه.

2-1-1-7- روح السّعادة وسرّ الشّهادة في الحسنى وزيادة: لأحمد بن يحيى الأمين، الملّقب الأكل (1906-1979م) الشّاعر الكاتب العالم، و كتابه هذا صغير الحجم جليل المضمون، طبع بالجزائر سنة (1925هـ) تناول الدّعوة إلى نهوض إسلامي وعربيّ شامل، على أساس من العلوم الحديثة، والتّطبيق الواعي لأحكام الإسلام، وخصّ الجزائريّين يستحثّهم لإدراك أنفسهم، وعرض في (25) صفحة التي جاء فيها الكتاب: أساس المدينة الحقّة، والإسلام والرّقيّ وتقدّم الإسلام بالعلم، والنّبات والأعمال، والتّعليم القويم، والحكمة الدّينية.

2-1-1-8- تمهيد لدراسة الإسلام: لعبد الرحمن بن الحفّاف حفيد الشّيخ علي بن الحفّاف مفتي المالكيّة المتوفى سنة 1890م، ومع أنّه خريج المدرسة الفرنسيّة، فإنّه تحصّن من الاندماج بتراث عائلته العريق، ظهر الكتاب خلال عشرينيّات القرن (20) واستعرض فيه صاحبه السّيرة النّبويّة الشّريفة، وتطوّر المدينة الإسلاميّة، وردّ على شُبّهات الغربيّين حولهما، وقد استقبل علماء الفترة الكتاب استقبالا حسّنا فأثنى عليه توفيق المدني، ومحمد العابد الجلاّلي، وهما من أعلام الحركة الإحيائية، وقد ظهر في مرحلة فشا فيها الإلحاد بين الشّباب، ومضى الكتاب يستعرض الشّبهة ثمّ يدفعها، مستشهدا بالصّحيح من مآثر المدينة الإسلاميّة، ومستدلاً لذلك بأراء المُنصّفين من الغربيّين فهو قد "وضعه ليكون دليلا

¹ عبد الحميد بن باديس "ثمار العقول والمطابع" الشّهاب، ط1. الجزائر: غرة شعبان 1350هـ - ديسمبر 1931م، ج12 ص781.

² عبد الحميد بن باديس، الشّهاب، ج12، ص7، ص801.

لمن لا يعرف العربية وتاريخ الإسلام من أبناء جلدته، فهو كتاب صغير الحجم في حضارة الإسلام وتاريخه¹ ويقع الكتاب في (150) صفحة.

2-1-1-9- الخطب المنبرية لأبي يعلى الزواوي: هو تأليف خرج به صاحبه عن مألوف الخطب المنبرية التي كانت تُلقى في المساجد منقولةً من عهد عصر الضعف في مواضعها ولغتها صدر الكتاب سنة 1343هـ-1924م بالجزائر، باستيد -جوردان- كاربونيل، في 78 صفحة، "وهو أول كتاب يُطبع في موضوعه على ما نعرفه"² وقد جاء الكتاب قسمين: أولهما نظري في معنى الخطبة والخطابة وتاريخها، ونماذج مما كانت عليه الخطابة في الجاهلية والصدر الأول، وأنواع الخطب، وبعض عيوب الخطب والخطباء، وثانيهما: نماذج من خطبه التي كان يلقيها بمسجد سيدي رمضان بالعاصمة، في موضوعات جديدة وأسلوب مختلف، ف "أخرج الخطب المنبرية من صيغتها التقليدية العتيقة إلى صيغة قومية مفيدة. فهو يخطب للعامة ارتجالاً في مواضيع إسلامية محلية مفيدة، ويُعتبر خطابه درساً، بحيث لا ينتهي منه إلا وقد اعتقد أن كل من بمسجد سيدي رمضان من رجال ونسوة، قد فهموا جيد الفهم خطابه"³ وقد أعلن الزواوي في مقدمة كتابه عن هدف التأليف فيقول: "أردت تجديد طريقة السلف في إلقاء الخطب، والرجوع إلى الأصل في ذلك وإحياء ما هنالك فالترمت أن تكون الخطبة من إنشائي وكلامي، حسب الأصول المعتمدة في ذلك، ولو لم يكن لي من الأهلية إلا إحياء تلك السنة -وأي سنة- لكفى"⁴ ومن المواقف اللافتة للزواوي في كتابه، الدعوة إلى تقديم اللغة العربية الفصيحة الخالية من كل الرطانات المحلية والاستعمالات الضيقة، معتبراً ذلك تكلفاً "فالتغني والتصنع ونحو ذلك مما ليس من السجية والملكة، يلزم أن يُنبذ، وقد طرحتُ بقدر الإمكان لهجة عجمتا الزواوية، وتغني حُضر الجزائر (المدينة)"⁵ واستقبل الكتاب -كما هو شأن كل جديد في مسار الإحياء العربي يومذاك- استقبالا لائقاً، فعرفت به وأشادت صحيفة الزهراء لمحِبِّ الدين الخطيب في عدد جمادى الأولى 1344هـ-1925م، وقدم الشيخ ابن باديس الكاتب والكتاب لقرء الشهاب بوصف: "علامة سلفي داعية إلى

1- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج10، ص596.

2- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج8، ص122.

3- أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، دط. الجزائر: 2009م، دار البصائر، ص137.

4- أبو يعلى الزواوي، الخطب المنبرية، عناية: عبد الرحمان دويب، ضمن مؤلفات الشيخ أبي يعلى الزواوي، ط خ. الجزائر:

2013م، دار زمرة للنشر والتوزيع، مج4، ص20.

5- أبو يعلى الزواوي، الخطب المنبرية، مج4، ص43.

الإصلاح بالكتاب والسنة وعمل السلف الصالح، كان من محاسن أعماله لما ولي الخطابة بجامع سيدي رمضان بالجزائر، أن أخذ يخطب على الناس خطبا حية مناسبة للمكان والزمان والحال على طريقة السلف المتقدمين¹ ونقلت مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، بقلم الشيخ عبد القادر المغربي في عدد رجب 1348هـ 1929م خبر استقبال الكتاب هدية لمكتبة المجمع، مشيدة بالكاتب وكتابه.

2-1-1-10- شعراء الجزائر في العصر الحاضر: لمؤلفه الهادي السنوسي الزاهري، صدر عن مطبعة النهضة بتونس، 1344هـ 1926م، "وقد كان وقع ظهوره يشبه ظهور تاريخ الجزائر لمبارك الميلي"² ومن جوانب أهمية هذا الكتاب جمعه لشعراء من مواقع مختلفة، ففيهم الموظفون الرسميون والأحرار، وفيهم مواليد الجزائر وغيرها، فمحمد العلمي (من مواليد المغرب) ومحمد الطرابلسي من مواليد طرابلس، وبأعمار متفاوتة، فأحمد الغزالي من مواليد 1873م، ومحمد العيد آل خليفة من مواليد (1904م) ومنهم من تخرج في مدارس الشرق، فالعقبي من الحجاز، والمولود الزريبي أزهري، ومفدي زكريا ومحمد العيد خريجا الزيتونة، والجنيّد أحمد مكّي والأمين العمودي خريجا المدرسة الفرنسية في الجزائر، ولكن هذا العمل الشعري جمع هؤلاء على روح جزائرية واحدة، ووجهة شعرية ولغوية متناغمة بلوحات فنية واحدة ذات ألوان مختلفة، فكان مصنفا أعلن فيه عن الانطلاق نحو الحياة، وتوديع كل المظاهر المفضية إلى الموت أو ما في حكمه، ولعلّ أبيات الزاهري (محمد السعيد) من قصيدة له في الكتاب خير معبر عن مدخل الوجهة الجديدة:

سأبعث في قومي حياة إذا أنا... حييت بأعمالي وصادق أقوالي
وربّ امرئ أحيا العشيرة كلّها... بما هو آت من جلائل أعمال
وأطلب حقاً للجزائر ضائعاً... ولو كان محمياً بأنياب أغوال

ورغم ما كان عليه الشعراء الذين ضمهم هذا السفر من تعدد المنازع الفكرية، واختلاف مناهج تكوينهم المعرفي فقد "جمعهم كلهم حب الشعر، وحب الوطن، وحرف الضاد، في وقت ظن المستعمرون فيه أنّ الأدب العربي، فما بالك بالشعر الجيد، قد اختفى من الجزائر"³ وقد كان جمع الزاهري لهذه القصائد من طريق إرسال الشعراء لقصائدهم التي كان منها المدون المحفوظ منذ زمن، ومنها ما نظم

¹ - عبد الحميد بن باديس "خطب جامع سيدي رمضان بالجزائر" الشهاب، الجزائر: 21 ذو الحجة 1344هـ - 1 جويلية 1926م س2، ع34، ص11.

² - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج8، ص229.

³ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج8، ص230.

قبل سنين خلت، ولكنّ جمع تلك القصائد بهذه الطريقة قد قارب لنا صورة الشعر الجزائريّ خلال الفترة الممتدة من ظهور الإرهاصات الأولى للإحياء نهاية القرن (19) وبداية القرن (20) إلى زمن تأليف الكتاب وصدوره سنة 1926م، وتزداد قيمة الكتاب القومية إذا ما علمنا أنّ سلطات الاحتلال ستشرع بعد شهور في التحضير للمؤوية بما تحمل من معاني الإمامة والإفناء لكلّ ما له علاقة بالأمة الجزائرية. قدّم السنوسيّ لكتابه بمقدمة جعلت منه كتاباً إحيائياً خالصاً، فقد ألحق القصائد المرسلة بـ: "تعليق لغويّ يحلّ ما انبهم من مفردات اللغة، وما غمض من معاني الأبيات"¹ على قوم سيظهر فيهم مثل هذا التأليف لأول مرة منذ أمد بعيد، وقد حال بينهم وبين لغة الشعر والأدب حائل الاحتلال، وليس من سبيل إلاّ إلحاق القصائد بمعاني مفرداتها على سبيل التعليم، بنهج التعرّض لبعض المفردات الغامضة خدمة للمتأدّبين أمثالي، فبينما القارئ في حدائق الأدب يقطف أزهارها إذا هو ظافر بشيء كثير من مفردات اللغة² كما حوت المقدمة موقفاً نقدياً ينقل بوضوح تأثير حركة الإحياء على أشكال الكتابة ومواضيعها وقضاياها، وها هو الزاهريّ يُسقط من كتابه قصائد الرثاء والمديح والهجاء، "لما في المديح من التنازل عن الكرامة، وفي الهجاء من البذاءة، وفي الرثاء من التعداد الذي قلّما يصدق فيه قائله والجميع في الأكثر لا يفيدنا معنى اجتماعياً ولا غيره، وعلى الأخصّ في بيئتنا"³ معيذاً بذلك الحديث عن المعايير النقدية التي صنّفت بها مجاميع عيون الشعر العربيّ القديم، ومقاييس تصنيف الشعر والشعراء، وهذا جانب من الجوانب التي تتحوّل بالكتاب إلى "مشروع جاء في وقته، وكانت الحاجة ماسة إلى إحياء الأدب العربيّ"⁴ وكان بحقّ حجة حركة الإحياء وبياناً لمقام الشعر والشعراء فيها.

تناول الزاهريّ في الجزء الأول من سفره أشهر شعراء المرحلة ممّن قبل منه دعوته في إرسال ترجمته وشيء من شعره، وهم على الترتيب: محمّد العيد حم علي (آل خليفة) ومحمّد اللقاني بن السائح ومحمّد السعيد الزاهري، والجنيّد أحمد مكّي، وإبراهيم أبو اليقظان، والطيب العقبي، ومفدي زكريا، وأحمد الغزالي، ورمضان حمّود، وإبراهيم امتياز، ثمّ محمّد الهادي السنوسي (المؤلف). وأكبر الشعراء سنّاً في هذا الجزء هو أحمد الغزالي المولود سنة 1873م.

¹ - محمّد الهادي السنوسي، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، تقديم: عبد الله حمّادي، ط2. الجزائر: 2007م، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، ج1، ص73.

² - محمّد الهادي السنوسي، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، ص74.

³ - محمّد الهادي السنوسي، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، ص73.

⁴ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج8، ص230.

وتناول الجزء الثاني (10) شعراء وهم: الأمين العمودي، المولود بن الموهوب، والطاهر بن عبد السلام، حسن أبو الحبال، ومحمد الصالح خبشاش، والمولود الزريبي، وأحمد بن يحيى الفحل، ومحمود بن دويبة.

وقد استقبلت النُخبة العربية المثقفة الكتاب وصاحبه ليلة الجمعة 04 فيفري 1927م في حفل تكريم أقامه أعيانُ بسكرة النّخيل بإشراف الأمين العمودي، وحضر الاحتفال عددٌ من الأدباء والشُعراء منهم من ترجم لهم الكتاب، ونشرت الشّهَابُ وصف الحفل تحت عنوان: "موقفٌ جدٍ" في العدد (84) لشهر شعبان 1345هـ - فيفري 1927م، وطار خبرُ صدور الكتاب إلى تونس، فأقام له الأدباء والشُعراء احتفالا كبيرا، ونقلت الصُّحف خبر الحفل والكتاب والكاتب، ومن الأقوال التي قيلت في الكتاب: "هذا السِّفر الجليل أو إنجيل أدب هذا الجيل، ما حواه من أدب رائع، وبلاغة ساحرة، وبيانٍ فتانٍ في مواضيع هي مبعث الحياة، وقوام الوجود"¹ "إنّي أعتبر بروز هذا السِّفر الجليل مبدأً لتاريخ حياة أدبنا الجديد"² "عمل جليل خلّد اسم الجزائر في عالم التّاريخ الأدبي الحديث"³ "يمثل ميلاد الجزائر الجديدة كما تصوّرها الشُّعراء"⁴ ولم تكن تلك المواقف إلاّ تقييما لمثل ذلك المؤلّف في مثل وضع الجزائر وأدبها تحت الاحتلال.

2-1-1-11- بذور الحياة رمضان حمّود (1906-1929م): هو مجموعة من الخواطر النّقديّة التي جادت بها قريحة هذا الشّاعر النّاقّد، وأصلُ هذا الكتاب مقالات وآراء نقدية في الأدب والشّعر وقضايا التراث والتّقليد والجمود والتّجديد، أصدرها حمّود في كتاب سمّاه (بذور الحياة) سنة 1928م وقد نشر منها سلسلة في أعداد 82-85-93-94-108 من مجلّة الشّهَاب، في ما بين: 04-02-1927م و 04-08-1927م. أظهر رمضان حمّود آراءه النّقديّة في المجال الشّعريّ خاصّة، فتحفّظ على شعر شوقي ومقلّديه، ودعا إلى وجهة جديدة في الشّعر تكونُ معبّرة عن واقع من نطق به، ف "لا يكون الشّاعر شاعرا، إلاّ إذا حدّث قومَه باللّغة التي يفهمونها، وبالمعاني التي يهضمونها"⁵ وقد كانت تسميّه الكتاب ذات دلالة بالغة، فقد كان حمّود وكتابه مشروعا نقديّا لو طالّت به حياة، وقد جمع الأستاذ الفاضل

¹ - مبارك الميلي "الأدب الجزائري يُبعث من مرقدّه" الشّهَاب، ط1. الجزائر: شعبان 1345هـ - فيفري 1927م س2، مج2 ص807.

² - مبارك الميلي، "الأدب الجزائري يبعث من مرقدّه" الشّهَاب، س2، مج2، ص807.

³ - أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، د ط. الجزائر: 2009م، دار البصائر، ص139.

⁴ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج8، ص229.

⁵ - محمّد ناصر، رمضان حمّود حياته وآثاره، ط خ، الجزائر: 2008م، دار هومة للطباعة والنّشر والتّوزيع، ص406.

محمد ناصر آثار الفتى الشاعر الناقد فقدّم للأدب والنقد الجزائريّين والباحثين فيهما خدمةً جليّةً، يقف متصفّحها على المستوى الذي كان عليه منتسبو حراك الإحياء في تخصّصاتهم المختلفة.

2-1-1-12- تاريخ الجزائر في القديم والحديث لمبارك الميلي: غير بعيد عن مشروع الإحياء العقديّ على يد الميليّ؛ كان مشروعه في الإحياء التّاريخيّ على خطّ متوازٍ، ويكفي إيراد شهادة ابن باديس في تقرّضه لكتاب الميليّ: تاريخ الجزائر في القديم والحديث الصّادر سنة 1928م، وقد أبدى إصراره على تضمينه لفظ مشتقّات الإحياء والحياة فمما قال في التّقرير: "وقفتُ على الجزء الأوّل من كتابك: تاريخ الجزائر في القديم والحديث فقلت: لو سمّيته: (حياة الجزائر) لكان بذلك خليقا. فهو أوّل كتاب صوّر الجزائر في لغة الصّاد صورة تامّة سويّة، بعد ما كانت تلك الصّورة أشلاء متفرّقة هنا وهناك... إذا كان من أحيا نفساً واحدة فكأنما أحيا النّاس جميعاً، فكيف من أحيا أمّة كاملة؟ أحيا ماضيها وحاضرها، وحياتها عند أبنائها حياة مستقبلها. فليس - والله - كفاء عملك أن تشكرك الأفراد ولكنّ كفاءه أن تشكرك الأجيال". واللافت في التّقرير المقتضب للشيخ؛ هو حرصه الظّاهر على إيراد لغة الكتاب بوصفه أوّل كتاب باللّغة العربيّة أنصف التّاريخ الجزائريّ، وفي ذلك إشارة واضحة منه إلى أنّ الكتاب وإن استهدف إحياء التّاريخ الصّحيح؛ فإنّ في كتابته باللّغة العربيّة إحياء مزدوج، فالعرض التّاريخيّ مادّة إحياء لما أصرّ الاحتلال على طمسه وإدراجه على هون في التّاريخ الفرنسيّ وفي لغة عرضه قرينة نفّ لکلّ محاولات السّلخ والبهتان التّاريخيّ الذي تمالاً عليه كثير من المؤرّخين الفرنسيّين وهكذا رافقت اللّغة العربيّة عناصر الإحياء: الإسلام الصّحيح، والتّاريخ الحقيقيّ، ومع أنّ اللّغة العربيّة كانت أحد هذه العناصر؛ فإنّها باعتبارها أداة التّبليغ الإحيائيّ، وموضوع إحياء في ذاتها، قد جعل لها تلك الدّرجة من الأهميّة.

2-1-1-13- ديوان أبي اليقظان: طبع سنة 1931م، بالمطبعة العربيّة التي أنشأها أبو اليقظان على ندرة من الدّواوين المطبوعة خلال هذه الفترة، وقد كان طبعه إنجازاً لافتاً، ومغامرة أدبيّة جريئة ولكنّه لقي من القبول والرّضى ما يُنبئ بنجاحه، فقد طبّعت قصائده مسحة اجتماعيّة مؤلّفة على الأغراض المألوفة، وصور وتعبيرات معروفة، لكنّها مشحونة بروح ثائرة وصدقٍ وطنيّ غامر، فتناوله ابنُ الموهوب بالتّقرير في العدد (09) من النّور، وأنتى عليه الإمامُ الإبراهيميّ في العدد ذاته، ومما قال فيه: "هذه الحقيقة هي رافعة الحجاب، ومثيرة الإعجاب ومزيلة السّلب بالإيجاب، هذه الحقيقة هي

ثباتكم والعواصف هوجاء، ووثباتكم والطريق عوجاء¹ وممن أتى على الديوان وصاحبه أيضاً: محمد العيد حم علي (آل خليفة) ويوسف بن بكير، والطرابلسي، وأبو الربيع سليمان الباروني، وأحمد بن يحي الأكل، وعيسى بن عبد الله، ومفدي زكريا، وعبد العزيز التميني، ورايح إبراهيم، ولقد مثلت هذه الاستجابة لهذا الحدث، والتفاعل معها بهذه الإيجابية، مستوى من الروح الأدبية والعلمية التي أدركتها حركة الإحياء، وطبيعة التوجه الذي أصبحت عليه المعلمة الإحيائية إزاء النشاطات الأدبية والعلمية مما يثبت مرة أخرى الدرجة التي بلغها هذا المشروع.

2-1-1-14- كتاب الجزائر: أصدره أحمد توفيق المدني عام 1932م، في ما يشبه الرد على احتفالات المؤيعة، واشتمل على وصف الحياة العامة الجزائرية بداية بسند تاريخي مقصود، ثم التعريف بالحالة الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية، وأبرز المدن وعدد سكانها، والنظم الإدارية والقضائية، ووضع الصحافة والنوادي، ومثل الجانب التاريخي نسبة الربع في الكتاب. وقد قوبل باستحسان من الدارسين والمطالعين، ونوه به شكيب أرسلان. وأكثر ما يصنف الكتاب ضمن خانة الإحياء، أنه قدم جغرافيا الجزائر بلغة عربية سليمة قديمة، فمع أنه اعتمد على مراجع فرنسية "ولكن لغته وأسلوبه وعاطفته كلها في صالح الهوية العربية الإسلامية للجزائر"² وقد قدمت جريدة النور الكتاب للقراء وقُرّضته، فتناوله أبو اليقظان في العدد 20 بتاريخ: 2-2-1932م، وحمزة بوكوشة، في العدد 22 بتاريخ: 23-20-1932م، بعنوان: نظرة في كتاب الجزائر، وتناوله محمد السعيد الزاهري في العدد 32 بتاريخ: 10-5-1932م بعنوان: كتاب الجزائر وصف وتحليل.

2-1-1-15- رسالة الشرك ومظاهره لمبارك الميلي: طبعت هذه الرسالة لأول مرة سنة 1937م في المطبعة الإسلامية الجزائرية، بعدما أجازها المجلس العلمي للجمعية، وهو التاريخ الذي تزامن مع استواء حركة الإحياء، فأضيفت إلى قائمة من الكتابات الفارقة في مسيرة الحياة الثقافية الجزائرية الحديثة ذلك أنها جاءت في فترة كاد الإجماعُ ينعقد على وفاة الأمة الجزائرية، وطمس أبرز مقوماتها، ثم إنها كتابات رائدة في قطاعات الحياة الجزائرية الأساس، فكانت رسالة الشرك ومظاهره للميلي مدونةً تبنّتها جمعية العلماء مرجعا لتثبيت العقيدة الصحيحة، وأساسا للإصلاح الاجتماعي، وكما تسبّب الاتجاه العقديّ الطرقي للدولة التركية، في ركود الدرس العلمي الحي، وانكفاء البحوث الواعية -وهو ما تنشده

¹ - محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج1، ص97.

² - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، ص422.

السلطات الفاقدة للشرعية الشعبية - واستحسنست سلطات الاحتلال استمرار ذلك؛ فقد كانت مناهج الدراسات الإحيائية ردًا متناغمًا تخدم مكوناته بعضها بعضا، ويلوذ بعضها ببعض، ولذلك فلا عجب أن نجد الميلي يرد أسباب الظلال العقدي الذي بات عليه القوم، إلى الجهل باللغة العربية، وها هو يعلل جمعهم بين كلمة التوحيد والشرك بقوله: "وكثير من علمائنا اليوم - بله عوامنا - لم يفقهوا من العربية ما كان يفقهه أولئك الذين كانت اللغة لغتهم والأسلوب أسلوبهم ولهذا؛ لم يقتلع التلغظ بالشهادتين من قلوبهم عقائد الشرك ولا حال دون نفوذه إليها"¹ ولما كان هذا الجهد يستهدف إصلاح العقائد، فإن أول منافذه كان إصلاح اللسان، وامتلاك إدراك البيان، وركوب متن اكتساب اللغة التي يستقيم بها فهم النصوص، وبهذا التعلق تواكبت دعوة إحياء العقائد الصحيحة من طريق امتلاك اللغة الفصيحة.

2-1-1-16- سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين: تحمل هذه الوثيقة قيمة تاريخية

عالية لحركة الإحياء العام في الجزائر بقلم أحد صانعيها، وثبتًا لمسارها منذ أن كانت فكرة إلى أن أصبحت واقعا قائما، كما تحمل قيمة فنية ولغوية لا تقل عن سابقتها "ولولا هذه المقدمة النفيسة، لخشنا أن نفقد حلقة تاريخية وفكرية لا تُعوّض بشيء في مسيرة الفكر الجزائري الحديث"² فبمناسبة عقد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لمؤتمرها العام الخامس في 16 جمادى الثانية 1354هـ - 15 سبتمبر 1935م أوكلت مهمة تقييد أعمال المؤتمر للشيخ الإبراهيمي، فقدم بين يدي التقارير والخطب والقوائد مقدمة قيمة المضمون، بينة اللغة، وافية المعنى، وفيها قيم حراك الإحياء قبل الإعلان عنه وبعد الإعلان، فأصل ونظر، جامعا بين التذكير والتقرير، وبين تصوير الحال وتسطير المسار، وبين مواقف الجمعية من الإحياء العام وموقعها فيه، بضبط المسافات بين مكونات المجتمع الجزائري الأخرى، ورسم خارطة طريق الإحياء بالإعلان عن القضايا الكبرى المحلية والإقليمية والعربية والإسلامية موضع الاهتمام، وطرائق العمل، فمن القضايا الجزائرية: مواقف الجمعية من الطرقية، ومن البدع والمنكرات ومن الإلحاد، ومن التبشير، وحظيت مسألة اللغة العربية بوصفها قضية كبرى بتناول المقدمة لها ضمن المقومات الأساس للجزائر، كما تناولت التقارير الملحقه قضاياها التفصيلية مثل: معضلة الأمية، والتعليم

¹ - مبارك الميلّي، رسالة الشرك ومظاهره، تح وتغ: أبي عبد الرحمن محمود، ط1. الرياض: 1422هـ-2001م، دار الرؤية للنشر والتوزيع، ص59.

² - عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر 1931-1954م، د ط. الجزائر: 1983م، ديوان المطبوعات الجامعية ص267.

العربي، والتعليم المسجدي، والتعليم المكتبي، ثم كان قسم الخطب والقوائد التي أُلقيت في ختام المؤتمر استحضارا للتعبير العربي العائد، وصقلا للمواهب الناشئة ودربة لها.

2-1-1-17- مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير: لئن عُدَّ هذا الأثر النفيس من آثار حركة الإحياء الديني والاجتماعي في الجزائر الحديثة، فإنَّ ذلك لا يُقصي الجانب اللغوي، إذ خرج هذا التفسير مدونة تطبيقية لدرس لغوي لافت، عمد به الإمام ابن باديس إلى آية لغوية يفكك بها الآيات المقصودة بالتفسير بدايةً من مكوناتها المعجمية، وصيغها الصرفية، مروراً بالبنى التركيبية ليلبغ المعنى، أو المعاني، ثم يفصل في ما تحمله من دلالات قريبة وبعيدة، ثم يعيد صياغة المبنى العام للآية صياغةً نثريةً من إنشائه، وبهذا السلوك اللغوي اللافت "لم يقتصر جهد الكاتب وإسهاماته في عملية إحياء التراث، وبعث حركة النهضة الفكرية والأدبية ونشر اللغة العربية على الجانب النظري فحسب؛ وإنما كان له -بالإضافة إلى ذلك- جهد عملي تجلّى في ما دبّجه يراعه من نتائج¹ وبهذا الشكل من التفسير عمل ابن باديس على المقاربة بين المستوى اللغوي للنص القرآني، وبين مستوى الاستعمال للمتلقين ما أمكن، ليكون ذلك سبيلاً إلى فهم مراد النص القرآني الكريم، وذلك ممّا كان له أثرٌ مباشر على الارتقاء بأساليب الكتابة العربية وخطاباتها في أوساط الحركة الإحيائية والبيئة القريبة منها.

2-1-1-18- مجالس التذكير من كلام البشير النذير: وهي مدونة لا تختلف عن سابقتها من حيث طريقة تناول الشرح، وتقريب المعاني، والعلم بالأحكام، فعلى نفس الخطوات مضى ابن باديس ينتقي من الأحاديث ما يُصلح بمضامينها جوانب الحياة الاجتماعية، ويُقيم ألفاظها وأساليبها طرق التعبير وكيفيات الأداء اللغوي السليم، فيتناول ألفاظها بالشرح والتعريف، ثم يختم ذلك ببيان الأحكام وتوجيه السلوك. لقد كانت (المجالس) بمدونتيها القرآنية والحديثية -إضافة إلى نفعهما الشرعي- درسا لغوياً تعليمياً تطبيقياً فاعلاً، قارب بهما الإمام ابن باديس المستوى اللغوي العربي في أرقى مستوياته.

2-1-1-19- التقاويم: ظهرت فكرة التقاويم في الجزائر بدايةً بتقويم "هدية الإخوان في موافقة التاريخين وتوقيعات الزمان، وفوائد متفرقة لها شأن" وقد أصدره محمد الصالح العنتر سنة 1847م بتشجيع استشرافي، ورعاية غرضها تمرير الثقافة الفرنسية إلى القارئ الجزائري، وتحت نفس الغرض أصدر محمود كحول سنة 1911م (التقويم الجزائري) وقد استمر ثلاث سنوات برعاية لويس بودي ويبدو

¹ - محمد بن سميّة، أسس مشروع النهضة عند الإمام عبد الحميد بن باديس، المضمون وصورة التعبير، د ط. الجزائر: د ت منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، ج2، ص263.

التوجيه الفرنسي، في اختيار المواضيع والصُور ظاهراً من خلال الأعداد الثلاثة التي صدرت كلها في عهد شارل جونا، وتوقفت سنة 1913م بنهاية عهده. ونظراً لما عليه فكرة التقويم من بعد ثقافي ومعرفي وقومي، فقد عرفت حركة الإحياء تقويمين لافتين، هما:

• **تقويم المنصور:** أصدر أحمد توفيق المدني أجزاءه الأربعة الأولى في تونس 1922م، 1923م 1924م، وعرض فيه لقضايا الأدب والفنون والتاريخ والجغرافيا والسياسة وإحصاءات عامة، وأحداث متنوعة، وبعد نفيه من تونس سنة 1925م، أصدر في الجزائر الجزء (04) سنة 1926م، و(05) سنة 1929م، وكان هذا التقويم موسوعة في العلوم والجغرافيا والآداب والتاريخ والسياسة والحوادث والتراجم اشتركت في إخراجه أعلام مثقفة راقية، فخرج عزيز المادّة، منوع المواضيع والقضايا، وقد أخضعها المدني لتبويب محكم دقيق.

• **تقويم الأخلاق:** لمحمد العابد الجلاّلي، ظهر سنة 1927م، وطبعه في المطبعة الجزائرية الإسلامية بقسنطينة، ويقع في 179 صفحة. وقد جعل شعاره مقولة الخليفة أبي بكر الصديق: (أدُن من الموت تُوهب لك الحياة) حاثاً الشباب على الإقدام والنشاط، وعدم الخوف من المستعمرين. كان الجلاّلي يعتزم إصدار التقويم سنوياً، يضمّنه فوائد متنوعة، وأولى اهتماماً أكبر للأخلاق وبها سمى التقويم، مؤملاً أن يجعله مرآة للوطن، ومن خلال هذا فإنّ هذا التقويم لم يؤلّف لأغراضٍ نفعيّة وإنّما لغرضٍ وطني يدفع حركة الإحياء خطوات إلى الأمام، وهو في كلّ ذلك حريص على أنّ "الجزائر لها خصوصيّة... وأن يكون تقويم كلّ بلادٍ صورة صادقة لحياتها"¹ ولكنّ الجلاّلي لم يقدر على ما كان يؤمّله، فاقتصر على ما صدر.

3- المساجد الحرّة والزوايا

المؤسسة الدينيّة في خدمة الإحياء

من مظاهر الإحياء التي قد لا يكون من المغالاة القول بأنّها خصيصة جزائريّة لم يشترك معها فيها أيّ بلدٍ عربيٍّ أو إسلاميٍّ آخر، هي ظاهرة إعادة بناء الجزائريين لمؤسساتهم الدينيّة والتعليميّة التي صادرتها الاحتلال أو هدمها، أو حولها لغير وجهتها، إذ لم يجد رُواد الإحياء سبيلاً لاسترجاع هذه المؤسسات إلا انتداب الأمة إلى إعادة بناء النسيج المسجدي والتعليمي من جديد، على قلة ذات اليد

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، ص298.

وتضييق الاحتلال، وألحقت لفظة (الحرّة) بحركة البناء هذه، تمييزاً لها عن المؤسسات التي استبقاها الاحتلال لوصايته، وجعل عليها من رضي عنه وعن خدماته.

أطلّ العقد (04) من القرن (20) على الجزائريين وقد استوت لهم حركة علميّة ودعويّة بأبعاد ثقافيّة واجتماعيّة أخذت مشاريعها في التّشكّل، وآلياتها في العمل والنّشاط، وكان من بين ما استهدفته حركة الإحياء، استغلال المساجد لنشر الفكر الإحيائيّ، وفي ذلك استرجاع دور المسجد ورسالته.

ويرجع مشروع الإقبال على المساجد في واقع الأمر إلى السّنة التي أحيا فيها الاحتلال ذكره المؤنّيّة، وإثر انتشار عبارة أحد أقطابه (إنّما لتمشوا معنا في جنازة الإسلام بالجزائر) وهي العبارة التي وظّفها دعاة الإحياء لإلهاب مشاعر الجزائريين حيال بناء المساجد، فاندفعت الجماعات من الجزائريين في أخريات تلك السّنة إلى تشييد المساجد في القرى الاستعماريّة الصّميّة، التي لم تكن فيها إلّا الكنائس الضّخمة، وليس فيها من المسلمين إلّا الطّبقات العاملة عند المعمرين¹ فانتعشت الحركة الدّعويّة والتّعليميّة بها في إطار نشاط جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين المعتمدة في ماي 1931م، وأمّ العشرات من الوعّاظ والشيوخ المساجد، وما لبثت عيون الاحتلال أن استشعرت ثمرات هذا الحراك واستشرفت نتائجها التي ستكون وبالا على مخططاته، فأصدرت سلطاتها القرار الشّهير بقرار (ميشال/ Michal) في شوال 1351هـ-16 فيفري 1933م، والقاضي بمنع شيوخ وعلماء الحركة الإحيائيّة من التّعليم وإلقاء دروس الوعظ والإرشاد في المساجد، معتبرة أنّ إدارة شأن هذه المساجد من اختصاصها ولها وحدها حقّ تعيين من يقوم بهذه النّشاطات فيها.

استقبل الشّعب الجزائري وتنظيماته المختلفة هذا القرار بالشّجب والاستنكار، باعتبار أنّ سلطة الاحتلال سلطة لائكيّة لا تتدخّل في شؤون الدّيانة المسيحيّة، ولا اليهوديّة، فكيف يعامل الشّأن الإسلاميّ بهذا الاستثناء؟ ومع الصّلف والجبروت الذي قابلت به سلطات الاحتلال الكثير من احتجاجات ومطالبات الجزائريين، وما بلغ الجزائريين من اليقين بعزم الاحتلال على استمرار سريان المنع الصّادر؛ فقد تحوّلوا إلى رفع تحدّي آخر، هو الاستمرار في بناء المنظومة المسجديّة المنهوبة من قبل الاحتلال عبر عقود وانطلقت عبر جهات القطر حركة بناء مساجد حرصت على تصنيفها بوصف (مساجد حرّة).

¹ - محمّد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج5، ص146.

لقد كان انخراط الجزائريين في إعادة بناء منظومة مسجدية حرة مغامرة لها تبعاتها، فهي تكلفة مادية وعبة مالي إضافية، ومسؤولية تأطير وتسيير بعد الإنجاز، وقد تحملتها حركة الإحياء معتبرة إيّاها الحلّ الوحيد الممكن الذي تتخلّص به الحركة الإحيائية من مضايقات جبهتين اثنتين هما:

- جبهة الموظفين الرسميين الذين كان منهم من يعادي الإحياء وأهله، ومنهم من كان لزاما عليه معاداته.

- جبهة الاحتلال التي كان بيدها سلطة المنع والإجازة، ولم تجد حركة الإحياء أفضل من سبيل مسالمة الخصوم، وموادعة المتربّسين بها منهم، حفاظا على هدوء توظيفه في الاشتغال بالبناء الفكري والمعرفي للمجتمع.

3-1- دور المؤسسة الدينية في الإحياء اللغوي: إنّ ظاهرة بناء المساجد الحرة التي عُدّت لبنة من لبنات الإحياء في الجزائر الحديثة؛ وقد رُفعت بسواعد الجزائريين وأموالهم، قد أنشأت في كنفها جمعية العلماء وحدها "نحو سبعين مسجداً في المدن والقرى، وعمرتها بالأئمة الصالحين والمدرّسين النّافعين"¹ وهم الذين خرجوا من رحم حركة الإحياء نفسها، فجاء نشاط المساجد الدّعوي والإحيائي والتربوي مساوقا لعناصر ومكونات حركة الإحياء العامة، وكان حظ اللغة العربية فيها مكيّنا بما كان عليه القائمون على المساجد من أصالة التكوين، رغم بساطته الظاهرة، واصطبغ به بصبغة وطنية عربية وإسلامية غامرة.

لقد كانت هذه المساجد جزءا من نشاط مجتمع أخذ في التشكّل على نسق يُشاهد فيه الإصرار على الاختيار، والاستعداد على البذل والعطاء، وهو ما يعكس -من وجه آخر- مستوى الوعي الذي بلغته حركة الإحياء على جبهاتها كلّها، وما تبوّأت جبهة خدمة اللغة العربية، وإعادة حضورها إلى مؤسساتها الطبيعية، فهذه المساجد وإن سبق إلى الأذهان أنّها أماكن للعبادة وإقامة الشعائر الإسلامية، فإنّ بها تعليمًا منذ 1913م، سبق إعلان حركة الإحياء عن نفسها بداية ثلاثينيات القرن (20) وهو تعليم "تلتزم فيه كتبٌ مُعيّنة في العلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه وأصول وأخلاق. والعلوم الإنسانية من قواعد ولغة وأدب، والعلوم الخادمة للدين من تاريخ وحساب وغيرهما"² فأضحت المساجد -بعد هذا كلّ- مدارس شعبية عامّة، وفضاء مفتوحا لاستعراض مختلف المعارف والمواظ والدروس والخطابة بلسان

¹ - محمّد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج4، ص255.

² - محمّد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج1، ص192.

عربيّ مبين، وأماكن مفضّلة لتلقّي المعارف الدّينية والعلوم اللّسانية، كما كان شأنها منذ غابر عصورها وذلك سبب كافٍ لتحريم الاحتلال ارتيادها على رواد الإحياء.

ولئن كان مشروعُ تبنّي حركة الإحياء لظاهرة المساجد الحرّة بناءً وتسييراً وتأطيراً في ظاهره وسيلةً لحماية معالم الدّين من العبث الفرنسيّ، ودعوة إلى الدّين الصّحيح المُجانب لبِدع الطّرقية وضلالاتها؛ فقد كانت من وجه آخر قلاعاً شعبيّةً استعاد فيه عمومُ الجزائريّين رنين الحرف العربيّ، وموسيقاه الأصيلّة، وهي تعبّر عن تعاليم الدّين الصّحيحة ومفاهيمه القويمة.

لقد وضعت حركة الإحياء منذ أوّل وهلةٍ منهجاً لهذا الشّكل من التّعليم، فكان أسلوبها "في التّعليم الدّينيّ في المساجد على إطلاقه العناية بالمعنى، والنّفوذ إلى صميمه من أقرب طريقٍ يؤدّي إليه وتجليّته للسّامعين بالصّور العمليّة التّطبيقيّة، والإعراض عن اللّفظيّات والخلافات، وكلّ ما يُشوّش أو يبعد عن تصوّر المعنى المقصود"¹ فأعاد هذا الخطابُ المسجديّ الحرّ شيئاً فشيئاً إلى العربيّة روحها بما كان يُلقى من دروس حيّة في مختلف علوم اللّغة، وارتقى الخطاب اللّغويّ فتخلّص شيئاً فشيئاً ممّا تعلّق به من سمات عصر الانحطاط إلى حدود نهاية القرن (19) وبدأت تتسرّب إليه في هدوء أساليب عصر النّهضة وألفاظها، وصورها ومعانيها، وطرائق صياغتها وانتقاء مواضيعها، ولمّا كان القائمون على هذه المساجد من الجيل الجديد، خرّيج مدارس الإحياء، فقد تخلّص الخطابُ المسجديّ الحرّ على أيديهم من مظاهر الصّنع والزّخرف اللّفظيّ، وضحالة المعاني وقِدَمها، وصار خطاباً معاصراً مباشراً هادفاً ذا لغةٍ سليمةٍ سهلةٍ، وألفاظٍ معاصرةٍ متداوِلةٍ وما كاد العقد (04) من القرن (20) ينصرم، حتّى كانت ظاهرة المساجد الحرّة قد غشيت القطر الجزائريّ كلّهُ، ومعها تغطّشت الجزائرُ صحوةً لغويّةً مسجديّةً شعبيّةً قاومت في صمتٍ وصبرٍ حركة الاحتلال لنشر العاميّة والفرنسيّة وترسيمهما الواقعيّ في الحياة العامّة للجزائريّين.

لقد كان ابنُ باديس يعقد لطلّبه في نهاية كلّ موسمٍ دراسيّ لقاءً، يوصيهم فيه أن استغلّوا العطلة الصّيفيّة في الدّعوة الهادئة بالحسنى، و"أخدموا العلم بتعلّمه ونشره، وتحملوا كلّ بلاء ومشقّة في سبيله وليهنّ عليكم كلّ عزيز، ولتهنّ عليكم أرواحكم من أجله. أمّا الأمور الحكوميّة وما يتّصل بها فدعوها

¹ - محمّد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج1، ص192.

لأهلها، وإياكم أن تتعرضوا لها بشيء¹ وإذا ما علمنا أنه استوى لجمعية العلماء المسلمين وحدها نحو (200) إمام وداعية وواعظ طوافين على مساجد القطر في المناسبات وفي غيرها؛ نقف على ما تركه الإحياء المسجدي من أثر على حركة الإحياء العامة، ولننظر -على الجهة المقابلة- إلى رد فعل الاحتلال وإجراءاته ومقدار قسوتها، وموقفها من هذا النشاط التعليمي فذلك من أدق المؤشرات على مدى الاتساع والفعالية والنجاح.

3-2- دور الزوايا في حركة الإحياء اللغوي في الجزائر: قد يبدو هذا العنوان على درجة من الغرابة التي تستحضرها الصورة النمطية الحاملة للصراع الشهير بين الحركة الإصلاحية والجهة الطرقية، وهي الجهة التي اتخذت من الزوايا المنتشرة في كل جهات القطر الجزائري ملاذا انتشرت منها دعواتها وعرفت فيها طرُفها الصوفية المختلفة، ولئن عرفت الساحة الجزائرية طوال العقدَيْن الثالث والرابع أعنف نزال فكري ولفظي بين الفريقين؛ فإنَّ الجهة الإصلاحية بقيادة جمعية العلماء ورؤادها، قد فصلت في علاقتها بالزوايا بوضوح، فوقفت من الزوايا والطرق التي اشتهر أمر ولائها للاحتلال، وناصب الجزائريين العداء موقف البيان والمجادلة في البداية، ثم تصاعدت المواقف بين الجبهتين، وبلغ أشده بإعلان انفصال جمعية علماء السنة عن الجمعية الأصل سنة 1932م، واستمرَّ النزال عنيفا تُغذيه أصابع الاحتلال الظاهرة والخفية، وحقيقة هذا الصراع معروفة الفصول، مشهورة الأحداث، لكنَّ الذي يهمُّ الأطروحة ممَّا قد يكون قد غطَّى عليه هذا الصراع، هو علاقة الحركة الإحيائية بالزوايا العلمية، والتي كانت "بتعاليمها القرآنية حصنا للشخصية الوطنية ومدرسة حافظت -قدر الإمكان- على قيم الشعب الجزائري وأفكاره وأصالته، وقاومت الوجود الاستعماري بتعليمها العربي الإسلامي، رغم غلبة الدروشة على بعضها ومهادنتها للاستعمار²" ومن هذه الزوايا ما عُرف عنها مظاهر من التصوف السيِّي، وقامت على تحفيظ القرآن الكريم، والمحافظة على كثير من العلوم اللسانية والشرعية إرثا عن الفترة السابقة للاحتلال بكثير.

لقد وقف جناح واسع من حركة الإحياء يتصدَّره الإمام ابن باديس إزاء هذه الزوايا موقف المسالمة والتعاون، كما وقف شيوخها وطلبتها من الحركة الإحيائية -بعد ظهور وجهتها- موقف المتعاطف

¹ عبد الحميد ابن باديس، آثار ابن باديس، تح: عمار طالبي، ط1. الجزائر: 1388هـ - 1968، دار ومكتبة الشركة الجزائرية ج3، ص223.

² صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية بالجزائر تاريخها ونشاطها، د ط. بيروت: 2002م، دار البراق، ج2، ص299.

والمعاون والمنخرط، ولا عجب أن نجد عددا كبيرا من أعلام الزوايا شيوخا وطلبة أعضاء إداريين، أو عاملين ضمن إطار حركة الإحياء، والشيخ الإبراهيمي نفسه كان قد درس بزوايا شلاطة، وسمع من شيخها محمد بن بلقاسم البوجليلي، وكان يُثني عليه وعلى علمه، وكثير من الطلبة الذين تحولوا إلى الزيتونة، والتحقوا بالحركة الإحيائية بعد تخرجهم فيها، كانت قواعدهم العلمية زوايا جزائرية اشتهرت بتحفيظ القرآن وعلومه كالقراءات والتفسير، وما يرافق ذلك عادة من العلوم اللسانية كالنحو والصرف والبلاغة، ومثل هذه الزوايا التي كانت منتشرة بمنطقة زاوية، والجنوب خاصة كانت رصيدا التفتت إليه حركة الإحياء، فطالته دعوات الإصلاح، من ذلك دعوة أبي يعلى الزواوي لإصلاح التعليم في زوايا بلاد زاوية، ومنها زاوية الشيخ محمد بن بلقاسم الهامل، التي "كثيرا ما كان عبد الحميد بن باديس يتردد عليها ويجتمع بعلمائها وطلبتها"¹ ومن الأعلام من ساند حركة الإحياء العلمي من مواقعهم في الزوايا ومنهم من التحق بها مؤتمرا بأمر رؤاها في الالتحاق بشغور التعليم، أو الإشراف على مؤسساته، وأمثال هؤلاء يضيق بذكرهم المكان، ولعل ذكر أمثال الشيخ أرزقي الشرفاوي (1883-1945م) بزوايا سيدي عبد الرحمن اللؤلؤي، أو الشيخ أبي القاسم بن حلوش (1881-1949م) بزوايته بمستغانم، يغني عن كثير، بل إن الشيخ "عبد العزيز الهاشمي الذي انتهت إليه مشيخة الزاوية القادرية بعد وفاة أبيه الشيخ الهاشمي، قد شعر منذ دخوله في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بضرورة قيامه بنشر العلم والتأهيب في المسلمين"² وإذا ذكر أعلام الإصلاح المنتسبون إلى حركة الإحياء في سنّ الشباب، وجد الكثير منهم قد انتسب إلى هذه الزوايا، وأخذ مبادئ العلوم الأولى فيها وهو الأمر الذي بقيت حركة الإحياء مراعية له، مستغلة قاعدته التاريخية والبشرية الكبيرة، من دون أن تتردد في الدعوة إلى إصلاح مناهجها وترقية المستوى العلمي بها، وباستثناء الطرق والزوايا التي أعلنت ولاءها للاستعمار، فإن "كلا من جمعية العلماء المسلمين والطرق الصوفية من المؤسسات العلمية والثقافية والإصلاحية الجزائرية التي ساهمت في المحافظة على الهوية الجزائرية بأبعادها المختلفة"³ وبذلك تحولت العديد من الزوايا إلى مرافق خدمت الإحياء بما عرف فيها من تلقين وطعمت صفوف حركة الإحياء بعشرات الأعلام والعاملين.

¹ - محمد الحسن فضلاء، من أعلام الإصلاح في الجزائر، د ط. الجزائر: د ت، دار هومة، ج 1، ص 54.

² - محمد الحسن فضلاء، من أعلام الإصلاح في الجزائر، ج 2، ص 19.

³ - نور الدين أبو لحية، جمعية العلماء المسلمين والطرق الصوفية وتاريخ العلاقة بينهما، ط 1. الجزائر: 2015م، دار علي بن زيد للطباعة والنشر، ج 3، ص 377.

الفصل الثَّاني:

مقارباتٌ في مشاهد ومعالَم حركة الإحياء
اللُّغويّ في الجزائر

الفصل الثاني

مقاربات في مشاهد ومعالم حركة الإحياء اللغوي في الجزائر

أولاً: مقاربات مشاهد التكوين

1- خصوصية الحراك وخصوصية المصطلح: اقترحت الأطروحة وصف الجهود التي رافقت عناصر مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر بدايةً من القرن (20) بمصطلح تابع هو (الإحيائي) تمييزاً له عن مصطلح (الحز) بمشتقاته السائد خلال المرحلة، ولازمت التسمية المقترحة نشاطات حراك الإحياء من (التعليم الإحيائي) و(النشاط الإحيائي) و(الصحافة الإحيائية)... إلخ، ذلك أن مصطلح (التعليم الحز) قد اختصت به جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أكثر من غيرها، حتى عرفت به وعرف بها وأردفت وصف (الحز) بكل نشاطاتها ومنجزاتها تمييزاً لها عن النشاطات المماثلة لها مما يشرف عليه الاحتلال، فمساجد الجمعية مساجد حرة، وأئمتها أحرار، ومدارس الجمعية مدارس حرة، ومعلموها أحرار. ولئن رجع الفضل الكبير من نشاط الإحياء إلى جمعية العلماء، فإن الأطروحة تحيل على كل الجهود التي انصبّت على دفع مشروع الإحياء اللغوي، من الجمعيات الأهلية، والحركات السياسية والزوايا العلمية والأفراد، وكل ذلك وأولئك كان له إسهام على اختلاف ظاهر في رفع روائز المشروع. وعندئذ؛ لا يمكن أن يُصادر جهد جهات أخرى بجزيرة المصطلح، وتوظيف مصطلح غلبت عليه النسبة إلى جهة معلومة، وإن كانت بها حقيقة، وعندئذ فإن الأنسب أن يُطلق مصطلح (الإحياء) وصفاً ملازماً لكل نشاط كانت وجهته إعادة اللغة العربية إلى الحياة في الجزائر.

لعل الاستعراض السابق لمشاهد الإحياء يسمح بإطلاق الحكم بوجود مشروع لحركة الإحياء اللغوي في الجزائر، كما قد يسمح بعد ذلك بإطلاق أحكام على درجة من الخصوصية والتفرد اللذين قد لا يمكن معهما إنكار وجود حركة إحيائية، أو الاستخفاف بخصوصيتها فتدرج حلقة ضمن حراك الإحياء العربي العام في العصر الحديث، واعتبارها امتداداً له، ولعل تناول خصائص مشاهد الإحياء التأسيسية منها واللاحقة، سيُجلي تفرد هذا المشروع في جوانب كثيرة، وستبرزها جملة العناصر والظروف التي قد لا يمكن عزلها عن مثيلاتها في الوطن العربي من حيث تحديد العناصر وتعيينها، ولكن خصوصية الحالة الجزائرية ستجعل من حركة الإحياء اللغوي فيها خاصّة بالتبع.

2- خصائص المشاهد التأسيسية لحركة الإحياء: قد يكون إطلاق حكم الخصوصية والتفرد هذا

على حركة الإحياء في الجزائر مستعجلاً، فيقترح أن يكون في موضع النتيجة لا مقدمة، ولكن هذه الخصوصية قد أثبتتها صفحات الفصل السابق نتيجةً، بينما ستحاول هذه الصفحات إثبات تفاصيل ومجال الخصوصية عبر مقاربات لا تبتعد عن عناصر الإحياء المشرقية في الوجود كالجهود التعليمية وحراك النوادي والجمعيات، والنّاتج الصحفي وأثره، وحركة التأليف، والنّاتج الأدبي كمّا ونوعاً، وما يتبع ذلك من المشاهد المرافقة، ولكنها ستتابع مواضع تلك الخصوصية وذلك التفرد.

2-1- معلمة الإحياء اللغوي: يلتقي الحديث عن أعلام الإحياء اللغوي في الجزائر بالحديث عن

أعمالهم وجهودهم، وهل الرجال إلا بأعمالها؟ غير أن الحديث عن تراجم الإحياء اللغوي في الجزائر يختلف عن مباحث التراجم في غير هذا الموضع، ذلك أن تناول أعلام الإحياء هنا، هو ركن من أركان الدراسة، وأساس من أسسها، فهو ليس تناوُلًا يأخذ شكل فهرس ملحق بعمل، أو سرد أسماء أعلام أكثر دوراناً أسمائهم فيه، وهو ما جعل تناول مبحث معلمة الإحياء اللغوي في الجزائر تجتمع فيه ضرورتان على الأقل:

أ- إن افتراض قيام حركة الإحياء اللغوي في جزائر القرن (20) الذي تسعى الأطروحة في إثباته يطرح تساؤلاً حول طبيعة جهود أقطاب هذه الحركة ووجهتها، وهل هو جهد ولد حركة الإحياء أم ولدته؟ وهل تُعرف حركة الإحياء بهؤلاء، أم هم الذين يُعرفون بها؟

ب- إن صمود الوضع الجزائري بخصوصياته أمام رغبة الاحتلال في محو عناصر الكيان الجزائري كليها، قد غمر كمّاً هائلاً من الأعمال الإبداعية في تخصصات كثيرة، وغمرت معه الأسماء الصّانعة لها، وجهد الأطروحة في استعراض السلسلة البشرية التي صنعت حدث الإحياء، هو دليل إثبات وجود الحركة، وما استعراض المَعْلَمَة إلا مشهد عملي من مشاهد الإثبات.

2-1-1- موقع المعلمة من حراك الإحياء اللغوي في الجزائر: قد يكون من أسلم طرائق عرض

أشهر أعلام الإحياء اللغوي في الجزائر هو اعتماد طريقة الطبقات، التي تورث فيها كل طبقة منجزها ولو من غير تصريح، باعتبارها الطريقة الكفيلة بإظهار الحركة الإحيائية بين يدي أعلامها، إذ ليس المقصود تجميع ترجمات الإحيائيين، ورصد أعمالهم في انتظار الحكم عليها، بقدر ما هو إدراج لجهد هؤلاء في سياق تاريخي متتابع، وعمل تشاركي واعٍ، لتتحول هذه المَعْلَمَة مشهداً آخر من مشاهد الإحياء فيُنظر بعدها لكل علم من الأعلام على أنه حلقة في سلسلة التزمّت اختياراً بالاشتراك في تأسيس حركة

الإحياء، وضحت في سبيل استوائها وتمكّنها، ثمّ شهود بلوغها وظهورها على خصومها، وتجاوز عقبات المسار بأنواعها، فلقد تقارض الأعلام الأدوار، وسلّم الأعلّم والأسنّ لمن بعده الوصيّة باستكمال المسار وحراسة المنجز، وإضافة الأحسن والأجود.

وقد يكون تقسيم معلمة الإحياء إلى طبقات ثلاث كافياً في إبراز أطوار هذا المشروع نشأة وتطوراً واستواء، على اعتبار أنّ المراحل الثلاث كافية لتأسيس غالب المشاريع الفكرية، على اختلاف في أمد كلّ مرحلة وظروفه، وأمّا ما بعد هذه المراحل؛ فإنّ طبيعة الوضع التاريخي والسياسي والاجتماعي الذي مرّت به الجزائر من خلال ثورتها التحريرية، بداية من النصف الثاني من القرن (20) قد أخذ الإحياء اللغوي بسببه أشكالاً أخرى، فرضتها طبيعة المرحلة ونوازله.

2-1-2- ظروف ظهور معلمة الإحياء: يذهب كثير من الدارسين للتاريخ الجزائري الحديث إلى أنّ التحوّلات الكبرى في الجزائر الحديثة كانت بعد الحرب العالمية الأولى، وقد كان ذلك ضمن سياقٍ دولي وإقليمي ومحليّ متسارع، وهي الفترة التي عادت فيها طلائع النخبة المثقفة في رحاب الزيتونة والأزهر والحجاز وبلاد الشام إلى بلدها، ورغم اختلاف منازع تفكيرها لتعدّد مدارسها، إلّا أنّ جامعها كان الإحساسُ بوجوب الارتقاء بالنّهضة الجزائرية الوليدة، والخروج بها من تشعبات ما بعد الحرب. فعلى الصعيد السياسي كانت أحداث الحرب التي شارك فيها الجزائريون غنوة مدرسةً عمليةً اطّلع النّاجون منها على مستجدّات الحياة العالمية بتيّاراتها الفكرية والسياسية، ومنازعها الاجتماعية والاقتصادية، وقد "فهم الجزائريون بأنّ الدّفاع عن المبادئ الإنسانية والديمقراطية، لم يكن هو الهدف من الحرب كما أعلنت الدعاية الفرنسية¹" وقد أسهم ذلك في تنوير الجزائريين بحقيقة كثير من القضايا ورأوا أنّ لهم على فرنسا منّة لن يتردّدوا في رفع سقف مطالبهم إزاءها، وبناءً على ذلك، فقد كان من صميم مطالبات الشخصيات العمومية، والحركات السياسية النّاشطة، احترام مقام المقومات الدينية واللغوية للأمة.

غير أنّ الانفتاح الذي كان في ظاهره بشائر صحوة لغوية وفكرية عامّة؛ لم يكن خالصاً للغة العربية، ولا للمقومات الوطنية، فقد كان جواً انتعش فيه كلّ شيء، فالجبهة السياسية أعلنت عن نفسها في شكل حراكٍ سياسي يتصدّره الأمير خالد، وسيظهر بعده مصالي الحاج، وفرحات عباس، وابن جلول

¹-Aboul- Kassem Saadallah, La Montée du Nationalisme en Algérie, Tlemcen: 2011 alemlmaarifa, p 217.

وابن التهامي وغيرهم، وقد سمحت ظروف ما بعد الحرب بظهور أسماء جديدة تطعمت بها تشكيلة الحركة الثقافية الوطنية بعد الحرب، فظهرت أسماء، وابن باديس، ومحمد البشير الإبراهيمي، والعربي التبسي، والطيب العقبي، ورمضان حمّود، ومبارك جلاوح، وأبو اليقظان وإسحاق بن محمد إبراهيم اطفيش، ومن تلاميذهم ومريديهم قائمة طويلة، تحمل كل من موقعه جانباً من جوانب الإحياء المختلفة لكنّ الجدير بالذكر هنا أنّ التقسيم الذين ناضل الاحتلال لتثبيته، والذي نشأ قبل الحرب؛ ممثلاً في نخبة المحافظين (العلماء) والنخبة المفرنسة؛ قد أصبح ثلاثياً، فقد انشطرت فيه كتلة الجزائريين المسلمين إلى (إصلاحيين) و(محافظين) ولكل وجهة هو مولّياها.

وما يهمنا من إيراد هذا التشطير للجهة الجزائرية هو متابعة الآثار الاجتماعية التي خلفتها الصراعات الإيديولوجية، ورعاها الاحتلال، وما سيكون من آثارها من تضاعف الجهد المبذول إثر تشتت المساعي في الإصلاح، ومع أفكار هؤلاء ورؤاهم، تنشطى الجهة السياسية والثقافية الجزائرية بين الدعوة إلى المساواة، والدعوة إلى الاندماج والتجنيس سياسياً، وعلى الجهة الدينية والفكرية ينقسم الحراك الجزائري إلى نخبة إصلاحية، ونخبة من شيوخ الطرق والزوايا، وسيكون البعد اللغوي في صميم هذا المعترك.

وهكذا تتصدّر المشهد الفكري والثقافي الجزائري إزاء اللغة العربية نُخبَتان عُرف عن الأولى تكوين مشرقى طبع فكر أعلامها، وقد أظهروا محاولة الجمع بين معارف تقليدية أصيلة، وأفكار معاصرة ويتحوّلوا بعد سنوات قليلة رواد الحركة الإصلاحية في الجزائر الحديثة، وأمّا الثانية فنخبة من شيوخ الطرق الصوفية، آثرت مواقعها القديمة الموروثة، وفصلت مهادنة الاحتلال استبقاءً لمنافعها ومواقعها وعدم التفرّيط في نفوذها باسم الدين - على قطاع شعبي واسع ومثّل هؤلاء: أحمد بن مصطفى بن عليوة، الذي وقعت زاويته "ضدّ الاندماج وأنصاره، وضدّ التجنيس، ودافعت بشدّة عن اللغة العربية"¹ ولكنه عارض الحركة الإصلاحية في وجهتها الدينية، وأحمد التيجاني المتزوج بالفرنسية أوريلي 1871م إلى وفاتها سنة 1933م، وحمزة بن بو بكر، آغا جبل عمور المتزوج هو الآخر بالأنسة (فيري / Feret) وكذلك تزوّج محمد الشرقي العطافي (تلميذ الشيخ الموسوم وعدّة بن غلام الله وصاحب زاوية العطاف) من امرأة فرنسية، كما أنّ ابن الشيخ البودالي الهبري تزوّج من امرأة فرنسية² ولقد انعكست آثار هذه

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، ص127.

² - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، ص312.

العلاقات المشبوهة بين أعلام الطرق الصوفية هؤلاء والفرنسيين، على العلاقة بين هذه الطرق والزوايا التي يمثلونها، ومكونات الحركة الإصلاحية، والمجتمع الجزائري كله.

ولئن كان الصراع بين هاتين الواجهتين على الصعيد الفكري والثقافي على أشده؛ فإن شيئا من الاتفاق كان يجمعهما حول البعد اللغوي، فبينما أقام الإصلاحيون للغة العربية صرحا منيفا بجوار الدين الصحيح الخالي من الخرافات والبدع، وأن تُفعل بها ميادين الحياة، وتُدرس بها العلوم العصرية وتنزل إلى الحياة العامة؛ فإن عامة الطرقيين قد رضوا من خدمة اللغة العربية والدفاع عنها، بأن لا يكونوا من المناوئين لها، ولا من المعارضين لرقيتها، ولا يتخلّوا عن الدعوة إلى التعليم العربي، انطلاقا من كونها لغة القرآن الكريم، ووسيلة أداء العبادات والأوراد في المناسبات الدينية، ولسان الكتابة والتأليف، وإن لم تكن مطالبهم حول اللغة العربية في أعلى سقف مطالبهم.

كان ذلك وصفا عاما لمجمل الاتجاهات التي كانت عليه معلمة زمن الإحياء، والتي سيكون للإحيائيين وظيفة العمل على جبهتين: حاولوا في إحداها الدفع بمشروع الإحياء ليستمر ولا ينكسر وعملوا في ثانيتهما على صدّ الضربات المؤلمة التي كان يوجهها لهم خصومهم من بني عموماتهم، وإن شئت قلت: كان يوجهها لهم الاحتلال بأيدي بني عموماتهم.

2-1-3- معلمة الإحياء اللغوي في الجزائر، الإعداد والوجهة: يُعدّ رصد طبيعة نخبة هذه الفترة

من حيث نمط تكوينها ومستواه ومساره ووجهته ضرورياً لسبر فعالية الجهود المبذولة، وتقسيمها في ظلّ المضايقات المتتابة، والعوائق المفتعلة، ولقد عرفت بداية القرن (20) تصدّر المشهد الفكري والثقافي اللغوي الجزائري من قبل تكتل ثنائي، كان محصلة الجهد الاستشراقي الفرنسي طيلة (70) سنة التي أعقبت الاحتلال، فبعد انحسار دور علماء الفترة الأولى للاحتلال من الوطنيين الجزائريين بالوفاة أو الهجرة أو الشيخوخة؛ أطلّ القرن (20) على الجزائر بفصيلين ممن حصلوا نصيبا من العلم في مستواه العالي والمتخصص، ولقد كانت اللغة من أهم أسس هذا التقسيم، وفيه احتفظ بمصطلح (العلماء) لفئة من الجزائريين المحافظين الذين أبقت جهودهم على رمق الحياة في جسد اللغة العربية المنهك، ومثل هذا الفصيل: عبد القادر المجاوي، محمد الصالح بن مهنا، عبد الحليم بن سماية، ومحمد بن أبي شنب، وأبو القاسم الحفناوي، وعاشور الخنقي، وحمدان لونيسي، وأمثالهم، والذين كانوا رؤاد الفترة الأخيرة من القرن (19) وسيكون تلاميذهم رصيد الفترة القادمة المعنية.

وعلى الجبهة الأخرى أفرزت مدرسة الاحتلال برعاية استشرافية مُضنيّة نموذجاً جزائريّ الأصل فرنسيّ الفكر واللغة والولاء، أطلق عليه مصطلح (النُخبَة) من أمثال: عبد السلام بن شعيب، الذي مع إجادته للعربيّة كان داعية اندماج، والطّيب مُرسلي، وأحمد بن بريهمات، وأحمد بوضربة، وسعيد بوليفة وبلقاسم بن سديرة -وهما تلميذا رينيه باصيه- وإسماعيل حامد، وبلقاسم بن التّهامي، والشريف بن حبيلس، ومع أنّ الاحتلال كان يُمهد الطّريق لهؤلاء صانعا لهم أرضيّة الأنّتلجانسيا (Intelligentsia) الجزائريّة، وريادة الحياة الفكرية والثّقافيّة واللّغويّة في الجزائر؛ إلّا أنّ حضور (العلماء) كان الأكثر حظوةً لدى العامّة على أُمّيتها، وهكذا كانت بداية التّحوّل وإرهاصاته رهينة باختلاف الصّفوة الجزائريّة وانقسامها، وهو ما سيّتحوّل في ما بعد إلى موقفٍ من أبرز مشاهدّه، ضرورة اختيار مسار العمل من خلال القنوات الفكرية والإيديولوجيّة المناسبة.

وبينما جمع العلماء وعامّة الشعب خندق المقوّمات العقديّة والتّاريخيّة والجغرافيّة العربيّة الإسلاميّة على المحور التّقليديّ (مشرق - مغرب) فضّلت النّخبَة الوليدة خندق الفرّسة والتّغريب والاحتكام إلى محور (شمال - جنوب).

إنّ من العقبات التي عانى منها التّيّار المحافظ، هو تنوّع المنازع الفكرية بسبب تعدّد المشارب التّعليميّة لعناصره، بينما توحد -إلى حدّ بعيدٍ- عنصر النّخبَة الجزائريّة المفرنسة لغةً ومنهجاً، فقد كان محكوماً بالفكر الاستشراقيّ الذي لا يسمح فيه لهؤلاء بالابتعاد كثيراً عمّا سَطّر لهم، أمّا النّخبَة المحافظة فقد كانت مزيجاً يعكس نماذج مختلفة من التّكوين والرّؤى، فرغم غطاء المحافظة العامّ الذي كان يجمعهم؛ فإنّ منهم من كان أزهرياً أو زيتونياً، ومنهم خريج القرويين ومنهم خريج الرّوايا الجزائريّة، فمن خريجيّ الرّوايا مثلاً: محمّد بن بلقاسم الهاملي، علي بن عمر الطّولقي، ومحمّد الميسوم، وغيرهم، ومن خريجي المدارس الحكوميّة ابن الموهوب، ومن كان عصامياً مثل عمر راسم وعمر بن قُدور، وتبعاً لذلك تباينت نظرة هؤلاء إلى الإصلاح، فمنهم المتعاطفون مع الإصلاح الإسلاميّ باعتناق حركة الجامعة الإسلاميّة، ومن هؤلاء عمر بن قُدور، وعمر راسم، ومحمّد ابن الخوجة الكمال، ومحمّد بن أبي شنب، وصالح بن مهنا، بينما يرى آخرون التّمسك بأصالة الوجهة العربيّة الإسلاميّة للجزائر، مع الأخذ بتجارب الأوروبيّين وعلومهم، ومن أعلام هذا الاتّجاه عبد القادر المجاوي، وعبد الحليم بن سماية ومحمّد بن رحال، والدّكتور محمّد بن العربي.

وعلى كلّ؛ فإنّ معالم هذين التيّارين ستتحدّد وجهتهما خلال العقد الأول من القرن (20) فقد كان إعلان الحرب العالميّة الأولى حاجزا منع الفريقين من الإعلان عن وجهتيهما، أمّا بعد الحرب فكانت هناك معطيات أخرى، وسياقات تحكم الحراك الثقافي العام واللغويّ منه بوجه خاصّ.

2-2- مقارنة نشاط النوادي والجمعيات الإحيائية الجزائرية: أورثت خصوصيّة الحالة الجزائرية

زمن الاحتلال خصوصيّة كلّ ما تعلّق بها، ففي الوقت الذي نجد فيه النوادي المشرقيّة زمن الإحياء ملتقيات لمسامرات أدبيّة، ومعارضات شعريّة، ومطارحات نقدية؛ كانت نوادي الجزائر ملتقيات البحث عن الذات الجزائرية المباداة، ولحظة معاناة في فكّ قيود ومضايقات الاحتلال التي لا تنتهي، ومن هنا ستحاول الأطروحة مقارنة نشاط النوادي في سياق حركة الإحياء العامّ واللغويّ تحديداً.

2-2-1- النشاط الجمعيّ وموقعه من الإحياء: استلمت المنظومة الجمعويّة المتنامية أدوار

بعث الأمة الجزائرية في مرافق كثيرة، ووزعت الوظائف الاجتماعية والثقافية وحتى الاقتصادية بشكل عفويّ توطّره في معظم الأحيان حاجة المجتمع، فمنها ما توجّه إلى العناية بالتعليم، ومنها ما التفت إلى أشكال الحرمان والفاقة في جنبات المجتمع يحدّ شرّها، ومنها ما اهتمّ للنشاط الترفيهي الهادف يستقطب به الطاقات المعطّلة، ويستنهض فيها خمولها الطويل، بل "كان بعض هذه الجمعيات قد أسّس لدفع حركة التعريب"¹ وضمن هذا الاهتمام الأخير، نشأ الاهتمام بنشاطات قارة كالتعليم، ومحو الأمية للكبار والنشاط المسرحي، ومنها النشاطات الدورية، كتسجير برامج الندوات والمحاضرات، أو العارضة، كإحياء الحفلات والمناسبات.

وقد اعتمدت حركة الإحياء هذه النشاطات مَعْبَرًا إلى الإحياء الشعبيّ العامّ الذي استهدفت به الجماهير التي لا سبيل لها عليه في المساجد، بل لعلّها جعلتها مرحلة أولى في الاتّصال بالجمهور، أو لكون وضع هذه النوادي يسمح بنشاطات لا يُسمح بها في المسجد، والحديث عن هدف هذا الاهتمام بما له علاقة بإحياء اللغة العربيّة، ينصرف إلى اعتبارين:

- تقريب اللغة العربيّة الفصيحة من آذان الجماهير في قالب تقبله النّفس، حيث تأخذ نشاطات

النوادي المسرحيّة والإنشاديّة والاحتفاليّة طابع التّرفيه.

¹ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، ص320.

- نشر الوعي القومي والخلقي والاجتماعي، لاستخلاص الجزائريين من مخالب الجهل والفساد اللذين أردهم فيهما الاحتلال.

لذلك كان الملاحظ على النشاطات المنظمة في هذه النوادي، أنها كانت بعربية فصيحة في لسانها وطنية وتربوية وتعليمية في مضامينها، ولأجل ذلك توجه اهتمام الإحيائيين إلى استثمار ذلك في تسريع إنعاش الحياة الجزائرية العامة، وحياة لغتها وأخلاقها بشكل خاص، فكان للمسرح دور ترقية الذوق وتكوين اللسان، وللخطابة دور الشحن النفسي والتحسيس العام، وللمحاضرة دور التثقيف والتعليم، وبين جد وحزم بعض النشاطات، وانبساط بعضها الآخر، كانت حركة الإحياء تراوح في هذه النوادي بين أعمالها صانعة بذلك فضاء أدى وظيفة الإغماس اللغوي (language Immersion) فظهرت جدوى هاته النشاطات وقوة تأثيرها، واعتمدتها حركة الإحياء مستهدفة بها قطاعات واسعة من عموم الشعب، ومفضلة الانتقال إليه على الجلوس في المساجد والأقسام الدراسية منتظرة قدومه، وقد حال بينها وبينه موبقات الاحتلال، فأصبح اليقين بدور هذه النوادي حقيقة قائمة.

وإذا كان للجمعيات المختلفة دور تهيئة المستلزمات المادية والبشرية لهذه النشاطات، فإن حراك الإحياء قد تسلل شيئا فشيئا لاستغلال النصوص، وتوجيه الكتابة المسرحية، ونصوص القصائد والأناشيد وتكييفها لمساره العام، باختيار المواضيع الهادفة، والحرص على ترسيخ اللغة العربية الفصيحة تمكينا لها بين العامة، وتنويعا لمواقع حضورها في المجتمع.

2-2-2- الجمعيات والنوادي فضاء للاحتماء وتنمية الكفاءات: وجدت الكفاءات التي كانت

نتاج الجهد التعليمي الأول في الجمعيات والنوادي فضاء احتضن جهودها، وأكبر أعمالها، فأحست بشيء من الأمان الذي توفر لها من خلال الغطاء الجماعي، الذي وإن لم يكن بمنأى عن تهديدات قوانين الاحتلال وعسف إدارته، فإنها لم تعد تتلقى تلك العقوبات والمضايقات فرديا، بل أصبحت تستقبل ذلك بنوع من الشعور بالرّضى النفسي والدعم الجماعي، حين أصبحت هذه الجمعيات والنوادي ملجأ للشباب الجزائري، وجدت فيه انتماءها الثقافي واللغوي، في وقت لم يسمح فيه الاحتلال¹ إلا بانتشار لغته وثقافته وذلك على حساب اللغة الوطنية والثقافة الجزائرية¹ ومع الزمن أخذ المنخرطون في هذه الجمعيات والوافدون على هذه النوادي يشعرون بأهمية الوحدة، وأثر الجماعة وضرورة الالتفاف حول

¹ - عمّار هلال، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة 1832-1962م، ص268.

الفكرة، فمضى ذلك الانتماء العقدي واللغوي والاجتماعي الشعور بالخصوصية والتفرد، الذي طالما افتقد الجزائريون الشعور به، وهم يرون آثاره المدمرة للهوية الماحقة للشخصية محيطة بهم في كل مكان يوجد به الفرنسيون المحتلون.

2-2-3- الجمعيات والنوادي إطار لإعادة التأهيل الشعبي ثقافياً ونفسياً: بلغ الاحتلال بالوضع

الجزائري العام مبلغا جعل من الجزائري كائنا بيولوجياً لا قيمة له في نظر المحتل، ولا هدف له في نظر نفسه، فلقد كان "تأهيل الأمم الغالبة المنتصرة حضارياً للشعوب المغلوبة والمستضعفة... في نطاق التأهيل للاستهلاك بكل أنواعه (فكري، ثقافي، لغوي، ساعي، مادي... إلخ) مع الاحتفاظ بتجهيله وتحديد سقف تعلمه في مستوى إمكانية الانتفاع به"¹ وقد شاع ذلك وانتشر حتى صار صفة غالبية للجزائريين وبين تأثير العوامل الداخلية والخارجية، أصبح ضرورياً البحث عن الصيغ التي تُعيد تأهيل الجزائريين جماعياً، فبعد أن اتخذ الإحيائيون التعليم الحر مسلكاً لإعادة التأهيل الفردي، قابل ذلك مرحلة طبيعية في تنمية الجماعات، وإضافة إلى الجو النفسي الذي كان يحيط بهؤلاء؛ كانت النشاطات التعليمية والتربوية والثقافية رافداً طعم التأهيل اللغوي حين أصبحت الجماعة تمارس حقوقها التعبيرية بحرية مغمورة بروح الاعتزاز والتميز، في مقابل ذلك الفضاء الاجتماعي الدّخيل، الذي حرّمها الحق الطبيعي في الكلام، وأصبح يهدّد واقعها الثقافي والاجتماعي بالفناء، وأضحت ترى فيه واقعا متصادما مع فطرتها "فبحثت مجموعات الشعوب المستعبدة عن هويتها (لغة، تاريخ، ثقافة تراث، علم... إلخ، وحفرت في ثقافتها وذاتيتها كشعور جمعي، فبعثتها وتعلمتها ووعتها، فأنجبت جماعات التحرير"² ذلك أن هذه المرحلة من مراحل الارتقاء الجمعي قد جاءت حلقة وصل وسيطة ضرورية، بما كانت عليه من نشاط جمع بين الشمول والتنوع للانتقال من مرحلة النمو الفردي إلى مرحلة المجتمع، إذ لم يقتصر تأثيرها على الجزائريين المتعلمين باللغة العربية؛ بل مسّ كذلك بعض الفئات الأخرى التي تعلمت بغير اللغة العربية، بحيث تم صهرها في بوتقة الثقافة العربية الإسلامية نهائياً³ فتحوّلت هذه النوادي إلى فضاءات تجاوز فيها الجزائريون آثار الاختلافات اللغوية بينهم إلى ضرورة الوفاق المجتمعي الذي تحكمه اعتبارات أخرى كثيرة.

¹ - العربي بلقاسم فرحاتي، تأهيل الموارد البشرية قديماً وحديثاً، ط1. عمّان: 2012م، دار أسامة للنشر والتوزيع، ص341.

² - العربي بلقاسم فرحاتي، تأهيل الموارد البشرية قديماً وحديثاً، ص347.

³ - عمّار هلال، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة 1830-1962م، ص269.

2-2-4- الجمعيات والنوادي انعكاس لمستوى النضج الإحيائي الشعبي: تزامنت فترة إنشاء

النوادي والجمعيات مع فترة انتعاش الصحافة ذات الخط الوطني مضمونا ولسانا، وكذا مرحلة انتشار ظاهرة التعليم الإحيائي، وتشديد مؤسساته الحرة، وبهذا التأم حراك النوادي والجمعيات مع العناصر الأخرى، فاحتضن بعض هذه النوادي البواكير الأولى للتعليم الذي خرجت طلائعه الأولى منتصف العقد (03) من القرن (20) وقد تزامن ذلك مع انتعاش مشهود للإعلام الوطني الإحيائي الداعم للقضية الوطنية، فتعاظدت هذه المظاهر في شدّ أزر حركة الإحياء اللغوي بتوسيع دائرة انتشاره، وتعميق امتداده في الأوساط الشعبية بالتوازي مع الحراك الصحافي الوطني، بعد أن تكفلت المدارس الإحيائية برعاية النشء، فقطعت سلسلة الجهل التي حرص الاحتلال على الإبقاء عليها متصلة أبداً، ولقد كان العقد (04) "العقد الذي يبرهن بدون شك على إثبات الهوية الثقافية العربية الإسلامية للجزائر، وذلك بانتشار النوادي الثقافية العربية في كل مناطق القطر"¹ ذلك أن هذه النوادي التي كانت تُدير معظمها جمعيات مُرافقة؛ قد عكست مستوى الوعي الوطني، وصارت مسباراً للمستوى اللغوي، وقد صار سائداً في فضاءات شعبية بسيطة، كان الحكم الغالب عليها أنها أماكن للهو والترفيه، وعن مرتاديهما أنهم في عمومهم شباب طاردَهم الفراغ واليأس، ولكن رُود حركة الإحياء تحولوا بهذه النوادي، وبمن فيها إلى حلقة هامة من حلقات المشروع الإحيائي الواسع.

2-2-5- المدخل الجماعي إلى اختراق التضيق الكولونيالي: لقد حرص الاحتلال على تلغيم

المجتمع الجزائري ببيت كتلة حرص على تثقيفها بنمط من التكوين الثقافي الفرنسي، وسرّب إلى أذهان أفرادها مواقف معادية لعناصر الهوية من الدين واللغة، لكن الملاحظ "أننا خلال تلك الفترة [الثلاثينيات] لم نجد سوى النوادي ذات الطابع العربي الإسلامي، حتى تلك التي كان يشرف عليها ويسيرها جزائريون مثقفون أو متعلمون بغير اللغة العربية، وبالتالي فقضية اللغة المستعملة آنذاك لم تشكل حاجزا أمام توحيد الرؤية الثقافية، ومن ثمّ توحيد الجهود لدحر الاستعمار"² لقد كان معظم النوادي في البداية عبارة عن مقاهٍ شعبية، أو أماكن بسيطة تُجَزّز بجهود شباب حيّ أو قرية، ولعلّ من أول هذه المشاهد في جزائر الإحياء، تلك المشاهد التي ينقلها مالك بن نبي عن طفولته وفتوته، عن حالة مقاهي تبسة وقسنطينة، وما كان يدور فيها من مناقشات فكرية وأدبية وسياسية محلية وإقليمية، وأشكال التعبير عنها

¹ - عمّار هلال، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة 1830-1962م، ص 261.

² - عمّار هلال، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة 1830-1962م، ص 261.

فيقول: "كان الحديث في مقي (بن يمينه) بالعربية والفرنسية أما في مكتب الشيخ [ابن باديس] فمن الطبيعي أن يكون الحديث بعربية فصيحة. أما في المدينة فلم تكن اللغة عربية ولا فرنسية، إنما لغة محلية، وهذه الحال كانت في الجزائر جميعها، وخاصة في العاصمة، إذ أضاف القوم هناك إلى عاميتهم لهجة غير مستحبة، وفي علمي أن تبسة هي المدينة الوحيدة التي يتكلم أهلها لغة عربية، ربما ليست أدبية. إنما هي بكل حال على درجة من الصفاء والأصالة في مفرداتها وطريقة نطقها¹ وتلك شهادة إن نقلت لنا سلامة المنطقة بفعل موقعها الجغرافي المتاخم لتونس، وبقاء التأثير المشرق على المنطقة قائما؛ فإن المذن الأخرى، والساحلية منها خاصة؛ لم تكن لها من الحصانة الثقافية واللغوية والجغرافية ما يجعلها في مأمن من الاغتراب الثقافي واللساني، ومع ذلك فقد أضحت هذه النوادي تجمعات شعبية جزائرية اكتسبت تنظيمًا وفاعلية تحولت معها وبخاصة في العقد (04) من القرن (20) - إلى مراكز جماعية هتاك بها الجزائريون حجاب التضييق الاجتماعي والثقافي الذي لفهم فيه الاحتلال، ومارس رؤاؤها حياة ثقافية جماعية تحكمها خصوصيات المجتمع الجزائري وأعرافه، وفي جنبات تلك النوادي مارس الجزائريون فنونهم الصوتية من شعر وإنشاد، ومحاضرات ونشاط خطابي، وأمسيات أدبية وفكرية ودروس تربوية وتعليمية، وإحياء مناسبات دينية ووطنية، ونشاطات كشفية، وغير ذلك، واللافت أن تلك النشاطات كانت بلغة عربية تجاوزت بالجزائريين إحساسهم بأنها وسيلة تعبير، إلى اعتبارها أداة إثبات ذات وإعلان انتماء، ومقوماً من مقومات الأمة، لطالما تعالت الأصوات برعاية مقامه وإكرام ذمامه.

2-2-6- التنظيم المجتمعي البديل: بإلقاء نظرة شاملة على عناصر الإحياء الجزائري، نقف

على تقييم يبدو فيه نشاط الجمعيات والنوادي بتوزعه الجغرافي، ونشاطه المتنوع، وتفاعلاته مع مختلف المؤسسات المجتمعية الأخرى، والمستهدف لشرائح المجتمع العامة، قد أخذ شكل نواة الدولة البديلة حين حرم الجزائريون إطارا يكفل لهم حقوقهم كأفراد وجماعة "إن الإصلاح الذي قام به ابن باديس وأصحابه، لم يصمم على أنه عمل ديني وأخلاقي فقط، فحركة الإصلاح فرضت منذ البداية كحركة تهتم بجميع جوانب حياة المسلمين الجزائريين²". فقد أخذت هذه التنظيمات التي يبيد ظاهرها الفرقة الجغرافية، وانعدام الاتفاق في النشاط ميدانياً؛ ولكن الحقيقة كانت تبادلاً للأدوار، وتكاملاً في الوظائف والمهام، ولئن حازت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مكاناً خاصاً في حركة الإحياء الجزائري ضمن نسيج

¹ - مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن، ص 92.

² - Ali Merad, Ibn Badis Commentateur du Coran, Oran: Société Nationale d'effusion, p193.

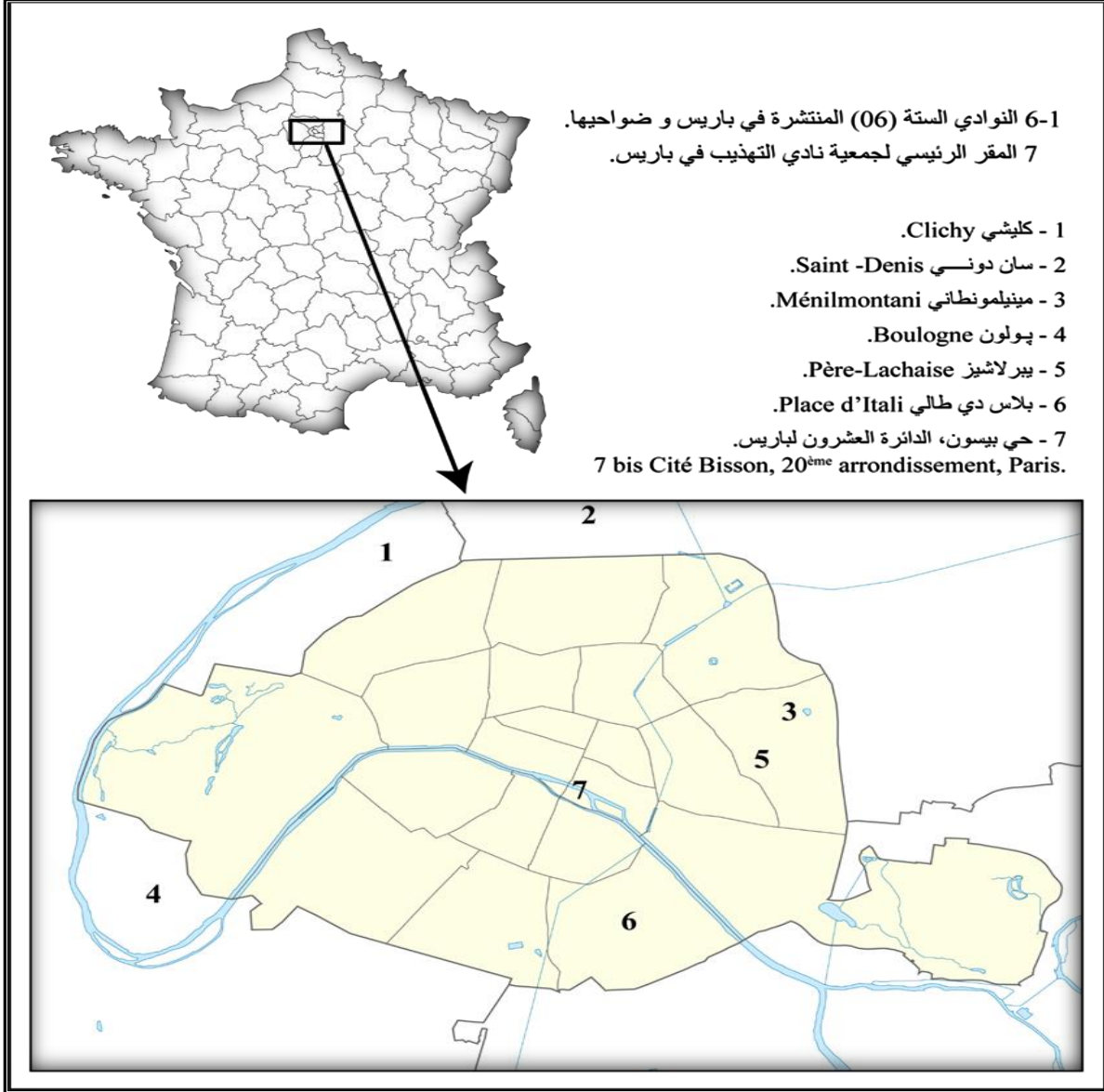
الجمعيّات والنّوادي الجزائريّة في العصر الحديث؛ فإنّ ذلك لا يعني أنّ حركة الإحياء مقصورةٌ عليها دون غيرها، بل لقد أحال البحثُ المتوسّع -بقدر الطّاقة- على جهودٍ فرديّة وجماعيّة كثيرة انقضّت عليها ظروف الحرب فشنتّها، وانهالت عليها أيادي المحتلّين فأتلّفت عرّضها وطمست جوهرها واغتصبت ثروة أرشيفها، إمعانا في إخفاء جرائمها، وعملا على استدامة جهل الجزائر لذاتها.

لقد استوى الحراك الجمعيّ في تنظيمه، وجغرافيا النّوادي بوسائلها وأدواتها شبكةً لعبت دور الدّولة البديلة، فقد قامت على شؤون المجتمع التي تقوم بها الدّولة في الحالات الطّبيعيّة، فالتّعليم والإعلام والثّقافة بفنونها والرياضة والكشافة والخدمات الاجتماعيّة والتّكوين الحرفيّ والمهنيّ وشؤون المرأة والأسرة والقضاء والإمامة والفُتيا، كلّها أصبحت مع الزّمن من اهتمامات رواد حركة الإحياء أفرادا ومنظّمات وأصبح المجتمعُ الجزائريّ الوطنيّ الذي يبدو ظاهره تحت حكم الاحتلال قهرا؛ مدينا لتنظيم ناشئ يتنامى مع الأيّام، ويأخذ في الاتّساع جغرافيّاً، والاستقواء بمزيد من المنخرطين والمتعاطفين، وهو تنظيم شرع يُعلن استقلاله التّدرجيّ عن تنظيمات الاحتلال وتقريراته، بشروعه في إعادة بناء مؤسساته التّعليميّة والدينيّة (المدارس والمساجد) وتسطير مقرّراتها ومواضيعها، وإنشاء نواديه وجمعيّاته الحاملة لهومومها وقضاياها، وتكوين معلّميّه وأئمّته وخُطبائه، وتحديد أولويّات ومهامّ لئن بدت في بداياتها على قدر من الإدارة والمناورة؛ فإنّها لم تلبث أن أعلنت خصوصيّتها الذاتيّة، وصدعت بما في ضمير الأُمّة من شعور نحو المقوّمات الأساس للجزائر.

وللوقوف على المدى الجغرافيّ الذي اكتسحته حركة الإحياء، وكانت مؤسسات الإحياء من النّوادي والمدارس والجمعيّات والمساجد عيّنه المكانيّة، تعرض الخريطة مساحات الانتشار الإحيائيّ ودرجته.

وكما في الجزائر كانت النّوادي ملجأ الإحياء في فرنسا، حين قرّر الإحيائيّون تحمّل فتح جبهة أخرى من جبهات التّحدّي الثّقافيّ واللّغويّ بين أفراد الجاليّة الجزائريّة في فرنسا، فقد أسهمت هذه النّوادي في شدّ اللّحمة الوطنيّة، والحفاظ على اللّسان العربيّ بين الجزائريّين وأبنائهم هناك، وكان ذلك

خريطة مواقع نوادي الإحياء في فرنسا¹

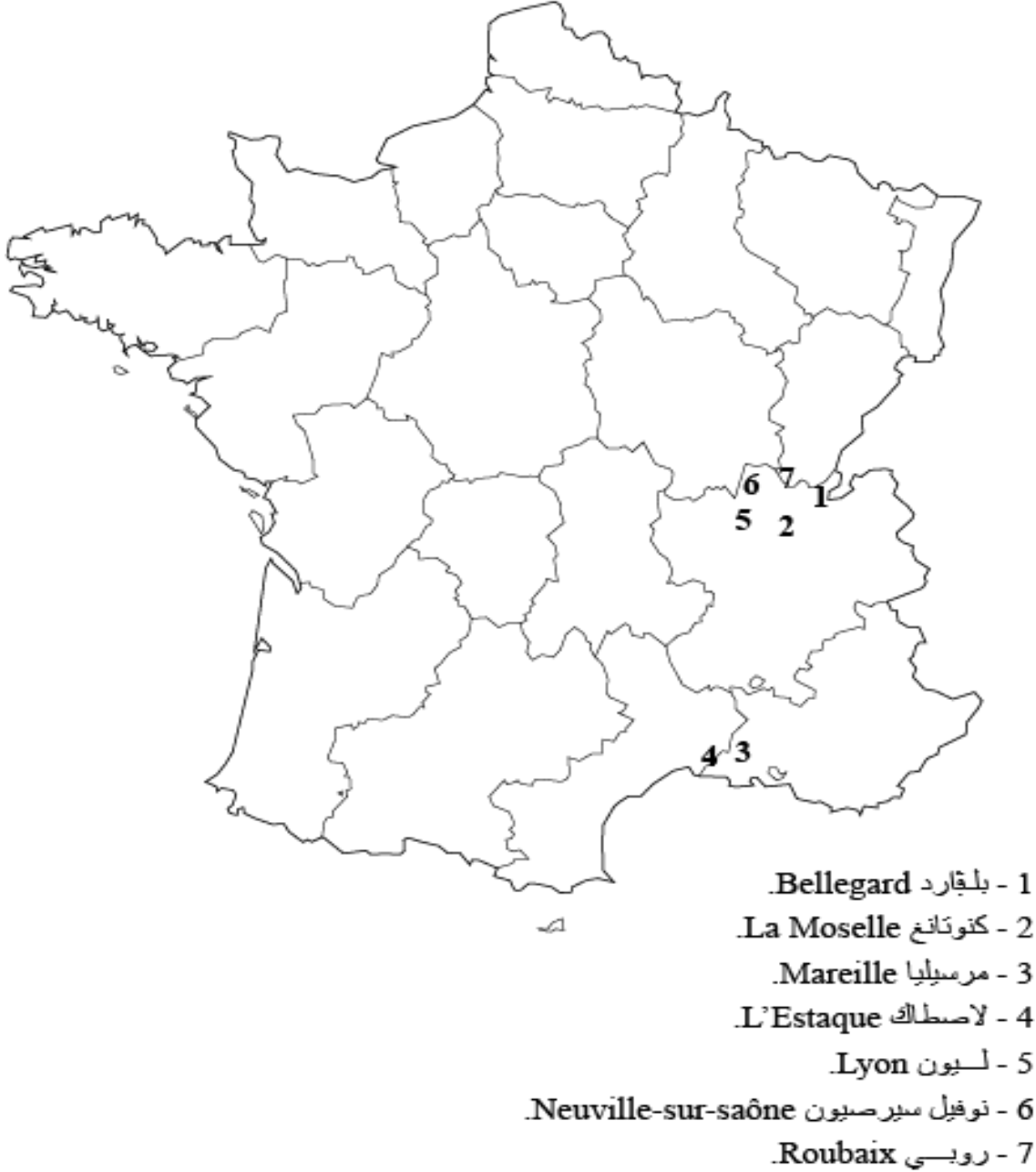


التفاتة ذكيّة من حركة الإحياء، يحيل على ما التفتت إليه "العالمة اللّسانية (نيكول غوتيه/ Nicole Gueunier) في بحث لها عن مظاهر التعدّد اللّغويّ في تجمّعات المهاجرين بفرنسا، فرأت أنّ هذه

¹ - سعيد بورّان، نشاط جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين في فرنسا: 1936-1956م، د ط. الجزائر: 2013م، دار هومة للطباعة والنّشر والتّوزيع، ص 79. وص 82.

التجمّعات تشكّل خطورة اللّامن اللّغويّ (l'insécurité linguistique) في منظور التّواصل والانسجام المجتمعي¹ وأبليت بلاء حسنا تجاوز فيه الإحساس بالهويّة حدود الجغرافيا، وبلغ الاعتزاز بها إعلانها في بيئة مختلفة عنها اختلافا بيّنا.

خريطة مواقع نوادي الإحياء في جنوب فرنسا²



¹ - صالح بلعيد، في الأمن اللّغويّ، ط2، الجزائر: 2012م، دار هومة للطباعة والنّشر والتّوزيع، ص43.

² - سعيد بورنان، الشّيخ الفضيل الورتلاني العلّامة الثّائر، ط2، الجزائر: 1435هـ-2014م، دار هومة للطباعة والنّشر والتّوزيع ص54.

2-3- مقارنة مشهد الصحافة الإحيائية في الجزائر: بالنظر إلى الظروف العامة التي نشأت فيها

الصحافة الجزائرية منتهى القرن (19) وبداية القرن (20) فإنّ هناك جملة من الملاحظات التي انمازت بها هذه الصحافة عن غيرها من الصحافة العربية، فيحسب للعديد من المنابر الصحفية العربية المكتوبة في جزائر الإحياء الأثر الملموس في استعادة اللغة العربية لجانب معتبر من مكانتها، بما نشرته من وعي بقضاياها، وتبصيرا بالتّحديات التي تواجهها، والمنافحة عن موقعها ومكانتها من المنظومة اللسانية التي يبذل الاحتلال جهدا بالغا لإبقائها تحت سيطرته.

ومما يحسب لهذه المنابر أيضا ما بذله منشئوها والقائمون عليها من مصابرة وجاد على مضايقات الاحتلال الإدارية، وكذا الصّوائق المالية التي كانت تتربّص بهم في كلّ مرّة، جرّاء الفقر العامّ وعزوف القراء نتيجة الجهل المطبق والأميّة الصّاربة، ولئن اجتمع لبعض تلك الصّحف من الأسباب الماديّة والمعنويّة والبشريّة ما مكّنها من الثّبات والمقاومة ك (الشّهاب) بقوة فريقه والمنعة الاجتماعية لمؤسّسه ونوعيّة نتاجه الفكريّ والأدبيّ، ومُدته الزّمنيّة ومداه المكانيّ، أو جريدة النّجاح التي كان خطّها المسالم للاحتلال سببا كافيا في أن تكون أطول الصّحف العربيّة في الجزائر عمرا، ولكنّها كانت أقلها أثرا، فإنّ الغالبية العظمى من الصّحف العربيّة كانت ضحيّة سهلة لتوقيف إداريّ مرتجل، أو فريسة لأزمة مالية عاصفة، ولكنّ فضل المشاركة، وتكثير سواد الحرف العربيّ كان أحد أمارات انتشار الحراك الإحيائيّ العام، وعاكسا مستوى مقبولا من الوعي بالذّات، واستعدادا لتحقيق الهويّة الجزائريّة بخصوصيّتها الفكريّة والثقافيّة واللغويّة.

ولتقديم صورة تجمع بين الإحاطة والشّمول لما كان عليه وضع الصّحف العربيّة، بوصفها أظهر المشاهد التي تعكس الوضع الاستثنائي للغة العربيّة في الجزائر يومئذ، اختصرت الأطروحة عناوين الصّحف الجزائريّة العربيّة، ومنشئها، وولاءاتها، وعدد ما نشر منها، ومدة بقائها، ليتبع ذلك مخططات تحليليّة بيانيّة، تجلّي بوضوح مسيرة الإحياء من خلال الصّحافة.

جدول متابعة الوضع العام للصحف اليومية الجزائرية 1919-1945

رقم	الصحيفة	زمن الصدور ومكانه	الملكية	المنزع	الولاء	التوقف	الأعداد	المدة
01	النجاح	قسنطينة 1919	خاصة/ عبد الحفيظ الهاشمي	انتفاعية	/	1956	...	75 سنة
02	الصديق	الجزائر 1920	خاصة/ محمد بن بكير	وطنية		1922-03م	54	18 شهرا
03	الإقدام	الجزائر، 02-1919م	الصديق ددان/ الأمير خالد	حزبية	الشباب الجزائريين	1923-03م	120	3 سنوات
04	الاستقبال الجزائري	الجزائر خلال 1920م	بلفاسم ابن التهامي	إيماجية	الشباب الجزائريين	1920	/	/
05	النصبح	الجزائر، 01-1921م	صوالح	إيماجية		نهاية 1921م	4 نحو	نحو سنة
06	لسان الدين	الجزائر، 01-1923م	الحسن بن عبد العزيز	طرقية	الطريقة العلوية	1939	/	16 سنة
07	التقدم	الجزائر، 05-1923م	بلفاسم ابن التهامي	إيماجية	دعاة الأجناس	1926	/	4 سنوات
08	المتقدم	قسنطينة 07-1925م	ابن باديس	إصلاحية	حركة الشباب الثامن	1925-10	18	4 أشهر
09	الجزائر	الجزائر 1925	خاصة/ محمد السعيد الزاهري	وطنية	/	1925	03	/
10	الشهاب	قسنطينة 11-1925	خاصة/ ابن باديس	إصلاحية	/	1939-08	16 مج	15 عاما
11	صدى الصحراء	بسكرة 1925-11م	خاصة/ أحمد بن العابد العقبي	إصلاحية	حزبية بعد 1934م	/	20 عددا	/
12	وادي ميزاب	الجزائر، 10-1926	خاصة/ أبو القبطان	إصلاحية	/	1929	119	عامان
13	الحق	بسكرة 04-1926	خاصة/ علي بن موسى العقبي	طرقية	ميل نحو الطريقة العلوية	1929	30	عام
14	البلاغ الجزائري	مستغانم/الجزائر 1926	أحمد بن عليوة	طرقية	لسان الطريقة العلوية	1943	/	17 عاما
15	البوق	قسنطينة 03-1927	محمد السعيد الزاهري	إصلاحية	/	1927-09م	23	6 أشهر
16	الإصلاح	بسكرة/الجزائر 1927	الطيب العقبي	إصلاحية	ذات منزع سلفي	1948-03م	73	/
17	ميزاب	الجزائر 1930	خاصة/ أبو القبطان	إصلاحية	/	1930	01	/
18	المغرب	الجزائر 01-1930	خاصة/ أبو القبطان	إصلاحية	/	1931-04	38	عام ونصف
19	الثور	الجزائر 09-1931	خاصة/ أبو القبطان	إصلاحية	/	1933-05	78	20 شهرا
20	المبصر	قسنطينة. 11-1931م	/	/	لسان المثقفين الفرنسيين	1931	/	/

21	الأمّيز (مجلة)	1931م	الجمعية الوردانية للأعلام المسلمين بإفريقيا الشّمالية	تعليمية توجيهية	/	موالية ل: ج ع م ج جمعية علماء الشّنة لسان حال جمعية الشّنة لسان حال ج ع م ج لسان حال ج ع م ج مالية ل: ج ع م ج	1933م	/	عمان	21
22	المرصاد	الجزائر 12-1931م	خاصة/محمد عابسة الأخصري	إصلاحية	موالية ل: ج ع م ج	1933-11	64	عمان	22	
23	الإخلاص	الجزائر 12-1932م	المولود الحافظي	طريقة	جمعية علماء الشّنة	1933	/	/	23	
24	المعيار	الجزائر 12-1932م	هراس مصطفى/ أبو مرزينة	طريقة	لسان حال جمعية الشّنة	1933-06	10	6 أشهر	24	
25	الشّنة الثّبوية	قسنطينة 07-1933م	عبد الحميد بن باديس	إصلاحية	لسان حال ج ع م ج	1933-07	13	4 أشهر	25	
26	الحجيم	قسنطينة 03-1933	خاصة/الأزهري/ عابسة	/	مالية ل: ج ع م ج	1933-05	03	شهران	26	
27	الحياة	الجزائر 04-1933	خاصة/باسعيد عّون	إصلاحية	جمعية الوفاق الميزانية	/	03	/	27	
28	البستان	الجزائر 04-1933	خاصة/ أبو اليقظان	إصلاحية	موالية للحراك الإصلاحي	1933-07	10	3 أشهر	28	
29	الشريعة الثّبوية المحمّدية	قسنطينة 07-1933	الطّيب العقبي/ محمد السعيد الأزهري	إصلاحية	لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين	1933-08	07	41 يوما	29	
30	النّيراس	الجزائر 07-1933	خاصة/ أبو اليقظان	إصلاحية	موالية للحراك الإصلاحي	1933-08	06	26 يوما	30	
31	الحارس	الجزائر 08-1933	خاصة/ عبد الرحمن غريب	إصلاحية	موالية للحراك الإصلاحي	/	04	/	31	
32	الأمة	الجزائر 09-1933	خاصة/ أبو اليقظان	حزبية	مالية لحزب النّجم	1938-05	170	5 سنوات	32	
33	الصّراط السّوي	قسنطينة 09-1933	العقبي / الأزهري	إصلاحية	لسان حال ج ع م ج	1934-01	17	04 أشهر	33	
34	النّبات	الجزائر 01-1934/ 11-1933	خاصة/ محمد عابسة الأخصري	سياسية	موالية للحراك الإصلاحي	1935-09	50	نحو عام	34	
35	أبو العجائب	قسنطينة 05-1934	خاصة/ محمد العابد الجيلالي	ساخرة	مالية ل: ج ع م ج	1934-07	10	شهران	35	
36	الفضيلة (مجلة)	البلدية 10-1935	خاصة/ موسى خّاوي	محافطة	موالية للمحافظين عموما	/	/	/	36	
37	تغناننت	بسكرة 10-1935	خاصة/ سفيرأحمد العربي	سياسية	مالية للوّاب المسلمين	/	/	/	37	
38	البصائر (1)	الجزائر 12-1935	الطّيب العقبي	إصلاحية	لسان حال ج ع م ج	أوت 1939م	180	3 سنوات	38	
39	النّياتي	الجزائر 02-1936	خاصة/علي بن سعد	ساخرة	مالية ل: ج ع م ج	1937-03	20	13 شهرا	39	

20 شهر	/	1938-02	نجم الشمال الإفريقي	ساحرة	بحو محمد الطاهر	الجزائر 06-1936	سبدي هنيئي	40
نحو شهر	02	1937	حزب الشعب	سياسية	مفدي زكريا	الجزائر 08-1937	الشعب	41
6 أشهر	05	أواخر 1937	لسان حال الثّباب المسلم	إصلاحية	خاصة/ حمزة بوكوشة	وهران 05-1937	المغرب العربي	42
8 أشهر	30	1938-02	كتلة النواب المسلمين	سياسية	خاصة/ حسن الوزرقي	قسنطينة 06-1937	الميدان	43
15 شهر	30	أوائل 1939	التيار الطرقي	محافظة	خاصة/ أبو العلا بكير	البلدة 10-1937	الروح	44
22 شهر	37	1940-07م	كتلة الجمعيات الإسلامية	حرّة	خاصة/ الزّاهري	وهران 03-1938	الوفاق	45
16 شهر	53	1939-09	لسان جامعة الزّوايا والطرق الصّوفية	محافظة	عبد الحفيظ القاسمي	الجزائر 05-1938	الرّشاد	46
شهر واحد	06	1938-08	مولية لحزب الشعب	إصلاحية	خاصة/ أبو اليقظان	الجزائر 07-1938	الفرقان	47
5 أشهر	04	1939-01	/	قطاعية	محمد بن الحنفية	الجزائر 08-1938،	المنجنيق	48
صحف العقد الخامس								
/	/	1945-03م.	مولية لحزب الشعب	سياسية	سرية	الجزائر 06-1943م	صوت الأحرار	49
/	/	1944-05	/	دعائية	سلطات الاحتلال	قسنطينة 194٢م	النّصر	50
/	/	/	الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري	سياسية	فرحات عباس	الجزائر 03-1948م	الوطن	51
/	04	/	مولية لحزب الانتصار وجمعية العلماء	سياسية	خاصة/ إسماعيل العربي	الجزائر 1946	إفريقيا الشمالية	52
صدر	/	1955-09	الحزب الشيوعي الجزائري		عطار أوزقان	الجزائر 07-1946م	الجزائر الجديدة	53
مضطرب								
4 سنوات	/	1950-05	/	مقاطعة	حمزة بوكير إمام مسجد باريس	الجزائر 07-1946	السلام	54
06 سنوات	60	1952-04	الطريقة العلوية	طريقة	ابن تونس رشيد	12-1946 مستغانم	المرشد	55
/	/	/	مولية للحراك الإصلاحي	إصلاحية	خاصة/ عبد الوهاب بن منصور	1947-04م تلمسان	العقريّة	56

57	المغرب العربي	الجزائر 05-1947م	خاصة/ محمد السعيد الزاهري	سياسية	حزب الانتصار ثم المصاليين	1956-05	/	9 سنوات
58	البصائر (2)	الجزائر 11-1947	البشير الإبراهيمي/ مبارك الميلي	إصلاحية	لسان حال ج ع م ج الجمعية الوادنية لرجال الديانة الإسلامية في القطر الجزائري	1956-04م	361	9 سنوات
59	صوت المسجد	الجزائر 10-1948م	محمد العاصمي	قطاعية		1950-05م	/	19 شهرا
60	الشعلة	قسنطينة 12-1949	خاصة/ أحمد بوشمال	حرة	مولية ل: ج ع م ج	1951-02م	54	15 شهرا
61	عصا موسى	الجزائر 1950م	مبارك بن عبد القادر	مذهبية	مولية لمساك الشيخ العقبي	/	/	/
62	الرّاعي	الجزائر 11-1950م	أبو بكر جابر	مذهبية	مولية لمساك الشيخ العقبي	/	/	/
63	طريق السلام	الجزائر 03-1951م	/	عامة	/	/	/	/
64	الآراء	الجزائر 04-1952م	أبو بكر جابر	مذهبية	مولية لمساك الشيخ العقبي	/	/	/
65	المنار	الجزائر 03-1951	محمود بوزورزو		لسان الانتصار للحريات الديموقراطية	1954-01	51	حوالي 3 سنوات
66	القبس	الجزائر 08-1952	أبو القاسم ديفر	مذهبية	مولية لمساك الشيخ العقبي	/	/	/
67	صوت الجزائر	الجزائر 11-1953	مصطفى فروخي	سياسية	لحزب انتصار الحريات الديموقراطية	/	/	/
68	التّوكري	تلمسان 02-1954	سي علي	طرقية	/	/	/	/
69	شمال جنوب	الجزائر 09-1954م	خليل أحمد	جوهية	اهتمام اقتصادي بالصحراء	/	/	/

إنَّ استهداف هذه المنابر الإعلامية لم يكن بهدف التعريف بها، وبحجم معاناتها، بقدر ما كان متابعة لمسيرة وضع اللغة العربية، سواء أكان ذلك من ناحية إثبات الحق الذي أيقن به أقطاب حراك الإحياء، ووجوب تداوله حرفاً عربياً في وطنه؛ أم من ناحية متابعة نوع التطور الذي شهده حضور الحرف العربي من طريق الصحف على اختلاف منطلقاتها الفكرية ومنازعها المذهبية.

ولئن كان مشهد اللغة العربية في صحافة جزائر ما قبل الحرب الأولى محدود الفعالية، باهت الصورة، قليل العدد والأنصار، ذا توجهات فكرية تقليدية؛ فقد أحات الأحداث المحلية والإقليمية والعالمية المتتابعة التي أعقبت الحرب الأولى على مشهد واضح جلى انتعاش الكتابة الصحفية العربية، وهو ما كان سبيلاً إلى صقل الأقلام الواعدة، والتدرج بها نحو الاكتمال واستقطاب الناشئ منها، فتحوّلت المنابر الإعلامية إلى فضاء مفتوح لإبداعات مشهودة، ونتاج فني راق، قد حظي بعضه بدراسات ومتابعات أكاديمية وعامة، ولا يزال كثير منه ميداناً خصبا للدراسة والتحقق.

لقد كان للظرف الاستثنائي الذي أطر به الاحتلال الحالة الجزائرية، الدور الأساس في تعطيل حركة الإحياء اللغوي والأدبي على جبهة الصحافة، وإفشال مشروع الإحيائيين في إشاعة ثمرات المشروع على المستوى الشعبي، من خلال تكميم الأصوات المتوجهة إلى الجماهير، وبقدر ما كان عليه الإحيائيون من وعي بدور الصحافة في تحقيق التواصل الممكن والأنسب والأيسر والأسرع مع القواعد الشعبية المستهدفة؛ كانت عيون مخبر الاحتلال على وعي أكبر، وإحاطة أوسع، فقد عملت على عدم قيام هذه الشبكة من العلاقات أساساً، ونصب المهدّدات الدائمة لما تمنع عنها لظروف ما، وفي كلّ مرة، بما رسمته سلطات الاحتلال على المقاس ممّا يُدعى قانون الصحافة.

وإذا كان المشهد الصحفي الذي ختم على العقدَيْن الأولَيْن من القرن (20) قد صوّر مأساة الصحافة العربية الوطنية الجزائرية في بدايتها، فإنّ هذا المشهد قد عرف تحوُّلاً واضحاً بعد الحرب الأولى ليكون مسرحاً لمشهد صحفي جزائري إحيائي لافت، عرضت الأطروحة مشهد اللغة العربية في متنها إجمالاً وما عرض من المشهد الصحفي العربي الجزائري خلال عقدي ما بين الحربين في الخطاطة السالفة يُجَلِّي المشهد كاملاً غير مجتزأ، ولكلّ خانة من خانات الخطاطة قصّة يضيق بذكر تفاصيلها المكان. وللوقوف على مسار خطّ الصحف العربية كمّاً، عبر الفترات الزمنية الممتدة في ما بين الحربين وتعيين الفترة التي شهدت الذروة في كمّ العناوين السيّارة، نجمل هذا النتاج في الجدول الذي تُبيّن أرقامه

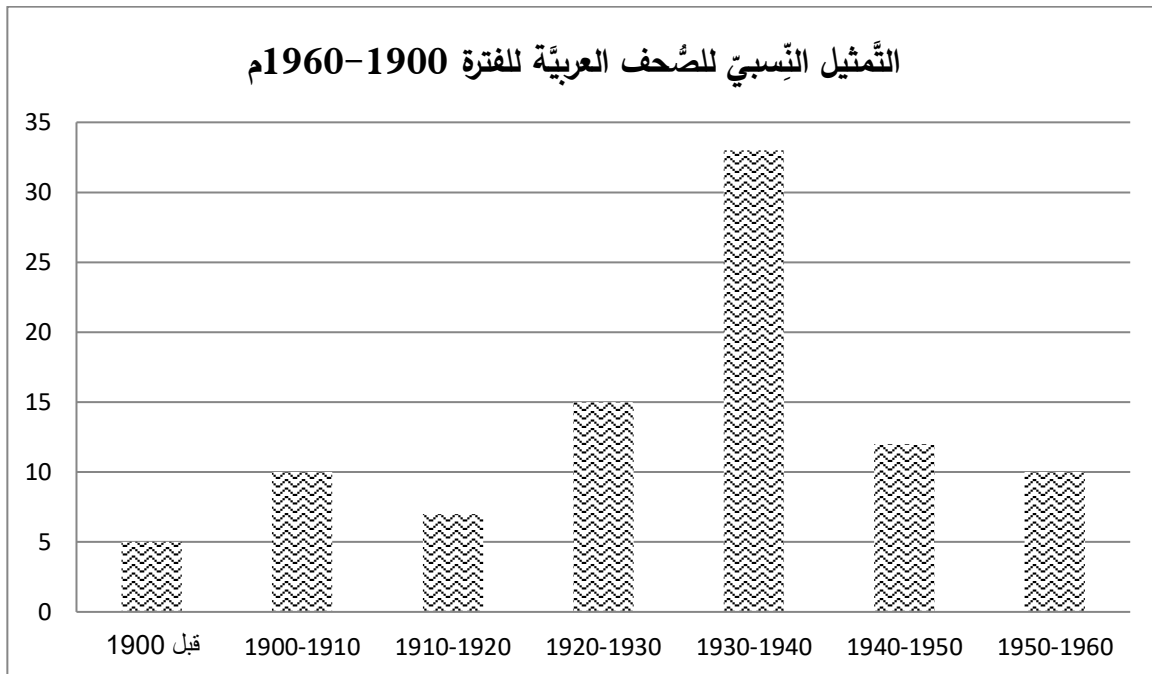
الفصل الثاني:

مقاربات في مشاهد ومعالم حركة الإحياء اللغوي في الجزائر

خطّ نشأة حراك الإحياء وتدرّجه في الارتقاء، على اعتبار أنّ المشهد الصحفي عدّ أكثر مشاهد الإحياء تجليّة لواقعه ورصدا لتحوّلاته، وذلك ما يوضّحه الجدول:

متابعة صدور الصحف العربيّة خلال النّصف الأوّل من القرن (20)

الرقم	الفترة مقدّرة بعشر سنوات	عدد الصحف العربيّة
01	قبل 1900م	05
02	1900 - 1910م	10
03	1910 - 1920م	07
04	1920 - 1930م	15
05	1930 - 1940م	33
06	1940 - 1950م	12
07	1950 - 1960م	10



يثبت التّمثيل البيانيّ التّدرّج الظّاهر لارتقاء الكمّ الصحفيّ، بدايةً من السّنات الأولى للقرن (20) ثمّ التّراجع النّسبيّ خلال العقد الثّالث بسبب الحرب العالميّة، ليعود سلّم الظّهور في الارتقاء من جديد ويبلغ ذروته خلال العقد (04) ثمّ يعود إلى التّراجع من جديد بسبب الحرب العالميّة الثّانيّة، ثمّ اندلاع النّوّة التحريريّة.

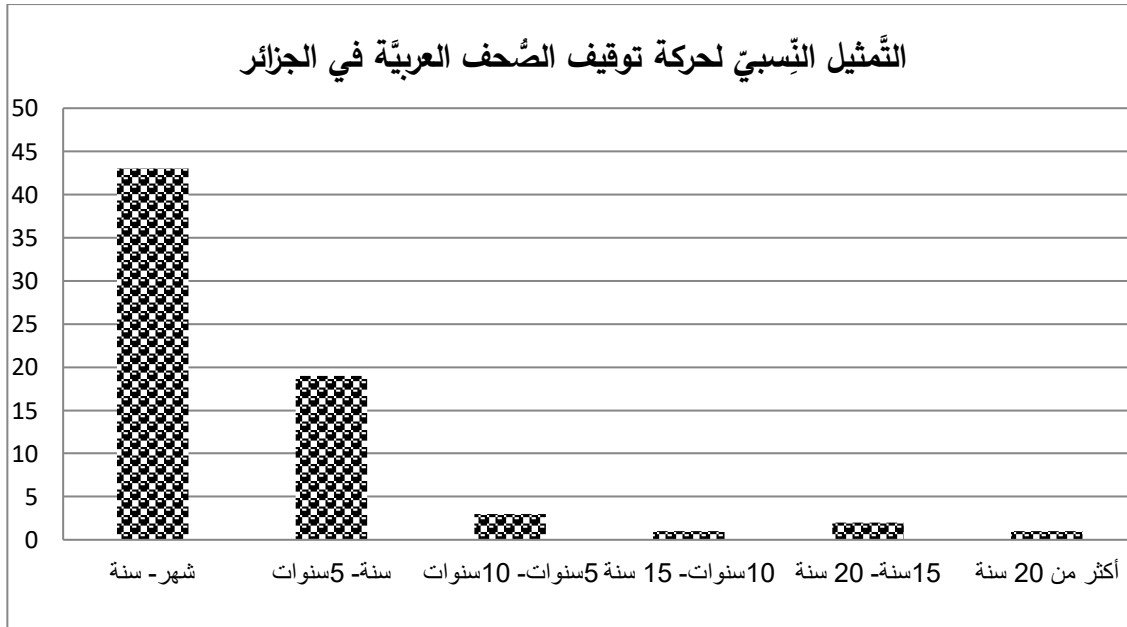
الفصل الثاني:

مقاربات في مشاهد ومعالم حركة الإحياء اللغوي في الجزائر

ولكي نقف على شكل آخر ممّا عانتّه الصحافة العربيّة في الجزائر طوال هذه المرحلة؛ نتابع نسبة التوقيف والتعطيل للصحف، من خلال متابعة المّدّد الزّمنيّة التي مكثتها هذه الصحف وعددها.

جدول يظهر حركة تعطيل ومنع الصحف العربيّة في الجزائر

الرقم	الفترة الزّمنيّة	عدد الصحف
01	من شهر واحد إلى سنة واحدة	43
02	من سنة إلى (05) سنوات	19
03	من (05) سنوات إلى (10) سنوات	03
04	من (10) سنوات إلى (15) سنة	01
05	من (15) سنة إلى (20) سنة	02
06	أكثر من (20) سنة	01



إنّ ممّا عُدّ من عقبات الصحافة العربيّة في الجزائر، تلك الممارسات التي بلغ فيها كيد الاحتلال بالصحف العربيّة أقصى حدوده، حتّى صودر من بعض العناوين عدّها الأوّل، ومنها ما سُحب من فوق بكرات المطابع، ومنها ما جُمع من نقاط البيع، لذلك نجد غالب صحف الفترة لم يتجاوز السّنة الواحدة، ولم تكن هذه الطّروف وحدها سببا في تذبذب انتشار الصحافة العربيّة في الجزائر، بل كان للاحتلال اليد الطّولى في قمع الحرف العربيّ، من خلال التّوقيف والمصادرة، أو معاقبة المنشئين إمعانا منه في إيقاف زحف حركة الإحياء.

لقد أبدى استعراض هذه المنابر الإعلامية، وإسهامها في الإحياء اللغويّ، إن على صعيد المتن أو الوضع المشهد الأكثر إبانة عن طبيعة مسار الإحياء وأقطابه وتحدياته، ثم هو عرض استحضار جهودا صحفية أخرى، غطت عليها أحداث كثيرة إثر ما استهوى الناس من ميول ممجدة لتيّار على حساب آخر، أو انتصار لجهود تيّار مقابل إهمال جهود أخرى مقابلة، ولعلّ من الصواب أن ينسحب أمر توظيف الحرف العربيّ، وتقديمه في الكتابة، والنّضحية في سبيل استمرار النّشر به على كلّ من كان له شرف الإسهام في إثراء هذه المدونة القيّمة، على أنّه من العدل أن تُنصف أولي السّابقة والمشهود لهم بالفضل، وقد تقدّموا غيرهم، فكان لكلّ منهم من الذّكر، بحسب ما سبق له من البذل.

إنّ محور إحياء اللّغة العربيّة عبر الوسيط الصحفيّ الجزائريّ خلال هذه الفترة، يُسقط معايير المفاضلة التّاريخيّة أو الفكرية بين أطراف الحراك الجزائريّ العام، فكان استعراض كلّ ما بلغته اليد ممّا كان من هذه الصّحف بلسان عربيّ، بصرف النّظر عن الوجهة الفكرية التي كانت هذه الصّحف معيّرا عنها، وناقلا متفانيّا لآرائها وقناعاتها، فإنّه لا مناص من اعتماد المدونة الصحفيّة للفترة أساسا ركينا في وصف طبيعة الحركة الإحيائيّة، ورصد مسيرتها، وبخاصّة في غياب حركة تأليف قويّة وغزيرة.

2-4- الخصائص العامّة للصّحافة الإحيائيّة الجزائريّة: لقد تمّ استعراض كمّ معتبر من المنابر الصحفيّة، ومحاولة متابعة مواقفها من اللّغة العربيّة سواء بما بذلته لها على صُحفها من مطالبات واحتجاجات، وما عرفت به من مخاطر ومضايقات، أم بما خدمتها به من الاهتمام بلغة كتابتها واستقطاب أّوم الأّقلام وأّسلمها، وأّجود الكتابات وأّحسنها، ولمّا كانت متابعة موقع اللّغة العربيّة في نظر هذه الصّحف على التّفصيل متعذّرا؛ فستستعيز الأطروحة باستعراض الخصائص العامّة للصّحافة الإحيائيّة العربيّة الجزائريّة وهي خصائص تصدر -في الجملة- عن موقف عامّ واحد، هو أنّ صحافة تحت احتلالٍ بمثل الاحتلال الفرنسيّ، لا يمكن أن تبذع أكثر ممّا أبدعت، ولا أن تقدّم أكثر ممّا قدّمت وتحت هذا الموقف العامّ ترتّب الخصائص الأّخرى بشيء من التّفصيل.

2-4-1- صحافة مقاومة ونضال: بينما عرفت الصّحافة العربيّة المشرقيّة استقرارا مكثت به الكثير من الصّحف عقودا تعالج الوضع العامّ للبلاد المشرقيّة؛ فإنّ الصّحافة الوطنيّة الجزائريّة لم يستقر لها مقام، إذ لا تلبث الصّحيفة أن تُقتل بفعل ممارسات الاحتلال من إجراءات التّوقيف الإداري، أو المصادرة، أو سجن المُنشئ أو نفيه، كما وقف انعدام أو ندرة المطابع، وتكاليف الطّباعة، وضحالة فنّيّات العمل الصحفيّ حاجزا أمام هذه الصّحافة، وممّا زاد من وصب الصّحافة الوطنيّة ورؤاها، هو

تنبّيهم للهَمّ الوطنيّ، والتّعبير عنه بالحرف العربيّ، وهما مسألتان لطالما رفضهُما الاحتلال، وبذل لحصارهما والتّضييق عليهما الكثير، وأمام هذه المشاقّ كُتِب على الصّحافة الجزائريّة الوطنيّة ورؤاها الأوائل شرف المقاومة والكفاح، فهي صحافة لم تبدأ من حيث بدأت كثير من المشاريع الصحافيّة في الأرض؛ بل بدأت مقاومة، تبحث عن الصحفيّ المقتدر الذي منع الاحتلال وجوده، وتبحث عن المطبعة التي مُنعت منها، وتبحث عن المال الذي يديرها ويحفظ استمرارها، فلا تجده، وأكثر من ذلك أنّها اضطرتّ إلى صناعة القارئ الذي يتلقّاها ويضمن استمرار صدورها.

2-4-2- صحافة هويّة وتمييز: من خصائص الصّحافة الجزائريّة لهذه الفترة، مقاومتها لإثبات ذاتها تحت وطأة الاحتلال، ففي ظلّ تعدّد التّيّارات والمشارب التي أفرزها الوضع السائد؛ أخذت الصّحافة العربيّة على عاتقها مسؤولية القضايا الوطنيّة، وبلسان عربيّ مبين، وهما شرطان لم يتحققا لكثير من النّماذج الصحفيّة الأولى قبل الحرب، وإذا ما نظرنا إلى الصّحافة المرافقة خلال فترة ما قبل الحرب من زاوية المنشئين والمضامين وتدافع اللّسانين؛ وقفنا على حجم الأزمة التي نشأت بذورها من قبل، وتجلّت أولى بواكيرها في صراع النّخبة الجزائريّة بسبب اللّغة، وهو الصّراع الذي انبجس منه تيّار المحافظين ذوي الولاء المشرقيّ، وقد تشبّعوا بقدر من الانفتاح على الآخر، وحصلوا نصيبا من وعي الواقع، وقد مثّله أمثال: عمر راسم المُجيد للغة الفرنسيّة، وعمر بن قُدُور المتفتّح على الصّحافة المشرقيّة، وعلى الصّفّة الأخرى جبهة جزائريّة الأصل، فرنسيّة الميول والنّوازع (النّخبة الاندماجيّة) وعلى الرّغم من المشاركات الأولى لعمر بن قُدُور وعمر راسم في الصّحافة الفرنسيّة؛ إلّا أنّ صحيفتا (الفاروق) و(ذو الفقار) -على قصر تجربتهما- تُعدّان نواة المشروع الصحفيّ الوطنيّ باعتبار ثلاث:

- جزائريّة المنشئ والإدارة؛
- وطنيّة المضامين والقضايا؛
- عربيّة اللّسان.

ومن دون اتّهام بقيّة الصّحف التي صدرت قبل (الفاروق) و(ذو الفقار) أو معهما أو منشئها؛ فإنّ الذي يُفترَض لأيّ صحافة وطنيّة، هو كونها حاملة هموم ذلك الوطن، معبّرة عن قضايا بلسانه نابعة من جهود أبنائه الصّادقين له بولائهم وتضحيّاتهم، أمّا ما كان خارج هذه الثلاثيّة فيُعتقد أنّه يمكن تصنيفه ضمن دائرة **المثاقفة** (Acculturations) العامّة التي يُتسامح ضمن إطارها الكبير الواسع في انتقاء التّعبير اللّسانيّ، واختيار الانتماء الفكريّ والإيديولوجيّ، والذي يبقى اختيارا فرديّا لا يمكن المناداة

بسحبته على الآخرين، ذلك أنَّ الصَّمير الجمعيّ للشُّعوب يبقى مرجعيّة يؤوب إليها الأفراد، لا أن يغامر الأفراد في ضغط أبعاد المرجعيّة الشَّعبية في زاوية نظرٍ فردٍ أو تيّار، وهذا ما يُفرز التساؤلات حول تصنيف صحيفةٍ مثل (كوكب أفريقيا) لصاحبها محمود كحول الموظف لدى الإدارة الفرنسيّة النّاطقة بالعربيّة والخادمة لمشروع الاحتلال؟ وأين تصنّف مجلّة (الإحياء) للمستعربة جان ديراو/ جمانة رياض النّاطقة بعربيّة سليمة، والمتعاطفة بصدق مع الجزائريّين وقضاياهم؟ وأين تُصنّف جريدة (الهلال) لمديرها (Vulpillere) النّاطقة بالفرنسيّة والعربيّة وقد تبنت الدِّفاع عن (الأهالي) الجزائريّين وحقوقهم؟

2-4-3- صحافة إيقاظ وتوعيّة: كان ظهور الصّحافة الجزائريّة على تلك الدّرجة من التّشظّي الذي تمّ عرضه، إثر حالة جزائريّة مزريّة لم تكن للصّحافة الفرنسيّة أن تهتمّ لها، ولا أن توظّف الإعلام لترقيّة أوضاعها؛ بل إنّ هذا الوضع كان ممّا يتلاءم مع أهداف المحتلّين، واستبقاء الجزائريّين خزاناً من اليد العاملة الجاهلة الرّخيصة، ولذلك كان هؤلاء من المعارضين بشدّة لكلّ برنامج تعليميّ أو توعويّ يعدّل من مكانة الأهليّ.

ولقد حملت الصّحافة الجزائريّة على اختلاف أشكالها وتنوّع لسانها، همّ تحسيس الجزائريّين بواقعهم وترقيّة تفكيرهم، واستنهاض هممهم نحو التّحرّر العقليّ من أوهام الخرافة والجهل، ودفع أرواحهم نحو الارتقاء السّلوكيّ، وبعث الاعتزاز بمقوماتهم التي دان لها آباؤهم وأجدادهم، تحصينا لهم من الانسلاخ وتأميناً لهم من الإدماج.

وبين التّغريب في الاستمساك بالمقومات، والتّرهيب من الانخراط في صفوف الغزاة أو ممالاتهم؛ قامت الصّحافة الجزائريّة معلّمة وموجّهة حين فُقد المعلّم، وهدمت المدرسة، وتسقط الصّحيفة تلو الصّحيفة كما يسقط المناضل تلو المناضل، إمّا قتلاً أو إبعاداً أو تضيقاً، ومع ذلك فقد كتّبت صحافة الإحياء في الجزائر صفحةً مجيدةً في تاريخ الإحياء العربيّ والإسلاميّ، وبينما كانت الصّحافة المشرقيّة تناضل لرفع المستوى الثّقافيّ وتنويع المعارف العامّة؛ كانت الصّحافة الجزائريّة الإحيائيّة النّاشئة تُصارع على جبهتين: إحداها إثباتُ حقّها في الوجود، وثانيها تهيئة قطاع واسعٍ من القراء لاحتضانها، وتبني مشاريعها وأفكارها، ومن ثمّ غلبَ على مواضيع هذه الصّحافة الدّعوة إلى تمثّل القيم الصّحيحة للدين ونبذ الخرافات والسّعوذة، والدّعوة إلى التّعلّم والتّعليم العربيّ، والعمل على استعادة اللّغة العربيّة مكانتها الطّبيعيّة، ومجانبة مردول الأخلاق التي يشيعها الاحتلال. وهي القضايا نفسها التي كانت صحافة المشرق تردّها منذ سنين، غير أنّ الاختلاف يبقى واضحاً في صحافةٍ مشرقيّة مُمكنة، وصحافة جزائريّة

مضيّق عليها، وبين تحديات التثاقف والتأثر والتأثير في المشرق ومشاريع الإبعاد والتضييق في الجزائر يلاحظ الفرق الكبير بين الصحافة هنا وهناك.

2-5- مقارنة في فلسفة التعليم الإحيائي في الجزائر خلال القرن (20): لم يكن أمام رواد الإحياء الأولين خيارات كثيرة قول أنماط التعليم، ولا إزاء ظروفه المضاعفة، فكان عليهم التكيف مع الأوضاع العامة القاسية التي طوّق بها الاحتلال الأيدي والأعناق، فصيّغت إجراءات التعليم العربي الإحيائي في إطارها، ورُسمت الأهداف تحت ضغطها، فتشكّل هذا المشروع عموماً -وتعليم اللغة العربية منه تحديداً- على أسس وقواعد فرضتها طبيعة المجتمع الجزائري التاريخي والثقافي والاجتماعي من جهة، ووجهتها الظروف والمعطيات التي أفرزها واقع الاحتلال بجميع تجلياته من جهة أخرى، فجاء تعليمًا له خصائصه وميزاته.

2-5-1- تعليم ديني في موادّه وموضوعه وأهدافه: لا يجد رواد الإحياء أيّ حرج في الإفصاح عن الطبيعة الدنيئة للتعليم الذي اختاروه في موادّه ووجهته، وسوف لن نجد صعوبة كبيرة في معرفة مبررات هذا التوجّه ودوافعه، وقد علّمت طبيعة التكوين المعرفي لهؤلاء الرّواد، فهم خريجو الجوامع الشهيرة خارج الجزائر، أو الرّوايا العلميّة داخلها، ويقف على الجهة الأخرى مبرّر قويّ آخر، وهو الاعتقاد الرّاسخ بأنّ ما يملك القدرة على مواجهة التعليم الفرنسي العلمانيّ التّصيريّ، هو تعليم صادر عن روح دينيّة مقابلة، وليس ذلك إلّا في التّمكن لتعليم بمنطلقات قرآنيّة ونبويّة، تستقطب الجزائريين وتعوّضهم خسائر العزوف عن التعليم في مدارس الاحتلال -مع قلّتها وكثرة شبهاتها- "هذا التعليم الذي لم يكن يهدف في هذه المرحلة إلى إيصال العلم والمعرفة إلى أبناء الجزائر، بقدر ما كان يهدف إلى تنصيرهم، وسلخهم من دينهم الإسلاميّ ولغتهم العربيّة"¹ ولذلك رأى الجزائريون في التعليم النّاشئ حماية عناصر الهوية الدّينيّة، ومعبّرًا للاحتفاظ بالخصوصيّة الثقافيّة واللّغويّة، وتأكيدًا لانتماء حضاريّ مختلف. حرصت حركة الإحياء على تأصيل الرؤية التّعليميّة تأصيلًا شرعيًّا، وهو تنبّه فيه قدرٌ معتبر من الذّكاء والحكمة، فهي تبرّر هذا التعليم تبريرًا دينيًّا من منطلق شهرة الفروق الدّينيّة بين الغايزي والمغرّو فتعليم اللغة العربيّة وتعلّمها الذي قد يأخذ عند المحتلّ أبعادًا قوميّة أو سياسيّة، وجد له ابن باديس - المنظر الأوّل للحركة الإحيائيّة- مخرجًا شرعيًّا يكتسب به مزيدًا من الأتباع، ويدافع به اعتراضات

¹- محمّد الطّاهر وعلي، التّعليم التّبشيريّ في الجزائر من 1830م إلى 1904م دراسة تاريخيّة تحليليّة، د ط. الجزائر: 2009م منشورات دحلب، ص17.

المحتلّ المتزايدة، فيقرّر السند الشرعيّ في حكم تعلّم اللغة العربيّة، ولم يُعوّزه التّذليل على ذلك حين يقول: "وهكذا كان التّعلّم والتّعليم في القرون الفضلى، مبناها على التّفقّه في القرآن والسّنّة. روى ابن عبد البرّ في الجامع عن الضّحّاك في قوله تعالى ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: 79] قال الضّحّاك: حقّ على كلّ من تعلّم القرآن أن يكون فقيهاً" وروى عن عمر -رضي الله عنه- أنّه كتب إلى أبي موسى -رضي الله عنه-: "أمّا بعد فتفقّهوا في السّنّة وتفقّهوا في العربيّة"¹. فتعلّم العربيّة وتعلّمها بهذا الاعتبار مشروع قائم بذاته، ومندرج ضمن مشروع إصلاحيّ أكبر ومع أنّه علم آله يُدرك به ما هو أكبر منه فهو في الوقت نفسه مشروع وطنيّ وقوميّ اكتسب قداسةً منسلةً من قداسة مادّة الوحي.

لقد صارت واضحةً الرّؤية العامّة التي أصّلت للتّعليم العربيّ الإحيائيّ، وتعليم اللغة العربيّة فيه فهي رؤية ذات شعبتين:

- وسيلة تفكيك غوامض الوحي (قرآنًا وحديثًا) عقب تراجع المستوى اللغويّ العامّ، والتي بات معها فهم هذه النصوص متعذّرًا، فتحولت إلى تراث لا حياة فيه.
- سبيل إلى امتلاك معجم لغويّ عربيّ فصيح جديد على التّدريج، أساسه المادّة القرآنيّة والحديثيّة وإشاعة مفرداته كبدائية لإعادة صياغة منظومة لغويّة راقية، تُمكن من فهم معاني الوحي وتداولها ما أمكن، وهو المنهج الذي اعتمده رُوّاد الإصلاح في دروسهم، وكتاباتهم، وتأليفاتهم، ويتجلّى واضحاً في تفسير ابن باديس، وفي شرحه للحديث النبويّ.

2-5-2- تعليم إحياء لغويّ شعبيّ، وبعث كيان أمة: تأسّس مشروع التّعليم الإحيائيّ الحرّ على قاعدة مُزدوجة الهدف، فاستهدف في شقّه الأوّل إنقاذ الهويّة الجزائريّة من المحو المسطرّ، وقد عبث الاحتلال بكلّ مقوماتها، ومثّل في شقّه الثّاني التّصدي لمشروع الاحتلال الحامل للواء الإبادة والإفناء ولذلك قامت الخلفيات الأساس لفكرة التّعليم الإحيائيّ على مثل ما نقله الإمام الإبراهيميّ في قوله: "كانت الطّريقة التي اتّفقنا عليها أنا وابن باديس في اجتماعنا بالمدينة في تربيّة النّشء هي: ألاّ نتوسّع له في العلم، وإنّما نُربيّه على فكرة صحيحة، ولو مع علم قليل، فتمّت لنا هذه التّجربة في الجيش الذي

¹- عبد الحميد بن باديس، الآثار، آثار ابن باديس، تح: عمّار طالبي، ط1. الجزائر: 1388هـ - 1968م، دار ومكتبة الشركة الجزائيّة، ج3، ص218.

أعدناه من تلامذتنا¹ والعبارة دقيقة في تصوير الواقع الذي كان عليه السياق التاريخي المصاحب فظهر للإمامين أن أقرب الطرق وأسرعها، هو مباشرة تعليم تربوي يُقْتَصَر فيه من العلم على ما يكفي لبعث الحياة، وصناعة فكر سليم يحافظ به أصحابه على ما يتحقّق من إنجازات، لذلك غلب على مناهج التّعليم الحرّ الصّبغة الإحيائية، فجاءت مقرّراته الأولى، ووسائله وموادّه بسيطة قليلة، وقد استُعيض عنها بفاعليّة وحرارة وصدق، وأنّسم بنزعة مقاومة جابهت صنوف إجراءات المسخ والتّغريب في أهدافها، "لقد كان الدّافع الذي دفع ابن باديس إلى العمل على نشر التّعليم العربيّ الإسلاميّ بين أبناء الجزائر، هو شعوره بضرورة العمل على تدارك الحالة الخطيرة التي وصلت إليها اللّغة العربيّة والدين الإسلاميّ في بداية هذا القرن، حيث كادت معالمها أن تندرس كليّة²" ونظرا لما لموقع الدين واللّغة من مكانة في النفوس، فقد انتظم التّعليم الحرّ شكلين من التّعليم:

2-5-2-1- تعليم شعبيّ شامل: وهو نشاط قَصِد به روادُ الإحياء عموم الشعب من مختلف الأعمار والطّبقات الاجتماعيّة في المساجد والنّوادي، بإلقاء الدّروس والمحاضرات، على صفة منتظمة أو عفويّة، واستُعلّت -بذكاء- المناسبات الاجتماعيّة كالمآتم والأعراس والحفلات لإلقاء الدّروس والمحاضرات بالفصحى، وارتقت الطّبقة الأولى من خريجي جهود الإحياء الأولى بالخطابة في هذه المناسبات، وصار من الفقرات الثّابتة للاجتماعات الدّوريّة والعفويّة لشعب الجمعيّة تخصيص زمن كافٍ في ختامها، تُستعرض فيها إبداعات الشعراء، ومواهب الخطباء والمحاضرين، وهو ما أعاد الأُنس الاجتماعيّ العامّ للفصحى العربيّ من أقرب الطرق، وأقلّها كلفة وهو السّماع، فقد نقل الشّيخ الإبراهيمي أحد رؤوس الخطابة والتّربيّة الشعبيّة يومذاك، أثر تلك الجهود في الوسط الشعبي، وإقبال النّاس حتّى من العوام على ما يُلقى منها بالفصحى، فظَهَر "أنّ هذه الطّبقات العاميّة التي تُواظب على سماع الدّروس والمحاضرات، قد أصبحت تفهم العربيّة الفصحى حقّ الفهم، بتأثير الممارسة والمِران، فلا يلتوي عليها غرض من أغراضها، ولا يغمض عليها معنى من معانيها³" بل الأكثر من ذلك أن أصبحوا يستهجنون ما دونها، فيقول: "وقد رجعتُ إلى العاميّة في بعض الدّروس فاستهجنوها، ونَبَتْ عنها أذواقهم،

¹ - محمّد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج 5، ص 280.

² - تركي رابح عمامرة، الشّيخ عبد الحميد بن باديس، فلسفته وجهوده في التّربية والتّعليم، د ط. الجزائر: د ت، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، ص 306.

³ - محمّد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج 1، ص 149.

وإني لا أدري لماذا لا نعجب للعامي يتعلّم الفرنسيّة بالسّماع ونعجب - بل لا نكاد نصّدق - له أن يتعلّم العربيّة بالسّماع، مع أنّ العربيّة أقرب إلى عامّيّته وفطرته وروحه؟¹ ولقد كان ذلك أقلّ ما استهدفت جهود الإحياء تحقيقه في مثل تلك الأحوال.

2-2-5-2- تعليم مكتبيّ خاصّ: هو تعليمٌ بخصائصه السّالفة، اتّجهت به حركة الإحياء إلى من هم في سنّ المدرسة، حين حرمتهم منها برامج الاحتلال، ثمّ عمّم على المدارس الإحيائيّة كلّها التي كان منها التّابع لجمعية العلماء، وهو الغالب، والتّابع لغيرها من الجمعيات الأهليّة الأخرى وانتظم في هذا التّعليم أطفال جزائريّون نهاراً، كما انتسب إليه مساءً من يدرُس منهم بالمدارس الفرنسيّة، وقبل التحاقهم به صباحاً، وقد احتفظ بشيءٍ من الطّريقة القديمة المعتمدة نظام الطّبقات المقسّمة حسب الأعمار، وحسب استكمال الطّالب لمقرّر معيّن، وعلى خلاف الشّكل الأوّل من التّعليم الذي كان على قدرٍ من العفويّة والشّعبيّة، فقد كان هذا التّعليم على درجة كافيّة من التّنظيم والكفاءة والرّقيّ، وكانت مخرجاته رصيّد الإحيائيّين المدّخر لما يُستقبل من أيّامها، وعُدّتهم في تكوين غيرهم واسترداد ألق لغتهم وتعطيل مسار الفرنسيّة والتّغريب الحاضر على السّاحة نفسها والمستهدف للعنصر البشريّ ذاته.

2-3-5-2- تعليمٌ ثائرٌ على الطّرائق الباليّة والمقرّرات العتيقة: زيادةً على النّقد الذي كان يوجّه إلى مناهج التّعليم العتيقة في الزّيتونة والأزهر من قبل حركة الإحياء، سواءً في الجزائر أم في غيرها فإنّ نقد التّعليم في الجزائر جاء في سياقٍ نقدٍ تعليمٍ تحقّق استهدافه لقتل اللّغة العربيّة، ومسح الهويّة الجزائريّة بكلّ تفاصيلها، وتحويل الأُمّة عن وجهتها المشرقيّة إلى الوجهة الفرنسيّة، ولقد ارتقى هذا النّقد من مرحلة الوصف والاعتراض، إلى صناعة بدائلٍ عمليّةٍ حقيقيّةٍ تحوّلت رأساً من الاهتمام بالمادّة المقرّرة إلى مناهج اتّخذت من المتعلّم الهدف الذي تدور لصالحه عناصر عمليّة التّعليم، فتصنع تفكيره وتُهيّء قدرته على تفعيل مكتسباته، من طريق "فهم قواعد العلم وتطبيقها حتّى تحضّل ملكة استعمالها هذا هو المقصود من الدّرس على الشّيوخ، فأما توسيع دائرة الفهم والإطلاّع، فإنّما يتوصّل إليها الطّالب بنفسه بمطالعته للكتب، ومزاولته للتّقرير والتّحرير"² وبذلك نقل التّعليم الإحيائيّ الحرّ مرتاديه إلى أفقٍ تحوّل فيه المتعلّم هدفاً تشترك في بناء ملكته الفكريّة والمعرفيّة واللّغويّة مقرّرات تمّ انتقاؤها بما أمكن من العناية، ومعلّمون مكوّنون عن علم ودراية، وتسخير كلّ ما يحيط بهما من وسائل وأدوات.

¹ - محمّد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج1، ص149.

² - عبد الحميد بن باديس، الآثار، ج4، ص203.

وبالجمع بين نفاذ الرؤية وصرامة الإجراء، أعاد التعليم الإحيائي الحر ترتيب عناصر العملية التعليمية، وأصبح واقعا اجتماعيًا استقطب مع الوقت أعدادا معتبرة من أبناء الجزائريين، ولكن كثيرين منهم لم تستوعبهم المؤسسات المنجزة، سواء على الصعيد الأفقي بتحقيق الانتشار العادل الذي يستغرق ما أمكن من الجغرافيا الجزائرية، أم على الصعيد الرأسي الذي أخذ يتعالى سقفه مع تقدم مراحل التعليم لتبرز ضرورة تحضير مرافق الاستقبال الخاصة بكل طور. وهو أمر أقض مضاجع رواد الإحياء ويكفي مُريد معرفة حقيقة الفترة تصوير الإمام الإبراهيمي لتلك المأساة، وقد ضاقت بها حركة التعليم الإحيائي في الجزائر، فاحتملها إلى البلاد العربية الشرقية في رحلته الشهيرة.

2-5-4- التعليم الحر وشعبية الإحياء: قام التعليم الإحيائي على هيئة مخصوصة نشأ عليها

واستوى، واعتمد على وسائل ومقدرات أسهمت بها الأمة من ملك يمينها، وأمنت من طريق أنصبة المشتركين منابع التمويل، واجتهدت في العمل على الاستقرار المادي للمعلمين والمؤطرين، ثم كان استهداف الفئات الشعبية البسيطة بوصفهم متلقين تؤمل لهم النجاة بأنفسهم وأمتهم، وتلك كلها مظاهر أكدت شعبية التعليم الإحيائي، فمنه صدر وعليه عاد، ولقد كان رواد الإحياء الناطقون باسمه يحرصون في كل مناسبة على التذكير بالإسهام الواسع للأمة في تمويل أصوله، وحراسة استمراره والدفاع عما حققه من نتائج، وما يؤمله من أهداف.

ولقد كان من استراتيجيات الإحيائيين في التثبيت الشعبي للإحياء، مبادرات محو الأمية، وهي مرحلة متقدمة من مراحل التفكير الواعي حول طبيعة مأساة التعليم في جزائر الاحتلال، وتقدير حجمها وكَم الاستعدادات التي ينبغي رصدها لتجاوز آثارها، فقد أفردت جمعية العلماء لهذه المعضلة حيزًا في مؤتمرها الجامع سنة 1935م، ناقشت فيها تقريرًا واصفا لها بأن الأمية "أخت الوثنية في الفتك بالعقول وتعطيل مواهبها، فلا كانت الأمية ولا كانت الوثنية، من رضيعتي لبان واحد، وربيتي حجر واحد"¹ وقد اقترح في هذا المؤتمر من الحلول العملية الممكنة ما يمكن به تجاوز شلل الأمية في المجتمع، فلقد حمل الإحيائيون حملة شعواء على الأمية بتعليم الأميين بين سنتي 1937 و1939م ف "أصبح الكثير منهم يقرأ قراءة صحيحة، ويكتب كتابة صحيحة، وكأنهم عميان تفتحت عيونهم على النور، وسمت همم بعضهم إلى المزيد، فبلغوا درجات لا بأس بها، وأغرثهم الكتابة على الحفظ، فحفظ بعضهم أجزاء من

¹ - محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج1، ص203.

القرآن، وتشوّقوا إلى الفهم، فأصبحوا يفهمون كثيراً من حقائق الدين القريبة، ومعاني الحياة البسيطة والتسلسل المجمل للتاريخ الإسلامي، وإنّ هذا الرّبح عظيم لأصحابه وللمجتمع¹ لقد أصبح إنجاح التّعليم الإحيائي وانتشاره همّاً لازماً لأعلام الإحياء، فأعدّوا لإبادة الجهل والأمية ما يمكن من محو آثار المسخ والتّجهيل التي عمل الاحتلال على استدامتها، فنزل عند الطبقات الشعبيّة ضرورة حياة، وأعطوه من أنفسهم وأموالهم ما جعل منهم، ومن ذريّتهم فخرا وذخرا.

2-6- مقارنة في مشهد حركة التّأليف الإحيائي: لعلّ ما يُبرّر الخلل الواضح في نتاج المطابع

المنحاز نحو الصّحف، على حساب طباعة الكتب، وتحقيق المخطوطات، وإصدار التّرجمات، هو ما تقتضيه حركة التّأليف والكتابة والتّحقيق والتّرجمة، من خصوصيّة الاستقرار، ووفرة الطّاقات البشريّة المقدّرة، والموارد الماليّة الكافيّة وكلّ هذا كان مفقوداً، فالموارد الماديّة بيد غير أبناء البلاد، والعلماء على قتلّهم منشغلون عن تأليف الكتب والمدوّنات بتكوين الرّجال، يقول الإبراهيمي: "لم يتّسع وقتي للتّأليف والكتابة مع هذه الجهود التي تآكل الأعمار أكلاً، ولكنني أتسلّى بأنني ألفْتُ للشّعب رجالات وعملتُ لتحرير عقوله، تمهيداً لتحرير أجساده، وصحّحتُ له دينه ولُغته فأصبح مسلماً عربياً²" ضرورة المرحلة وتداعياتها المتسارعة، ومتابعة الأحداث وتغطيتها وتوجيهها من طريق الصّحافة، كان الأكثر إلحاحاً من قيام حركة تأليف الكتب وطباعتها وتحقيق تراثها، وترجمة ما هو بغير لغتها، وهي حركة انتعشت دائماً في ظلّ استقرارٍ سياسيٍّ، وهُدوءٍ مجتمعيٍّ كافٍ، وهو ما لم يتوفّر لحركة الإحياء الجزائريّة خلال هذه الفترة الحرجة، إذ وقفت مضايقاتُ الاحتلال وممارساته حاجزاً في وجه أيٍّ وميضٍ يبعث في الجزائريّين بصيصاً من أمل.

أمّا الجزائريّون فقد استأنسوا لفترةٍ غير قصيرةٍ بالتّأليف المشرقيّ، وبالتّأليف الجزائريّ خارج الجغرافيا الجزائريّة وهما يتسلّان إلى الدّاخل الجزائريّ المحاصر، وقد كان هذا التّأليف بحكم ظروف الرّقابة الاستثنائيّة محدود الانتشار طويل التأثير، وإلّا فقد كانت تصانيف المهاجرين الجزائريّين إحيائيّة بامتياز أسهمت بقوة في حركة الإحياء المشرقيّة، وحُرِم منها الوطن الأمّ، وكيفينا أن نسوّق نتاج الشّيخ محمّد الخضر حُسين في صنوف المعارف الدّينيّة والأدبيّة واللّغويّة والدّينيّة والشّعريّة والنّفديّة، ومن عناوينها: التي تضمّنتها موسوعة الأعمال الكاملة له -رحمه الله- من جمع وضبط ابن أخيه عليّ الرّضى؛ أعمال

¹- محمّد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج4، ص172.

²- محمّد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج5، ص288.

الفصل الثاني:

مقاربات في مشاهد ومعالم حركة الإحياء اللغوي في الجزائر

لا يقوم على دراستها إلا فريقٌ كثرة وعمقا وتتوفاً ففي القرآن وعلومه؛ تفسيره: أسرار التنزيل، وكتاب بلاغة القرآن، وفي التشريع: الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، ومحاضرات إسلامية وهدى ونور ورسائل الإصلاح والسعادة العظمى وهو غير عنوان إحدى مجلاته الأربع التي أنشأها عام 1904م. وفي السير: محمد رسول الله وخاتم النبيين. وفي اللغة والأدب والنقد: نقض كتاب في الشعر الجاهلي وأسباب انتحال الشعر والخيال في الشعر العربي ودراسات أدبية ودراسات في العربية وتاريخها والقياس في العربية إضافة إلى عشرات المقالات في مختلف المجالات، ومنها مجلة مجمع القاهرة وكذا مشيخته للأزهر بين: ديسمبر 1952م وجانفي 1954م، وعضويته بالمجامع اللغوية، والكثير من الجهود العلمية الإحيائية التي اضطررتها ظروف الاحتلال أن تكون في غير موطنها، فنُسبت إلى تونس مرةً بحكم الميلاد والنشأة، وشاميّة تارةً بحكم الهجرة، ومصريّة تارةً أخرى بحكم الوفاة، وهذا نموذجٌ واحدٌ من عديد النماذج الإحيائية التي رافقت حركة الإحياء الجزائرية من خارج الحدود، ولكنها لم تنزل المنزلة المستحقّة، وقد يصدق هذا على كثير من جهود وإسهامات العلماء الجزائريين الذين شردهم الاحتلال بين المشارق والمغارب، من أمثال الشيخ طاهر الجزائري ببلاد الشام، ومن الأبناء والأحفاد ممّن يضيق بذكرهم ووصف أعمالهم المكان هنا.

ومما لا ينبغي إغفال ذكره هنا، مكتبة الشيخ طاهر السمعوني الجزائري التي يستشفّ المطّلع على عناوينها اللغوية والأدبية طبيعة الدرس الجديد الذي ثبّت الشيخ وجهته، وأعطى نماذجها، كما يمكن الوقوف على طبيعة التكوين اللغوي والأدبي الذي حمله عنه طلبته، وتسرب خارج بلاد الشام بواسطة كتاباته، وهي:

قائمة بمؤلفات الشيخ طاهر الجزائري اللغوية والأدبية

الرقم	التأليف	الرقم	التأليف
01	الكافي في اللغة	02	شرح خطبة الكافي في اللغة
03	رسائل في علم الخط	04	تمهيد العروض في فنّ العروض
05	التقريب إلى أصول التعريب.	06	عمدة المغرب وعدة المغرب
07	بديع التلخيص في فنّ البديع	08	إرشاد الألباء إلى تعليم ألف باء
09	تمام الأنس في حدود الفرس	10	تسهيل المجاز إلى فنّ المعنى والألغاز
11	مراقي علم الأدب	12	شرح ديوان خطب ابن نباتة
13	معجم أشهر الأمثال	14	مختصر أمثال الميداني

15	مختصر أدب الكاتب لابن قتيبة	16	مختصر البيان والتبيين للجاحظ
17	حدائق الأفكار في رقائق الأشعار	18	الحكم المنثورة
19	المنتقى من الذخيرة لابن بسام	20	ميزان الأفكار
21	شرح معيار الأشعار	22	تذكرة الشيخ طاهر

ومع أنّ تلك الوسطة كانت على قدرٍ محدود من التأثير الشعبيّ بحكم ظروف الاحتلال؛ إلا أنّ آثارها على تفكير خواصّ المتلقين لها، وثمراتها في صياغة الرُوى التعلّيميّة والكتّابيّة، أخذ يجد طريقه إلى واقع الحياة الثقافيّة والفكريّة في الجزائر، ولقد كان من التأثير الذي لم يُعطَ حقّه من الدّرس والمتابعة ذلك القدر الذي تسرّب من الفكر اللغويّ والأدبيّ للشيخ طاهر الجزائريّ من خلال شيخ الإحياء اللغويّ في الجزائر الإمام ابن باديس وهو القائل: "وأهمُّ كتب السلف النّافعة التي نشرها النّاشرون، إنّما نشروها بإشارته وتحريضه، وأنا وكلُّ ما نشرته لسنا إلا قطرة من بحر الخير الذي كان يتدفّق من صدر هذا العالم العامل"¹ وإذا ما وقفنا على عناوين مكتبة الشيخ الخاصّة، إضافة إلى ما كان يوصي تلاميذه بمطالعة ونشره وتحقيقه، تلمّسنا تلك المسحة الجديدة التي أخذ تصطبغ بها جهود الإحيائيين في الجزائر.

كما يجب أن لا ننسى عامل تملُّك مدرسة الاستشراق للشأن الثقافيّ والعلميّ منذ عقود، إذ اتّجه الاحتلال إلى إعادة صياغة الحركة العلميّة والثقافيّة -على اختلاف مظاهرها- بما يخدم مشروعه لغويّاً وثقافيّاً وحضاريّاً وكان من نتائج تلك الجهود، عدم احتواء المكتبة الجزائريّة في فترة الإحياء على نتاج أدبيّ وفقهيّ ودينيّ ولغويّ، إلاّ ما ليس له كبير خطر، بينما تمّ توجيه الدّراسات ذات العمق الجزائريّ الأصيل، والبحوث الحيّة ذات الأثر الفاعل، نحو خدمة عاجلةٍ وأجلةٍ لمشروع الاحتلال، وهو ما جعل حركة التّأليف رهينة موقف عيون الاستشراق بممارساته العسكريّة في ثيابٍ علميّة، ومع ذلك فقد شهدت حركة التّأليف إصدارات كانت على قلّتها نقاط انعطاف للمجتمع في تخصّصاتها.

لقد كانت حركة التّأليف في الشأن الجزائريّ عموماً واللغويّ منه خاصّة، وإطلاق حملة تحقيقٍ لمنقنيات من الثّراث الجزائريّ، إحدى نتائج اهتمامات الحاكم العام (جونار / CH. Jonnart) وفي الفترة الثّانية لحكمه (1903-1913م) بإحياء الثّراث الإسلاميّ، في إطار سياسةٍ جديدةٍ تستهدف إدماجاً

¹ - عبد الحميد بن باديس، الآثار، ج1، ص148.

انتقائياً هادئاً للجزائريين في الثقافة الفرنسية، فرعى طبع مجموعة من مؤلفات التراث التي كان الاهتمام الفرنسي بها لا يقل أهمية عن النفع الذي يعود على الجزائريين من ورائها، وفي هذه الفترة طُبعت كتب مثل: نحلة اللبيب لابن عمّار، والبستان لابن مريم، ونزهة الأنظار للورتيلاني، وعنوان الدّرية للغبريني وتعريف الخلف برجال السلف للحفناوي، وغيرها بعناية حكومة الاحتلال وبرضاها وقد طُبعت كثير من الأعمال نسبها المستشرقون لأنفسهم، بينما كانت حصيلة جهد كبير لعلماء وشيوخ جزائريين، من دون الإشارة إلى إسهامهم.

ومن نماذج التّأليف الذي كان في جانبه العلميّ اللّسانيّ إضافة نوعيّة جادّة، وشكلا آخر من أشكال التّأليف في الجزائر، ولكنّه كان في أبعاده الثّقافيّة والحضاريّة إشكالا رهن الحرف العربيّ والمضمون المعبر عنه بالحرف الفرنسيّ، وعَلَقَ بعضُهما ببعضٍ لا على سبيل المِثاقفة (Acculturations) المُنصفة، ولكن على سبيل إقامة علاقة التّابع والمتبوع، وإذا ما رامت الأطروحة التّدليل على هذا الرّأي فقد يكون النّمودجان:

(Mots Turks et Persans dans le Parler Algérien)

و

(Proverbes de l'Algérie et du Maghreb)

من بين جهود الأستاذ محمّد بن أبي شنب، التي مثّلت هذا النّمط من التّأليف.

أمّا الأوّل فتناول فيه الكلمات التّركيّة والفارسيّة الباقيّة في العاميّة الجزائريّة، وهي نموذج من كلمات تسلّل استعمالها إلى الحياة اليوميّة للجزائريين حتّى يومهم هذا، رغم طول العهد، وتعاقب الفضاءات اللّغويّة المختلفة عليها، وقد تناول ابن أبي شنب طائفة معتبرة منها، وشرحها، وعرف بها باللّغة الفرنسيّة والذي نقتطع منه المشهد¹:

¹- Mohammed Ben CHeneb, Mots Turks et Persans conservé dans le Parler Algérien, Algérie, 2009, FLITES Editions.

باقلوة et باقلوة *bâqlâwa* et *baqlâwa*. Espèce de gâteau fait avec des feuilletés de pâte au milieu desquels il y a des amandes pilées formant pâte, coupé en losange et, après cuisson, arrosé de miel ; t. باقلاوا et باقلاوا *baqlava*.

بشماق *bèšmâq* pl. بشماق. Babouche, pantoufle, (diffère du *bachmaq* باشماق et بشماق, بشماق t. ; بابوج

دربوكة *derbûka*. Chaise à porteur ; sorte de tambour composé d'un cylindre en poterie renflé à l'une des extrémités ; cette extrémité est couverte d'une peau ; l'autre extrémité est libre. Cf. *Encyclopédie de l'Islâm*, I, 946.

رشته *rèšta*. Pâte coupée en losange ou en rectangles pour faire de la soupe ; elle est aussi cuite à la vapeur et servie à la place du couscous ; p. رشته *rèchtè*, t. رشته *richtè* et ارشته *érichté* « fil, série ».

شاربات *šârbèt* et شربات *šerbèt*. Eau sucrée, citronnade ; boisson rafraîchissante, sorbet ; t. شربة *cherbet*, de l'ar. شربة « boisson abondante ».

طاوَة *tawa*. Poêle à frire, t. طاوَة et تاول *tava* du p. تابه *tâbè* (même sens).

طنجرة *tanğra* et طنجير *tanğîr*. Marmite en cuivre ; t. تنجرة *tendjèrè* et طنجرة *tandjèrè*, dérivé du p. تنكيرة et تنكيرة *tenkèrè*.

كاسَة *kâsa*. Sachet ou gant employé dans les bains pour frotter ; t. p. كاسه *kiassè* « tout ce qui a une forme ronde », كاسه *kiessè* et كيسه *kissè* « sachet de serge qu'on emploie dans les bains pour frotter » Voir كيسَة.

وأما ثانيهما: فقد جمع فيه المؤلف الأمثال الشعبية في الجزائر والمغرب، وقدم لها شرحا وافيا باللغة

الفرنسية أيضا، ونقتطع منه المشهد¹:

322. الي رقّع كساته ما عرّته M. C.

« Celui qui raccommode ses vêtements (la fortune ne le déshabille pas) n'est pas nu.

Se dit pour excuser une personne portant des vêtements rapiécés.

MEDJDOUB, 2^e éd., 90; EINSLER, 31 : من دبرت ما جاعت و من رقت ما عرات و
Celle qui rapièce n'est pas nue et celle qui se débrouille n'a pas faim.

323. الي ساري ياخذ الليل بشاؤه S.

« Celui qui voyage de nuit doit prendre la nuit à son commencement. »

Celui qui doit faire un voyage nocturne doit partir dès la tombée de la nuit.

Voir n° 339.

324. الي سبق شم الحبق A.

« Celui qui arrive le premier sent le basilic. »

325. الي سلك دينه ترقد عينه A.

« Qui paie ses dettes, (son œil) dort tranquille. »

من خلص دينه نامت عينه : CHOQAÏR, 131.

326. الي شاط على الجراد كملّه بو صائق M.

« Boû Şâg a achevé ce qui a échappé aux sauterelles ».

Ce qui a échappé aux sauterelles a été achevé par Bou Şâg. D'après les renseignements fournis, بوساق mis pour بوساق qui possède une jambe, désigne l'homme. Se dit de celui qui aggrave un mal, un dégât causé par un autre.

327. الي شاف شي يحكي عليه A.

« Celui qui voit une chose en parle. »

CHEIKHO, p. 231, 1 : اللي.

328. الي شاف الموت يستقنع بالحمى A. M.

« Celui qui (voit la mort) a été près de la mort est content d'avoir la fièvre. »

On dit aussi : المريض اذا شاف الموت الخ : Quand le malade voit la mort, etc.

Se dit de celui qui tombe dans un grand danger. Minima de malis (Phèdre), Des maux, choisis le moindre.

¹ - Mohammed Ben CHeneb, Proverbes de l'Algérie et du Maghreb, Alger: Flites Editions, p89.

فخرج الكتابان على هيئةٍ تطرح تساؤلات حول الجهة المستفيدة من هذا النوع من التأليف، هل هم عامة الجزائريين، وهم أحوج إلى من يعلمهم لغتهم المتهالكة؟ أم النخبة المعربة من الجزائريين والأولى عند هؤلاء دراساتٌ تحيي ثروتهم المنهوبة في لغتهم المغلوبة؟ أم هي موجّهة للمستغربين من الجزائريين الذين أصبح بإمكانهم فهم دوارجهم مقدّمة باللغة الفرنسيّة التي يفهمون؟ أم لقراء الأمم والشعوب الأخرى التي تجيد اللغة الفرنسيّة، فيكون تصدير ثقافتنا لهم على سبيل إثبات الذات الشّعبيّة الجزائريّة، والواقع أنّ الجزائريين تحت الاحتلال ليسوا إلّا (أهالي)؟ أم للمستشرقين الذين توجّه اهتمامهم منذ أول نزولهم إلى العاميّات تُدرّس بها ذهنيّات (الأهالي)، وتُستخدَم معولا لهدم الفصحى؟ قد يكون الاحتمال الأخير أقرب إلى الاختيار، بحكم المنهج الذي اعتمده المستشرقون في رعاية وجهة التأليف العلميّ الجزائريّ والاستفادة من كلّ ما يوثّق مبررات الاستتباع الثقافيّ واللّسانيّ وسيلة، بلوغا به إلى الاستلحاق الحضاريّ غايةً.

وخلاصة أمر خصائص المكونات التي رفعت مشروع الإحياء اللغويّ في الجزائر، هي ثبوت وجود رافد بشريّ نوعيّ حمل همّ بعث اللغة العربيّة في الجزائر، ووجود جهود إحيائية نوعيّة بمظاهر تعليميّة وتأليفية وغيرها، أسهمت كلّها في العودة باللغة العربيّة من بعيد، وما كان جهودا منفردة في بداية القرن (20) لا يحمل من آفاق النّجاح أيّ نصيب، قد اكتسب مع اجتماعه، والنقاء بعضه ببعض وضوحا في الرؤية، واستقواء على العقبات والمصاعب، وما كان يحمل صفة المشروع الذي قد يكتب له قدر من النّجاح أو الفشل، صار مع الزّمن حركة مكتملة المكونات، واضحة الرّؤى والمعالم، متعدّدة الاهتمامات والأعمال، وقد ملكت نصيبا معتبرا من الفعاليّة الاجتماعيّة والثقافيّة، وأثبتت حضورا نوعيّا على صعدٍ مختلفة.

غير أنّ النّظر العلميّ المنصف لا يسمح بتصنيف هذه الحركة الإحيائية ضمن الحركات الإحيائية الكبرى، ولا اعتبارها نموذجا قد حاز من الأسباب ما يمكن الحكم له بالنّجاح المطلق، ولا استغراق كلّ الفضاءات، ولا الإحاطة بجميع السيّاقات، ولعلّ الظروف الخاصّة للاحتلال الفرنسيّ في الجزائر - والتي عرضت الأطروحة لشيء يسير منها - كافيةٌ لرفع العذر عن هذه الحركة في عدم بلوغها أكثر ممّا بلغت، واستعفافها في العجز عن تحقيق مالم تقدر على تحقيقه، وهو مقام الإنصاف حين تعاد قراءة المنجز والممتنع في إطار السيّاق التاريخي للمرحلة.

ثانيا: مقاربات في قضايا مرافقة لمشروع الإحياء اللغوي

"إنَّ هناك نهضةً لا يمكن لأحد إنكارها، ومن خصائصها

أنَّها كانت موجَّهة إلى اتِّصال الجزائريين بأسلافهم من جهةٍ

وتوثيق الرُّوابط بينهم وبين إخوانهم المشاركة من جهةٍ أخرى¹"

توطئة: تقفُ حركة الإحياء اللغوي في الجزائر موقفاً تتوسَّط فيه بين مراكز جذبٍ يبدو أنَّ الفصل

في أمرها نهائياً لا يزال متعذِّراً، بحكم التَّدخُّلات المعقَّدة التي أسهمت بقليلٍ أو كثيرٍ في تشكيل واقعها

وعدم قدرتها -لحدِّ الآن- على الانفكاك منها، ثمَّ في طبيعة وجهتها التي كانت نتيجةً طبيعيَّةً لتجاذبات

التَّشكيل، وإذا أمكن تشخيصُ موقعِ هذه الحركة، وسبر قوَّة جذبها ودفعها، وما كان له دورُ صياغة

طبيعتها بشكلٍ ما؛ فقد لا يمكن التَّعرُّض له إلَّا من خلال جُملةٍ مقارباتٍ تأخذ في ترتيبها تسلسلاً زمنياً

وتروم في مضمونها إعادة قراءةٍ للسَّند الفكريِّ والبشريِّ للحركة، ومحاولة تصوُّر الوجهة العامَّة لها.

ولئن وقفت حركة الإحياء اللغوي في الجزائر الحديثة تواجه ماضيها بأثقاله، وحاضرهما بمضايقاته

ومستقبلها بمخاوفه، فقد يكفيها أنَّها أصبحت رقماً موجَّبا، بعد أن لم تكن شيئاً، ولئن لم يتحقَّق لها كلُّ

ما أضمرت، فقد يكون عزاءٌ لها -ولو على غير رضى- ما أظهرت.

وبين إنكار البعض وجود حركة إحيائيَّة لغويَّة في الجزائر عنادا، وغفلة الجاهلين بها استصغارا

والمتجاهلين لها احتقارا، والسَّاخطين عليها جهارا، والمحتفين بها -على غير وفاء- افتخارا، تُفتَح هذه

المقاربات اقتحاما ليس لي فيه عُدَّة كافية، كيف وهي قضايا قد أرهقت سادة فطاحل، ووقف دون البتِّ

فيها علماء أفاضل، وإنَّ كان لي فيه من يدٍ فهي يدُ الأمل لحركة أن تستقرَّ وتستمرَّ وتنتشر، وكما سبق

التَّأسيس للمسألة اللغويَّة في الجزائر بالماضي التُّركيِّ، وما خلفه من حسنٍ أو سيِّء الآثار، والوجود

الفرنسيِّ بما أظهر أو أخفى من الأفكار، والأنسِ المشرقيِّ بما أقرَّ أو أقصى من منجزات وأنظار

ستكون هذه المقاربات نظرات يُقلَّب فيها القول على وجوهه، ويُدار فيها الرأْي بين أصوله وفروعه.

¹ - سعد الدِّين بن أبي شنب. ملحق كتاب (الدِّراسات العربيَّة في الجزائر في عهد الاحتلال الفرنسي) ص102.

المقاربة الأولى

1- مسؤولية الأتراك عن الوضع اللغويّ في الجزائر:

"بيد أن عظمة التُّرك لم تكن في غير الحرب، فالتُّرك، وإن استطاعوا أن يؤسسوا دولةً كبيرة، أثبتوا عجزهم عن إبداع حضارة في كلِّ زمن وكان أقصى جهودهم أن يستفيدوا ممَّا أصبح تحت أيديهم من علوم العرب وفنونهم وصناعاتهم وتجارتهن، ولم يقدر التُّرك أن يتقدّموا خطوةً واحدة في هذه المعارف التي ازدهرت أيام سلطان العرب¹".

تتناول الأطروحة هذه القضية مع أن بينها وبين نشأة الإحياء عقود طويلة، فما مدى أحقية قول القائلين: إنَّ الحقيقة التاريخية لا تُعفي الأتراك من صناعة وضعٍ لغويّ وجد فيه الاحتلال الفرنسيّ اللُّغة العربيّة مهیضة الجناح، لا يقام لها عند الحكام شأنٌ؟ وبناء على ذلك فما حدود مسؤولية الاحتلال الفرنسيّ عن الوضع اللغويّ في الجزائر؟ هل هي مؤسسة في مواقفها الكثيرة على ممارسات الأتراك إزاء الوضع الثقافيّ عموماً واللغويّ منه تحديداً؟ أم أنّه جرمٌ فرنسيّ خالص؟ .

مع ما كان يراه أهل البلاد الجزائريّة في زمن الأتراك من مظاهر سلوكيّة ولغويّة غريبة عن مجتمعهم؛ إلّا أن الظاهر أنّهم كانوا يقاربون ذلك بالدور الدفاعيّ السیاسيّ والعسكريّ الذي كان يتكفّل به هؤلاء الوافدون، فيرون أنّ صبرهم على السلوك الاجتماعيّ على ما فيه من حيف وعدوان يقلّ ويكثر؛ أهون عليهم من مكابدة صليبيّة أوربيّة صاعدة تتربّص بهم في البحر، ولربّما كان للعاطفة الدینیّة المشتركة الأثر الأوّل في اصطباغ الحياة الاجتماعيّة العامّة في الجزائر العثمانيّة في صناعة قدر من الرضى والقبول، سلّم به أهل البلاد -على مضضٍ- للوافدين الأتراك بتولّي المناصب، والقيام على الشؤون العسكريّة والسیاسيّة العامّة، بينما سلّم هؤلاء الوافدون للأهالي بكثير من شؤونهم الدّاخليّة الاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة، وليس هذا الوضع على إطلاقه؛ فقد كانت تحدّث بين الحين والآخر ثوراتٍ ورفضٍ وسخطٍ في مناطق متفرّقة، أو عند فئاتٍ معيّنة، كبعض شيوخ الزوايا، ولكنّ ذلك لم يبلغ درجة الثورة العامّة التي يحدث فيها الإجماعُ على الرّفص.

¹ - غوستاف لوبون، حضارة العرب، ص 610.

إنَّ ذهنيَّة مجتمع القبيلة والعشيرة الذي طَبَعَ معظم هذه الفترة، لم تسمح بتكوين وعي وطنيٍّ جامعٍ تتوحد من خلاله النظرة إلى القضايا الكبرى، غير أنَّ القضية الأساس التي كانت تشغل الأتراك الوافدين بكلِّ تركيباتهم البشريَّة المختلفة المطاعم والمطامح، وتشغل أهل البلاد على اختلاف مناطقهم ومواقعهم الاجتماعيَّة، هي الحفاظ على حوزة الأرض والدين من الغاصبين، الذين أعلنوا عن نيَّاتهم مرَّاتٍ عديدة في الاستحواذ على الصِّفَّة الجنوبيَّة للمتوسِّط من الفرنسيِّين والإسبان وغيرهم.

ولعلَّ تقييم هذه الأولويَّات، ودرجة اعتبارها عند الدارسين، هو السَّبب في اختلاف الحُكم على هذه الفترة من الوجود التُّركيِّ في الجزائر، فيعتبره بعضهم عوناً وأزراً وهيبة وتمكيناً، ويفضِّلون لذلك مصطلح (العثمانيِّين) تقديماً منهم لمسمَّى الخلافة، وما يليقه من ظلالِ الغلبة والنَّمع على الأعداء، وعلى رأس هؤلاء الأستاذ مولود قاسم نايت بلقاسم الذي يعتبر التَّنكُّر للفترة التُّركيَّة خطوة إلى "اقتطاع فصولٍ رائعة من سيرة أمتنا"¹ ورغم الحقائق التَّاريخيَّة الموثَّقة التي استند إليها في إثبات الشَّخصيَّة الدَّوليَّة للجزائر إبَّان العهد التُّركيِّ، فإنَّ الملاحظ أنَّه يصدر في موقفه هذا عن شعور بالامتعاض من مواقف المؤرِّخين الفرنسيِّين الذين يطعنون في الفترة التُّركيَّة، لإضفاء الشَّرعيَّة على احتلالهم للجزائر، ومُنكراً عليهم التَّركيز "على عهدٍ من أزهر عهودنا، وأمجد عصورنا، ألا وهو عهدُ الدَّايات، أو العهد العثمانيِّ الذي يشوِّهونه ويصفونه بأنَّه عهد سيطرة تركيَّة"² كما قد يكون التَّكوين العسكريِّ والسِّياسيِّ للأستاذ غالبا على رؤيته التي صاغها في اعتبار الوجود العثمانيِّ فتحاً، ورثت الجزائر إثره مكانةً دوليَّة عالميَّة، واكتسبت معه صيِّناً ملأ الدُّنيا، مقدِّماً ذلك على الآثار التي تركتها هذه الفترة على الصَّعيد الثَّقافيِّ واللُّغويِّ للجزائريِّين مع أنَّه من أشدِّ المُنافحين على الثَّقافة المحليَّة واللُّغة العربيَّة، ولكنَّه رأى الأولويَّة في ما سبق.

بينما ينظر لفيِّف آخر من الباحثين إلى الوجود التُّركيِّ في الجزائر همَّاً ثقيلاً أرهق الجزائريِّين ردحا من الزَّمن، وأنَّ ما تحقَّق من رقيِّ ثقافيٍّ وتعليميٍّ يناسب المرحلة إنَّما هو حاصلُ جهدٍ شعبيٍّ جزائريٍّ لا مزيَّة فيه للأتراك، ومن الذين على هذا الرُّأي: الأستاذ أبو القاسم سعد الله، والأستاذ عبد الرَّحمان الجيلاليِّ، والأستاذ مبارك الميليِّ، الذي يسوق موقفه بقوله: "وإذا لاحظنا أنَّ الأتراك لم يكونوا يُعنون بالثَّقافة عنايتهم بالحرب؛ أدركنا أنَّ هذا الرُّقيِّ، وهذا الازدهار الثَّقافيِّ، حقَّقه الجزائريُّون بأنفسهم مدفوعين

¹ - مولود قاسم نايت بلقاسم، شخصيَّة الجزائر الدَّوليَّة وهيبتها العالميَّة قبل سنة 1830، ج1، ص9.

² - مولود قاسم نايت بلقاسم، شخصيَّة الجزائر الدَّوليَّة وهيبتها العالميَّة قبل سنة 1830، ج1، ص12.

بدافع شعوريّ منبثقٍ من أعماق الشعب¹ وهو رأيٌ ينطلق أصحابُهُ من وقائع تاريخيّة مسندة إلى وثائق تتفق على أنّه إذا كان من ضرورةٍ لافتراض الرّضى بالبداية التي قد تُتقبّل في صدّ عدوانٍ صليبيّ حاقٍ؛ فإنّ مقام الأتراك مع تقدّم الزّمن تحوّل عبئا من نوع آخر، بما تركه من شروخ على البنية الاجتماعيّة والثقافيّة واللّغويّة للمجتمع الجزائريّ، ولا يجد أنصارُ هذا الاتّجاه كبير عناء في إثبات حوادث السّلب والنّهب والإقصاء، والاستئثار بالملك والمناصب دون أهل البلد، ناهيك عن التّفريط في جوانب الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة التي ما كان ينبغي لدولةٍ في موقع الخلافة أن تتخلّى عنها.

ولعلّ أهمّ جانبٍ ممّا يعني الأطروحة هو موقف (العثمانيّين) أو (الأتراك) -على حسب دلالة المصطلحين عند أنصار كلّ منهما- من اللّغة العربيّة في الجزائر، والذي يمكن تلخيصه في القول: إذا لم يكن بإمكان الأتراك تبني الارتقاء باللّغة العربيّة في الجزائر وخدمتها، حرصا على الحضور الرّسميّ التّركيّ؛ فلم يكن بإمكانهم إفساح المجال واسعا لأهل البلد بالارتقاء بلغتهم، وتمكينهم ممّا يحفظ كيانها ويرتفع بأفاقها؟ أمّا وقد كان لهم إزاء اللّغة العربيّة وأهلها تلك الممارسات، فإنّ عليهم ذنب التّأخّر في ترقّيّتها، والتّفريط في سيادتها، وإذن فإنّ عليهم من التّبعة بقدر ما فرّطوا، وعلى قدر الضّعف الذي أدرك اللّغة العربيّة حين تسلّمها منهم الفرنسيّون، وهي على تلك الحال من التّردّي والوهن، وإذا ما نقل كثير من الدّارسين اعتراف الفرنسيّين حين احتلالهم الجزائر باندهاشهم لحالة التّعليم التي وجدوها؛ فإنّ ذلك استشهداً يقاربون به درجة السّوء الذي أصاب به الفرنسيّون اللّغة العربيّة في الجزائر أكثر ممّا يزكّي به الأتراك في تعاملهم معها.

ثمّ إنّ من الزّوائر التي يُمكن أن تُسَعِف الباحث في بناء حكمٍ أقرب إلى الموضوعيّة من مواقف كلا الفريقين، واستصدار رؤيةٍ لا ترمي القوم بالتّفريط ولا تُبرّئهم من التّقصير؛ هو النّظر في طبيعة المدوّنة الجزائريّة في آخر عهدهم، في مادّتها ولغتها وأساليب صياغتها، وأعتقد أنّ ذلك وسيلةٌ علميّة مقنّعة عند صياغة الموقف العلميّ، مدعوما بالحجّة التاريخيّة والدّليل الماديّ، وليس بعيدا أن يستعرض الدّارسون نماذج رسائل وخطب أعلام الفترة، أو النّظر في مصنّفاتهم، من حيث مواضيعها وأساليب كتابتها، ومستوى لغتها، وهي سبيلٌ تُلزم كلّ فريقٍ الحجّة في الدّفاع عن موقف الأتراك من الثّقافة العربيّة

¹ - مبارك الميليّ، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، ص316.

واللغة العربيّة -تحديداً- في الجزائر نهاية عهدهم، أو إثبات مقولات التّفريط أو التّقصير أو المعادة في حقّهم.

المقاربة الثّانية:

2- الاستشراق الفرنسي في الجزائر؛ اختراق لسان أم تطويع إنسان؟

"في إطار استراتيجية الحرب اللغويّة التي شنتها فرنسا على العربيّة في الجزائر خاصّة وعلى العربيّة عامّة، جندت لذلك ترسانتها الاستشراقية، واستغرت كبار كتّابها ومفكرها وخبرائها اللغويين من مستشرقين وغيرهم، فكانت اللغة العربيّة نصب أعينهم، فهي مصدر القوّة الجامعة والموحّدة للعرب ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، وخاصّة في الجزائر، فلم يكتف الاستعمار بمضايقتها، وتقديم الفرنسيّة كبديل عنها، فعزف على وتر العاميّة القريبة من العربيّة والتي يتكلّمها ويفهمها عامّة السّكان¹

2-1- موقع الاستشراق من مشروع الاحتلال: لعلّ من نقاط الظلّ التي لا يزال نصيبٌ معتبرٌ

منها محلّ جهود إضافية من الدّراسة والتّحليل، مسألة استراتيجيّات الاستشراق الفرنسيّ في تأطير الوضع اللغويّ في الجزائر، وآثار ذلك على الصّعيدين الثّقافيّ والاجتماعيّ، ويأتي الحديث عن هذه القضية - من وجهة نظر موضوع الأطروحة- في سياق محاولة الإجابة عن تساؤلات ملّحة حول طبيعة الجُهد الاستشراقيّ الذي وجّه اهتمامه إلى المسألة اللغويّة في الجزائر؟ وما السُّبل التي سلكها لاحتواء الواقع اللغويّ الجزائريّ بتنوّعاته ووظائفه؟ وماذا أُعلن من أهدافه وماذا أُخفي؟ وما الهدف الحقيقيّ من وراء ذلك؟

قام الهيكل العام لمشروع الاحتلال إزاء اللغة على قاعدة كبرى، هي القضاء على اللغة العربيّة في الجزائر، واستبدالها باللغة الفرنسيّة إمّا من طريق إفناء الإنسان، وإمّا من طريق تغيير الفكر واللّسان وأخذ المشروع امتداداتٍ زمنيّة، وجبهات اجتماعيّة، فأما الامتدادات الزّمنيّة فتوزّعت على:

- إجراءات عاجلة للسيطرة على الوضع اللّسانيّ، وبداية التّحكّم فيه.
- إجراءات ذات أجلٍ متوسّط تُمكن من التّحكّم في الوضع اللّسانيّ وتوجيهه.
- إجراءات طويلة المدى تُحقّق استبدالاً لسانياً، ليحلّ اللّسان الفرنسيّ محلّ اللّسان العربيّ نهائياً.

¹ - الطّيب بن إبراهيم، الاستشراق الفرنسي وتعدّد مهامه خاصّة في الجزائر، ص 153.

وأما على الجبهة الاجتماعية، فقد طالت هذه الإجراءات قطاعات المجتمع كلها، ومظاهر الحياة العامة بمؤسساتها، ثم هو استهداف - قبل ذلك وبعده - للغة العربية في وضعها ومنتها.

ومما تجب الإشارة إليه هنا؛ هو صعوبة الفصل الحقيقي والنهائي بين هذه المراحل، كما أن محاولة استعراض الخطوات الاستراتيجية التي استهدف بها الاحتلال الوضع اللغوي، لن تكون مُحاطة بإدراك كامل، ما لم يسبق ذلك استحضار دور الاستشراق في صياغة مشاريع الاستكشاف وتسطير إجراءات الاستحواذ، وبناء تصوّرات الاستشراف، وما يزيد من أهمية هذه المسألة هو طريقة تناول الاستشراق للمسألة اللغوية في الجزائر، وتموقعه الدائم وراء الإجراءات النظرية والتطبيقية للاحتلال وفي مراحله كلها، فلبس لكل مرحلة لبوسها، وتلون لكل وضع بما يناسبه.

لقد شرع المستشرقون في دراسة الواقع اللساني للجزائريين قبل 1830م بزمانٍ طويل، وامتدت آثار تلك الدراسات إلى ما بعد ذلك بكثير، ويمكن تقسيم المسيرة الاستشراقية الفرنسية في الجزائر إلى ثلاثة مراحل كبيرة، بدأت أولاها فعلياً منذ نزول الاحتلال 1830م إلى 1880م، تلتها المرحلة الثانية التي تبدأ من 1880م وتستمر إلى 1930م، ثم مرحلة ما بعد 1930م، التي تحولت بعدها إلى استراتيجيات أخرى، بفعل معطيات مرحلة ما بعد المؤوية، وقد أشرف على هذه العملية -تخطيطاً وممارسةً- أعلام جمع أغلبهم بين التحكم في اللغة العربية وبعض اللغات الشرقية، وتخصّصات أخرى تستحضرهم الخطاطة الموالية مجتمعين، على أنه لا يمكن استحضار وظائفهم وأعمالهم الأخرى، فقد جمعوا إلى هذا الشكل من الدراسات، مهام التّأليف والترجمة والتّحقيق والإشراف عليهما، وإعداد البحوث الميدانية حولها، والمشاركة في البعثات الاستكشافية في الجزائر والمغرب العربي وأفريقيا.

جدول بأسماء المستشرقين أساتذة كراسي اللغة العربية في الجزائر خلال الفترة 1830-1900م

رقم	الحلقة	المدرّسون
01	الجزائر	جوني فرعون، وبرينييه، وكومباريل، ورشبي، وهوداس
02	قسنطينة	فينيار، وشيربونو، ورشبي، ومارتن، وموتيلانسكي، وكور،
03	وهران	هادمان، وكومباريل، وهوداس، وماشويل، ودلفان، وموليراس، وبيل.
04	كوليج الجزائر	قورقوس (1846م)
05	الكوليج الامبريالي	بيرون (1857م)
06	مدرسة الآداب	هوداس (1863م).

اكتفى الفرنسيون من دراسة الوضع اللساني الجزائري بداية الاحتلال بما يمكنهم من الاختراق وبداية التدمير، أما استمرار دراساتهم بعد ذلك فقد كان له أبعاد أخرى تتجاوز مرحلة الإماتة، ومن هنا فإن التسليم بهذا التقسيم سيكون باعتبار الممارسة الغالبة في زمنها، وليس باعتباره عنوانا دقيق الوصف لما تحته، وسينسحب الاعتبار نفسه على المسارين الآخرين، فاستعراض أهم تفاصيل المسارات الثلاثة إنما يكون بغرض محاولة إعادة صياغة مخطط إماتة اللغة العربية في الجزائر من طريق مقارنة إجراءات المحتل إزاء اللغة العربية، والسعي لرسم نموذج قد تكون أوفى التسميات له هو: قتل اللغة.

2-2- الاستشراق الفرنسي في رحلة الاختراق اللساني الجزائري: حازت المسألة اللغوية لدى

سلطات الاحتلال موقعا انطلقت فيه من ضرورة الإحاطة بالمستعمرة الجديدة، من طريق الاستحواذ على لغتها، والتحكم في مفاصل حضورها، بداية من دراسة واقعها تفصيلا، ثم العمل على إزاحة لغوية (Displacement Language) للغة العربية من مواقعها الطبيعية، ثم إعادة صياغة المنظومة اللسانية الجزائرية، من طريق إعادة تشكيل لغة الفرد الجزائري، ثم تشكيل لغة المجموع، فتوزع الجهد الاستشراقي لتحقيق هذا المشروع على خطوات، تمثلت بداية في شكل جهود غلبت عليها أعمال الاستكشاف، وكثرة التثقلات، وجمع المادة، من قبل قلة من المستشرقين المتخصصين، وكثرة من المترجمين، إذ تستعرض المصادر التاريخية حركة نشطة ألفت فيها العديد من المعاجم والقواميس، وأنشئت فيها كراسي اللغة العربية، وهنا جاء التأسيس للمشروع بإحلال العامية -التي لقيت اهتماما استشراقيا واسعا- محل اللغة العربية الفصحى.

ترجع أصول الاهتمام الأوربي بمسألة اللهجات العامية الشرقية، بإدراج العاميات المحلية للقوميات العربية في مقررات الكليات والمعاهد المنشأة في أوربا بداية من مدرسة نابولي للدروس الشرقية المنشأة سنة 1727م، والمجددة سنة 1888م، ومرورا ب (مدرسة القناصل) النمساوية المنشأة سنة 1754م ف(مدرسة اللغات الشرقية الحية) بفرنسا بريادة (سيلفستر دي ساسي / Silvestre de Sacy) شيخ المستشرقين، سنة 1824م مستعينا في بداية الاحتلال بميخائيل الصبّاغ، وما لبث أن أصبحت مسألة العاميات العربية اهتماما استشراقيا عاما، وظف فيه المستشرقون مدرّسين، ومترجمين، وكان من ثمار هذا الإجراء إصدار كتب تعليمية وقواميس، كما فعل جوني فرعون في كتابه (النحو الابتدائي للعربية الدارجة) وأعدّه خصيصا للفرنسيين، وأعاد نشره بعد مراجعته وتيسيره، بعنوان (موجز النحو العربي البسيط) ونشر برينيه كتابا سمّاه (الموجز) وحدّد فيه خصائص اللهجة الجزائرية العامية، وعرض فيه

الفصل الثاني:

مقاربات في مشاهد ومعالم حركة الإحياء اللغوي في الجزائر

تفاصيل عن حياة الجزائريين، ونشر ماشويل كتابا في قواعد اللغة العامية، وكان متصدّر كرسّي تدريس اللغة العربية في وهران، وهو الذي بحث موضوع اللغة والاستعمار، داعيًا الفرنسيين إلى تعلّم العربية تنازلاً، من أجل تحقيق الصّالح الاستعماريّ على المدى الطّويل، كما نشر شيربونو دروسه في النّحو والصّرف وطريقة تعلّم العاميّة الخاصّة بالأوربيين، ووصّف العاميّة الجزائرية، وأصدر قاموسين مزدوجين عربيّ- فرنسيّ، وفرنسيّ- عربيّ. كما دوّن النّتاج الشّعبيّ ممثلاً في كتاب بعنوان (حكايات المسلمين) وهي نماذج من نتاج الاستشراق في سنواته الأولى، وقد غلب عليه وصفان، أحدهما: الوظيفيّة التي تسمح باستعمال يوميّ، فهي تستعمل الدّارج من الكلام، كالقواميس التي ألفها يامين فانسانت، وإبراهام دانيواس، وطبعتها وزارة الحربيّة، ووُرّعت على الجنود الفرنسيين، وثانيهما التّعليميّة: وهي مبادئ أوليّة في طرائق اكتساب ما به الحاجة التّواصلية اليومية من اللغة.

نماذج مقتطعة من معجم (عربي - فرنسي) تظهر فيها الكلمات عاميّة مع ما يقابلها باللغة الفرنسيّة¹

تَسْيَار	Voyage
شَكْوَة	Plainte. Outre à mettre le lait.
غَنّاي	Chantier populaire.
جُرْطاس	Égineux. Animal qui n'a pas de cornes.
قَيْطُون	Cente, surtout tente en toile.
كَرْوشَة	Voiture, wagon. Carrosse (mot français).
نَوْض	Faire lever.
وَلِيَّة	Dame.

¹ - O.houdas et G delphin, Recueil de lettres arabes manuscrites, 2eme éd. Alger: 1891, Adolphe jourdan, libraire-éditeur.

وبعرض هذا المقتطع من أحد النماذج المعجمية السائدة يومذاك، يقف الدارس على طبيعة تلك الجهود، ويدرك حجم الاختراق الذي اخترقت به هذه المؤلفات النسيج المعجمي الفصيح للغة العربية.

2-3- الدرس اللساني الاستشراقي، والسبيل إلى تطويع الإنسان: لم يلبث الاحتلال أن أسند إلى مخبر الاستشراق تنظيم الشأن العلمي واللغوي والثقافي الجزائري، وإدراج هذه الجهود الفردية في إطار مهمات لجنة الاستكشاف المشكّلة سنة 1838م، وهي مرحلة مطبوعة بطابع غصب المكتبات وسرقة المخطوطات، والاستحواذ على الوثائق والمدونات، بما يقابل مرحلة العنف المادي الذي مارسه العسكريون على البنيات المختلفة للمجتمع الجزائري، من مؤسساته الدينية والتعليمية والاجتماعية وغيرها وإثر ذلك شرع في تنظيم تدريس اللغة العربية للأوربيين، وهي الخطوة التي سمحت للمستشرقين بالتفكير في أفضل طرق الاستحواذ، وضبط مشاريعهم في إطارها مستقبلا، لقد اختتم بريزني أول دروسه في يناير 1837م مشيدا بدور دراسة اللغة العربية في إقامة علاقات وثيقة مع الأهالي، ومركّزا على دراسة الآداب، التي سوف "تمكّننا من التوغّل في تاريخهم حتّى نصل إلى مصادر أفكارهم، ونعرف أحكامهم المسبقة وعاداتهم وتقاليدهم"¹ لقد كانت الدراسات حول اللغة العامية خلال هذه الفترة في شكلها الأول ولم تتجاوز مرحلة تعلّمها لفكّ عقدة التّواصل مع الجزائريين، ولكن أعمال المستشرق الآخر جاك أوغست شاربونو ودراساته، كان لها دور بارز في وضع "معالم الطريق لدراسة اللهجة العامية الجزائرية"² ولقد كانت بداية الطريق هذه، مع بداية انفتاح الاحتلال على العمق الجزائري في الضواحي والأرياف، إذ سمحت الخلفية اللغوية العربية للمستشرقين بالاحتكاك الحذر والاستئناس بطبقات الشعب المختلفة في مواقعهم، وتلك فرصة للاستشراق النظري الناشئ في كليات أورپا ليمارس نتائج درسه، "فإنّ العربية بالنسبة لمستعربي الفترة الاستعمارية لا يمكن أن تكون سوى الدّارجة، لأنّها هي الحاضرة في أوساط الشعب المستعمر"³ وبينما كان لفيّ من المستشرقين مرافقا لحملات الإبادة العسكرية، مشتغلا بتجميع المخطوطات، والاطّلاع على التراث الجزائري من خلالها، انشغل آخرون بجمع المدونة الشفاهية من أفواه النّاطقين وتوثيقها، وقد استهواهم منها شكلها القائم في لغتها العامية المحبّدة، وسهولة التّواصل بها

¹ - إسماعيل العربي، الدّراسات العربية في الجزائر في عهد الاحتلال الفرنسي، ص13.

² - إسماعيل العربي، الدّراسات العربية في الجزائر في عهد الاحتلال الفرنسي، ص21.

³ - دانيال ريغ، رجل الاستشراق مسارات اللغة العربية في فرنسا، تر: إبراهيم صحراوي، د ط. الجزائر: 2008م، دار التّوير للنشر والتّوزيع، ص159.

ومضامينها التي هي الطريق إلى منطلقات التفكير، ومعرفة الطّبائع. ويكفي أن نسجّل في هذا الإطار جهداً استشرافيّاً بعد ثلاث سنوات من الاحتلال، ف"في 1835م نشر دو لا بورت (مبادئ الأمثال العربيّة في الجزائر)¹" كما كان الشّعر الشّعبيّ موضع دراسة واسعة وعميقة من قبل مدرسة الاستشراق، وقد أصبح هذا الشّعر تهديداً حقيقياً نقل به المدّاحون في الأسواق والمناسبات مواقف سياسيّة، وتلميحات تُعرّض بالاحتلال، فحاربتَه السُّلطات الفرنسيّة، بعد أن تنبّهت لأثره وخطره، وعند ذاك تكفّل عددٌ من المستشرقين فيهم الإسكندر جولي بمهمّة جمع الأشعار الشّعبيّة من البدو، وسماها (عصريّة) إمعاناً في تمجيد لغتها، وتشجيعاً للتّخليّ عن الفصحى (القديمة) فكان مجموعهُ الأوّل (ملاحظات على الشّعر العصريّ عند البدو الجزائريّين) وجمع مجاميع أخرى بتعليقاته عليها أثناء رحلاته إلى الجنوب، وسماعه لتلك الأشعار من أفواه قائلّيها، وأتبع ذلك بدراساتٍ حول تسميّاتها، وطرائق أدائها والفروق بينها، ليشقّ في أثناء ذلك مسلك دراسات اللّهجات العربيّة في شمال أفريقيا، لقد "أصبحت اللّغة العربيّة بالنّسبة إلى الأوروبيّ (الآخر) مرآة المجتمع بامتياز، وسيحذو حذوها الأدب، ومع بلوغ الجهود الاستشرافيّة أوجها نهاية القرن (19) سيصوّر الأدب الفرنسيّ باطراد اللّغة العربيّة"² وهو البُعد الذي سيؤسّس عليه الاحتلال دراسة الأوضاع العامّة، ليس في الجزائر فحسب بل في دول الجوار، ويمهّد به لاحتلال المغرب وتونس ودول إفريقيّة أخرى. وسيقع اختيار السُّلطات العسكريّة على جولي، ليصبح أحد أعضاء اللّجنة العلميّة الفرنسيّة المشكّلة لدراسة الأوضاع في المغرب الأقصى، تحضيراً لاحتلاله، وعضواً معاوناً لمصلحة إعداد الأطالس الجيولوجيّة، ومشاركاً في وضع خريطة الجزائر الأثريّة، كلّ ذلك بما سبق له من إجادّة اللّغة الشّعبيّة للجزائريّين، وبما اطّلع عليه من أحوالهم من طريقها.

وبمثل هذه العيّنة من الجهود التي توازيها عشرات الأعمال والنّشاطات، صمّن الاستشراق والاحتلال نتيجتين ثمينتين على الأقلّ:

1- إجادّة التّحكّم في إدارة الشُّؤون اليوميّة لأهل البلد دون عناءٍ أو خشية، وإدراك المزيد من تفاصيل الحياة العامّة للشّعب الذي يخطّط لاستعباده أبداً، وتعزيز الوجود الفرنسيّ اليوميّ من خلال

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، ص42.

² - Rachid Naim, l'arabe aux yeux de l'orientalisme litteraire, Maroc: 2012, Universite Cadi Ayyad, Marrakech, P129,130.

إجادة لغة التواصل، ممّا يُزيل حاجز الغربة اللغوية عنهم، زيادةً على موقعهم الاجتماعيّ والسياسيّ والعسكريّ بحكم الوضع.

2- التّحضير لإحلال العاميّة مكان اللغة العربيّة الفصيحة في التّعليم والتّأليف، والتي ارتبطت نظرة الاحتلال إليها، على أنّها لغةً عقيدةً، وحبلٌ يربط الشعب بتاريخه وجغرافيته، ولا بد من القضاء المتدرّج عليها، والتّعجيل بإصدار حكم الوفاة على العربيّة الفصيحة، بإبعادها عن أيّ مشهدٍ تواصليّ مهما كان شكله، أو حجمه، أو موقعه.

2-4- مرحلة التّحليل والاختراق: وهي مرحلة ثانية من مراحل الاستشراق، وقد اتّضحت معالمها واتّجاهاتها بعد فشل فكرة المملكة العربيّة التي عرفت صراعاً عنيفاً بين الأجنحة الفرنسيّة، والتي استقرّت أخيراً لصالح خصوم الفكرة، وعلى رأسهم (وارنيه / Warnier) وزميله (دوفال / Deval) وفي هذه المرحلة دخل الاستشراق الفرنسيّ في الجزائر مرحلةً أخرى، بعد أن تعزّز بمستشرقين متخصّصين وبعد أن قطع الاحتلال على الأرض أشواطاً واسعة، أخضع فيها الشّمال الجزائريّ كلّهُ، وهو يستعدّ لإلحاق الصّحراء، وقد تكوّنت له عنها أرضيّة كافية من العلم بجغرافيتها البشريّة، والزّراعيّة، والدّينيّة والإحاطة بظروف الحياة العامّة للسّكان، ولهجاتهم وأعرافهم، وقبائلهم فكانت مرحلة طبعها دراسة المادّة المجموعة في الفترة السّابقة، والأهمُّ هو العكوف على تحليلها وتحليل المجتمع الجزائريّ من خلالها.

ولم يكن انطلاق الاحتلال لتنفيذ هذه الخطوة اعتباطياً؛ بل كان من منطلق إدراك حقيقة العلاقة بين اللغة والأمة، وباعتبار موقع اللغة في صياغة وجهة الأمة وضبط مسارها الحضاريّ، فصارت دراسة اللّهُجات المحليّة سبيلاً إلى تصنيف التّركيبة العرقية للمجتمع، حسبما تحيل عليه مقولات علم اللّهُجات (Dialectology) وراح حملة المشروع ينادون إلى رعاية هذه اللّهُجات، واعتمادها سنداً قوياً في تأزيم الوضع اللّغويّ الجزائريّ، وتبلور هذا الطّرح منذ 1847م مؤسساً على "فكرة الاندماج مع العرق القبائليّ، ولأجل ذلك، انكب هؤلاء على جمع المعطيات التي تُؤسّس لوجود عريقين في الجزائر، أي ضرورة المرور الطّبيعيّ من العلم إلى السّياسة"¹ وستحوّل هذه الفكرة مع الرّمن إلى مشروعٍ رعاه الاحتلال بتكوين مدرّسين، وتعليم خاصّ، قصد به بعض أبناء منطقة زواوة، وكانت تلك بداية غرس

¹ - فريد حاجي، السّياسة الثّقافيّة الفرنسيّة في الجزائر، د. ط. الجزائر: 1434هـ - 2013م، دار الخلدونيّة للنّشر والتّوزيع ص304.

بؤرة تؤثر لغويّ دائم في الجزائر، على أن يتعاهدها في المراحل القادمة بما يراه من استدامة بقاء مشروعه العنصريّ.

وضمن هذا الإطار أمرت الحكومة الفرنسيّة المستشرق (ديسلان/ William Mac de Slane) - الخبير في شؤون المكتبات والمخطوطات الجزائريّة - بترجمة كتاب ابن خلدون (تاريخ البربر) وفي حدود سنة 1882م، ولغرض إقبال الموظّفين الفرنسيّين على تعلّم المازيغيّة، أمرت إدارة الاحتلال بصرف علاوات تحفيزيّة، ثمّ أنشأت سنة 1885م قسما للهجات البربريّة، وأسندت كرسيّها لأحد الأعيان الموالين لها (سي الهاشمي بن سي لونيس) وتولّت إجراءات الاحتلال لتعزيز جبهة المسألة البربريّة بالقرارات والتشريعات، كقرار: 27-04-1882م الذي تمّ بموجبه إحداث شهادة إتقان اللهجات البربريّة وقرار تحديد علاوة الشهادة المقدّرة ب 500 فرنك الصّادر في 28-07-1885م، وبالموازاة مع ذلك كانت جبهة البحث والدّراسة تنتشر عشرات الدّراسات حول المواطنين المازيغيّين، وكلّ ما يتعلّق بهم.

وما تجدر الإشارة إليه هنا، هو الانفتاح الحذر والمدرّوس لحركة الاستشراق الفرنسيّ على العلماء والمتّفقين الجزائريّين، أشرك فيها العديد من المستشرقين علماء جزائريّين، رأوا فيهم من القدرات العلميّة ما يجعل من جهودهم إضافة نوعيّة لتلك البحوث والدّراسات، فهل كانت هذه الخطوة اقتناعا من المستشرقين بقدرات هؤلاء؟ أم هو استغلال لهم واستغلال؟ أم توريط لهم في شبهة التّعاون مع الاحتلال؟ أم خطوة متقدّمة في سبيل إدماج النّخبة الجزائريّة على المقاييس الاستشراقية؟ هذا من زاوية نظر الاستشراق، أمّا من زاوية نظر أولئك العلماء، فقد تكون هناك فرضيّات أخرى، أفلا تكون تلك الجهود حفاظا عليها من الضّياح النهائيّ، وهي التي لم يكن متيسّرا حفظها في ظروف أخرى؟ أليس هذا التّعاون في إطار علميّ يتجاوز مسألة الاحتلال؟ أليس من الأفضل أن تُنجز تلك الأعمال بين أيّد جزائريّة فيدفعوا عنها من التّحريف والتّزييف ما لم يقدروا عليه لو لم يشتركوا فيه؟ ألم تصبح العديد من الأعمال التي تمّ جمعها رصيда علميّة تاريخيّة، على ما فيه من خصوصيّة وضع البحث والباحثين؟ كلّ هذه التّساؤلات وغيرها تبقى الإجابات عنها رهينة بإعادة قراءة واسعة لسياقات المرحلة، والاطّلاع أكثر على وثائقها وأرشيفها.

وأيا كانت دوافع هذا التّعاون ومبررات كلّ طرف، فإنّ هذه المرحلة من الاستشراق قد أعلنت عن تحكّم واضح في دواليب الحراك العلميّ والتّقافيّ واللّغويّ الجزائريّ، وتكوين قاعدة بيانات واسعة ودقيقة حول الجزائر والجزائريّين وما يتعلّق بهم.

وما يهمُّ الأطروحة من شأن هذا التعاون هو موقع المسألة اللغوية، من وجهة الدِّراسات ذاتها، فلقد أسند أمرُ اللغة العامية إلى المستشرق أوكتاف هوداس منذ 1880م، فدُرِّست حسب لهجات كلِّ ناحية من نواحي القطر، وانخرط في مختلف أشكال الدِّراسات المتعلقة بها العديد من المنقّفين الجزائريين فاستعان غودفري ديمونين بعبد العزيز الزناقي، لفهم الفروق اللغوية لقصة بالدرجة التلمسانية، واستعان الاسكندر جولي بعبد الرزاق الأشرف في جمع نماذج من الأدب الشعبي، واستفاد ديلفان بمحمد بن علي الجباري، في ترجمة المقامات العواليّة في الأدب الشعبي، وتعاون لويس رين مع أحمد بن بريهمات في إصدار كتاب لتعليم الفرنسية للجزائريين (عربي- فرنسي) واشترك فلوري مع محمد صوالح في تأليف كتاب مدرسي. ووجّه رينيه باصيه تلميذه سعيد بوليفة لدراسة اللهجات البربرية في الجزائر والمغرب الأقصى، وهي الدِّراسات التي كانت تمهيدا لاستصدار **الظهير البربري** الشهير، ووجّه (باصيه) محمد بن أبي شنب إلى الاهتمام بالأدب العربي واللغة العربية، وتحقيق النصوص والمخطوطات، وهو التوجيه الذي أخرج بن أبي شنب على إثره كثيرا من الدِّراسات والتحقيقات.

وبينما كانت الوجهة العلمية لابن أبي شنب هي جمع التراث الجزائري والعربي، وترقية الأدب واللغة من خلال النشر، وتمكين الناس من كنوزهما، وغير ذلك من منافع التأليف والتّحقيق؛ كانت وجهة المستشرقين حُزْ مكان خطير للحرف الفرنسي، والفكر الفرنسي، والثّقافة الفرنسية ضمن التأليف العربية، وإلا فما معنى أن يُجمع تراثٌ شعبيّ من مثل الأمثال الشعبية، أو الألفاظ العامية السارية الخاصة بأمة مغلوبة، مشروحا باللغة الفرنسية الغالبة؟ أليس في ذلك من مبررات الاستحواذ، ودلائل استدامة التّحكّم ما يكفي؟ وها نحن الآن بعد نحو قرن من تأليف الكتّابين لا نقرأهما، ولا يطلع عليهما باحثونا، إلا في حضور الحرف الفرنسي. ولو كان ذلك على سبيل التّناقض النّزيه المُنصف لحمل الأمر على حمل التّسامح اللغوي، ولكنّه الشّعور برغبة المستشرقين وتخطيطهم لتلغيم مدونات البلاد المحتلة ومشاركتهم لأهلها في تراثها كرها، وحرصهم الدائم على أن يبقى الحرف الفرنسي، وما يستتبعه من ثقافة وتفكير، حاضرا في ثقافة تلك البلاد وأدبها وتاريخها وحتى لغتها.

وفي هذه المرحلة من مراحل الاستشراق دخلت اللغة العربية الفصحى مرحلتها الثالثة، فلقد كان تخطيطُ المدرسة الاستشراقية يستهدف استبعادها النّهائي من مشهد الحياة العلمية والأدبية الجزائرية فبعد توقيف حركة تعليمها شعبيا في الأقسام الابتدائية، والكتاتيب في بداية الاحتلال، تمّ تحييز مكانها في

المدارس الثلاث الشهيرة، وبمتابعة مسيرة مقام اللغة العربية في هذه المدارس، نقف على منهج إماتة متدرّجة تمت على ثلاثة مراحل:

1- مرحلة الحضور الكامل 1850-1876م: وكان فيها حضور اللغة العربية فيها كاملاً يدرّسها رواد المدارس ليؤطر بهم الاحتلال-مرحلياً- وظائف الإمامة والفتوى وشرطاً من القضاء.

2- مرحلة الحضور المزدوج 1870-1890م: وهي المرحلة التي أدمجت اللغة الفرنسية في مقررات المدارس، وصارت حاضرة في غالب مفرداتها، ومقرراتها، تمهيدا لمرحلة أخرى.

3- مرحلة الإبعاد، ما بعد 1890م: وفيها أصبحت اللغة العربية أجنبية في المدارس الثلاث فتقلص الحجم الزمني لتدريسها، وتراجعت نجاعة مقرراتها، حتى أصبحت تدرّس باللغة الفرنسية! وكذلك كان حال اللغة العربية في مدرسة ترشيح المعلمين ببوزريعة، وفي الثانويات الفرنسية.

2-5- آثار استحواذ الاستشراق على الوضع اللساني الجزائري: لقد كانت الحركة اللغوية في الجزائر رهينة مخبر الاستشراق الفرنسي من خلال مؤسساته في مدرسة الآداب، وحلقات اللغة العربية التي يُشرف عليها المستشرقون، وما ينتجونه من دراسات وتحقيق وترجمات، وهي وإن صيغت باللغة العربية؛ فقد كانت في شكلها على مستويات أسلوبية متفاوتة، حسب كفاءة كل مستشرق ومقدرته اللغوية وأما من حيث المضامين فإن مدرسة الاستشراق قد حرصت منذ أمد بعيد على إعادة صياغة المدونة التراثية الجزائرية بما يناسب مشروع الاحتلال من انتقائية في المواضيع، وقصدية في التوجيه والتحليل أو التدليس والإغفال. فأعادت صياغة المدونة التراثية الجزائرية بما يناسب.

انصبّت جهود المستشرقين على العمق الجزائري، فبعدما اطلعوا على تفاصيل مكونات المجتمع الجزائري وقيمه وثوابته، راحوا يثيرون النزاعات العرقية اجتماعياً، وتحيزوا لعرق دون آخر، فأصبح الشعب الجزائري الذي صهره التاريخ قروناً -في نظر الفكرة الفرنسية- شعوباً، وناصروا طرقاً صوفية وزوايا على حساب أخرى، فأصبح هناك إسلام فرنسي يروج له، وإسلام طرقي مساند، وإسلام حركي متهم بالفوضى وتقويض الأمن، وشجّعوا الأداءات المحلية الدارجة على حساب العربية الفصيحة الجامعة، فأصبحت اللغة العربية لغات.

وضمن هذه الخطوط الكبرى، أعيدت صياغة المدونة الجزائرية بتوظيف منهج يجمع بين الانتقاء والإقصاء، والإبداء والإخفاء، ومع الوقت أغفلت كثير من الحقائق التاريخية، وأشيعت البدائل التي تعضد أطروحات الاحتلال في مختلف القضايا، وقد كان لهذا التوجّه أثر لغوي (Superstrat) بالغ على

الفصل الثاني:

مقاربات في مشاهد ومعالم حركة الإحياء اللغوي في الجزائر

البنى اللغوية و القضايا الأدبية، فتأثرت مواضيع البحث اللغوي وقضاياها، وتعرضت الأساليب العربية لغزو أساليب اللغة الفرنسية، جرّاء الترجمة المترجلة، وبفعل الجوار الجائر الطويل في الصحافة والتعليم والتأليف والإدارة والمعاملات اليومية. كما تأثرت المضامين بالثقافة والفكر الفرنسيين، وظهرت الملامح الأولى لظاهرة الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، وهي الوجهة التي تسندها السلطة الفرنسية وتبذل لها كلّ ما أمكن، من الإعداد المادي والبشري، بوصفها حاملة المشروع الحضاري للاحتلال.

على أنّه قد يكون من سديد القول الانتباه إلى أنّ المخبر الكولونيالي قد أسند حركة التأليف والنشر والتحقيق والترجمة في الاتجاهين إلى أساتذة الاستشراق الفرنسيين، وباستغلال علماء ومدربين ومؤرخين وشيوخ زوايا جزائريين، وهو نشاط أخذت فيها حركة الاستشراق هذه المبادرة منذ أول الاحتلال، ولكنّ التحكّم فيها بدرجة كبيرة كان بعد نحو (70) عاما من الاحتلال، ولا أدلّ على هذا من عقد مؤتمر الاستشراق في الجزائر سنة 1905م، وهي مبادرة تحمل دلالات كبيرة على درجة تحكّم الاحتلال في الشأن العلمي والفكري والأدبي الجزائري.

وخلاصة هذه المقاربة أنّ المسألة اللغوية في الجزائر المحتلة -بوصفها أحد أهمّ مشاهد الثقافة والهوية- قد حظيت منذ نزول الاحتلال باهتمام لافت أخذ شكل دراسات مفصلة، أحاط من طريقها الباحثون الفرنسيون بالرّصيد الثقافي والعلمي الجزائري عموما، واللّساني منه خاصّة، وكان ذلك تأسيسا نظريّا لاحتلال أبدّي سبيله امتلاك الفكر واللّسان، وأفقّه استدامة حيازة المكان.

وقد كان المبرر الأوّل لهذه الجهود هو معرفة تفاصيل الحياة الجزائرية، وأحوال ساكنتها، وقد وقف حاجز اللغة سدّا أمام هذه الحركة، وفي ظلّ إجراءات الاستشراق، كان الوقوف على مسارين من مسارات التّعامل مع الوضع اللغوي في الجزائر:

أحدهما: تنظيم دراسة اللغة العربية الفصحى للفرنسيين والتّمكّن منها، والإحاطة بعلومها وبالعلوم والمعارف التي كُتبت بها، استعدادا لوراثة الجزائريين على تراثهم العربي في الجزائر، وإعادة صياغته وعرضه بما يناسب الفكر الحضاري لفرنسا الاستعمارية، وأوّل مقولاته في هذا، هو اعتبار اللغة العربية الفصحى تراثا تُعامل فيه كما تُعامل اللاتينية، وبهذا فهي ملكٌ خالص للمحتلّ، اغتصبه في ما اغتصب فيحقّق المسار بهذا غرضين:

التّمكّن التّام للغة العربية الفصيحة، بما يعني تملك الدّين وأحكامه، والعلوم اللغوية، والتّاريخ. وكلّها مقومات قُيّدت بالفصحى العربي، وبها تُبثّ الانتماء.

الفصلُ النَّهائِيُّ بين الشَّعبِ الجزائريِّ وبين ما يُبقي صلَّته بدينه، وامتداده في التَّاريخ والجغرافيا ومعنى ذلك اجتثاثُ أُمَّةٍ من كيانٍ تأسَّس عبر قرون.

و ثاني المسارين: تعلُّم الفرنسيين في مختلف مواقعهم للعاميَّة الجزائريَّة، والزامٌ من هُم في مواقع الاحتكاك بوجوب تعلُّمها، وفي ذلك أيضا تحقيق غرضين: تيسيرُ تواصلٍ مباشرٍ آمنٍ يَمكِّن من الاستحواذ على الشَّعب الجزائريِّ، دون الاكتفاء بهزيمته عسكريًّا.

تحويلُ المشهد العامِّ إلى موضوعِ درسٍ، يكون مدخلا لاختراق فعَّالٍ لِلدَّهْنِيَّةِ الجزائريَّة، من خلال لغةٍ تواصلِها العفويَّ اليوميَّ، والاستثمار في الكمِّ الهائل من الشَّفويِّ والموتقِّ العامِّ. ثمَّ إنَّ هذا التَّشجير الذي طال الفصحى والعاميَّة، سيُردف بتأطيرٍ مكوَّن لغويٍّ آخر، وقد تنبَّهت له آلة الاستشراق خلال السَّنوات الأولى من الاحتلال، وهو الأداءات المحليَّة المختلفة، فاستغلَّت ذلك في بحث انثروبولوجيٍّ، يكون تمهيدًا لتشطير المجتمع الجزائريِّ على أساس لسانيّ وعرقيّ محليّ. فإذا ما تمَّ ذلك على أكمل وجهه، فإنَّ السَّاحة اللُّغويَّة ستصفو لدخيلٍ لغويٍّ من أرومة أخرى، هو اللُّغة الفرنسيَّة، وبتمثيل سُّكَّانيٍّ هجينٍ، تولِّفه عديدُ الأعراق واللُّغات، ولم يتجاوز نصابه العدديُّ العُشر في أعلى ذروة للحضور الفرنسيِّ في الجزائر.

المقاربة الثالثة:

3- المَهَاجِرُ الجزائريَّة وحركة الإحياء في الجزائر، العلاقة والأثر.

"إنَّه من المعروف على نطاق واسعٍ أنَّ المهجَّرين إلى الشَّام، أصحاب هجرةٍ سياسيَّة، وليس هجرة اقتصادية، كإخوانهم الذين هاجروا إلى فرنسا كما أنَّهم أصحاب كفاءات عالية، أوليس من المنطق -إذن- أن تظهر فيهم حركة سياسيَّة لصالح وطنهم، أمَّ أنَّ سحر الشَّرق، أنساهم الوطن؟"¹

تكتسي الهجرةُ الجزائريَّة نحو المشارق والمغرب منذ خمسينات القرن (19) أهميَّة بالغة باعتبار كثرة أفرادها واستمرارها وفعاليتها، وبقاء المهاجرين على صلة بالجزائر واهتمامهم بقضاياها، فالممارسات

¹ - سهيل الخالدي، الإشعاع المغربي في المشرق دور الجاليَّة الجزائريَّة في بلاد الشَّام، د ط. الجزائر: 2016م، دار الأُمَّة للطباعة والنَّشر والتَّوزيع، ص 184.

التي صدرت عن الجالية الجزائرية في الشّام برعاية الأمير عبد القادر وبعض أفراد عائلته، زيادةً على ما كانت تمارسه هذه الجالية من نشاطٍ تجاريٍّ وحرفيٍّ يؤمّن عيشها؛ كان لها دورٌ سياسيٌّ وثقافيٌّ كبير إن في الأحداث المحليّة، أو في العلاقة بالجزائر التي لم تنقطع مع طول الزّمن وبُعد الشّقة.

ورغم ما كانت تحاول التقارير الفرنسيّة المتابعة لحركة الهجرة من إثبات طبع هذه الهجرة بالصّبغة الاقتصادية البحتة؛ فإنّ النشاط السّياسيّ والثّقافيّ كان ميزةً للجزائريّين في المهاجر الشّاميّة التّونسيّة والمصريّة والحجازيّة، فمما نقله تقريرٌ عن أسباب الهجرة إلى الأراضي العثمانيّة ما بين سنّتي: 1832م و1847م، والمؤرّخ في: 22 نوفمبر 1888م، الصّادر عن الشّركة العامّة، والموجّه إلى الحاكم العام في الجزائر بناءً على طلبه، جاء فيه: إنّ الأهالي "يرسلون بانتظام أهلهم وذويهم وأصدقاءهم الذين لجأوا إلى سوريا"¹ وأنّ المهاجرين الذين استقروا ببلاد الشّام "لا يقطعون صلتهم فجأة ببلدهم الأصليّ بل يرسلون أهلهم في الوطن بانتظام، ويتابعون تطوّر الأحداث"² وتلك شهادة كافية للحكم على أنّ الهجرة الجزائرية لا يمكن تصنيفها على إطلاق هروباً وتخليّاً؛ بل فيه ما يصنّف على أنّه فتحٌ لأفقٍ آخر يضمن بقاء حياة الأفراد والأفكار، ولطالما كان التّحوّل المكانيّ مخرجاً تنتعش فيه الأفكار بعد حصارها والتّضييق عليها.

عانت الجالية الجزائرية ضغوط السّلطات التّركيّة التي كانت تريد تتركبهم وضمّهم إليها، فتقطع سبب التّدخّلات الفرنسيّة في شؤون رعايا تعتبرهم (فرنسا) تابعين لها، ورغم هذه الوضعيّة التي كانت عليها هذه الجالية، فإنّ تركيبها البشريّة المتميّزة، وارتباطها بالوطن الأم، جعل جهودها العلميّة والثّقافيّة في خدمة القضيّة الجزائريّة، في إطار وضعها العربيّ والإسلاميّ.

بلغ اهتمام النّخبة الجزائريّة -في المهاجر الشّاميّة خاصّة- بشأن القضايا العربيّة والإسلاميّة درجة معتبرة، وقد كانت على صلة وثيقة بين مهاجر مصر والحجاز، وبحكم موجات المهاجرين على فترات متعاقبة، ووجود عددٍ من علماء ومفكرين، تشكّل هناك مشهدٌ ثقافيٌّ وعلميٌّ، روّاه جزائريّون حملوا همّ الجزائر والعروبة والإسلام، وجسّد ذلك نشاطهم التّعليميّ والصّحافيّ والجمعويّ، وظهر تأثير الأمير عبد القادر منذ نزوله بالشّام، فأخذ أبعاداً إقليميّة وعربيّة وإسلاميّة، أظهرته تلك العلاقات التي وصلت أفكار

¹ - عمّار هلال، الهجرة الجزائرية نحو بلاد الشّام، 1847-1918م، د. ط. الجزائر: 1986م، مطبعة لافوميك، (ملحق رقم 89) ص367.

² - عمّار هلال، الهجرة الجزائرية نحو بلاد الشّام، ص369.

الأمير بأفكار الأفغانيّ ومحمّد عبّده، ومن بعدهما محمّد رشيد رضا، ونبغ من عائلة الأمير سياسيًا ابنه محي الدين، الذي بلغ من نشاطه أن دخل الجزائر في الفترة (1870-1871م) وعيّن سفيراً للدولة العثمانية لدى المغرب الأقصى، والأمير محمّد الذي كان "مواليًا للسلطان عبد الحميد، وسياسة الجامعة الإسلامية، وقد عرف الشيخ محمّد عبّده¹ وأمّا الأمير علي، فإضافة إلى نشاطه الفكري والعلمي (الصّحافيّ خاصّة) فإنّه كان موضع استمالة الفرنسيّين "للاستفادة من نفوذه في الشرق، ولكنّه لم يمل إليهم² وتلك عيّنة واحدة من شبكة واسعة من العلاقات التي كانت تربط الجزائريّين بعضهم ببعض وتربط الجزائريّين بإخوانهم العرب والمسلمين، في زمن كانت الحركة بين الأقاليم الإسلامية لا تبالي كثيرا بالحدود الإقليمية الحديثة.

وأما بشأن النّبوغ العلميّ، فقد نبغ من أبناء الأمير عبد القادر: أحمد بن محي الدين، ومحمّد بن عبد القادر، ومن غيرهم أحمد بن محمد التّلمساني، وأحمد الغريسي، وعبد الله الخالدي، وأبو يعلى الزّواوي وغيرهم، إلّا أنّ الشيخ طاهر الجزائريّ، كان الأكثر تأثيراً وإسهاماً، وهو الذي كان له فضل إنشاء المدارس والنّوادي والجمعيات، ومن المدارس التي كان للجزائريّين فضل تأسيسها أو تطهيرها: مدرسة الإرشاد والتّعليم، والمدرسة الريّحانية، ومدرسة ابن خلدون، ومدرسة النّهضة العلميّة، ومدرسة دوحة الأدب، التي أنشأتها عادلة بيهم الجزائريّ حفيدة الأمير عبد القادر، كما اهتمّ الجزائريّون بالنّشاط الصّحافيّ، فأنشأوا صحفاً طالما حملت همّ الجزائر والعروبة والإسلام، فأنشأ الأمير سعيد الجزائريّ (المهاجر) وأنشأ سليم الجزائريّ (الوحدة الإسلامية) بينما كان يدير (المفيد) عبد الغني الغريسي.

وعلى الجملة، فإنّ الدّارسين على أنّ استواء النّشاطات التّعليميّة والصّحفيّة والجمعيّة والسّياسيّة كانت نتيجة حلقات الشيخ طاهر الجزائريّ، بعد أن رعت الطّبقة الأولى من أعلام الهجرات، ولقد كان للرّصيد النّضاليّ للأمير وزنٌ أخذ نصيباً منه أبناؤه والعلماء المرافقون له، ثمّ الملتحقون بعد ذلك كمحمّد المهدي السّكلاوي الصّوفيّ، وتلميذه محمّد الطّيب المبارك، وصالح السّمعوني الرّياضي الفلكيّ الفقيه وعشرات أمثالهم.

كما شهد النّشاط الجمعيّ اهتماماً جزائريّاً كبيراً، فقد نشط وموّل آل السّمعوني وعائلة الأمير جمعيّة من أعرق الجمعيات نشاطاً وفعاليّة، وهي جمعيّة المقاصد الخيريّة المغربيّة الإسلامية، ثمّ ازداد نشاط

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافيّ، ج5، ص552.

² - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافيّ، ج5، ص552.

الحراك الجمعيّ وأنّسج، وتتوّعت مظاهره ما بين سياسيّة إلى ثقافيّة ودينيّة، فكانت جمعيّة النّهضة العربيّة (1906م) إحدى ثمرات حلقات الشّيخ طاهر الجزائريّ، وجمعيّة الإخاء العربيّ- العثمانيّ (1908م) وكان الأميرُ مُحْي الدّين أحد أعمدتها، وجمعيّة المنتدى الأدبيّ (1908م) وكان سليم الجزائريّ أحد أبرز أعضائها، ولئن حملت هذه الجمعيّات همّ العربيّ والإسلاميّ؛ فإنّ الهمّ الجزائريّ كان أحد أهمّ ميادين العمل والنّضال، وهذا ما جعل القول بأنّ التّأثير المشرقيّ على الجزائر في إطار الجامعة الإسلاميّة لم يكن مشرقيّاً صريحاً؛ بل كان جزائريّاً في جغرافيا مشرقية قولاً جديراً بإعادة الطّرح ومقاربتة في ظلّ دراسات أكثر عمقا لحقيقة الوجود الجزائريّ في المهاجر المشرقيّة، ومدى تأثيرها، إذ لم تكن هذه القامات العلميّة والسياسيّة إلّا عناصر جزائريّة، ذات كفاءة علميّة وفكريّة عاليّة، وجدت في أقاليم المشرق المختلفة فضاء أرحب نسبياً، ومن الدّراسات التي تعضّد هذه المقولة الدّراسة التي أعدها الكاتب الصّحفيّ سهيل الخالدي: **الإشعاع المغربيّ في المشرق**، دور الجاليّة الجزائريّة في بلاد الشّام وهي دراسة تتابع الأدوار الحقيقيّة للجزائريّين في علاقتهم بوطنهم الأمّ ضمن الفضاء العربيّ والإسلاميّ وتأتي عقب دراسة الأستاذ عمّار هلال الذي وثّق المسار الزّمنيّ، والمكوّن البشريّ للهجرة الجزائريّة في دراسته: **الهجرة الجزائريّة نحو بلاد الشّام**، دون نسيان مقارنة شيخ المؤرّخين الجزائريّين أبي القاسم سعد الله في المسألة، والذي يذهب إلى أنّ أعلام النّخبة الجزائريّة المهاجرة لم يكونوا يعملون "في إطار الوطنيّة الضّيقة التي نعرفها اليوم في أقطار شمال أفريقيا، بل كانوا يعملون في إطار الجامعة الإسلاميّة على توحيد الجهود لتحرير المغرب العربيّ من الاستعمار الفرنسيّ، وكانت جهودهم متضافرة مع المهاجرين السّابّقين وأحفادهم"¹ ومع استمرار حركة الهجرة طيلة (80) سنة الأولى من الاحتلال، بقيت أسباب التّواصل الفكريّ والثّقافيّ قائمة، رغم مضايقات الاحتلال الكثيرة، ولذلك فقد كانت مظاهر بداية مرحلة الإحياء في الجزائر ممثّلة في الصّحافة والجمعيّات والمدارس الحرّة، مدينة لنماذج مشرقية الجغرافيا جزائرية الرّوح والمنزع.

ومن المهاجر التي احتضنت الجزائريّين المهاجرين أو المهجّرين، الدّيارُ المصريّة، لما كانت عليه من موقع يستهوي القاصدين، كما يستهوي العابرين إلى الحجاز أو بلاد الشّام، ولمّا للأزهر من قوّة جذبٍ أغرّت كثيراً من طلّاب العلم، فاستقبلت مصرُ خلال الفترة المعنيّة كثيراً من الجزائريّين علماء

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافيّ، ج5، ص520.

وطلبة علم، فمن العلماء: محمد الصالح بن مهنة، والحاج محمد بن الرقيق، ومحمد بن عبد الله الرقاي والحاج علي بن البشير، وعثمان الراشدي، ومحمد بن علي السنوسي، والمولود الزريبي وغيرهم، وبلغ عدد الطلبة الجزائريين بالأزهر حسب إحصائية أعدت سنة 1916م (29) طالبا، منهم محمد أرزقي الشرفاوي، والمولود بن الصديق الحافظي، وعلي بن البشير الذي مكث بالأزهر 18 عاما، ثم رجع إلى الجزائر وأسس مدرسة سيق، واشتغل مدرّسا بالجامع الكبير. وغير هذه النماذج كثير.

ومن المعابر التي لم تحظ بكثير من الاهتمام في كثير من ترجمات الإمام ابن باديس هو التلقي المباشر الذي باشره ابن باديس من شيخين جليلين -لم يكن لهما من الاهتمام ما يستحقّانه أيضا- هما:

- الشيخ محمد الخضر حسين الذي زار الجزائر مطلع القرن (20) مرتين (1903م) و(1904م) وجلس إلى علمائها، وألقى محاضرات في مساجدها، وتنقل بين مدنها الشرقية¹، وقد كان لرحلتيه هاتين أبلغ الأثر على الجبهة العلمية الجزائرية الداخلية، وهو الذي يقدّمه ابن باديس بين يدي نشر مقاله "أولو الأمر" في الشهاب بقوله: "تذكرة لجلوسي لتلقي تهذيب المنطق بين يدي الأستاذ بجامع الزيتونة-عمره الله- ولسماع دروس من صدر تفسير البيضاوي بدار الأستاذ"² وقد كان الشيخ محمد الخضر راعي حركة الإحياء الجزائرية في مرحلتها الأولى بأثره المباشر على رائديها ابن باديس بما نقله عنه، وعلى الإمام الإبراهيمي بما صرح به ممّا كان أيام مقامه في الشام، قبل عودته إلى الجزائر إذ يقول: "فكنا لا نفترق من اجتماع إلا على موعدٍ لاجتماع، وكان واسطة العقد في تلك المجالس، الأستاذ الجليل والأخ الوفي الشيخ الأستاذ محمد الخضر حسين مدّ الله في حياته، ولقد أقمت بين أولئك الصّحب الكرام أربع سنين إلا قليلا"³ وما أولئك الصّحب إلا تلاميذ حلقة الشيخ طاهر الشهيرة، وأمّا في مرحلة الإحياء الأخيرة، فقد كان الشيخ الخضر سند الشيخ الإبراهيمي في زيارته المشرقية حين نزل بمصر في أواخر

¹ - محمد الخضر حسين "الرحلة الجزائرية" موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين (الرحلات) جمع وضبط: علي الرضا الحسيني، ط1. دمشق: 1431هـ-2010م، دار النوادر، ج11، ص26.

² - عبد الحميد بن باديس "أولو الأمر" الشهاب، الجزائر: شعبان 1358هـ - سبتمبر 1939م ج 8، م15، ص395.

³ - محمد البشير الإبراهيمي "الأستاذ الشيخ محمد بهجت البيطار" البصائر: ربيع الأول 1368هـ - 24 جانفي 1949م، ع64 س2 (سلسلة 2) ص3.

أكتوبر 1952م، والشيخ الخضر يومها شيخ الأزهر¹ وباجتماع هذه المحطات، ومقاربة بعضها ببعض تتجلى صورة علاقة أعلام الإحياء في الجزائر، وعلاقتهم بأعلام الإصلاح الجزائريين في المهاجر.

• الشيخ طاهر الجزائري الذي لقيه ابن باديس أثناء مروره بالشام بعد مصر عائدا من رحلة الحج وقد كان لقاءً أقر فيه ابن باديس بأثر الشيخ طاهر عليه، وذكر له في الشهاب بعد نحو ربع قرن فضله وأثره عليه، فيقول عنه: "هو الذي ربى عقلي، وهو الذي حبب إليّ هذا الاتجاه الفكري منذ كنت طفلا إلى أن صرت رجلا، ولا أعرف مؤلفا ولا حامل قلم نشأ في ديار الشام، إلا وقد كانت له صلة بهذا المربي الأعظم، واستفادة من عقله وسعة فضله، إما مباشرة أو بواسطة الذين استفادوا منه"². فمدار المقاربة على الالتفات إلى متابعة حقيقة جادة موثقة لخطوط الهجرة الجزائرية نحو المشارق خاصة ورصد خط عودة من عاد منها، دون إغفال أثر الباقيين هناك، وتلمس حقيقة المسلك المنسي الذي عاد به التأثير الفكري والعلمي الجزائري المتحصن ببلاد الشام، والعائد إلى الجزائر من طريق رأس الإحياء الجزائري الشيخ ابن باديس، دون نسيان الأثر الذي تركه مكث الإمام الإبراهيمي ببلاد الشام مدرسا بمدارسها، في طريق عودته من الشام إلى الجزائر.

ومسلك قامتي الإحياء في الجزائر ابن باديس والإبراهيمي عبر بلاد الشام لا يزال بحاجة إلى مزيد دراسة وتحقيق، يكفي منه ثبوت وصل حلقة لقاء السالفة الجزائرية بلاحقتها، ولعل ذلك ما أغرى الإمام ابن باديس بتوثيق هذه الصلة مرة أخرى في 04 أوت 1938م بمراسلة رئيسة جمعية دوحة الأدب السيّد عادل بيهم حفيده الأمير عبد القادر ليرسل "بعض البنات ليتعلمن في مدرسة الجمعية"³ وذلك ممّا يؤكّد على أنّ علاقة المهاجر المشرقية بالجزائر، ودورها في حركة الإحياء، ليست على الصورة النمطية التي تلوكها الألسن جزافا، ويجب ألاّ يُنظر إليها من موقع الملقى الموجب والمتلقي السالب.

¹- تركي رابح عمامرة "احتفاء مصر بالأستاذ الرئيس" البصائر: ربيع الأول 1372هـ-ديسمبر 1952م، ع208، س5 (سلسلة2) ص2.

²- عبد الحميد بن باديس "أبناء المغرب العربي في الشرق العربي" الشهاب، الجزائر: غرة جمادى الأولى 1356هـ- جويلية 1937م. ج 5، م 13، ص249.

³- محمد الحسن فضلاء، المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر، ط1. الجزائر: 16 أبريل 1999م، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، ص71.

المقاربة الرابعة

4- التأثير المشرقي على حركة الإحياء اللغوي في الجزائر، حقيقة أم مغالطة؟

"مضت حقبة من الدهر كاد فيها الشرق العربي أن ينسى هذا المغرب العربي، وإلى عهد قريب كانت صحافة الشرق-غالبا- لا تذكره إلا كما تذكر قطعة من أواسط أفريقية ومجاهلها، بل في هذه الأيام يُغمط حقّه ويُتجاهل وجوده في كتب لها قيمتها ك(ضحى الإسلام) وغيره. ولكن هذا المغرب العربي -رغم التّجاهل والتّناسي من إخوانه المشاركة- كان يبعث من أبنائه من رجال السيف والقلم من يُذكرون به، ويُشيدون باسمه ويُلفتون نظر إخوانه المشاركة إلى ما فيه من معادن للعلم والفضيلة، ومنابت للعزّ والرّجولة، ومعادل للعروبة والإسلام"¹

تخضع كثير من القضايا الكبرى في البلاد العربيّة والإسلاميّة إلى حالة الدّفاع التّاريخي بين الشرق والغرب، ولم يكن الحديث عن النّهضة العربيّة الحديثة بعيدا عن هذا الإطار، ففي سياقه ربّط معظم الدّارسين ظهور حركة الإصلاح الحديثة في البلاد العربيّة بمرحلة الاحتكاك الحضاري بين الشرق والغرب نهاية القرن (18) وجعلوا هذه النّهضة من نتائج هذا الاحتكاك، ويتّخذ كثير من الدّارسين المشاركة حملة نابليون على مصر بداية هذه اليقظة، فذهب إلى ذلك جورجي زيدان وعمر الدّسوقي وأحمد حسن الزّيات وطه حسين ومحمّد حنفي داود، وذهب آخرون إلى غير ذلك مؤرّخين لها بالظهور العسكري لإبراهيم باشا على بلاد الشّام، التي كانت تحت حكم الأتراك سنة 1832م وفيه إشارة إلى استرجاع السّيادة على الأقاليم التي كانت تحت الحكم التّركي، وأيّّا كان تاريخ بداية النّهضة، فإنّ ما عليه الكثير من الدّارسين هو أنّ مثل هذه الحركات لا ينضبط انطلاقها أو أفولها بحدّث، مع أنّ الحدث قد يكون سببا مهماً للتّحوّل، وعلى العموم فإنّ فترة احتكاك شرق طالت فترة انحطاطه، مع غرب لفت الأنظار إليه بحجم إنجازاته، قد كانت كافية لحدوث التّأثير والتّأثير.

إنّ ما يعني الأطروحة من هذا الحراك المشرقي هو إعادة قراءة مقولات تلقّي المغرب الإسلاميّ والجزائر تحديدا لتأثير الإحياء المشرقي، نظرا لاعتبارات اختلاف الحالة الجزائريّة عن جارتها تونس والمغرب. فما حقيقته نسبة حركة الإحياء إلى المشرق إطلاقا؟ وما مدى التّأثير المشرقي على المغرب عامّة وعلى الجزائر تحديدا؟

¹ - عبد الحميد بن باديس "أبناء المغرب العربي في الشرق العربي" الشّهاب، ج 5، م 13، ص 247.

4-1- تحديد الإطار الزمّني لحركة الإحياء العربيّة: يؤرّخ لحملة نابليون على مصر بثلاث سنوات (1801-1998م) وقد كانت غزواً فكريّاً وعلميّاً أكثر منه غزواً عسكريّاً، باعتبار الكمّ المُعتَبَر من العلماء ذوي التّخصّصات المختلفة، والمُعَدّات العلميّة المرافقة للحملة، فكان للشّقّ العلميّ التّأثير الأكبر وفي نقطة محوريّة من العالم العربيّ، شكّلت تلاقي أطماع الاستعمارين الإنجليزيّ والفرنسيّ، ولئن كانت الحملة انطلاقاً تحوّل مصريّ بدايةً؛ فإنّ نتائج هذا وثماره لم تظهر إلّا خلال النّصف الثّاني من القرن (19) فدعوة رفاة الطّهطاوي (1801-1873م) لم يُسمَع صداها إلّا بعد عودته من فرنسا، ومباشرة للجهود الإصلاحية في الإحياء والبعث، بعد (1826م) لتظهر حركة الإحياء الشّعريّة على يد البارودي (1839-1904م) وما تبع ذلك من استكمال تلاميذه لجهوده (أحمد شوقي 1868-1932م) (حافظ إبراهيم 1872-1932م) (معروف الرّصافي 1875-1945م) وغيرهم، التّقاء مع جهود خريجي مدرسة الألسن التي أسّسها محمّد علي سنة 1835م في التّرجمة والعلوم، وقد وافق ذلك حركة إحياء لغويّة وأدبيّة باشرها محمّد عبده (1849-1905م) في إطار دعوته إلى إصلاح إسلاميّ يعيدُ ربط الأمّة بالقرآن، والتقت جبهات الإحياء الدّينيّ واللّغويّ والأدبيّ فانتعش الشّعْر بعد طول ركود، وانبعث الأسلوب العربيّ من جديد، وانبجست بينهما حركة نقديةً مرافقة، غدّاها أدباء وشعراء محلّيون ومهجرئون، وتلك قضايا تعجّ بها مؤلّفات الفترة ودراساتها، وليس من الممكن ولا من الضّروريّ إيرادها هنا، إلّا من باب مقابلة السّياق الزمّنيّ للإحياء بالمشرق وظروفه وملابساته، بالسّياق الزمّنيّ في الجزائر وظروفه وملابساته أيضاً.

إنّه في الوقت الذي كان فيه البارودي (ت1904م) ينسج على منوال الأوّلين قصائده الجديدة في النّصف الثّاني من القرن (19) كان الاحتلال الفرنسيّ قد أفرغ الجزائر من معظم نخبتها وعلمائها، إمّا قتلًا أو تهجيرًا أو تضيقًا، وإلّا فإنّ مدرسة الأمير عبد القادر (1808-1883م) الشّعريّة والأدبيّة كان بالإمكان أن يخلفه عليها من بعده أدباء وشعراء وكتّاب من أمثال حميدة العمّالي (1813-1873م) وحسن بريهمات (1821-1884م) وعبد القادر المجّاوي (1848-1914م) وعلي بن الحفّاف (1889-1921م) ومحمّد بن عبد الرّحمن الدّيسي (1845-1921م) وقد كان بالإمكان أن يكون لها من الآثار ما كان لمدرسة البارودي، ولكنّ فرنسا الاحتلال أرادت غير ذلك.

وفي الوقت الذي كان فيه محمد عبده (ت1905م) يشرح نهج البلاغة للإمام علي، وأسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، ويطلع عيون كتب التراث، كان الجزائريون لا يملكون حق الاجتماع في حلقة علم، ولا يجدون من يجلسون إليه.

وفي الوقت الذي كان فيه حافظ إبراهيم (ت1932م) يلقي إحدى روائعه في افتتاح مدرسة للبنات ببورسعيد سنة (1910م) كان بقيّة الجزائريين يحتجون في كمد على قوانين التجنيد الإجباري، التي سيقوا بموجبها إلى موت لا ناقة لهم فيه ولا جمل.

وفي الوقت الذي كان يرّد فيه حافظ إبراهيم من شهيرته حول اللغة العربيّة:

إلى معشر الكتّاب والجمع حافل بسطت رجائي بعد بسط شكاتي
فإمّا حياة تبعث الميت في البلى وتنبت في تلك الرموس رفاتي
وإمّا ممات لا قيامة بعده ممات لعمري لم يقس بممات

كان الاحتلال قد بلغ باللغة العربيّة في الجزائر مبلغا من التّحييد والإبعاد، لم يصبح لها معها الحضور اللازم، ولا ترجى لها عودة قريبة.

وفي الوقت الذي كان فيه أحمد فارس الشّدياق (1804-1887م) يتعاهد المعجم العربيّ بالإصلاح والاستعداد لاستقبال ألفاظ الحياة المعاصرة؛ كان الجزائريون يعانون عسف إجراءات قانون الأهالي الصّادر سنة 1871م، والذي أبقاهم أميين، بل أخذهم بالظنّة، وعاقبهم على النّية.

وفي الوقت الذي كان فيه ناصيف اليازجي (1800-1871م) وجورجي زيدان (1861-1914م) يكتبون حول تطوّر اللغة العربيّة، وطرائق ارتقائها؛ كان الجزائريون لا يملكون الحقّ في فتح قسم يتعلّمون فيه أبجديّة لغتهم.

وفي الوقت الذي يُصدّر فيه عبد الرّحمن شكري (1886-1958م) والمازني (1890-1949م) ديوانيّهما (1913م) ويُصدر العقّاد (1889-1964م) الجزء الأوّل من ديوانه (1916م) كان الإمام ابن باديس يجمع إليه فتية قد أضناه الجوع، وأنحل أجسامهم الفقر، يعلمهم أبجديّة العربيّة الأولى.

وفي الوقت الذي كان المشرق بمجامعه العربيّة في دمشق والقاهرة يتحدّث عن قضايا اللغة العربيّة الكبرى وآفاقها، والتّحدّيات العلميّة الجديدة التي تواجهها، بعد الحرب العالميّة الأولى 1919م؛ كانت ذخيرة الجزائر من العلماء المهجّرين في القرويين والزّيتونة والأزهر والشّام والحجاز تبحث عن ذاتها ويوجّه بعضهم الدّعوة إلى بعض للاجتماع وإنقاذ الهويّة العربيّة الإسلاميّة.

هل لنا -بعد هذا وكثير من غيره- أن نقارن ظروف الإحياء وأدواته بين المشرق والجزائر؟ وهل هناك مجال للمقارنة بين الوضع الجزائري تحت الاحتلال، والأوضاع في البلاد العربية والإسلامية؟ صحيح أن وضع العالم الإسلامي كله كان تحت وصاية الاحتلال و سطوته، وإن بأشكال مختلفة، لكن الوضع الجزائري لم يكن له شبيه ولا مثيل في أي بلد عربي أو إسلامي.

إنه استثناء صنعته الظروف التي عاشتها اللغة العربية في أوضاعها المصاحبة من هدم الكثير من مؤسساتها، وتعطيل الكثير، وتجفيف منابع تمويل تعليمها وتعلمها، وتهجير معلمها وتشريد متعلميها، ونهب مدونتها، وتشريع ترسانة من القوانين تُشرع كلها لقتلها، بينما لم يوجد شيء من ذلك في بلاد المشرق كله، بل لم يحدث شيء من ذلك للجارتين تونس والمغرب رغم أنهما ابتليتا بالاحتلال نفسه.

وإذا كان المشاركة يعدون جهود محمد عبده ورفاعة الطهطاوي بداية النهضة اللغوية والفكرية وبعث مدرسة الإحياء الشعري على يد البارودي ظاهرة عمت سنوات النصف الثاني من القرن (19) معلنة عن حركه قائمة، لها أعلامها وبواعثها وروافدها؛ فإن حركة الإحياء في الجزائر ستتأخر عن هذا بنحو نصف قرن أو يزيد وفي ظروف مختلفة تماما.

4-2- آثار الاحتلال على المتن اللغوي بين المشرق والجزائر: وأما الحديث عما أصاب متن اللغة العربية في الجزائر، فأقله ما كان من الطعنات التي وجهها المحتل منذ أول يوم إلى جسم اللغة العربية بإحلال العامية، وتشجيع تعليمها والتأليف بها، وبينما كانت العامية تحدث الشروخ البليغة في نسيج العربية في الجزائر بداية من 1830م ومنذ أول نزول؛ تظهر في المشرق بعد (50) سنة الدعوة إلى استعمال العامية بصدور أول مؤلف خُصص لدراسة العامية المصرية (قواعد العربية العامية في مصر) سنة 1880م،¹ بل إن الظاهرة كلها لم تنزل بالمشرق إلا في النصف الأول من القرن (20) ولا عجب أن نجد ممن تولّى كبر دعوى العامية في المشرق، المستشرق الفرنسي (ماسينيون / Louis Massignon - 1883-1962) الخريج النبيه لمدرسة الاستشراق الفرنسي في الجزائر، والذي لم يكن ما تولّى من هذه الدعوة في المشرق، إلا سحبا لنتائجها المحققة في الجزائر لنجد تعليقا من المؤلفة التي عرضت لظاهرة الدعوة إلى العامية في مصر عن كتاب سبيتا السالف تقول فيه:

¹ - نفوسة زكريا سعيد، تاريخ الدعوة إلى العامية في مصر وآثارها في النصف الأول من القرن العشرين، ط1. القاهرة: 1383هـ - 1964م، دار نشر الثقافة، ص18.

"فهذا الكتاب الذي يعتبره الباحثون أول محاولة جدية لدراسة لهجة من اللهجات العربية المحلية، هو الذي خلق في الحقيقة معظم مشاكلنا الأدبية واللغوية، التي استنفذت جهدنا ووقتنا في هذا العصر"¹ ترى ماذا سيقول الباحثون في شأن العامية التي مارسها الاحتلال في الجزائر منذ دخوله دون دعوة؟ وماذا عن تأثير مدة (70) سنة التي كانت ممارسة فعلية لتعليم العامية في الجزائر، قبل أن تحلّ بالمشرق دعوة؟ إذ منذ سنة 1836م "تحوّلت الدروس العربية التي كانت تُلقَى في الجزائر إلى كرسيّ اللغة العربية الذي عُيّن فيه لويس جاك بريزوني في نفس السنّة لتعليم اللغة العامية"² وقد استمر بريزوني هذا يشغل كرسيّ الدّراسات العربية في الجزائر حتّى وفاته في 21 جوان 1867م يقال هذا عن مستعرب واحد، فكيف سيكون مصير اللغة العربية في ظلّ تعاقب العديد منهم على هذا الدّور طيلة (70) عاما؟ وهو الوقت الذي ظهرت فيه الدّعوة إلى العامية في المشرق دعوة!

وإذا كان كتاب (سبيتا) السابق قد أحدث في الحركة الأدبية "مشاكل" على رأي نفوسة؛ فما الذي سيحدثه فيلقّ من خريجي مدرسة اللّغات الشّرقية بباريس الذين نزلوا بالجزائر؟ وما الذي ستُحدثه مكتبة هائلة من الكتب والدّراسات والمعاجم التي ملأ بها الاستشراق السّاحة اللّغوية والأدبية والأنثربولوجية الاستعمارية، وجعلها بديلا للمدونة الجزائرية التراثية المكتوبة والشّفوية³؟

4-3- مؤثرات الإحياء وموجّهاته بين المشرق والمغرب: استجابت حركة الإحياء الأدبية واللّغوية

في المشرق للاحتكاك المباشر عبر المستشرقين والبعثات العلمية في الاتّجاهين بين المشرق العربيّ وأورپّا، وبخاصّة بين مصر ولبنان وبين فرنسا وإنجلترا، بحكم مبرّرات الوجود التّاريخية للدّولتين في البلاد العربية والإسلامية، وهو وجود له أسبابه وآثاره، ففي الوقت الذي عادت فيه طلائع البعثات العلمية من أوروبا نحو المشرق؛ تفتّح الإعجابُ المشرقيّ بالحركة الأدبية الإنكليزية والفرنسية الصّاعدة، وراحت تبعث بالمشروع الأدبيّ العربيّ محاكاة وترجمة وتقليدا وإبداعا على منوالها، فبدت التّيّارات الأدبية الغربيّة ومدارسها النّقديّة ظاهرةً في أدب أعلام الشّعر والنّثر والنّقد، فظهرت كلاسيكيّة (راسين / Racine) و(كورني / Coneille) و(موليير / Molière) على كتابات أحمد شوقي، وترجمات مارون النّقاش وسليم النّقاش، وظهرت نزعات رومانسيّة الانكليزيّين (وردروث / Wardswarth) و(كلوربرج / Coloridge).

¹ - نفوسة زكرا سعيد، تاريخ الدّعوة إلى العامية في مصر، ص18.

² - إسماعيل العربيّ، الدّراسات العربية في الجزائر في عهد الاحتلال الفرنسيّ، ص12.

³ - ينظر: إسماعيل العربيّ، الدّراسات العربية في الجزائر في عهد الاحتلال الفرنسيّ.

والفرنسيين: (لامارتين / La Martine) و(ألفريد دي موسيه / Alfred De Musset) و(فيكتور هيغو / Victor Hugo) وما رافق ذلك من أفكار الثورة الفرنسية المتوجّهة إزاء قضايا الطبقات البسيطة للمجتمع على أعمال المهجريين العرب، الذين وجدوا فيه رواءً لعطشهم الشعوري، فجاء إبداعهم مساوقاً لها، كما عند جبران خليل جبران، ونسيب عريضة وإيليا أبي ماضي، وجلاًها ميخائيل نعيمة واضحة في الغربال سنة 1913م وهو المسار الذي يعكس اتجاه مؤثرات النهضة الأدبية في المشرق وزمنها.

أمّا الجزائر خلال هذه الفترة؛ فقد كانت تعيش فترة تحوّل ذاتية لم يتهيأ لها ما تهيأ لأدب المشرق شعره ونثره ونقده، وقد كان أهمّ رصيد اعتمدته حركة الإحياء العام، والأدبي واللغوي منه تحديداً، هو الذخيرة البشرية الجزائرية المهاجرة قبل عقود، والتي بقيت على عهدها بوطنها الأم، فمنهم من عاد إليها من مؤسسات المشرق والمغرب، وهم الذين شكّل اجتماعهم نواة حركة البعث والإحياء، ومنهم من كان في مؤسسات المشرق والمغرب في الزيتونة والقرويين والأزهر والشام والحجاز، ومنهم من خدم مشروع الإحياء الوطني من موقعه في المهاجر.

كما أنّه لا يجب نسيان جهد مشهود في ظروف الاحتلال، وهو جهد النّلة العاملة في المؤسسات العلمية الجزائرية تحت الاحتلال، والتي أبقت على الخيط الدقيق للعربية موصولاً بالسّالفة التقليديّة، رغم كلّ ما قد يُقال لها من تُهم، أو يصدر في حقّها من أحكام، فلا بدّ من النّظر إليها وتقييمها في سياقها التاريخي بنفاصيله واعتباراته، من مثل قبولها الوظيف لدى المحتلّ، أو رضاها بالتعامل مع حركة الاستشراق، وما يتبع ذلك من الآثار، وهم المعلّمون في المدارس الثّلاث، والأنمّة والمدرّسون والمفتّون في المساجد، والأساتذة في كليّة الآداب في الجزائر، وشيوخ الرّوايا في الصّحراء، وبعض الرّوايا في المناطق ذات العمق المتمنّع جغرافياً، والتي بقيت -إلى حدّ ما- محافظةً على أشكال من الدّرس اللّغوي القديم، الذي جمع بين البساطة والقلّة.

4-4- الرّعاية الرّسميّة للإحياء في المشرق، والاحتضان الشّعبي في الجزائر: استندت حركة الإحياء في المشرق إلى أعلام حملوا شكلاً من أشكال السّلطة والرّسميّة بدايةً من إعلانها على يد محمّد علي، ومروراً بتأطيرها على يد بعثات علميّة أكاديميّة رسميّة، أشرف عليها القصر وتابعها، وأنشأ لها المؤسسات، ورعى برامجها، إضافة إلى جهود شخصيّات ذات مواقع اجتماعيّة فاعلة، كجهد الشّيخ محمّد عبده، أو رفاة الطّهطاوي، أو غيرهما ممّن جاء بعدهما، من أمثال البارودي، أو شوقي أو طه حسين؛ بينما لم تلق حركة الإحياء اللّغوي في الجزائر إلّا إهمال السّلطة، وبل ومحاربتها فتلقّاها شعبٌ

لا يملك ما يقدّم للُّغة إلاّ اعتراضه بها، وحبّه لها، وتحولّها في نظره إلى رمزٍ للمقاومة والرّفص، وأنّى لمقاومةٍ لا تُشيعها صحافةٌ، ولا تحتمي بقانون، ولا ترتقي في تعليم، ولا تُحفظ في مدوّنّة، -وكلّ ذلك قد حرّمها منه الاحتلال- أن تقوم أو تستقرّ.

هكذا كان المشهد اللُّغويّ في الجزائر على العموم، يوم كانت اللُّغة العربيّة في المشرق قد بُعثت في شعرها ونثرها، يصدح بها الشعراء، وتتداولها الصُّحف، وتنشرها الكتب، ويتعاهدها النُّقاد بالتّهذيب والترقيّة.

والأكثر من هذا أن نقف على ظاهرةٍ خُصّ بها الإحياء الجزائريّ، حين وجدنا الفاعلين الحقيقيين فيه يرفضون الوظيف لدى سلطات الاحتلال، حتّى لا تُرهَن مواقفهم، ولا تُصادر آراؤهم، ولا يهدّدون في أرزاقهم، فقد كانت دعوتهم إلى الإحياء حرّة، بعيدة عن توجيه السلطات، بل سارت عكس مطامحها وهو الأمر الذي تحوّل -بعد فترة- إلى مواجهاتٍ حقيقيّة بين الإحيائيين وسلطات الاحتلال.

ولم يكن أمرُ رعاية الإحياء في البلاد العربيّة من قبل السُلطة -وإن كانت مغلوّبة- في مصر فقط بل رعت حركة الإحياء في تونس المجاورة أعمال ومبادرات خير الدّين باشا (1810-1879م) في تونس والشّبه بينها وبين جهود محمّد علي في مصر كبير، ورغم ما عانت منه أعمال الرّجلين من عقبات الدّاخل، وتحرّشات الخارج؛ إلاّ أنّ جهود إصلاح التّعليم والزّراعة والإدارة والتّشريع، كان لها ما بعدها، فقد كانت انتعاشا في عهدهما، وسندا لمن بعدهما.

إنّ ما تتداوله الدّراسات من تأثير مشرقّي على حركة الإحياء اللُّغويّ في الجزائر؛ ينبغي أن تُعاد قراءته في سياقاته التّاريخيّة والاجتماعيّة بدقّة، وتُتابع فيه مسارات التّأثير والتّأثر بعناية يسوقها تحقيق أكثر تركيزا، وتحرّ أكثر عمقا.

المقاربة الخامسة:

5- مقارنة ردود الفعل الفرنسيّة والعربيّة والوطنية إزاء حراك الإحياء

"كان الفرنسيّون يرقبون هذا التحوّل في المجتمع الجزائري، من الرّفُض للتّعليم الفرنسيّ إلى الإقبال عليه، ومن التّمسّك بالتّعليم العربيّ العتيق إلى المدرسة العصريّة الحرّة. ومن التّردّد واللامبالاة إلى الإقبال والعزم والاهتمام بالنّهضة والحياة والمستقبل، كان بعضهم لا يرى أكثر من موقع رجله، ولكنّ بعضهم كانوا دقيقين حذرين، لا يخطبون ولا يزمجرون فهم يضعون أيديهم على المكامن، ويفتحون أعين قومهم على مواضع الدّاء"¹.

إنّ القدرة على رصد أعراض الحراك البشريّ الفاعل وآثاره ميزة لا يحصلها الكثير من الدّارسين، بل قد تكون ميزة تُحتزّل في قلّه قليلة منهم، وربّما في فترات متباعدة، لذلك ظهر توجّه الدّول والحكومات نحو إنشاء مؤسسات استشرافٍ وتوقّع، تتكاتف فيها جهودُ مفكّرين وعلماء من تخصصات مختلفة، يُسنّد لها أمر متابعة الظواهر البشريّة، ورصد مساراتها وتوقّع مآلاتها، وكذلك كان أمر الاحتلال الفرنسيّ في الجزائر، فقد أحاط مشروعه في الجزائر بعناية قام عليها طاقم متكامل الاختصاصات، متناغم الأداء إلى حدّ بعيد.

لقد كان جهل الاحتلال بطبيعة الوضع الجزائريّ وتفاصيله في المرحلة الأولى من الاحتلال عقبةً كؤوداً، حال دون تحقيق الاطمئنان الكافي على الأوضاع الجديدة، ولكنّه ما لبث أن أحكم قبضته -وإنّ بعد عقود- على مُجريات الأحداث، فأحاط خبراؤه ومنظّروه بتفاصيل الذهنيّة الجزائريّة وطبيعة توجّهمها، وذلك من خلال عشرات الدّراسات المتخصّصة التي استهدفت العمق الشّعبيّ الجزائريّ ومكوّناته، وأصبح من الممكن بعد ذلك رصد التّصوّرات والمشاريع المحتملة من الجانب الجزائريّ.

5-1- الرؤية الاستشراقية لحراك الإحياء، تقييم أم توجّس؟ من أهمّ المواقف التي تلمّح فيها القدرة التي حصّلها خبراء الاحتلال ومفكّروه؛ تلك الدّعاوات إلى الاحتياط من حراك نهاية القرن (19) وبداية القرن (20) فمع أنّه حراكٌ أردف مرحلةً أحكم فيها الاحتلال قبضته، واستكمل حضوره في كامل التّراب الجزائريّ، وتغلغل في مفاصل الحياة الجزائريّة وتفاصيلها، فقد اعتبر هؤلاء نشاط آخر القرن (19) على درجة من الفعاليّة التي قد تقوّض ما بُني، وتهدّد ما هو قادم أو تعطلّه.

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافيّ، ج3، ص260.

لقد لاحظ (جول فيري) رئيس بعثة مجلس الشيوخ الفرنسي لبحث الوضع في الجزائر، والتي تشكّلت عقب ما سُمّي بـ (فترة العرائض) ظهور "أعراض الجزائر الفتاة التي ما تزال في طور التكوين"¹ فأثناء سماعه لمطالب الجزائريين، والروح التي كانوا يتكلمون بها، كان يُتابع شيئاً مختلفاً من أشكال الاحتجاج السابقة وطرائقها وآفاقها، ولم يقتصر أمر ملاحظة هذا التحول على ملاحظ سياسي ك (فيري) بل صدرت الملاحظة نفسها على لسان خبير عسكري، يُفترض فيه الاهتمام بشؤون الحرب لا السياسة لكن (لارشي) وهو برتبة جنرال "يعتقد أن الجزائريين كانوا مستعدين بشكل واضح للنشاط السياسي"² جاء ذلك في تقرير رسمي رفعه إلى الحكومة سنة 1899م.

لم تكن هذه الملاحظات مقتصرة على المحللين والخبراء الفرنسيين؛ بل كانت ملاحظات نقلها بتفاصيل أكثر، ومظاهر أوضح الأستاذ مالك بن نبي في مذكرات شاهد للقرن، حين صور بعض ملامح ذلك التحول الذي شهدته مدينتا تبسة وقسنطينة في فتوته، وفي الجزائر بشكل عام بعد ذلك فبدايات التشكل الجمعيّ النشط، وظهور أعلام النضال السياسي ك (ابن رحال) و (ابن حمّانة) وطريقة تلقي الجزائريين للأحداث العالمية المتسارعة، وما كان يصل إلى مدينة تبسة من الجرائد المحليّة والعربيّة، مورداً نظرته إلى ذلك -وقد عرضها في أسلوب سرديّ قصصيّ- على أنّها مشاهد مختلفة عمّا كانت عليه قبل سنوات، فنذر الحرب العالميّة الأولى، والحرب الإيطاليّة على ليبيا، وظهور أمريكا قوّة عالميّة جديدة، وأحداث المشرق وتركيا، وغير ذلك، كان يتسرّب شيئاً فشيئاً، مُسهماً في تشكيل نواة المجتمع الجديد.

لقد صدرت هذه الملاحظات والوصف لأعراض الحراك من ابن نبي في فترة تابعها (هـ. مارشاند) بنفس الرؤية وهو الذي كتب سنة 1912م يقول: "إذا نظر الإنسان إلى الوضع الجزائريّ بدون محاباة فإنّه يجد أنّ الجزائر الفتاة قد وُلدت فعلاً"³ و (مارشاند) وإن بدا غير مكترثٍ لعواقب نشأة هذه الحرك وأثارها؛ فإنّه يتحدّث عن "الجزائر الفتاة كحقيقة واضحة، وليست كحركة في مرحلة أعراض الميلاد"⁴ وفي الفترة نفسها يلاحظ كاتبان فرنسيّان -لم يذكرهما الأستاذ سعد الله "ميلاد الجزائر الفتاة التي لم تعد

¹ - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنيّة الجزائريّة، ج2، ص97.

² - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنيّة الجزائريّة، ج2، ص98.

³ - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنيّة الجزائريّة، ج2، ص98.

⁴ - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنيّة الجزائريّة، ج2، ص98.

في هذا الوقت فتاة فقط؛ بل وطنيةً أيضاً¹ وفي هذا التوقيت أيضاً نقف على رأي هام لشخصية علمية ذات ثقل كبير بحكم موقعها العلمي الأكاديمي، ومتابعتها للوضع الثقافي الجزائري واللغوي منه تحديداً زمن الاحتلال، يؤرخ فيه لنقطة انعطاف فارقة من مسيرة اللغة العربية في الجزائر، بمقال له بعنوان: النهضة العربية بالجزائر في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري وهو ما يقابله من التاريخ الميلادي ما بين 1880م و1920م، وقد جاء فيه قوله: "...أن الحكم الفرنسي أوقف سير ونمو اللغة العربية بالجزائر، بينما الحرب العالمية الأولى بعثت في المجتمع الجزائري تيارات اقتصادية وسياسية وثقافية طفرت باللغة العربية طفرة لا مثيل لها من قبل²" وتعبير ابن أبي شنب بالطفرة دقيق في تحول سريع ظاهر، ما كان ليحدث لو لم يسبق بجملة من الترتيبات والاستعدادات التي كانت جاهزة للإعلان عن نفسها، منتظرة الفرصة المناسبة، وقد كانت معطيات ما بعد الحرب العالمية الأولى ملائمة تماماً لهذا الظهور، ورغم أن مقال ابن أبي شنب هذا قد صدر في أول سنة بعد الاستقلال؛ إلا أنه ورد في هذا السياق لدعم المواقف المختلفة التي صدرت متزامنة مع ذلك الحراك أو معلقة عليه، والتي كانت على درجة عالية من القدرة على الاستشراف، سواء ما تعلّق بالجانب الفرنسي، وهو الذي قد ملك مفاتيح المجتمع الجزائري، أو برأي كراي ابن نبي الذي امتلك رؤية وافية في تحليل المنظور، وتوقع المستور. ولم يعد الأمر مقتصرًا على الخبراء والملاحظين والعسكريين، بل يبدو أن مخبر الاحتلال أحسّ بخطر ما يتشكّل، فاستنفر أتباعه والسّابحين في فلكه إلى مخاطبة الجزائريين (بني عمومته) في الأمر فقد ورد في محاضرة للشريف بن حبيّس ألقاها سنة 1913م تحذير السيد (ميلي) الذي اقترح إصلاحات فرنسية عليها تُوقف شيئاً من "سخط سري" كان الاحتلال يخشى نشأته وتفاقمه، أكثر من خشيته الثورات الشعبية المسلّحة، والتي كان آخر عهده بها ثورة عين الثركي 1901م وثورة عين بسّام 1906م. ومما يؤيد القول بأن بداية التحول الجزائري وتميّزه خلال هذه المرحلة، وهو الذي يمكن تسميته تحوُّلاً علمياً -ولو تجوّزاً- هو ذلك الاهتمام الذي أولاه المُستشرقون والخبراء للوضع الجزائري، وقد أصدروه بعد طول مراسٍ، وما أبدوه من تحليل عميق لطبيعته ومجالاته ووجهته.

1- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، ص98.

2- سعد الدين بن أبي شنب، النهضة العربية بالجزائر في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري "ضمن كتاب: إسماعيل العربي، الدراسات العربية في الجزائر في عهد الاحتلال الفرنسي، (ملحق) ص59.

وقد يبدو أنّ الملاحظات التي أدلى بها (فيري) و(لارشي) و(مارشاند) وغيرهم في شأن التحوّل الذي باشره المجتمع الجزائريّ بهدوء وعفويّة منذ بداية القرن (20) لم تؤخّذ من السّاسة والعسكريّين بالجدية اللاّزمة، ولكنّ الإجراءات المصاحبة لهذا الحراك، كانت تُثبت في كلّ مرّة أنّ الاحتلال لم يكن ليسمح بمتنفّسٍ للجزائريّين يبدو في أوّل أمره يسيرا، ليتحوّل بعدها إلى خطرٍ يهدّد مشروع الاحتلال وذلك ما برّر التّعطيل المستمرّ لكلّ نشاطٍ ثقافيٍّ أو فكريٍّ أو تعليميٍّ وطنيٍّ، مهما كان شكله وحجمه أو أنّ تفاعل جملة الظروف المحليّة والإقليميّة والعالميّة وتداخلها، لم تكن لتسمح للاحتلال بأكثر ممّا سمحت له به من قبل، وأنّ الجانب الجزائريّ قد أكسبته الوقائع جدّاً وصبرا وقدرة تدريجيّة على التكيّف مع كلّ ما نتّجه آلة الاحتلال من ممارسات التضييق.

لقد جاء تقييم مرحلة نشأة هذا التحوّل الجزائريّ بملاساته وأعراضه على لسان واحدٍ من أكبر المستشرقين تخصّصا ومتابعة للشأن الجزائريّ إبان هذه الفترة، فقد عدّ (ديبارمي) أنّ التحوّل الجزائريّ "لم يبدأ في العشرينات؛ ولكن منذ أواخر القرن الماضي [19] وقد أخذ يظهر للعيان في أوّل القرن [20] ولكنّ وسائل الضّغط السّياسي والمعنويّ عند الجزائريّين لم تكن متوفّرة إلّا بعد الحرب العالميّة¹ وهكذا فإنّ اعتبار نهاية القرن (19) إرھاسا لهذا الحراك، وبداية القرن (20) ميلادا له، هو أظهر الآراء بالقبول والاعتبار، بناء على ما تمّ عرضه من الآراء والشواهد، وهو الأمر الذي مضت عليه الأطروحة وتمضي، ذلك أنّ ميلاد الحركات من هذا النوع لا يمكن الحكم عليه من خلال حدثٍ أو عتبة؛ بل إنّها -بحكم طبيعتها- تحتاج إلى وقت كافٍ لنموّ أفكارها، واستواء مقولاتها، وانخراط المزيد من الأعلام والمتعاطفين في صفوفها، وتجاوز العقبات الطّبيعيّة والمفتعلة التي تعترض مسارها، ومواجهة التّحدّيات المختلفة التي قد تكون نابعة من داخلها، أو وافدة عليها من خارجها، حتّى تظهر وتستوي، والأهمّ في كلّ هذا هو طبيعة البداية ومكوّناتها ومنطلقاتها الفكرية والإيديولوجية، ووسائلها وغاياتها.

إنّ عرض وجهة النّظر الفرنسيّة من خلال التّقارير الكثيرة التي أعدّها خبراءها ومستشرقوها ورعاها عسكريّوها وسياسيّيّوها، تبدو من زاوية أولى ذات أهميّة بالغة في تقييم حجم الحراك وفعاليّته، فهؤلاء أعرفُ النّاس بطبيعة الوضع الجزائريّ، فهم عرّابوه وصانعوه، وموجّهو الكثير من عناصره، ثمّ هو حكم لم يصدر عن اهتمامهم الخادم لهذا التحوّل؛ بل عن خشية تحمل نذر التّحذير بعد التّحليل، والتّفكير

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافيّ، ج3، ص262.

في الإحاطة في الظاهرة بدايةً من دراسة ظروف المنشأ، ومرورا بمتابعة المسار، فالاستعداد لتوجيه العناصر ورسم المآل.

أمّا من الزاوية الثانية؛ فإنّ حجم الاهتمام الفرنسي بالظاهرة، والتركيز عليها، وتوقع أخطارها على الوجود الفرنسي في الجزائر يحيل -بالمقابل- على حجم هذه المبادرة من الجانب الجزائري، وثقلها فيه فمن منطلق الدافع القائم بين الجبهتين الجزائرية والفرنسية، أصبح ما يُعتبر تهديدا لمشاريع الاحتلال واستمرارها، هو في الوقت ذاته إنجاز وطني تنظر إليه المكونات الوطنية بالإجلال والتقدير، والعكس بالعكس.

5-2- أمارات الإحياء بين المبادرة الوطنية والتقييم الفرنسي: يقيم (أوغسطين بيرك/ A.Berque) نهاية مرحلة النشأة في العقد الثالث من القرن (20) -وهي الفترة التي ظهرت فيها ملامح الإحياء بارزة- فيتوجّه إلى منابع التميّز فيها، ونقاط قوتها، ومحاور فاعليّتها -وهي في الوقت ذاته نقاط تهديد المشروع الفرنسي في الجزائر وأسباب وجوده- فيستعرض أهمّ ركيّزتين قام عليهما وهما: التعليم والحرص على تعزيز الانتماء المشرقي، واعتماد وسيلتين قويتين هما أصل الهوية وركيزاتها (اللغة والدين) فيقول: "التعليم الذي نشره العلماء يقوم على ربط الجزائر بالشرق حضارياً وسياسياً، وقد استعمل العلماء لذلك سلاح الهجوم اللغوي والهجوم العقائدي مع فرنسا¹" واستخدام (بيرك) لمصطلح الهجوم اللغوي ليس جزافاً، فهو يدرك خطر تنبّه العلماء إلى طريقة المقاومة ووسائلها، كما يدرك غاية الاحتلال من العمل على التمكن للغة الفرنسية، والعقيدة المسيحية، ومن ثمّ فإنّ اهتداء الجزائريين لنوعية المقاومة يحيل على معرفتهم بطبيعة المعركة، وهذا بالضبط مكن فعالية الحراك الجزائري، ومكن الخطر الذي يهدّد الوجود الفرنسي في الوقت ذاته.

لقد تابع الخبراء الفرنسيون التحوّل الجزائري المفاجئ نحو التعليم بعد رفضهم له -طيلة عقود- وتردّدهم في الاستجابة لدعوات الإقبال عليه في المدارس الفرنسية -على قلّتها ورسالتها المشبوهة- وهامهم يتحوّلون إليه بشكل لافت، لقد لاحظ ديبارمي هذا الإقبال محاولاً تبريره والوقوف على أسبابه ومآلاته، ويبدو أنّه احتفظ بذلك، واكتفى بالحكم على هذه الحركة بأنّها "ردّ فعل لغوي" ففي مقال له بعنوان: "ردّ الفعل اللغوي" نشره بمناسبة المئوية سنة 1931م، بمجلة الجمعية الجغرافية للجزائر وشمال

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ص252.

أفريقيا، أحال فيه جوهر الحراك الجزائري على عامل اللغة، وإذا كان الدافع الداتي لهذا الحراك عقدياً؛ فإن مظهره المتجلي هو اللغة، فيقول: "لقد تطفن المسلمون الجزائريون إلى أن الدولة الفرنسية لم تستجب لدعوتهم في التعليم الحر... فتتادوا للتخلص من مكاتبهم... ومسيدياتهم القديمة وزواياهم البالية¹ ولا يُستبعد أن يكون ديبارمي قد أسر لآلة الاحتلال الخفية، وفي احتفالية المؤيَّة بوجهة الاحتلال القادمة وإذا أمكن للاحتلال أن يحقق في القرن الأول ما حقق من انتشار على الأرض؛ فإن على فرنسا الاستعداد لتوجيه الحرب مع الجزائريين في ما سيأتي على اعتبار لغوي من منطلق أنه وسيلة وغاية.

وإذا كانت المؤسسات التي وصفها ديبارمي بما ذكر متهمًا؛ فإنها قد كانت كذلك في معظمها بما أوصلها إليه الاحتلال، ومع ذلك فقد ظلت الوعاء الذي احتفظ بجذوة الرّفص للاحتلال ومشروعه الكبير متّدة، وأن لها أن تسلم تلك الجذوة لمدارس من شكل آخر، ولكنّها بالولاء نفسه والروح نفسها.

وإذا كان الجزائريون قد شاع بينهم العزوف عن التعليم أو أشاعه عنهم الفرنسيون؛ فقد أصبحوا خلال هذه الفترة مدفوعين إليه بعد أن قامت خلفهم جبهة وطنية حصّنت انتماءهم الديني واللغوي، وليس عليهم جناح -بعد ذلك- إذا أخذوا بأسباب الحياة المعاصرة من طريق التعليم، وفي المدارس الفرنسية وهم يعلمون أن ولاءهم الحقيقي لتلك المدارس الحرة التي يرتادونها قبل الثامنة صباحاً، وبعد الخامسة مساءً، لأن منطق الاحتلال قد حجز ما بينهما له ولتعليمه.

ومن اللافت أن يتنبه ديبارمي إلى الهدف الذي أنشئ له هذا الحراك، وعلى طول المسار الغني بالنشاط، مشيراً في ذلك إلى أهم وسائله، فقد توجّهت ملاحظاته حول المدارس الحرة التي أنشأها الجزائريون، معتبراً أن إنشاءها اليوم "ليس بهدف ديني فقط؛ بل من أجل هدف وطني وقومي"² ولم يصدر هذا الحكم عن أحد خبراء الاحتلال من موقع الغبطة بما شرع الجزائريون يحققونه لأنفسهم بأيديهم؛ بل صدر ذلك عنه من موقع الأبهة لدراسة الواقع الجديد، الذي دأب مختبرهم على متابعة كل شيء فيه، والاستعداد لكل ما قد يتمخض عنه، ومن الموافقة أن يكون ما ذهب إليه ديبارمي هو عين ما قصده الإحيائيون في مواقعهم المختلفة، ولئن لقّه شيء من الصمت، والتزام قدر من الهدوء واعتماد بدايات انفرادية لكثير من مظاهر النشاط أول الأمر؛ فإن نهاية المرحلة الأولى قد كانت إطاراً مكتمل

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ص260.

² - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ص262.

الوجود - في مثل وضع الاحتلال - وطبيعة الأشياء ستفرض أن يأخذ الإطار الحركي الإحيائي موقعه ويستعد لمطالبات بحجم أكبر، وتحديات من نوع آخر.

5-3- النظرة المشرقية للنتاج المغربي والجزائري تحديدا: يتناول هذا العنصر قضية طالما رددتها العديد من المصادر والكتابات، والتي تدور في مجملها حول طبيعة النظرة المشرقية للنتاج المغربي وتقييمها له، وهي نظرة مشوبة في مفاصل كثيرة بشيء من الاعتداد، ممّا تحوّل إلى مشاهد إقصائية يُصدرها بين الحين والآخر كُتّاب ومفكّرون مشارقة، وهو إفراز أحد سلوكيّين: إمّا عدم اطلاع قد يكون عن غير قصد، وإما عن تجاهل وانتقاص، وإمّا اطلاع مرفق برفض تبرره عقدة من التّعالي التي راحت تشتدّ عبر عهود.

إنّ ما يدعو إلى إثارة هذه المسألة على ما فيها من حساسية قد تُفسّر بذاتية مقبلة، يمجّها العلم وترفضها الأخلاق، هو ما تسبّبت فيه مثل هذه المواقف من خلط، وما نشرته من وهم، ولناخذ في ذلك مثالين: أحدهما عنوان: إبراهيم علي أبو الخشب، تاريخ الأدب العربي في العصر الحاضر، د ط. القاهرة: 1978م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، وكان الأولى الأصحّ أن يكون تاريخ الأدب المصري لأنّ الكتاب لم يعرض فيه صاحبه لشيء من الأدب العربي، ولا لتراجم أيّ من أعلامه في كتاب خرج في ثلاثمئة وخمس وأربعين (345) صفحة، إلّا ما ذكره من قصيدة الأرملة المرضعة للشاعر معروف الرّصافي، وقد أخذت من نهاية الكتاب أربع (04) صفحات، وأخذ منها التّعقيب على القصيدة نصف صفحة! وهي الذهنية نفسها التي صدر عنها الدّسوقي في كتابه الشّهير في الأدب الحديث الصادر في جزأين، ومع ما جاء في السّطر الأوّل من مقدمة الكتاب من قوله: "في مستهل القرن التاسع عشر أخذت مصر والبلاد العربيّة تستيقظ من سبات طويل...¹" لكنّ انتقال القارئ إلى فهرس الكتاب يحيله على أنّه ليس من أدباء العصر الحديث وكُتّابه ونقّاده وشعرائه إلّا الأشقاء المصريّون، وشكيب أرسلان وعندئذ.. ألم يكن الأفضل استبدال العنوان ب: في الأدب المصري الحديث؟

إنّ مثل هذه الكتابات هي التي صادرت كثيراً من الجهود، وغطّت على كثير من الأعمال ودلّست على المتعلّمين، وغلبت النظرة الشّموليّة، والأحكام المطلقة على كثير من المنجزات ذات التأسيس الأصيل، والفكر العميق، وسادت الصّور النّمطيّة البعيدة عن البحث العلميّ المجرّد.

¹ - عمر الدّسوقي، في الأدب الحديث، ط8. القاهرة: 1973، دار الفكر، ص5.

أمّا في الجزائر، فقد كان الإحيائيون وسط ذلك الحراك في شغل عن التّقييم، يتذكّرون ما كان من سنوات خلت، فلا يذكرون عن اللّغة العربيّة إلّا ممارسات الإبعاد والتّحيد، ومن مؤسّساتها إلّا دمارا وخرابا، ومن شيوخها إلّا هجرة وتهجير، أو عزلا وتضييقا، وأمّا ما كان عليه الأمر بعد الثّلاث الأوّل من القرن (20) فمشهدٌ عامٌّ آخر، يختصره أحدُ صانعيه أحمد توفيق المدنيّ مطلع الثّلاثينيّات قائلا: "فإنّ كانت العربيّة في بلاد الجزائر قد خسف بدرّها حينا من الدّهر، فإنّها اليوم تعود على سالف تألّقها وستعود أكثر من ذلك، فالأمة التي تنتبه من سباتها، وتتفض عنها غبار الخمول لا تترك لغتها تتلاشى ولا تترك الصّلة بينها وبين أسلافها تنقطع، فمستقبل الجزائر من هذه النّاحية أيضًا مستقبل زاهر جميل وأوكد -وستحقّق الأيام تأكيدي- أنّ الجزائر ستغدو موطنًا من أجلّ وأجمل مواطن النّهضة العربيّة ببلادنا المغربيّة¹" وهو مشهدٌ نقله المدنيّ وقد استوى عود الإحياء وأورق، فحركة التّعليم الإحيائيّ أصبحت واقعا مشهودًا، وروادُ الإحياء وتلاميذهم يسبحون في الجزائر يبنّون فيها الحياة، ونواديها حافلة بأمارات اليقظة، ومبشرات النّهوض، وأعدادُ الملتحقين بصفوف حراك الإحياء في ازديادٍ، وقد يكفي الإحيائيّين ما هم فيه من استبشارٍ مشوبٍ بالأمل، ورجاءٍ تتربّص به الخشيّة من الزّلل، والتّحايّل لكيدٍ من عدوٍ معلّنٍ، أو مسالمٍ يترصدّ مواطن الخلل.

المقاربة السادسة

6- قضايا اللّغة العربيّة في مقالات فترة نشأة الإحياء :

"يبدو أنّ الشّعور بالمرارة لما آل إليه أمر اللّغة العربيّة، قد تحوّل في هذه المرحلة من التّشكي إلى التّفكير في خطّةٍ عمليّةٍ تُنقّذها من موقعها الدّلّيل، ولذلك لم يكن عجيبي أنّ يتّخذ رُواد الإصلاح المُتحمّسون من الصّحافة الوطنيّة وسيلةً فعّالة لنشر هذه اللّغة بين الطّبقات الشّعبيّة²".

¹ - أحمد توفيق المدنيّ، كتاب الجزائر، د ط. الجزائر: 2009م، دار البصائر، ص136.

² - محمّد ناصر، المقالة الصّحفيّة الجزائريّة، نشأتها، تطوّرها، أعلامها، من 1903 إلى 1931م، د ط. الجزائر: 1397-1978م، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، ص44.

تقارب هذه الفقرة متابعة الأعلام الإحيائية الجزائرية في دعوتها إلى الالتفات لمسألة اللغة العربية والتدرج الذي سلكته كمًّا ونوعًا، بدايةً من فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى، مرورًا بما بعد الحرب حتى بداية العقد (04) من القرن (20).

6-1- قضايا اللغة العربية في مقالات فترة ما قبل الحرب: اكتفت فترة ما قبل الحرب الأولى بصور مقالين على قدر كبير من الأهمية والعمق، وارتقاء مستوى المعالجة بالنظر للظروف السائدة يومئذ، عنوان الأول (1904م) (حياة الأمم بحياة لغتها) دون إمضاء، رجح الأستاذ محمد ناصر أن يكون لعمر بن قُدور، نظرًا لأسلوب الكتابة، وروحها، نشرته صحيفة المصباح المزدوجة اللغة، وصدر في ثلاث حلقات، في الأعداد: 18-19-20، نقل فيها الكاتب حرصه على حياة أمته، وإبداء رغبته في عودتها من طريق حياة لغتها، وهي مسألة تتقل وعيًا مبكرًا بحقيقة الوضع حين عالج قضية اتهام اللغة العربية بالعجز عن مسايرة مستجدات العصر، ووصفها بالصعوبة والتعقيد، ومضايقات الفرنسية والعامة، فكان مقالًا "جمع إلى أفضلية السبق، وعيًا وموضوعية، ونمًا عمًا يتمتع به كاتبه من عقلٍ نير، وأفقٍ واسع، ونظرة بعيدة"¹ لولا أنها جاءت محاولةً فرديةً معزولة، لم تتبع بما يُثري ويوسع.

بينما لفت المقال الثاني لعمر راسم (1912م) الأنظار إلى مسألة موقع اللغة في التعليم، وموقعها في نفوس أبنائها، وإبداء الامتناع الشديد من الممارسات التي تعاني منها اللغة العربية، حين اجتمع عليها تضيق الأعداء، وإهمال الأذعياء، وانصراف ذوي الجاه من الموسرين والأغنياء الذين "اتكلوا على تلك المسائد التي شيدوها (جونار) لبث روح الغباوة فيهم، فيجعل مشايخهم أجهل من حُر الوحش... أظنوا أن العلوم لا تكون إلا باللغات الأجنبية؟ حتى لم يهتموا بلغة آبائهم ودينهم... يحق علينا ألا نتكل على غيرنا، وألا نُهمَل لغة أجدادنا، وتعاليم ديننا"² ثم كانت الحرب الأولى التي كأنها قُذرت فاصلاً اختمرت فيه كثير من الأفكار والآراء، فلمَّا وضعت الحرب أوزارها، تحوّلت النظرة إلى المسألة اللغوية تحوُّلاً ساير الحراك المتميز الذي شهده العقد (03) من القرن (20) فكشف عن أفكارٍ جديدة، وأطروحاتٍ بديلة، ومواقف واقعية، وتحذيرات حقيقية.

6-2- قضايا اللغة العربية في مقال ما بعد الحرب: حازت مسألة اللغة العربية في كنف الكتابة الصحفية عموماً، ومن طريق المقال تحديداً، اهتماماً يناسب ظروف الفترة ومعطياتها، فقد رصدت

¹- محمد ناصر، المقالة الصحفية الجزائرية، ج2، ص39.

²- محمد ناصر، عمر راسم المصلح الثائر، ط2. الجزائر: 2013م، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، ص155.

الفصل الثاني:

مقاربات في مشاهد ومعالم حركة الإحياء اللغوي في الجزائر

الأقلامُ الصحفيّةُ الوضعَ الذي آلت إليه اللّغة العربيّة فبصّروا به، واستشرفوا ما تُساق إليه من المآل فحدّروا منه، وكان من الكتابة حول ذلك ما يأتي عرضاً في سياق الدّعوة إلى الحفاظ على المقوّمات من الدّين واللّغة والتّشريع والأخلاق، والحثّ على التّمسّك بها من طريق التّعلّم والتّعليم، وبثّ روح الانتماء والاعتزاز به، ومنها ما تُقرّد له المقالة الكاملة، وهذا ما سيحظى هنا بشيء من العرض.

ذيل الأستاذ محمّد ناصر كتابه المقالة الصحفيّة الجزائريّة بقائمة المقالات حسب المواضيع ومنها قضية اللّغة العربيّة في العقود الثلاثة الأولى من القرن (20) والتي بلغت (18) مقالا صريحا أوردتها (10) صحف، ترى الأطروحة أنّ عرضها -بتصرّف واستدراك- في التّرسّمة كافٍ لرصد جانب من ملامح ظاهرة الإحياء اللغويّ في الجزائر عبر المقال الصحفيّ خلال الفترة.

قائمة مقالات في قضايا اللّغة العربيّة لما بعد الحرب العالميّة الأولى

عنوان المقال	الكاتب/ الإمضاء	الصّحيفة	العدد	التاريخ
نحو التّهُوض	عمر بن قدور	الفاروق	3	1920-10-22م
الصّحافة العربيّة في الجزائر	المولود الأزهرّي	الصّديق	7	1920-10-25م
التّعلّم والتّعليم	الأمير خالد	الإقدام	12	1920-11-30م
صوت الشّيبية	محمّد الموهوب	الصّديق	16	1921-01-16م
الجمعيّة الصّديقية في إحياء اللّغة العربيّة	المولود الزريبي	الصّديق	30	1921-04-18م
الشّعب الجزائري ونوابه	محمّد بن العابد	الصّديق	52	1922-03-20م
نقدات حول النّادي، لا تقاهم بغير العربيّة	ابن باديس (ترجيحا)	المنتقد	9	1925-08-27م
صوت العلم يناديكم، فهل من مجيب؟	الحافظيّ الأزهرّي	الشّهاب	43	1926-08-02م
حقيقة الشّعر وفوائده	رمضان حمّود	الشّهاب	82-85-94-108	1927-02-03م
رفقا بفتاة يعرب وقحطان	عبد الغني رابح	البرق	5	1927-04-04م
التّرجمة وتأثيرها في الأدب	رمضان حمّود	الشّهاب	116	1927-10-16م
اللّغة العربيّة غريبة في دارها	أبو اليقضان	وادي ميزاب	55	1927-11-03م
تعليق حول عدّ ألفاظ اللّغة العربيّة	محمّد بن العابد الجاللي	الشّهاب	ج6-مج5	جويلية 1929م
مستقبل اللّغة العربيّة بالجزائر	ابن باديس	الشّهاب	ج8-مج5	سبتمبر 1929م
بين الموت والحياة	توفيق المدني	الإصلاح	13	1930-02-27م
اللّغة العربيّة	محمّد بن العابد	الشّهاب	ج12-مج6	جانفي 1930م

يقف الدّارس لمسار الكتابة الصحفيّة المتابعة لقضايا اللّغة العربيّة في فترة الإحياء الأولى بمرحلتَيْها: قبل الحرب وبعدها، على طبيعة النّضال وتدرّجه، فبدايةً من سيمياء العناوين وجرسها اللّفظيّ على السّمع والنّفس؛ أخذ كُتّاب المقال يتناولون قضايا اللّغة العربيّة بقسط كبير من الجدّيّة والحرص، ممزوج بمستوى رفيع من الوعي في الطّرح، والرّصد الواقعيّ لطبيعة المسائل وحجمها، واقتراح الحلول الضّرورية المناسبة لتجاوز مرحلة الخطر المؤكّد الذي باتت عليه اللّغة العربيّة، ولمّا كان من غير الممكن رصد كلّ المتابعات، فسُيكتفى بعرض تلك القضايا جملة على أنّها أحد المعالِم التي سجّلت تحوُّلاً فارقاً في مسيرة الإحياء اللّغويّ.

يلاحظ الإحساس الكبير بالوضع الذي آلت إليه اللّغة العربيّة، وإدراك العلاقة بين مصير اللّغة ومصير النّاطقين بها، وضرورة نشر الوعي للمطالبة بالحقّ اللّغويّ، والحقّ في التّعليم من حيث أنّه أحد أهمّ المسالك إلى إحلال اللّغة مكانتها في المجتمع، ثمّ التّنبّه إلى المؤسّسات التي يمكن أن تكون الإطار الأنسب لاحتضان مشروع كمشروع الإحياء اللّغويّ، فانتدبت لذلك الجمعيات بوصفها الإطار البديل الممكن للقيام بهذه الوظيفة، دون إهمال دور الصّحافة الذي يمثّل منبرا متعدّد المهمّات، فمن الإرشاد والتّوعية، إلى المطالبات وإشهار العرائض، إلى الممارسة العمليّة اليوميّة للغة، راح الإحيائيّون يعدّدون مسالك انفراج وضع اللّغة العربيّة، كما وجدنا نماذج وإشارات إلى مسألة خدمة متن اللّغة بتناول قضايا التّرجمة، والمسائل المعجميّة وغيرها.

كما أنّ الأعلام التي عالجت هذه المسألة، هي ذاتها التي حملت لواء الإحياء ميدانيّاً في التّعليم والكتابة الخادمة للقضايا النّظرية ذات العلاقة باللّغة العربيّة، ورفع مستوى حضورها العام، وهي القضايا التي سيُقبل العقد (04) فتصبح نقاط الاحتكاك بين حملة الإحياء وسلطات الاحتلال، وهكذا فقد رسمت هذه الخطاطة وضع العقد (03) وأسست لطبيعة التّدافع الذي سيشهده العقد الذي بعده.

الفصل الثالث:

أبعاد مشروع الإحياء اللُّغويّ في الجزائر خلال
القرن العشرين.

الفصل الثالث:

أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين.

"وما من شك في أن الحفاظ على اللغة العربية في الإنتاج الفكري والأدبي كان هدفا من أهداف الحركة الإصلاحية، فإن هذا الموقف لم يكتسب بُعدا ثقافيا أو اجتماعيا أو دينيا فحسب؛ وإنما اكتسب أيضا بُعدا سياسيا، فقد كان الحرص على بقاء اللغة العربية في الألسنة فصيحة نقيّة جزءا من الحرص على المقومات الأساسية للشخصية الجزائرية أمام أمواج الفرنسة والمسخ¹."

توطئة: أمام تعقيدات الوضع الجزائري العام خلال عقدي الثلاثينيات والأربعينيات من القرن (20) وتداخلات رؤى الاتجاهات الاجتماعية والفكرية، وصراع النخب حول المواقع السياسية، وتجاذبات الولاءات المختلفة، تنبثق أبعاد حركة الإحياء اللغوي في الجزائر، وقد أصبحت هذه الحركة رقما من أرقام المجموعة الجزائرية، ولكنها وجدت نفسها قائمة على صفيح ساخن، تنظر إلى ما تحقق لها من نتائج، وما بلغته من أهداف، بعين الحرص والحماية، وتستشرف الأفق الداكن بقدر كبير من التوجس والحذر، فبعد أن كانت تلك الجهود قبل نحو عقدين مشروع أفراد، يستهدف استردادا طبيعيا للسان العربي في الجزائر، وترقية استعماله في مختلف مظاهر الحياة العامة؛ ها هي اليوم تتحول إلى حركة تتلمس الطريق للتحديات التي أفرزتها طبيعة إعادة بعث أمة وإحياء أجيال، وتفتح أمامها جبهات أخرى من المضايقات والعقبات، سرعان ما اتضح أنها الواجهة الصغرى لمشروع كبير، هو ثمرة جهود الاحتلال طيلة عقود، ونتائج تضافر جهود الباحث في المكتبات المغصوبة، وحصيلة دراسة ميدانية لساكنة مستغفلة، ترعاها جهود الحاكم السياسي، وتحميها بذلة العسكري، وبات واضحا أن خلف الواجهة اللسانية الساذجة، عمق مركب من تحديات اجتماعية وتاريخية وثقافية كبيرة، بل تجاوز ذلك إلى تحديات على الجبهة السياسية والاقتصادية، لتأخذ القضية في نهاية الأمر شكلا من أشكال الصراع الحضاري بأبعاده المختلفة، وقد صار موقع اللغة فيه قطب الرّحى، وبعد أن كان التفكير في أبعاد حركة الإحياء اللغوي في الجزائر، أصبح الحديث عن الغام المسألة اللسانية في الجزائر.

¹ - محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية، 1925-1975م، ط2. بيروت: 2006م، دار الغرب الإسلامي، ص294.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

وفي ضوء المستجدات التاريخية التي ترفق النشاط اللساني في أي بيئة، يتم حصر وصياغة الأبعاد في إطار تلك الظروف والملابسات، فالحرب التحريرية بخصوصياتها ومعطياتها، ستضطر مشروع الإحياء إلى أولويات أخرى، والواقع الاستثنائي لسنواتها، سيقص من آفاق حركة الإحياء، ويحد من طموحاتها، كما سيكون واقع ما بعد التحرير بتركته الثقيلة الموروثة عن فترة الاحتلال مجبرا على إيجاد حلول سريعة لمعضلات كبيرة، وفي غمرة هذا، سيعمل هذا الفصل على محاولة استجلاء أبعاد حركة الإحياء اللغوي في الجزائر بتدخل مكوناته، مع المكونات المولدة في كنف الاحتلال وبرعايته، وتصادم أهدافها مع المصالح التي أعدها المخبر الكولونيالي بعناية، فأعلن منها وأخفى، وهو الوضع الذي قد يؤرخ لنهاية ملامحه باستواء أمر الثورة التحريرية، وشمولها الجغرافي، وتغلغلها الشعبي نهاية العقد السادس من القرن (20).

أولا: البعد الاجتماعي لحركة الإحياء اللغوي في الجزائر

"أنتم في وضعكم الاجتماعي - أبناء حياة ليس لكم في تسييرها يد، ووطن ليس لكم في أرضه مستقر، وجيل ليس لكم في تكوينه أثر، وتاريخ ليس لكم في تسطيره قلم، وقانون ليس لكم في وضعه شرك، وحاضر ليس لكم في تدبير مستقبله رأي، فجنتم على هذه الصورة التي لا تأتي إلا في فترات مجنونة من الزمن، وفي فترات شاذة من الطبيعة، أو انعكاسات غريبة من نظام الخلق¹."

تمتد الخلفية الاجتماعية لحركة الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن (20) بجذورها إلى نهاية العهد التركي الذي طبع المجتمع الجزائري بواقع لساني ظهرت عليه آثار القرون الماضية، سواء من ذلك ما تعلق بالمتن اللغوي الذي استقبل فيه المعجم الوظيفي اليومي الجزائري عشرات الألفاظ والاستعمالات، أم ما تعلق بالوضع الاستثنائي الذي عاملت به السلطة التركية اللغة العربية في الجزائر كما في غيرها من البلاد العربية.

ولم يكن بالإمكان إغفال هذه الخلفية التاريخية بحكم أن السابقة التي استلم الاحتلال الفرنسي فيها واقعا لسانيا ليس له من الصفاء اللغوي ما يعد به جزائريا خالصا، ولم ينزل به من الإجحاف والضيق ما يجعله واقعا غير جزائري، ومن هنا كان التأسيس للبعد الاجتماعي لحركة الإحياء اللغوي في الجزائر.

¹ - محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج3، ص268.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

1- أثر التشكيل المجتمعي على الواقع اللساني: أضحى التنوع اللغوي والعرقى الطارئ الذي آل إليه المجتمع الجزائري نهاية العهد التركي عائقاً في وجه إمكانية الحديث عن لغة جامعة موحدة، فرغم أنّ الظاهر العام يُنبئ بأنّ اللغة العربية لا تزال تحتفظ بمجالها الطبيعي، وحضورها النفسي والواقعي من خلال ما اكتسبته من حضور وفعالية بدايةً من الفتح الإسلامي، والذي بقي يتعرّز بجهود المنتسبين إليه سليقةً أو اكتساباً؛ إلّا أنّ الوضع الجيو لساني: (Géolinguistique) الجديد الذي أفرزه الحضور التركي في الجزائر كان عبارةً عن تشكيلٍ من مجموعاتٍ لغوية، لا تبدو متنافرة أو متصارعة، ولكنها لا تصنع وفاقاً مجتمعياً فعّالاً، إنّ على المستوى النفسي للأفراد، أو على المستوى الوظيفي للجماعة.

لقد استدعى استقرار التجاور اللغوي السابق لعهد الأتراك زمناً طويلاً نشوء حتمية التعائش الاجتماعي بإنتاج وفاقٍ لغويٍ نسبيٍّ جاورت فيه اللغة العربية القادمة معتزةً بسلطان القرآن والإسلام لغاتٍ مازيغيةٍ محلية، لم تتعرّض لسوء أو إقصاء، بل كانت العربية إضافةً عالية، تقبلها أهل البلاد مع الدين الجديد، وبات ولأء الجوار للغات المحلية طبيعياً، سواء من زاوية الدين، أم من زاوية عالمية اللغة العربية، وهما أمران ما كان ينبغي أن تتأخّر عنهما اللغات المحلية، وهكذا، فإنّ الأمر لم يكن خالصاً للغة العربية اجتماعياً، كما لم تكن فيه على حضور قويٍّ كاملٍ في جوانب الحياة العامة، فقد أصاب الوهنُ الفكريّ جميع جسد الدولة العثمانية، وقطّع الرُكودُ أوصال المجتمع في جبهاته كلّها، وبمقتضى ذلك أبعدت اللغة العربية من ميادين الإنتاج والعلوم والفكر والإبداع، وهو وضعٌ لا يُستثنى فيه أيّ إقليم إسلامي.

لقد تشكّل الوجود التركي في الحقيقة عرقياً ولغوياً من "الطبقات والفئات الاجتماعية التي رمت بثقلها وراء العثمانيين؛ فهم معظم المرابطين ومهاجري الأندلس وقبائل المخزن واليهود... وكان المرتدّون على الديانة المسيحية (الأعلاج) الذين تتركوا يشكّلون أيضاً قوّة أخرى اعتمد عليها الحكم إلى جانب أتراك أناضوليا المغامرين"¹ وأمام هذا التنوع العرقي واللغوي، بات ضرورياً الاتّفاق على محور التقاء يحقّق الكفاية الضرورية من التّواصل في مجاليّ الحرب والإدارة والشؤون اليومية، إذ لم يكن من اهتمام لدى كلّ أجهزة الدولة وأفرادها لما يصنع وفاقاً مجتمعياً، ويبني ثقافة اجتماعية تقوم على التّواصل الفعّال الإيجابي، بل كان يكفي من ذلك ما يقوم به أمرٌ إحكام السّلطة والإبقاء على قوّة الدولة وهيبتها، وتحقيق مزيدٍ من الانتصارات في الحروب، ولمّا كان هذا هو الأمرُ الأوّل؛ فقد اكتفت السّلطة التركيّة بمعجم

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص16.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

مغلق، سَمَّته الأولى الوظيفية، وجاء عبارة عن خليط غير متناسق في ألفاظه وتراكيبه، يعكس في تناغم شديد الطبيعة المختلطة لمستعمليه.

ولئن كانت لغة الوثائق الإدارية، والمراسيم، وسجلات الدواوين، وحسابات التجارة، وما إلى ذلك من المرافق المباشرة للدولة باللغة التركية التي كانت لغة كتابة؛ فإن لغة التداول الحقيقية كانت خليطاً تغلب فيه التركية، خاصة في المناطق التي كان فيها وجودهم مركزاً، وقد كان كثير من المتكلمين المحسوبين على الجانب التركي في كثير من الأحيان أوفياءً للغاتهم الأم السائدة في بلاد البلقان وشرق آسيا وغرب أوروبا وغيرها، كما أن أهل البلاد الأصليين -الذين لم يكونوا أيضاً جنساً واحداً، ولا يتداولون لغة واحدة- وهو الوضع الذي قامت تحت أحكامه العلاقة بين شعب يرى أن أولى قضايا سلامته وأمنه من أعداء الشمال المتربصين، وسلطة أعظم همها تحقيق ما رغبه الشعب منها ونَدَبها له، ولهذا كانت الجزائر العثمانية في عمومها، -ولنحو ثلاثة قرون- محكومة لغوياً بتحقيق الضروري من صيغ التواصل، دون النظر في كثير من المواقف إلى سلامة اللغة، أو صحة التراكيب، أو التنبه إلى ما يجتاح اللغة العربية من خدوش في مستوياتها كلها.

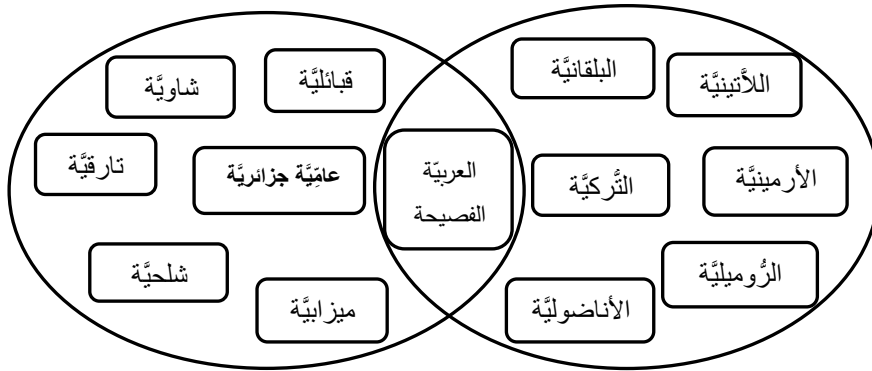
لم يحدث احتكاك اللغة العربية بغيرها في الجزائر العثمانية واللغة العربية في أفضل أحوالها، فقد زالت أو ضعفت كثير من مبررات قوتها، واستقوت في المقابل أشكال لغوية أخرى، تريد أن يكون لها موضع في السلم الحضاري الإنساني.

ومن هنا فإن الحديث العاطفي عن قوة العربية ومكانتها، قد بدأ يغشاها الفتور والوهن منذ نزول العثمانيين على أهل البلد، وإلى أن استلمها منهم الاحتلال الفرنسي، بفعل ما آل إليه أمرها طيلة هذه الفترة.

2- الوضع اللغوي الجزائري إبان العهد التركي في ضوء اللسانيات الاجتماعية: يعتبر علماء الاجتماع اللغوي تجاوز الجماعات الكلامية عاملاً مباشراً في نشوء شبكة تواصل شديدة التداخل والتعقيد فتستجيب هذه الجماعات تدريجياً لمواضع جديدة، يستعد بموجبها أفراد هذه الجماعات لمعرفة اتجاهات الاستعمالات اللغوية عند الجماعات الأخرى المجاورة، ومع مرور الزمن تتشكل لدى هؤلاء - إضافة إلى لغاتهم الأصلية - ذخيرة لغوية غير متجانسة، هي عبارة عن جملة من تراكيب وألفاظ تنسم بالتسامح والعفوية، يتفق الكل ضمناً على جعلها أساساً للتفاهم والتواصل، وفي الوضع الجزائري التركي بتنوعاته اللغوية غير المتجانسة، نتصور جانباً تركياً مشكلاً من عديد الأعراق واللغات، ينزل فجأة على

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

جانب جزائري غير موحد اللغة أيضا توحيدا كاملا، لنجد أنفسنا أمام احتكاك كُثْلَتَيْن لُغَوِيَّتَيْن كبيرَتَيْن تُنسب إحداهما إلى اللغة التُركِيَّة تجوُّزا، كما تُنسب الثانية إلى اللغة العربيَّة بحكم الشُّيوع، وهو وضع يجعل القول بأنَّ اللغة التُركِيَّة كانت لغة السُّلطة والإدارة، والعربيَّة لغة الشَّعب والاجتماع، فيه كثير من التَّسامح، فتعددت السِّجَلَات اللُّغَوِيَّة التي تولدت عن هذا الوضع، ممثلة في اللُّغات الأمَّات للأجناس المكوِّنة للوجود التُركي، ثمَّ اللغة التُركِيَّة بوصفها لغةً مشتركةً للأتراك الأصليين، وللأفراد المُنتسبين إليهم بحكم الوظائف، وعلى الجانب الأهلِيِّ هناك اللغة العربيَّة الفصحى التي تراجعت مساحات استعمالها إلى مجالس التَّعليم والخطابة وشيء يسير من التَّأليف، ولُغة عامِّيَّة جزائريَّة شعبيَّة، هي لغة حديث عامَّة الشَّعب، وقد احتفظ كلُّ مكوِّن من مكوِّناته بلُغته الأمِّ من قبائليَّة أو شاويَّة أو شلحيَّة أو تارقِيَّة أو ميزابيَّة، وتلك صورةٌ تُحاول التَّرسيمه الآتية تجميعها، لنرى الهامش اليسير الذي حازته اللغة العربيَّة الفصيحة التي تبقى هدفا مرجوا.



قد لا يشعر المرء بالتغيُّرات التي تطرأ على اللغة عند احتكاكها بلغةٍ أخرى كما في حالة اللغة العربيَّة عند احتكاكها باللغة التُركِيَّة في الصُّورة التي سبق عرض شيء منها، ولكنَّ تغيُّراتٍ كثيرة ستُلاحظ على اللغة إذا طالت مُدَّة التَّجاوُر والاحتكاك هذه، وهناك نماذج كثيرة أثبتت حدوث تغيُّرات ملموسة على اللغة "ففي إحدى القرى الفلسطينية التي تعرَّضت وبصفة اعتباطيَّة للتقسيم إلى شطرين في الفترة ما بين 1949م وسنة 1967م، شطرٌ تابع لإسرائيل، والثاني بالضَّفة الغربيَّة تابع للأردن وبعد مرور خمسةٍ وعشرين سنة على انتهاء هذا التَّقسيم، يتَّضح فيها جليًّا وجود نوعيَّتَيْن من اللغة العربيَّة المستعملة في هذه القرية¹ وستكون القرون التي لبث فيها الأتراك في الجزائر كافيةً لترك آثارٍ - وإن قلَّت - على اللغة العربيَّة، بل إنَّ من هذه الآثار ما بقي متداولاً إلى يوم النَّاس هذا، وبخاصَّة في تسميَّة

¹ - برنار صبولسكي، علم اللغة الاجتماعي، د ط. الجزائر: 2010م، ديوان المطبوعات الجامعيَّة، ص 76-77.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

بعض الأعلام والمهن وأدواتها والوظائف، ومستلزمات البيوت، وهو دليل آخر على حالة المزج اللغوي الذي كان سائدا يومذاك، فقد كانت ضرورة التواصل بين أفراد مجتمع في بيئة واحدة تُحتم ابتكار مشهد لغوي ثالث يكون مزيجا من اللغتين العربية والتركية، إلى حدٍ يحقق عملية التواصل، وهي مرحلة يلجأ فيها المتحدثون إلى المزج بين اللغات المختلفة، في مواقف مفاجئة أو منتظمة، فيناوب المتكلم بين لغته ولغة مخاطبه، وتلك بداية الافتراض اللغوي كظاهرة تتحقق ببداية بحث الكلمة أو المصطلح عن مكان له في النسق اللغوي للآخر، وغالبا ما يحدث ذلك في بداية الاتصال اللغوي الواسع بين الجماعات اللغوية في ظروف كالاحتلال، أو الهجرات الكبرى، أو التجارة مثلا.

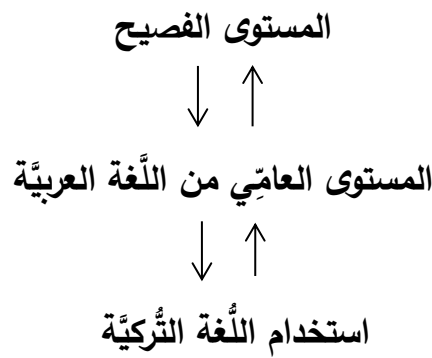
يُظهر النموذج الجزائري التركيبي هذا النوع من المزج ثم الافتراض في كثير من الألفاظ التي سرت في الاستعمال العربي في الجزائر ومكثت بها مدة طويلة، من مثل: (قهواجي، خزناجي، سعالجي... إلخ) إذ رغم طول مدة الاحتلال الفرنسي التي أعقبت الوجود التركي في الجزائر؛ وما سعى فيه من محاولات إحلال الفرنسية مكان أي لسان؛ إلا أن التمكن الشديد لبعض الألفاظ والتراكيب، قد استبقاها التداول العام متحديا كل وسائل الإبعاد والإزالة، بل إن تداول العامة للفظ (بوسطاجي) -مثلا- دليل على قوة ثبات وزن النسبة التركيبي ذى النهاية (جي) والذي ركب عليه التداول العامي الجزائري ما غلب عليه من الاستعمال لفظ (بوسطاجي) من لفظ (poste) الفرنسي و(جي) التركية.

وفي خضم هذا المعترك اللغوي الذي يلمح فيه المنتبج مظاهر مختلفة من المزج والانتقال والافتراض؛ نتساءل عن الوضعية التي ستكون عليها اللغة العربية، وقد غزا جسدها الكثير من الألفاظ التي لم تخضع لعملية تجميل مستمر، تُصبح بعدها مقبولة ضمن كيائها، وهو الإجراء الذي استقبلت به هذه اللغة عبر تاريخها الكثير من الألفاظ المولدة والمعربة والمقترضة، بعد أن أخضعها الخبير العربي في علوم العربية لعمليات تجميل شهيرة.

ومن مظاهر هذا التأثير أيضا أنه طال المعجم العامي الذي استبقى منه التداول لنحو ثلاثة قرون وإلى بداية الاحتلال الفرنسي كثيرا من الكلمات التي رافقت الحياة اليومية للناس من أسماء الحرف والأواني والملابس والمآكل، ولعل من أهم الوثائق التي دونت هذه الظاهرة كتاب الأستاذ محمد بن أبي شنب: الكلمات التركية والفارسية الباقية في العامية الجزائرية، وهو وثيقة تعكس بوجه واضح مدى التجاور اللغوي وحدوده، مما كان سائدا خلال تلك الفترة.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

3- مجال تأثير اللغة التركية ومداها: لقد أمكن رصد الكثير من حالات الاقتراض من التركية إلى العربية العامية، باعتبار أن التجاور الحقيقي بين اللغتين كان على مستوى التركية والعامية من اللغة العربية، ويظهر ذلك أكثر وضوحا على مستوى الاستخدام والتداول اليومي. أما المستوى الفصيح من اللغة العربية فقد نأى به حملته وأنصاره شعبياً إلى الكتايب والزوايا العلمية والمساجد وأخذ مظهرين أحدهما: الكتابة والتأليف، وثانيهما: التدريس والخطابة، وهما جانبان لم تكن فيهما منافسة من اللغة التركية لضعف حركة التأليف والتعليم والخطابة بها. وإذا ما أمكن تخطيط الاحتكاك بين أشكال التوظيف اللغوي السائد يومذاك فإنه يكون كالآتي:



ونتيجة لطبيعة هذا التجاور وحدوده؛ لم يتجاوز تأثير اللسان التركي مستوى المشافهة، فكان تأثيرا غشي ميادين الخطابات العامية بمعجمها وأساليبها، ولكنه لم يرتفع بمستوى الكتابة والتأليف ولم يقدم للغة العربية في متنها ووضعها ما يجب أن يقدم، بل ظهرت آثار ذلك التلامس بين اللغتين، وكان المستوى الفصيح ضحية للتجاوزات المتكررة من العامية إلى درجة بات فيها توظيف الألفاظ التركية وانتشار مظاهر اللحن في النتاج الأدبي دليلا على التراجع الهائل للفصيح العربي كتابة ومشافهة. وعلى قدر انحسار دائرة الاستعمال اللغوي الفصيح في مضاربه؛ فقد كان ذلك وسيلة لحمايته من آثار الاحتكاك باللغات الوافدة، وبالإبقاء على مجالات استخدامه بعيدة عن المركز المباشر للتداول العام، الذي لا يمكن عنده الاحتراز من التجاوزات على القواعد اللغوية، ولا القدرة على التزام معايير السلامة، وصار ما تبقى من العربية الفصيحة متمنعا إلى حد ما عن التبذل العامي والرتانة التركية. ومن هنا يمكن القول بأن الوضع اللغوي في الجزائر نهاية العهد التركي، لم يصبح على درجة من القوة والتماسك، إن على صعيد المتن، أو على صعيد الوضع، أو على صعيد الاستعمال والتداول، ولم تكن اللغة العربية فيه على أحسن أحوالها، وهو الوضع الذي سيتسلم الاحتلال الفرنسي عليه اللغة العربية في الجزائر ضمن ما تسلم عن الأتراك من الأرض والدين والإنسان.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

4- التشكيل الاجتماعي والواقع اللساني في الجزائر زمن الاحتلال: سارع الاحتلال الفرنسي منذ

أول عهده بالجزائر إلى إعادة تشكيل النسيج السكاني للجزائر، وبعد (70) عاما استوت الديموغرافيا في الجزائر على شكل يستولي فيه نحو نصف مليون مستوطن منتسب إلى الاحتلال الفرنسي، على كل شيء، وهم في الحقيقة خليط أوربي متباين في لغته الأم، ومختلف في نمط تفكيره الأول، قد جمعتهم المصالح المادية الهائلة، والنفوذ السياسي الضارب، والذي بلغوا به تهديد الحكومة العامة في باريس بالانفصال، وقد أحكموا أمرهم على البلد مع بداية القرن (20) وتحديدًا في سنة 1900م سنة حصول الكولون على الحكم الذاتي المالي، وحياسة مؤسسة الوفود المالية السلطة المطلقة على الشأن المالي والسياسي، وهو ما يعني -على الصعيد اللغوي- المزيد من التضييق في الإنفاق على التعليم، هذا الإنفاق الذي كان ذريعةً يتحجج بها الاحتلال في إهماله تعليم الجزائريين، بل إن هذه الكتلة التي تبدو تشكيلا أوربيًا واحدًا ليست كذلك، فحقيقة تركيبة الكولون الاجتماعية ليست إلا هجينًا أوربيًا في الأعراق جمعهم وفاق مصالح اقتصادي، ومزيجًا لسانيًا من اللغات وحدتهم لغة فرنسية ليست بعيدة عن أرومتهم اللغوية الأم، وخليطًا عقديًا في الديانة يدين في عمومهم بالمسيحية، وبعد قرار كريميو بالتجنيس الجماعي لليهود في عهد الجمهورية الثالثة سنة 1870م، والذي تحوّل بموجبه اليهود من (أهالي) إلى مواطنين فرنسيين كاملي الحقوق، التحق بهذا الهجين فصيل آخر لا يقل خطر حضوره الاجتماعي والمالي عن الحضور الفرنسي نفسه.

لقد أعاد هذا القرار التصنيف الاجتماعي الذي ظل سائدًا طيلة (40) سنة التي تلت الاحتلال فمن اليهود من استقبل القرار بغبطة رأى فيها فرصة النفوذ والسلطة، ومنهم من تردّد فيه خشية عواقبه، وأيًا كان موقف اليهود منه، فإن موقف الجزائريين منهم كان مشوبًا بالامتناع والسخرية، حين اعتبروا ذلك رضى مهينا يلحقهم بمرتبة (المطورنيين) المتجنسين، في وقت ازداد فيه فخر الجزائريين بثناتهم على دينهم وهويّتهم، مع ما يجدونه من حيف وعسف، في ما نظر الكولون إلى القرار نظرة توجّس، وقد توقّعوا من اليهود منافسة على النفوذ والسلطة، وهم لم يروا اليهودي إلا تاجرًا أو حرفيًا، أمّا معلّمًا أو رجل سياسة، فهو مشهد اجتماعي عليهم أن يوطّنوا أنفسهم على القبول به، ف"ارتباطاتهم بيهود فرنسا وأوروبا عمومًا، قد جعلهم خطرين في هذا الميدان بالنسبة لفرنسيي الجزائر، وقد أثبتوا من قبل معرفتهم بالبلاد وبأسواقها وعاداتها ولغتها، ولذلك وقع التملل الشديد ضدهم في الأوساط الفرنسية"¹ وقد كان

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، ص399.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

ذلك ضماناً لقبول تلك المكونات ببعضها تدريجياً، فإذا ذُكرت هذه التَشكيلات الواقع من حولها، واعتبرت نفسها مقابل وسطِ جزائريٍّ عربيٍّ إسلاميٍّ، وقد علمت يقينا مقدار العداء الشديد التي يحمله لها، فرض ذلك على الجميع الاتفاق، أخذا بقاعدة وحدة العدو مدعاة الوفاق.

ولعلَّ أظهر الأدلة على طبيعة التَعائش في الجانب الفرنسي حتَّى حدود المنيّة، والقائم على المصالح، وحماية مواقع النفوذ، والعمل على استبقاء الجزائريين على ما هم عليه، ما عرف بـ (حادثة قسنطينة) والتي أوضحت في جملتها موقف الاحتلال واليهود من (الأهالي) كما تنتقل طبيعة الموقع الذي تحصّل اليهود عليه، ودرجة التحوّل التي بلغوها.

كان اكتمال قرنٍ من الاحتلال فرصة كافيةً للاعتقاد باكتمال السيطرة على الوضع العام في الجزائر وهي الفترة التي استقرّ فيها تصنيفُ الجانب الفرنسي اجتماعياً على الشكل الآتي:

- فرنسيو فرنسا وهم ممثّلو الحكومة الفرنسية في الجزائر، وقادتها العسكريون، وضباطها بمختلف رتبهم، وعائلاتهم، وهم أيضاً جزءٌ معتبرٌ من الكولون، وبلغ عددهم بين سنوات 1830م و1860م نحو 103.323 مستوطناً.

- فرنسيو الجزائر وهم كتلة المعمّرين من الفرنسيين، ومن أعراق أوروبية أخرى استعملتهم فرنسا بداية الاحتلال لتكثيف حضورها البشري، وتغيير الديموغرافيا الجزائرية، وبنهاية عهد الامبراطورية 1870م، وصل الرّقم إلى 129.898 نسمة، وأخذت شكلها الواضح عقب التّزوح الشّهير للألّزاسيين سنة 1871م، فوصل في سنة 1880 إلى 195.418 مستوطناً.

- تزامن ذلك مع قرار كريميو بالتجنيس الجماعي لليهود ليصل عدد الجالية الفرنسية في الجزائر عشية المنيّة -سنة 1929م- إلى 641675 مستوطناً.

هذا الحضور الاجتماعي الذي جمع خليطه الاتفاق على الاحتماء بعنصري: الاحتلال واللغة الفرنسية، سيرتفع إلى نحو مليون مستوطن فرنسي، وسيحوّل في الفترة القادمة إلى كتلة ضغط فاعلة ويصبح رقماً صعباً في معادلة المسألة الجزائرية بمختلف جوانبها.

وأما الجبهة السُّكّانية الجزائرية فيستقرّ عددها عند حدود أربعة ملايين نسمة سنة 1901م ليصل إلى نحو ثمانية ملايين نسمة سنة 1951م، ليس لها من أمر البلاد شيء، بل الأكثر من ذلك أن تكون محكومة بقانون الأندجينا (Code de L'indigénat) البغيض إلّا ما استثنى من نحو (3000) عائلة انتقامها الاحتلال من العائلات التي أبدت ولاءً كاملاً، مقابل ما خصّها به من الهبات على حساب بقيّة

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

(الأهالي) ومنها السّماح لهم بالاستفادة بشيء من التّعليم في المدارس الفرنسيّة "إنّها الفئة التي أصبحت تنعت في المصادر الفرنسيّة (فئة خدام فرنسا-Loyaux Serviteurs de La France)¹ وهي الفئة التي قدّمها مخبر الاحتلال لتكون الحجة الأقوى على بني قومهم، وذخيرته للقادم من الفصول والمراحل وقد جعل الرّابط بينها وبينه اكتسابهم لغة الطبقة العليا (Substrate Language) ومطيّة لجعل رؤاهم واقعا محسوسا، وأمّا ما دون هؤلاء من الجزائريّين، الذين ينتصب عامل استعمالهم للغة الطبقة الدنيا (Substrate Language) من أبرز عوامل التّصنيف، وتلك طبقة يريد الاحتلال استبقاءها يدا عاملة رخيصة، وخزّانا بشريّا دّعم فرنسا في حربين عالميّتين، ومع ذلك فقد كان الاحتلال يضع القوم في سلّة واحدة؛ وقد سعى لتصنيفهم أصنافا، فيعتبرهم شعبا من فصائل متعدّدة، فيهم البربر السّكّان الأصليّون، وهم قبائل عديدة، والعرب الغزاة الوافدون، ولا يتحرّج منظروهم في تأصيل أطروحات التّمايز العرقيّ واللّغويّ ضمن هذه الكتلة، فتشيع دراساتهم الأنثروبولوجيّة والتّاريخيّة عن البربر مقولات أصول عرقهم الغالي، ويقتطعون منهم ساكنة منطقة زاوية دون غيرهم، فيمدحونهم بصلابتهم وحجّهم للحريّة، ويردّدون قابليّتهم للتّصنّف، وإمكانيّة إدراجهم في نمط الحياة الفرنسيّة وثقافتها، ولكنّهم لا يقبلون مواطنهم الفرنسيّة الكاملة، بل يجتهدون في استمالة نخبة تردّد أطروحاتهم، وتأخذ بركابهم.

لقد أفرز هذا الوضع مع الزّمن طبقة جزائريّة بورجوازيّة تنعتها الكتابات الفرنسيّة بالكلون المسلمين (Colons Musulmans) والذين يُمكن اعتبارهم فئة الامتياز الجزائريّة، التي لم يسمح لها الاحتلال بأكثر من تلك المنزلة، فقد تفضّل عليها بعدم المساس بأموالها الاقتصاديّة، ونفوذها الاجتماعيّ، مقابل الوفاء الكامل، لكنّ الذي حدث أنّ هذه الفئة لم تتلّ رضى الاحتلال، ولا احترام (الأهالي) بل لقد كان الكثير منهم يوقنون بانحسار دائرة نفوذهم الاجتماعيّ في الأوساط الجزائريّة إلى حدّ يستحيل معه قبول الأهالي بسلطتهم، مع الاعتقاد السائد بأنّهم يدّ الاحتلال وعينه في الجزائر، ويكفي ذلك سببا لنزولهم تلك المنزلة.

ومما زاد الوضع الاجتماعيّ الجزائريّ سوءا هو حرص الكولونياليّة على غرس أسباب الشّروخ الاجتماعيّة من هذا النّوع، لاستبقاء مبررات تدخّلها وإحكام قبضتها، ومن ذلك العناية بأبناء هذه الفئة وصناعتها على أعين مخبر الاحتلال، وتكريمهم بأوسمة (الرّجال الجدد- Les Hommes

¹ عبد الله حمّادي، الحركة الطلّابيّة الجزائريّة، 1871-1962م، مشارب ثقافيّة وإيديولوجيّة، ط2. الجزائر: 1995م، المؤسسة الوطنيّة للنّشر والإشهار، ص31.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

(Nouveaux) وهي التي ستكون نواة جمعية طلبة أفريقيا الشمالية المسلمين (AEMAN) وسترتب لهم إدارة الاحتلال أدوارهم في تأطير المجتمع الجزائري، بما يستديم شكلا آخر من نفوذها، ومستوى احتياطيًا من وجودها.

ذلك هو مشهد التركيبة الاجتماعية التي بذل الاحتلال الكثير لتصنيفها، وأعاد من خلالها صياغة البنية الاجتماعية الجزائرية، معتمدا على إعادة توزيع الملكيات بالاعتبار الاقتصادي، ومتخذًا من الأداء اللساني منطلقا وغاية، وها هو عند استواء حركة الإحياء اللغوي، وإدراكه لفعالية جهودها، وميل الكفة في اتجاه استرجاع اللغة العربية لوضعها الطبيعي، محتضنة الأداء المازيغي بوصفه مظهرا لسانيا جزائريًا مألوفًا لقرون، استنهض الاحتلال رصيده من المعضلة اللغوية الخاملة، والتي يدّخرها لمثل هذه الظروف، موظفًا تلك الفئة التي نشأها بين يديه بلسانه وثقافته، وبعد أن كانت المواجهة بين اللغة العربية في موقع اللغة المغرّوة، واللغة الفرنسية بوصفها لغة غازية؛ أدخل الاحتلال المازيغية على خطّ المواجهة، ليس باعتبارها أداءً لغويًا جزائريًا ضاربًا في الوجود، بل باعتبارها مُعبرًا عن ثقافة أخرى مغايرة، وإعلانًا عن عرق بشريّ مختلف تمامًا.

وفي إطار هذه الاستراتيجية -ومن دون استبعاد اليد الكولونيالية- طفت أزمة 1949م إلى السطح إثر إنشاء "الحركة من أجل التجديد البربري" الثقافية عام 1948م، والتي نظر إليها بعض القادة السياسيين على أنها حركة عنصرية انفصالية، ليفتح الباب أمام دسائس، وحسابات السياسة، وهي الحادثة التي لم تكن إلا ظهورا لإحدى حلقات المشروع الذي ترعاه الكولونيالية، تطبيقا لمخرجات مؤتمر المستشرقين المنعقد 1905م، والذي تعززت رؤاه الكولونيالية كاملة بعد الحرب العالمية الأولى واكتملت باحتفالية المؤيثة (1927-1930م) وهي الفترة نفسها التي يحدّد فيها (بول مارتى P.Marty) دور المدارس الفرنسية البربرية في أنها "أجهزة للسياسة الفرنسية، وأدوات للدعاية في الوقت الذي تمثّل فيه مراكز تربوية¹" وتلك هي الأرضية التي حوّل من طريقها الاحتلال المسألة اللغوية في الجزائر إلى لغم اجتماعي يحرك مفاتيح تشغيله في أيّ ظرف يشاء، وبالكيفية التي يريد.

5- مقارنة في مدى مصداقية التصنيف الاجتماعي على أسس لسانية: يصنّف اللسانيون الاجتماعيون وضعًا كالوضع اللساني الجزائري الذي استقرت عليه آخر مراحل الإحياء، والذي بقيت

¹ - عبد القادر الفاسي الفهري، السياسة اللغوية في البلاد العربية، بحثًا عن بيئة طبيعية، عادلة، ديمقراطية، وناجعة، ط1. بيروت: سبتمبر 2013م، دار الكتاب الجديد المتحدة، ص47.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

آثاره الخفية متحركة إلى حد ما في رسم معالم الوضع اللساني العام في الجزائر ضمن إطار سكاني تشكله ثلاث اتجاهات كلامية، فتجعل رأسها المجموعة الأوربية متجاهلة حقيقة تكوينها التي هي عبارة عن جماعات كلامية، وليست جماعة واحدة، وهي الفئة التي عوّضت بعد الاستقلال ببديل فرانكفوني نجح إلى حد بعيد في الاستعاضة عن قلة عدده، بعمق نفوذه، وقوة إمكانياته، وحسن تنظيمه، متّرساً بكثير من مواقع القرار في الدولة. ثم المجموعة العربية وهم الجزائريون (الأهالي) أثناء الاحتلال، و(بقية الجزائريين) -على حدّ تعبير اتفاقيات إيفيان- بعد الاستقلال وهي في نظر الكولونيالية مجموعة من الأجناس منها سلالة العرب الفاتحين، ومنهم عرب الأندلس الفارين، ومنهم قبائل الهلاليين النازحين ولكل جنس لغته، ومجموعة البربر الذين تُصرّ النظرة الكولونيالية على اقتطاع منطقة القبائل (منطقة زواوة) دون بربر الشاوية أو الميزابيين أو الشلحيين أو الطوارق، لتتخذ منها جماعة لغوية ثالثة، فهل نحن فعلاً أمام واقع لساني بهذا التصنيف؟ وهل يمكن تصنيف المجموعات السكانية على أساس لساني؟ يستعرض هـسون بعض التعريفات للجماعة اللسانية (Communaut Linguistique) منها: جماعة تُعرف على أساس اللغة، متّقة فيه مع (جون ليونز / John Lyons) الذي يعتبرها "كلّ الناس الذين يستخدمون لغة أو لهجة بعينها"¹ ليعتبر أنّ هناك تعريفات أحدث وأكثر دقة، جاءت لتنتج على اعتبارات أخرى غير اللغة، ولا تشترط وجود لغة واحدة في الجماعة الكلامية، وهو ما ذهب إليه ويليامز لابوف حين يُقحم عامل "اشتراك أفراد الجماعة في مجموعة من المعايير المشتركة"² من هذه التعريفات تعريف (دل هايمز / Dell Hymes) و(مايكل هالداي / Machel Halliday) الذي يؤكّد [التعريف] على أهميّة الجماعة الكلامية باعتبارها مجموعة من الناس تُدرك أنّها مجتمع بمعنى من المعاني³ وكما راهنت الكتلة الفرنسية على اعتبارات الجنس الأوربي، والديانة المسيحية، وجعلت اللغة الفرنسية أظهر الاعتبار في تمييز هذه الكتلة، رغم ما احتوته من تمايز داخلي عميق، وجعلتها جماعة كلامية واحدة؛ فإنّ منطق الإقرار العلميّ يعتبر كتلة (الأهالي) المقابلة، رغم أنّها أمة ليست منسجمة العوائد في أمورها الحيوية، وليست مطبوعة على قالب واحد في تكوينها الاجتماعي⁴ جماعة لغوية واحدة، بالنظر إلى الاعتبارات العقدية والتاريخية والاجتماعية والجغرافية التي تجعل مكونات هذه الكتلة أشدّ تماسكا، وأدعى

¹ - د. هـسون، علم اللغة الاجتماعيّ، تر: محمّد عياد، ط2. القاهرة: 1990م، دار عالم الكتب، ص45.

² - د. هـسون، علم اللغة الاجتماعيّ، ص47.

³ - د. هـسون، علم اللغة الاجتماعيّ، ص47.

⁴ - محمّد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج3، ص293.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

إلى الوفاق من الكتلة الأوربية التي لم يتجاوز تشكيلها بضعة عقود، وهي التي قامت على أساس انتهازٍ، مفتقرٍ إلى كثير من القيم الأخلاقية والثقافية والاجتماعية التي تؤسس للمجتمعات، مكتفية في ذلك بما أفرزه النمط الاقتصادي من مسيري إقطاعيات، كان فيه المعمرون طرفا ضاعطا، لتتكون عقلية اجتماعية انقسمت تحت تأثيرها الفرنسيون قسمين: فرنسيو فرنسا الذين ينظر إليهم فرنسيو الجزائر [الكولون] "بشيء من الاحتقار كقوم متأخرين لا يُدركون الحياة العصرية، فهم أولئك (الفرنكاويون) الذين يتحدث عنهم كما لو كانوا أجنبان¹ ولم يكن مرغوبا فيهم من قبل فرنسيي الجزائر الذين "يؤلفون مجموعة شخصيات، أكثر مما يكونون مجتمعا له إطار ونظام مرتكز على مجموعة من المبادئ والتقاليد² وبرأي (دوايت بولينجر / Dwight Bolinger) فإن هناك اعتبارات كثيرة للتجمعات الإنسانية، التي يتعرف فيها الأفراد على ذاتهم في جو من الإحساس بالسلم الاجتماعي، وتيسر الكسب، والاشتراك في العبادة وغايات أخرى مشتركة؛ وإمكانية قيام جماعات بعدد كبير، ونوعيات مختلفة تظل ممكنة جدا، ويمكننا أن نتوقع أن سكان أي مدينة أو قرية أو حتى دولة بأكملها، يمكن أن يضموا عددا هائلا من الجماعات الكلامية³ وفي الوقت الذي تعيش الكتلة الفرنسية محرومة من كثير من الاعتبارات العرقية والاجتماعية والثقافية التي تؤلف بينها، وتتوجس خيفة من نتائج صراع المصالح، وحرب المواقع القائمة بين الكولون بحضورهم الفعلي اقتصاديا وسياسيا، واليهود بسطوتهم المالية ونفوذهم داخل الجزائر وخارجها، نجد الكتلة العربية تعيش تنوعا مألوفاً لم يكن لقرون طويلة - قبل الاحتلال - إلا عامل توافقي ثقافي وانسجام اجتماعي.

إن محاولة تمرير الاعتقاد بأن اللغة وحدها كافية لتمييز جماعة داخل المجتمع، يصطدم بشدة مع حقيقة التشكيل الاجتماعي الذي تشترك فيه عناصر أخرى كثيرة، وهو ما يحيل على أن تعريف الجماعة الكلامية ليس اختصاص اللساني أو عالم الاجتماع، بقدر ما هو قدرة تحقيق الفرد داخل الجماعة على تحديد موقعه ضمن عناصر جماعته الصغرى والكبرى، وضبط علاقة سليمة وآمنة مع أفراد مجتمعه وهي علاقة تأخذ شكل دوائر بعضها داخل بعض، نواتها دائرة الفرد التي يعلن عنها اسمها، ثم دائرة عائلته التي ينتمي إليها بعنوان لقبه العائلي، ثم دائرة عرقه الذي ينتسب إليه بقاسم العشيرة، ثم دائرة

¹ - شارل أندري جوليان، أفريقيا الشمالية تسير، القوميات الإسلامية والسيادة الفرنسية، تر: المنجي سليم وآخرون، د. ط. تونس: 1396هـ - 1976م، الدار التونسية للنشر، ص 59.

² - شارل أندري جوليان، أفريقيا الشمالية تسير، القوميات الإسلامية والسيادة الفرنسية، ص 59.

³ - د. هـ. دسون، علم اللغة الاجتماعي، ص 49.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

المشاركين معه في الاستخدام اللغوي المحلي، ثم دائرة المنتسبين إلى الوطن الواحد بانتماؤاتهم الكلية الكبرى، وقد تتخلل ذلك انتماؤات دائمة أو مؤقتة، كالانتساب إلى فئة طلابية، أو انتماؤ حزبي، أو سلك وظيفي، أو فضاء رياضي، أو غير ذلك، وهكذا نجد أنفسنا أمام صعوبة بالغة تكاد تبلغ درجة استحالة التصنيف القاطع والنهائي لجماعة على اعتبار لسانی خالص.

6- أثر الازدواج اللغوي على النظام الاجتماعي لمؤسسة اللغة: أفرز الواقع اللغوي الذي صنعه الاحتلال هزات عنيفة على الصعيد الاجتماعي، فاللغة باعتبارها مؤسسة اجتماعية تنتظم فيها مجموعة عناصر، يجمعها تفكير عام واحد، وتشارك في حظ معتبر من الخصائص الثقافية، وهي أيضا إطار تحتمي به عناصر المجموعة اللغوية الكبرى، حتى وإن اشتركت في تكوينها مجموعات لغوية ثانوية وفي ما يتعلق بالحالة الجزائرية، فإن مشهد استعمال الجزائري للغة في تعاملاته اليومية مع جزائري مثله، يقاسمه الهموم نفسها، ويشترك معه في مظاهر الحياة ذاتها، لا يمكن مقارنته بمشهد استعمال لغوي مع محتلي، ولو فهم بعضهم عن بعض، وسوف لن تكون مواضيع الحديث واحدة في المشهدين ولا الشعور بين المتخاطبين متقاربا في الحالتين.

إن اللغة نتاج مجتمع أهم ما يكون من مسحته العامة تجانسه الكبير الذي يحتكم إلى مقومات أخرى عاضدة، من العقيدة والثقافة والاشتراك في السلفة والأفق، وليست مجرد إجادة استعمال جزائري للفرنسية ولا في قدرة الفرنسي على فهم العربية.

وأمام زحف حركة الإحياء التي تتعزز يوميا بمنجزات على الأرض، أخذ شعور المنتسبين بالانتماء إلى مجتمع له خصوصيته اللغوية يتنامى مع تصاعد وتيرة الخطاب الإحيائي بأدبياته المختلفة، صانعة بذلك تباينا لغويا معلنا، وهي قضية ليست هينة، أو على درجة من البساطة "بل إنها تساهم في إضفاء مجموعة من الأبعاد الاجتماعية الهامة التي تمكن اللغة من عكس وتسجيل الخلفية السكانية والجغرافية والسوسولوجية والتعليمية والدينية للأفراد"¹ وتسهم بذلك حالة اللغة (État de langue) في ضبط حدود الجماعة اللسانية الناشئة ذات الخصوصية الجزائرية، لكن هذا التباين الذي كانت وجهته الأساس هي إعلان التمايز عن المحتلي ولغته وثقافته ونمط حياته، قد اصطدم بفئة المفرنسين الذين ستقف حركة الإحياء بسببها أمام معضلة اجتماعية بطعم لغوي.

¹ - برنار صبولسكي، علم اللغة الاجتماعي، ص 15.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

7- دور حركة الإحياء في رَأب التأثير اللساني على الصعيد الاجتماعي: تنبّهت حركة الإحياء اللغوي في فترة استوائها من العقد (04) إلى التأثير اللغوي على التشكيل الاجتماعي، وقدّر رُوّادها حجم التأثير ومسالكه، فأظهروا وعياً قادهم إلى تحويل المُعضلة اللغوية التي اجتهد الاحتلال في تلغيم المجتمع بآثارها، إلى إضافة نوعية للحركة الإحيائية من خلال الاتصال المباشر، وعن طريق الإعلام بالنخبة الجزائرية المثقفة بالثقافة الفرنسية والمُجيدة لُغتها، وتلك فئة نفخت المدرسة الكولونيالية فيها من روحها الاستعلائية، وضخمت من رؤيتها المنتقصة لكل ما له علاقة بالشرق من الدين والفكر واللغة والثقافة والتقاليد.

ففي الوقت الذي استغرب فيه المتابعون الفرنسيون "مفارقة التقارب الذي حدث بين الشباب الجزائريين ذوي التكوين الفرنسي، وبين العلماء الإصلاحيين المدافعين عن الإسلام السلفي"¹ تُقيد لنا مدونة الإحياء مواقف مشهودة لرأئدي حركة الإحياء اللغوي ابن باديس والإبراهيمي في سبيل استرداد الفئة المستلبة فكرياً ولغوياً، والمحوّلة إلى خصم لحركة الإحياء من جنسها، ففي لقاء جمع فيه الحديث ابن باديس بشباب متعلّم تعليمًا أوروبّيًا، ومتأدّب أدبًا فرنسيًا، فلا ينقصه شيء من صفات الطبقات الرافقة منهم حول ما يكتسب به الأفراد والأمم الاحترام في نظر الآخرين، وكان الاتفاق "على أنّ الأمة التي لا تحترم مقوماتها من جنسها ولغتها ودينها وتاريخها، لا تعدّ أمة بين الأمم، ولا يُنظر إليها إلاّ بعين الاحتقار مع القضاء عليها في ميادين الحياة بالتقهقر والاندحار، وإنّ الفرد الذي لا يُحافظ على ذلك من أمته لتأخرها في سير الزمان بما أحاط بها من ظروف الحياة، وإن تحلّى بأعظم وأحسن ما يتحلّى به الرّاقون من أمة أخرى، لا يُنظر إليه إلاّ بالعين التي يُنظر بها إلى أمته"² وتتحوّل حركة الإحياء بهذه الفئة على لسان ابن باديس من موقع التّعالي التي وضعهم فيها الاحتلال ونظرة الاحتقار التي صنعتها مدرسة التغريب في أعينهم، إلى موقع الملامة الرقيقة التي تعينهم على استعادة مواقعهم الطبيعيّة بين قومهم وتساعدتهم على استرجاع ذواتهم المسلوّبة، التي تحوّلوا بها أدوات هدم في أيدي غيرهم. ويأتي التنبيه الجامع بين الإشعار بالخطأ، وإتاحة الفرصة للتكفير عنه، وجاء ذلك على لسان ابن باديس: "لا تلوّموا من عاملكم بما تقتضيه نظرة اجتماعيّة عامّة، ولكن لوموا أنفسكم إنّ جهلتم هذه الحقيقة، وأنتم أبناء

¹ - غي برفيلي، النخبة الجزائرية الفرانكوفونية 1880 - 1962م، تر: م، حاج مسعود وآخرون، ط. خ. الجزائر: 2007م، دار القصة للنشر، ص175.

² - عبد الحميد بن باديس، الشّهاب، الجزائر: شعبان 1354 هـ - نوفمبر 1935م، ج8، م11، ص443-444.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

دينٍ قرَّرها من أوَّل أيامه... واليوم -وقد تجلَّت لكم الحقيقةُ علميًا وعمليًا- عليكم أن تلتفتوا إلى أمتكم فتتشلوها ممَّا هي فيه بما عندكم من علم، وما اكتسبتم من خبرة، محافظين لها على مقوماتها، سائرين بها في موكب المدنية الحقَّة بين الأمم¹ فبدل أن تسلك حركة الإحياء اللغوي مسلك المواجهة بين الجزائريين ذوي التكوين المشرقي، وبين النخبة المتكوِّنة على عين الاحتلال، وهو ما يرجوه خبراءه ومنظِّروه، راحت تجمع شتات الجزائريين، وتصنع منه كيانا اجتماعيًا متناغمًا، خصيسته الظاهرة التَّنوع اللساني الخادم، لا الصِّراع اللغوي الصادم.

وبتفصيل أكثر، وبيان أطول، وعلى نفس المسلك، وبنفس الروح، يحتضن الإبراهيمي هذه المسألة ويدفع آثارها على الإنسان واللِّسان في الجزائر شرًّا مستطيرًا بمقاله القيم: "واجب المثقفين نحو الأمة"² الذي يعدُّ أرضيةً حقيقيةً لفكِّ معضلة الصِّراع بين المتساكنين الذين اختلفت ألسنتهم في الجزائر، فأصل جذورها معتبرًا "علَّة العلل في ثقافتنا على ما هي عليه من النقص في العدد وفي الحالة، أن عندنا ثقافتين مختلفتين تتجاذبان الأمة من أمام ومن خلف، إحداها ثقافة إسلامية أساسها دين الأمة، وقوامها اللسان العربي تقوم بها طائفة، والثانية ثقافة أوروبية أساسها أطراح الأديان وقوامها اللسان الفرنسي تقوم بها أخرى، وبين الثقافتين تفاوت يكاد يُصيرنا أمتين لا أمة واحدة"³ مضيفًا أن ذلك إفراز محتوم للوضع الجزائري تحت الاحتلال ف"قراء العربية لم يُخرجهم معهد واحد، ولا معاهد متحدة التعليم، موحدة البرامج، مرتبة الدرجات، منظمة الشهادات على التَّحصيل، وإنما هم متخرجون من معاهد مختلفة، لا تجمع بينها جامعة إلا كونها عربية، ومعظمها غير منظم ولا مرتَّب، ومعظمهم تلقى تعليمه كيف ما اتَّفَق، ولم يكمل دراسته ولا أتمَّ تحصيله، أمَّا تربيتهم فجاءت ملوَّنة بألوان تلك المعاهد"⁴. وهي إشارة دقيقة إلى أن التَّركيب الاجتماعي والنَّفسي الجزائري على الجبهة المُعرَّبة، لم يسلم من اختلافٍ ناجم عن طبيعة التَّكوين، وله آثاره على الأجيال في مرحلة مزاوله التَّكوين والإعداد، وهو الأمر الذي لوحظت آثاره في التَّنوع الفكري والمذهبي على مستوى رُواد الإحياء أنفسهم، مدينين في ذلك لمدارسهم الأولى في الأزهر والزيتونة والحجاز والشَّام والقرويين، فإذا عرَّجت على الجبهة ذات التَّكوين الفرنسي، وقفت على "أنَّ للثقافة الفرنسية في وطننا ثلاثة معاهد متباعدة الغايات، متفاوتة الدرجات: الأولى الكليات

¹ - عبد الحميد بن باديس، الشَّهاب، ج 8، م 11، ص 443-444.

² - محمَّد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج 2، ص 122.

³ - محمَّد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج 2، ص 127.

⁴ - محمَّد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج 2، ص 127.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

الجامعة وما يُوصَل إليها، الثانيةُ دار المعلمين، الثالثةُ المدارس الثلاث¹ وهي المؤسسات التي اتخذ منها المخبر الكولونياليّ مشتلةَ الفئة الاجتماعية التي نذرنا لتنفيذ أهدافه الثقافية واللغوية في العاجل وإعادة صياغة الوجهة الاجتماعية والحضارية لاحقا.

تقتزح حركة الإحياء على لسان أحد منظريها -الإمام الإبراهيمي- أرضيةً للوفاق بين المثقفين بالتقافيتين، وتضع معايير جامعة تعيد تصنيف المثقفين على أساس يجعل اللغة شكلا تعبيريا، يمكن التسامح فيه ما دام هؤلاء -ومن الطائفتين- على استعداد لتبني تلك المعايير، وتمثل مقتضياتها وذلك ما طالب به الإمام الإبراهيمي المثقفين تعريفا لهم، وتعيينا للمهام المنوطة بهم، وتحديدًا للوظائف التي عليهم القيام بها، وقد بسطها في المقال ذاته، وترد هنا ملخصة، وهي:

- 1- إصلاح المثقفين أنفسهم قبل كلّ شيء، وإكمال نقائصهم العلمية.
- 2- إصلاح المجتمع بالتعارف، وبالتقارب في الأفكار، فالاجتماع يحذف الفضول واللغو.
- 3- التقاهم في إدراك الحياة، وتصحيح وجوه النظر إليها.
- 4- الاتفاق على تصحيح المقياس الذي تقام به درجة الثقافة².

ومن خلال هذه المعايير تضع حركة الإحياء المثقفين الجزائريين على اختلاف طرائق تكوينهم وتباين خلفياتهم المعرفية، في مواجهة أنفسهم وواقعهم، وتضعهم أمام مسؤوليتهم التاريخية للخلاص بأمّتهم، ذلك أنّ "في كلا الفريقين عيوبًا، وأكبر عيوب المثقفين بالثقافة الإسلامية جهلٌ مطبق بأحوال العصر ولوازمه، وأكبر عيوب المثقفين بالثقافة الأوروبية جهلٌ فاضحٌ بحقائق الإسلام وأخلاقه وآدابه وبتاريخ الأمة وهو مصباحها المضيء، ولسانها وهو ترجمانها الصادق³" وبعد أن كانت قضية المواجهة الثقافية بين خريجي المدرستين، وحاملي لواءيّ الدعوتين قضية تخطئة وتصويب، أصبحت قضية تحمّل مسؤولية مشتركة للخروج بالأمة من وهديتها، والنفاذ بها إلى الرقي الاجتماعي، والشهود الحضاري.

لقد قطعت حركة الإحياء -من خلال هذه الرؤية- الطريق على توجّه خطير من مشروع مخبر الاحتلال في تحويل التنوع اللغوي الذي طالما صنّف الجزائريون في ضوئه درجاتٍ، وأغرى بعضهم ببيع عقودا، وقسم به الساكنة في الجزائر أصنافا، رضي عن بعضها تصنعا، وسخط عن الآخر

¹ - محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج2، ص127.

² - محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج2، ص128.

³ - محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج2، ص127.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

توجُّساً، وبين رضاه عن هؤلاء وتوجُّسه من أولئك، كان يمرّر مشاريعه، ويؤمّنّها بنزاعات الفريقين ويستديم لها الاستمرار على ضوء النّار المستعرة بينهما، وهو المشهد الذي بلغه الإبراهيمي في وصف ما آل إليه أمر الاختلاف اللغوي السائد بين الفريقين، متميّناً أمراً، ومتألّماً لواقع آخر "ولو اشترك الفريقان في اللسان المعبر لهان الأمر، ولحصلت بعض الثّمار المطلوبة من الثّقافة، ولكن نشأ عن اختلاف الثّقافتين ما لا يُحصى من المضارّ والمفاسد التي صيّرت الثّقافة فينا عديمة الفائدة، ومن أكبر مفاسدها الاختلاف في وجهات النّظر، فتختلف الآراء في المصلحة الواحدة على رأيين متناقضين، وفي المفسدة الواحدة كذلك، وهنالك تتقلب الحقيقة، ويصير المثقّفون بلاءً على الأمّة، ويصيرون داءها بعد أن كانوا دواءها، وأعداءها بعد أن كانوا أولياءها، ولا مخرج لنا من هذا إلّا بالجمع بين الثّقافتين في معين واحد¹".

فمع ما عُرف عن رواد الإحياء من مواقف متصلّبة إزاء الوضع السيّء للغة العربيّة، ودعواتهم المتكرّرة لإنصافها من اللغة الفرنسيّة التي يتحقّق لها كلّ يوم المزيد من فرص الحضور، وعوامل البقاء، ولقد شكّل موقف حركة الإحياء اللغويّ الوسطيّ هذا، مخرجاً نبع من وعي العلماء المتنامي بأنّ "أحاديّة لغتهم سوف تضعف تأثيرهم على الشّبيبة المتكوّنة في المدرسة الفرنسيّة، صاروا يطالبون بتعليم مزدوج فرنسيّ-عربيّ، ليحني الجميع ثماره²" وهو موقف عزّزته حركة الإحياء بممارسات أخرى تتجاوز به آثار تلك الأحاديّة اللغويّة (Monolingualism) وتعصد المسار نفسه، فأصدرت صُحفاً ذات لسان فرنسيّ تحمل فكراً إحيائيّاً، وتعاطفاً مع عناصر الهويّة الجزائريّة، وقد قصدت به الحركة النّخبة الجزائريّة والرّأي العام الفرنسيّ في الجزائر.

ثانياً: البعد السّياسي لحركة الإحياء اللغويّ في الجزائر الحديثة

"إنّ السّياسات اللغويّة جارية في كلّ مكان، وتصاحب في كلّ مرّة الحركات السّياسيّة والاجتماعيّة، ذلك أنّ التّغيّر اللغويّ يأتي ليدعّم بروز الأمم وتماسكها، وأحياناً على العكس يصاحب تفكّك بعض البلدان إلى كيانات سياسيّة جديدة³".

لا شك أنّ في تعامل الاحتلال الفرنسيّ مع الوضع اللغويّ الجزائريّ جانباً سياسيّاً لا يمكن إخفاؤه فالممارسات التي عرضت الأطروحة بعض معالمها إنّما كانت في حالات كثيرة ذات خلفيّات سياسيّة

¹ - محمّد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج2، ص127.

² - غي برفيلي، النّخبة الجزائريّة الفرانكوفونيّة 1880 - 1962م، ص177.

³ - لويس جان كالفي، السّياسات اللغويّة، تر: محمّد يحياتن، ط1. الجزائر-بيروت: 1430هـ - 2009م، منشورات الاختلاف- الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، ص132.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

استعمارية، وقام عليها أشخاص من مواقعهم السياسية، بهدف صناعة وضع سياسي يشكّل جزءاً من مشروع حضاري كبير، وإذا كانت المعاملة التركية للغة العربية في عهدها الأخير محكومة بتقديم التركية عليها في جانبها الرسمي، وعدم العمل على ترقّيها في جانبها الشعبي؛ فإنّ الممارسة السياسية الفرنسية كانت تستهدف إماتة اللغة العربية نهائياً، وإحلال اللغة الفرنسية محلّها، وعلى ذلك قامت السياسة الفرنسية في الجزائر، واشترك في ذلك الساسة الفرنسيون، وعليه اتفقوا.

أدرك الذين حملوا هم اللغة العربية في الجزائر بداية القرن (20) أنّ ما حاق بلغتهم من التعسف (Abus) عقوداً طويلة، وما نزل بها من الضرر من جهات كثيرة، لا يمكن تداركه سريعاً، ولكنّ الرّفض الذي تحويه صدورهم لمصير الإبادة المقصودة، والإصرار الذي طبع نفوسهم في استدراك مجد اللغة المنكوبة، كان كافياً لبعث الحركة في جسد اللغة المنهكة، والاجتماع على إعادة ماء الحياة لرمز يعمل الاحتلال على تعطيله، فيكون ذلك أماراً على موت أمة، وأيقن الجزائريون -بالمقابل- أنّ إفشال مشروع الاحتلال بإحياء اللغة العربية من أقوى مؤشرات حياتها وأظهر ضماناً لبقائها.

1- موقع اللغة العربية في موانيق التنظيمات والحركات في الجزائر: يتابع هذا العرض مختلف مواقف التنظيمات والحركات الصّانعة لحراك المجتمع الجزائريّ من اللغة العربية بدايةً من العقدَيْن الأخيرَيْن من القرن (19) إلى استواء الحركة الوطنية الجزائرية، واكتمال ملمح الدولة الجزائرية المعاصرة المنبثقة عن الثورة التحريرية الكبرى، وما أردف ذلك من مشاريع استكمال البناء، وترميم آثار عقود المحو والإبادة التي مارستها الكولونيالية الفرنسية في حقّ مقومات الأمة الجزائرية.

أثبت التوثيق التاريخي ممارسات الإماتة المنظمة التي اعتمدها الاحتلال الفرنسي إزاء اللغة العربية في الجزائر، وأثبت بالمقابل العديد من ردود ومواقف مختلف التشكيلات التي عرفت الساحة الوطنية وإنّ استعراض السّلسل التاريخي لمختلف المواقف الصّادرة من مكونات الجهة المقابلة؛ سوف يبرز تطوّر مسار الإجراءات والمواقف والمطالبات والاحتجاجات التي رافقت مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر، والوقوف على مضامينها ومصادرها، ونوعها وحجمها.

على أنّه يجب الإشارة إلى أنّ طول الفترة المقصودة، قد شهدت تغيّر كثير من المواقف، ونشوء مواقف أخرى في اتجاهات مختلفة، تبعاً للتحوّلات الدّاتيّة التي شهدتها المجتمع الجزائري، بفعل الأفكار الجديدة المتنامية لدى تركيباته المختلفة من جهة، وبفعل التّقلّبات التي كان مخبر الاحتلال يناور بها

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

من أجل تسيير الوضع العام، واستدامة التَّحْكُم في وضع أجاد -في كثير من الأحيان- فهمه، وصناعة مساراته من جهة أخرى.

1-1- فترة العرائض (1871-1890م) تناول البحث هذه الفترة باعتبارها أخطر مراحل الاحتلال

في الجزائر، فقد عرفت حكم أربعة حُكَّام عامين هم: ديقيدون، شانزي، قريفي، تيرمان، وقد وافقت فترة حكمهم إحكام المستوطنين قبضتهم على الجزائر في كلّ مستوياتها، ولم يجد الجزائريون أمام ترسانة القوانين الجائرة الصادرة في حقهم من سبيل إلاّ مسلك الاحتجاج، الذي وإن كان معروفا من قبل، إلاّ أنّه انتعش خلال هذه المرحلة، وأصبح المُعَبِّر الوحيد عن الهمّ الجزائري، ثمّ هي مع ذلك فترة الحمل العصيب التي انبثقت منها حركة الإحياء النَّاشئ، وهي وإن لم تكن مقصودة لذاتها، فقد كانت فترة البذر لكلّ ما عرفته فترة الإحياء بمراحلها كلّها.

بمتابعة مضامين جملة ما صدر في هذه المرحلة من "عرائض عن أعيان قسنطينة وتلمسان كُتِبَت أصلا بالعربيّة الضّعيفة ثمّ تُرجمت إلى الفرنسيّة، وقُدِّمت إلى السُّلطات الحاكمة¹ نقف على أنّ إجماع الرّأي العام الجزائريّ منعقد على أمور منها: إعادة الاعتبار للقضاء الإسلاميّ، ونشر التّعليم بالعربيّة والتّمثيل النّيابيّ في مختلف المجالس، وقانون الأرض، وإلغاء قانون الأهالي البغيض، ومراجعة الصّرائب (العربيّة) ورفض التّجنّس، وهي القضايا التي تبنّى المطالبات فيها، والاحتجاج عليها، أعيان المجتمع الجزائريّ، ممثّلا في الشيوخ والقضاة والمفتين وأصحاب المناصب النّوعيّة من أصحاب المهن الحرّة والمعلّمين، وقد تردّد مطلب ردّ الاعتبار للتّعليم العربيّ من عدّة تشكيلات يمثّل تحديدها هنا إضاءة ضروريّة لما سيأتي، ذلك أنّه مع احتفاظ جزائر نهاية القرن (19) بنخبة مثقّفة اختلفت منابع تكوينها وتباين تقييمها لطبيعة تجاور حضارتين وثقافتين ولغتين؛ فقد عرفت السّاحة الجزائريّة يومئذ نخبة من ثلاثة نماذج:

1- نموذج كان يكتب الاحتجاجات المضادّة للإجراءات الصّادرة عن سلطات الاحتلال في حقّ (الأهالي) ويدبج "العرائض الموقّعة من مختلف الفئات دفاعا عن المحرومين من العرب ساكني الخيام"² ومنهم من أطرّ جماعات رفعت العرائض الجماعيّة التي تقدّم بها أهل المدن منذ السّبعينات تطالب بالتّعليم العربيّ واحترام الإسلام والشّريعة، وقد ظهر ذلك على لسان الأفراد أيضا، ابتداء من رسالة

¹- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج8، ص158.

²- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، ص222.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

المجاوي في (إرشاد المتعلمين) سنة 1877م، ومن أمثال المكّي بن باديس، وابنه حميدة بن باديس ومحمّد بن رحّال، ومحمّد بن الحاج حمّو، وعلاوة بن ساسي، وصالح بن بوشناق، والسّعيد بن شتّاح وأحمد ابن الفاسي الذين شكّلوا جبهة الرّفْض لإجراءات الاحتلال إزاء عناصر الهويّة.

2- نموذج آخر كان طرفاً في كتابة العرائض وتأطير الاحتجاجات، ولكنّ لتسهيل عمليّة اندماج الجزائريّين، والمصارعة في تطبيق النّمودج الفرنسيّ عليهم، وهم في ذلك درجات، فمنهم المنسلخون مثل: عائلة بوضربة (إسماعيل، أحمد، عمر، علي) وبلقاسم بن التّهامي وابن حمّودة. ومنهم دعاة الاندماج التّدرجيّ مثل: إسماعيل حامد، والطّيب مرسلي. ولحق بهم من بعد اندماجيّون غلاة، أمثال: ربيع الزّناتي، وابن الحاج، كما أظهرت الأحداث اندماجيّين معتدلين، مثل فرحات عبّاس في بداية ظهوره وابن جلول والشّريف سعدان، بل كان منهم من ركب موجة الماسونيّة، كمحمّد صوالح، وتامزالي، ومعظم هؤلاء "دخلوا تحت طائلة القانون الفرنسيّ، وتخلّوا عن أحكام الشّريعة الإسلاميّة استجابة لقانون 1865م كما أنّهم كانوا في الغالب متزوّجين بفرنسيّات¹ ولا يُنظرُ من هذه الجبهة دفاعاً عن المقوّمات العربيّة الإسلاميّة بحكم أنّها حصيلة بشريّة لجهود الإذابة والتّحويل الفرنسيّ للجزائريّين في نهاية قرن الاحتلال ومشهدٌ من مشاهد العبث الكولونياليّ بالنّسيج الاجتماعيّ والثّقافيّ والدّينيّ الجزائريّ، ليتحوّل إلى صراع إيديولوجيّ وحضاريّ، يمتدّ في الزّمن امتداد نسل حمّلاته ورعاته.

3- نموذج ثالث شكّله الانتماء الوظيفيّ للعلماء والمدرّسين في المدارس الثّلاث والمساجد الكبرى وجامعة الجزائر، من أمثال محمّد بن أبي شنب، وعبد الحليم بن سماية، وأبو القاسم الحفناوي، والمولود بن الموهوب... وكانت طائفة سخرت نفسها لخدمة الثّراث العربيّ تاليفاً وتحقيقاً وتدرّيساً، وفي إطار الرّعاية العلميّة الاستشراقية الفرنسيّة، ورقابة حكمها، وسأيرت حراك الإحياء كلّهُ محافظةً على مواقفها التي لم تكن ملك يمينها، بقدر ما كانت طوع سلطة الاحتلال، ويمكن تصنيف موقف هذه الطّائفة من اللّغة العربيّة ضمن إطار التّرقية العلميّة، والحفاظ على ما أمكن منها، باعتبارها مقوّمات تراثيّة يجب عدم التّفريط فيه، والعمل على توريث الدّرس العربيّ اللّغويّ والأدبيّ، وخدمته في هدوء، دون مقاومة أو احتجاج، ولعلّ ممارسات هذا الجناح، وبهذه المواقف أمّن إحدى القنوات التي أبقت على سند التّعليم العربيّ متّصلاً، حتّى استلمته عنها طبقة الإحياء في مرحلة النّشأة بداية القرن (20).

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافيّ، ج7، ص267.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

وقد كان خاتمة هذه المرحلة بداية الحرب العالمية الأولى، والتي ستعرف الجزائر بعدها بداية التشكيلات المختلفة، والتي ستتابع الأطروحة مواقفها المختلفة من مسألة اللغة العربية.

1-2- مرحلة ما بين الحربين 1920-1940م: ورثت هذه المرحلة أفكار ما قبل الحرب وناسبت ظروفها انتعاش حراك عام أخذ أبعادا سياسية وفكرية وثقافية، ونشطها في الغالب خريجو المدرسة الفرنسية ضمن رؤى ومنازع تقابل تنوع المدرسة نفسها، وكذا أنصار التيار الوطني بمنازعه المحافظة والإصلاحية والرسمية، وهي عناوين الاتجاهات والتنظيمات الكبرى، التي صنعت حراكا جموعيا نشطا، جاء في جملته وفيما للخط الوطني بأبعاده ومقوماته، وقد اكتسبت اللغة العربية -بفعل ما أنزل بها الاحتلال من حيف- تعاطفا أخذ في الاتساع شيئا فشيئا، وهو ما جلاّه النشاط التعليمي باللغة العربية، وتنشيط الندوات والمحاضرات في النوادي، بل إن الجمعيات الفنية والمسرحية كانت تحرص على إحياء حفلاتها وعرض مسرحياتها باللغة الفصحى، في زمن بلغ فيه الحديث بالفصحى درجة الغربة والاستهجان.

وبالنظر إلى شأن المسألة اللغوية وأهميتها، فليس من الممكن متابعة مواقف الأفراد والتشكيلات ذات التمثيل الضيق إداريا أو شعبيا، وسيكتفى بمتابعة مقام اللغة العربية عند الأطراف الفاعلة، أو التي يفترض فيها ذلك، انطلاقا من موقعها السياسي أو الاجتماعي أو غير ذلك.

1-2-1- موقف (جمعية المؤاخاة الجزائرية) الأمير خالد: نشأت هذه الحركة على منطلقات سياسية بحكم تكوين منشئها، وكان النضال بالكلمة المنطوقة والمكتوبة، والتأطير الشعبي، والتوجه إلى السلطات بالمطالب، والمشاركة في الانتخابات، هي الأدوات الممكنة، فاعتمدته مجالا لها منذ ظهورها مستندة إلى قانون 04 فيفري 1919م الذي عكسه التأكيد على أمرين رأت الحركة أولويتيهما:

أ- تحقيق مواطنة كريمة للجزائريين من خلال المطالبة بحقوقهم المدنية والاجتماعية، دون تنازلهم عن أحوالهم الشخصية، والوقوف في وجه إغراءات التجنس أو إكراهاته، وهو ما يعني العمل على التخلص من آثار قانون الأهالي المخزي، والنضال من أجل إعادة صياغة مجتمع جزائري كامل المواطنة مع الفرنسيين، وهو ما أوضحه الأمير خالد نفسه على صفحات جريدة الإقدام.

ب- التنبيه على إعطاء مفهوم جديد للمجتمع الجزائري في سياق تاريخه وجغرافيته، يلغي المفهوم الذي ما لبث الاحتلال يصر على أن حقائقه هو ما كتبته أقلام مؤرخي المدرسة الفرنسية، وحلّل أحداثه

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

مستشرقوها، وهو ما يفسّره نشاط الأمير على الصّعيد المغربي وأفريقيا الشّماليّة، وتوثيق علاقاته مع النّشطاء السّياسيّين فيها، وتوحيد الرّؤى حول طرق النّضال.

وأمام هذا النّوع من الاهتمام لم تُهمل الحركة موقفها بشأن اللّغة العربيّة، فإضافة إلى ما كانت تبديه من الصّجر الشّديد إزاء سياسة فرنسا العامّة، من مثل ما نقلته جريدة الإقدام في 21 أكتوبر 1922م من وصفها بأنّها سياسة "لا تتركز إلّا على تحطيم لغتنا وديننا"¹ ثمّ ما جاء من مطالب رئيس الحركة بهذا الشّأن بتخصيص البند (04) من قائمة المطالب المنشورة في جريدة الإقدام لمسألة التّعليم تحت مسمّى "نشر التّعليم" دون الإشارة إلى لغته² وفي رسالته من منفاه في الإسكندريّة إلى رئيس الحكومة الفرنسيّ اليساريّ (هيريوي) في 03 جويلية 1924م، نصّ البند (05) على: "تطبيق كامل لقانون التّعليم الإلزاميّ على الجزائريّين مع حرّيّة نشر التّعليم"³ مع عدم تخصيص لغة التّعليم بالذّكر أيضاً، في مطالب هذه الحركة العامّة، وتقديم المطالبة بتحسين الطّروف السّياسيّة والاجتماعيّة للجزائريّين، ثمّ إنّ طبيعة تكوين معظم إطارات الحركة كان تكويناً فرانكفونيّاً، وقد كان رئيسها "يخطب باللّغتين، ومن خطبه السّياسيّة بالفرنسيّة، خطابه أمام رئيس الجمهوريّة الفرنسيّة سنة 1922م، عند زيارته للجزائر، وبعد نفيه 1923م ألقى الأمير خالد عدّة خطب بالفرنسيّة في باريس"⁴ وكانت صحيفة (الإقدام) لسان حال الحركة تصدر باللّغتين العربيّة والفرنسيّة، ويحرّر القسم العربيّ فيها الأمير خالد بنفسه. ومع الذي سبق، فإنّ الرّؤية العامّة للّغة العربيّة من خلال صحيفة الإقدام، كانت على درجة متقدّمة من الاهتمام، ففي إحدى المقالات الافتتاحيّة بعنوان "الأمة والدين واللّغة" -ولعلّها للأمير خالد، فقد كان يحرّر غالب الافتتاحيّات- كتب الموقّع "ناصح" يقول: "فمن الواجب على الأمة أن تتمسّك بدينها، وكيفيّة طريقة التمسّك هو الاجتهاد على نشر لغة الدّين بين طبقات الأمة ذكورا وإناثا، على حسب الإمكان"⁵ وفي مقال افتتاحيّ آخر مترجم لمحمّد بن رّحال أمام مجلس النّيابة الماليّة، عرض فيه حالة التّعليم العربيّ المزريّة في

¹ عبد الرّحمان بن إبراهيم بن العقّون، الكفاح القوميّ والسّياسيّ من خلال مذكّرات معاصر، د ط. الجزائر: 1984م، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، ج1، ص121.

² عبد الرّحمان بن إبراهيم بن العقّون، الكفاح القوميّ والسّياسيّ من خلال مذكّرات معاصر، ج1، ص79.

³ عبد الرّحمان بن إبراهيم بن العقّون، الكفاح القوميّ والسّياسيّ من خلال مذكّرات معاصر، ج1، ص82.

⁴ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافيّ، ج8، ص117.

⁵ الإقدام، 5 شعبان 1341م - 23 مارس 1923م ع123، س3، ص1.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

الجزائر، من ضعف الاستقبال، وقلة الوقت المخصّص له، وتدني كفاءة القائمين عليه، وسائر شأنه¹ كما كانت الصحيفة تثبت مقالات في شأن قضايا اللغة العربية منها مقال: "علاقة الإسلام باللغة العربية" وفيها استدراج واضح للاهتمام باللغة العربية لموقعها من القرآن الكريم. ومع ذلك كله، فإنّ مطلب اللغة العربية لم يأخذ -خلال تلك الفترة على الصعيد العام- البعد الذي أصبح عليه في ما بعد، وقد كان يكفي أن يتحقّق للجزائريين مبدأ التعليم كما نصّت عليه القوانين الفرنسية ذاتها.

1-2-2- حزب نجم شمال أفريقيا: نشأ هذا الحزب بفرنسا بين عمّال شمال أفريقيا إثر جلسة تحضيرية بتاريخ 2 مارس 1926م، وترأسه فعلياً حاج علي عبد القادر، وشرفياً الأمير خالد، وأسندت أمانته العامة لمصالي أحمد، وإضافة إلى المواقف السياسية التي تبناها الحزب، فقد كان شأن اللغة العربية أكثر وضوحاً وجراً، يتّضح ذلك من خلال مطالب الحزب التي رفعها إلى المؤتمر المعادي للاستعمار المنعقد ببروكسل في 10-14 فبراير 1927م، فقد نصّ البنّان: (12- 13) على: "12- حقّ الجزائريين في التمتع بجميع مستويات التعليم" "13- إنشاء المدارس العربية"² وربما كانت طبيعة هذا الملتنقى الدولي مانعة من تفصيل موقف الحزب بشأن اللغة العربية، وهو ما تمّ استدراكه في مناسبة أخرى بصورة أوضح وأدقّ، هي عقد مؤتمره الأول سنة 1933م، والذي تمّ فيه الاتفاق على برنامج للحزب من مرحلتين، ومما تعلّق منه باللغة العربية -في المرحلة الأولى- البند الثامن الذي نصّ على: "إنشاء التعليم الإلزامي باللغة العربية، وإفساح المجال للطلّاب الجزائريين لدخول المدارس على جميع المستويات، وجعل اللغة العربية رسمية في الدوائر"³ وأما الشطر الثاني، فقد تضمّن بنده الثالث النصّ على "استخدام اللغة العربية كلغة رسمية" ونصّ بنده السادس على "التعليم الإلزامي المجاني باللغة العربية على جميع المستويات"⁴ وهي المطالب التي تعكس الواقع البائس الذي كان عليها التعليم العربيّ ووجه المعاملة التي كان يُعامل بها الاحتلال اللغة العربية وما تقوم به.

لم تدم حياة النجم طويلاً، إذ عاجلته محكمة (السين) في 20 نوفمبر 1929م بالحلّ، ثمّ عاود الظهور مرّات عديدة بتسمياتٍ متقاربة، إلى أن صدر قرار الحلّ، وتوجّه تهمة خطيرة لرؤوسه، فتوقّف

¹ - محمّد بن رّحال، الإقدام، ع53، س2، 18 ربيع الأول 1340م - 18 نوفمبر 1921م، ص1.

² - عبد الرّحمان بن إبراهيم بن العقون، الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر، ج1، ص128.

³ - عبد الرّحمان بن إبراهيم بن العقون، الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر، ج1، ص129.

⁴ - عبد الرّحمان بن إبراهيم بن العقون، الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر، ج1، ص130.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

نشاط الحزب بهروب بعضهم، وسجن آخرين في نوفمبر 1935م. ولكن المطالب التي رفعها بشأن اللغة العربية ستجد لها حاضنا لدى الأحزاب والحركات القادمة.

1-2-3- حركة النّواب (اتحادية النّواب المسلمين الجزائريين): هي حركة معارضة لحركتي (الأمير خالد) و(النجم) أنشئت في 18-جوان 1927م برئاسة الاندماجي بلقاسم بن التهامي، وعقدت مؤتمر الأول في 10 سبتمبر 1927م، وتبنّى مقترحات عدّة، لم يتضمّن أيّ منها مسألة اللغة العربية في ما جاء البند السادس الذي يعدّ الأقرب إلى القضية ناصّاً على: "تحسين حالة الثقافة والتعليم المهني بالنسبة للأهالي"¹ وورود مصطلح الثقافة هنا مبهماً، يفتح المجال واسعاً لطرح السؤال حول الثقافة المقصودة؟ والمعلوم يقيناً أنّ ركائز الحركة متجنّسون، وخريجو المدرسة الفرنسية، فهل ستكون الثقافة المقصودة هي الثقافة العربية؟

كان رئيس الحركة يخاطب الطبقات الشعبيّة البسيطة بالفرنسيّة، فقد ألقى "محاضرة في الجمعية الرّشيدية بالعاصمة، عنوانها (مرض السّل)... بالفرنسيّة وبعيدة عن الرّأي العام الشعبي"² ولكنّ الحركة نفسها لا تتحرّج من إصدار صحيفتها مزدوجة اللغة، وهو فعل بلقاسم بن التهامي، محرّر جريدة (التّقدم) المعبرة عن الاتجاه الاندماجي، ثمّ لسان حال حركة يمينيّة تابعة للحزب الفاشيستي الفرنسي، وابن التهامي نفسه أخذ أعضائه، وليس ذلك -في ما يبدو- إلاّ استدرازا لتعاطف شعبيّ يُحتاج إليه في تحقيق مواقع اجتماعيّة أو مناصب سياسيّة.

ولفرط التّنوع الذي كان عليه التّيّار، فقد صارت الحركة ثلاث اتّحاديات، كانت اتّحادية النّواب المسلمين القسنطينيّة أنشطها، حتّى كادت أن تغطّي على أختيها في الجزائر ووهران، ولعلّ الحراك الاستثنائي لشخصيّتي ابن جلول وفرحات عبّاس، وخصوصيّة منطقة الشرق العلميّة والثّقافيّة -يومئذ- هو الذي أظهر هذه الاتّحادية بمظهر يخالف في كثير من القضايا الأحاديّة الحركة الأمّ.

1-3- اللغة العربية في التّنظيمات خلال العقد (04) من القرن (20): ارتقت المسألة اللغويّة خلال العقد (04) من القرن (20) إلى مرحلة أخرى حين أصبحت بنّداً مدرجاً في مختلف الهيئات والتّنظيمات، فقد بلغ بها حراك المرحلة درجة متقدّمة، ووجدت الجمعيات والأحزاب السّياسيّة بمختلف

¹ عبد الرّحمان بن إبراهيم بن العقّون، الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكّرات معاصر، ج1، ص146.

² أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، ج7، ص257.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

توجُّهاتها، والتنظيمات القطاعية كالهيات الطلّابية، والجمعيات المحلية، والهيئات المؤقتة نفسها مجبرة على اتّخاذ مواقف من المسألة اللغوية بأوضاعها وتداعياتها.

لئن اختلفت هذه التنظيمات في التعامل مع هذه القضية بحسب الأدوار والقدرات والأهداف؛ فإنّ جهود حركة الإحياء السابقة قد بلغت باللّغة العربية مبلغا لم يعد بإمكان أيّ تنظيم غض الطرف عنه وبين باذلٍ ومعارضٍ، ومقتصدٍ ومдахنٍ، وقف كلُّ تيّارٍ موقفا حفظت مدونة الإحياء منه ما يمكن عدّه مكسبا من مكاسب الحركة.

1-3-1- مواقف الجمعيات الأهلية: عملت عشرات الجمعيات المحلية على مؤازرة اللّغة العربية

في محيطها، ومع اتّساع دائرة الاهتمام بها، تحوّلت إلى مبدأ عامٍ بلوّرتّه أهمّ جمعية، وأوسعها انتشارا وأحسنها تنظيما، وهي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وبعد أن كان عمل الجمعيات التي ظهر نشاطها معزولا منذ بداية القرن (20) أصبح أكثر فاعليّة خلال عشرينيّاته، ولكنّه بقي موسوما بمحدودية النشاط والمكان، وهو ما برز واضحا عند الحديث عن الجمعيات والنوادي، لكنّ الذي عرفه النشاط الجمعيّ بداية الثلاثينيات، هو استراتيجية التّوسّع الجغرافي، والشّمول الشّعبيّ، ممّا رفع هذا النشاط إلى مستوى تجاوز فيه النشاط العلميّ والتّقافى حدود المناطق والأحياء، إلى مجالاتٍ وطنيّة، وحتى إقليميّة وقوميّة.

1-1-3-1- موقف التّيار الإصلاحيّ (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين): بحكم الصّبغة

الوطنية التي تبنّتها هذه الجمعية، ونوعية الطّاقم البشريّ المشرف عليها وعدده، فقد استحوذت جمعية العلماء سريعا على الإرث القيميّ للمجتمع الجزائريّ، ونصّبت نفسها -متّكئة على القبول الشّعبيّ الواسع- ممثّلا للنّزعة الإصلاحية في الجزائر خلال هذه الفترة، وتحملت بمقتضى ذلك دورا يشبه أدوار وزارات التّربية والتّعليم والتّقافة والشؤون الدّينية والتّكوين المهنيّ والشؤون الاجتماعية مجتمعة في قيامها على تكوين مؤطّري الفعل التّربويّ والتّعليميّ والإرشاديّ في المجتمع، إذ كانت الجمعيات المحلية تُهيّء المدارس والنوادي والمساجد، وترجع إلى جمعية العلماء لتمدّها بالشيوخ من أئمّة المساجد والمعلّمين لتأطير المدارس الناشئة.

وإضافة إلى ما كانت جمعية العلماء تباشره من إمداد جهات القطر -عبر الوسيط الجمعيّ الأهليّ ونظام الشعب المحليّة- بمؤطّري نشاطات حركة الإحياء وبرامجها، فقد كانت تسند مهامّ التّعليم والدّعوة

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

والإرشاد إلى كفاءات تدين للمكتب الرئيس بالولاء المرجعي، وتستمد منه ما أمكن مما يعينها على أداء دورها.

وإذا شاء الدّارس أن يقف على موقف جمعية العلماء قبل إنشائها من اللغة العربيّة -بداية من 1913م، وبعد الإعلان الرّسمي عن نشاطها في 05 ماي 1319م، فلن تجد إلّا جمعا بين القول والفعل وقيامًا على إعادة بناء البنية التّحتيّة التّعليميّة الجزائريّة، وشدّة في مناوئة الاحتلال، ومغالبة على التّعليم العربيّ، والصّحافة العربيّة، وكذلك كان أعلامها، وفي سبيل ذلك سُجنوا وهُجّروا وعُزّموا.

إنّ ما يميّز موقف جمعية العلماء عن مواقف غيرها من المنظّمات والحركات والأحزاب، هو جمعها بين المطالبة بما تسترّد به اللغة العربيّة مكانتها، كالاحتجاجات والرّسائل المفتوحة إلى الحكّام والوزراء عبر الصّحف والدّوريات، ورفع العقائر بذلك في كلّ مناسبة، وبين الممارسة العمليّة لإنقاذ شرائح المجتمع المختلفة من عاقبة ضياع اللّسان والهويّة، ببناء المدارس العربيّة وتفعيلها، وتشبيد المساجد وإعمارها، وإنشاء الجمعيات والنّوادي وتنشيطها، وها هو ابن باديس حامل لواء الحراك اللّغوي يقيم جهد الجمعية في هذا الاتّجاه قائلا: "وإذا كنّا نصرف أكثر جهدنا للتّعليم العربيّ، فذلك لأنّ العربيّة هي لغة الدّين الذي هو أساس حياتنا، ومنبع سعادتنا، ولأنّها هي التي نحسن تعليمها، ولأنّها -وهذا من الوجهة والعدالة بمكان- هي اللغة المهمّلة بين أبنائها، المحرومة من ميزانيّة بلدها، المطاردة في عقر دارها المغلقة مدارسها، المحارب القائمون على نشرها من أبنائها، اللّهم إلّا قليلا نادرا- على خوف- يُحتجّ به عند مقتضى الحال¹ ولم يتوقّف أمر هذه الجبهة بالوقوف مع إثبات مكانة العربيّة في تلك الظروف بل وسّعت أفق اللغة بدعوة المثقّفين والكتّاب والمبدعين إلى "لغة عربيّة حديثة بدل الانغلاق في لغة كلاسيكيّة لا تتفتح على المعاني الجديدة التي تولّدت عن المدنيّة الأورپيّة الحديثة"² وهو الوهم الذي رده ابن باديس عن اللغة العربيّة حين "حسب قوم أنّ العربيّة لا تتسع لما جدّ من المعاني إلّا إذا خلعت عنها ثوب القرآن³ وتلك حصيلة رؤية لغويّة بعيدة المدى، تحوّل فيها طموح الجمعية من استرداد اللغة العربيّة إلى فاعليّتها الاجتماعيّة والعلميّة.

¹ - عبد الحميد بن باديس، الآثار، ج3، ص257.

² - رابح لونيسي، التّيارات الفكرية في الجزائر المعاصرة بين الاتّفاق والاختلاف، ط2. الجزائر: 2012م، دار كوكب العلوم ص393.

³ - عبد الحميد بن باديس "نكرو الشّاعرين شوقي وحافظ" الشّهاب، الجزائر: غرة ذي الحجة 1352هـ-مارس 1934م، ج4 مج10، ص 142-146.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

لقد أثبت نضالُ جمعية العلماء العمليّ نفسه شاهداً حسيّاً بما هيأت لها من مؤسسات، وأعدت من مدرّسين، وما حَبَرته أعلام منتسبها من نتاج علميّ ولُغويّ وأدبيّ وإعلاميّ بلسان عربيّ مبين، وأبلى أعلامها بلاء حسناً في شأن اللغة العربيّة في الجزائر الحديثة، فأصبحت بذلك أوّل تنظيم جزائريّ يُنسب إليه القسطُ الأوفى من خدمتها، ولا يقال هذا حصراً لجهود الإحياء فيها دون غيرها، ولكنّ الحقائق التاريخيّة التي وثّقها مُدوّنة الإحياء تُثبت لجمعية العلماء هذا الحقّ، وثُقِر لها بعمل إحيائيّ متميّز بالنظر إلى ظروف المرحلة.

ومن اللافت في مواقف جمعية العلماء إزاء اللغة العربيّة كفاحها الواعي بوجوب سيادة هذه اللغة في التّعليم والإدارة والإعلام، وإشاعتها لليقين بأنّها قادرةٌ على أن تكون لغة العلوم الحديثة ووجوب نقل (التراث العقليّ) من طريق ترجمة العلوم إلى اللغة العربيّة، هذا التراث الذي "إما أن تنقله إليك فيكون قوّة فيك، وإما أن تنتقل إليه في لغة غيرك فتكون قوّة لغيرك"¹. ويكفي الجمعية من مواقف النّاس حول جهودها في الإحياء اللّغويّ العربيّ شهادة الاحتلال نفسه، فقد "اعترفت إحدى الوثائق الفرنسيّة بذلك وذكرت أنّ الدّليل على هذا هو ارتقاء مستوى الكتابة في الصّحف العربيّة بعد ظهور الجمعية"² وهي وثيقة من عديد الوثائق والدّراسات التي كان نشاطُ الجمعية في مجال الإحياء اللّغويّ محلّ اهتمامها ذلك أنّها جهودٌ تستهدف مشاريع الاحتلال الذي لبث قرناً من الزّمن يثبّت أركانها، ويرسم آفاقها، ويهيئ أجواء ما بعدها، بل إنّ هذه الدّراسات قد أوردت ملاحظاتٍ تفصيليّةً حول مواطن الإصلاحيّ اللّغويّ الذي استهدفته الجمعية، والذي أخذ -في نظر هذه الدّراسات- اتّجاهين:

- إصلاح اللغة التي أصبحت نوعاً من العاميّة (أو الدّارجة) الممزوجة بكلمات بربريّة وغربيّة فكان عمل العلماء محاولة إعادة اللغة إلى نقائها الأصليّ.

- إعادة اكتشاف الآداب والفنون التي أصبحت مجهولةً على مرّ الأجيال، والسّعي في نشرها³. وهكذا ينتصب موقفُ جمعية العلماء من اللغة العربيّة أساساً من أسس وجود الجمعية نفسه، ومبرّراً لاستمرارها، وعنواناً بارزاً على مشاريعها وأعمالها وإنجازاتها التي توردها الأطروحة هنا على أنّها أبرز معالم الإحياء اللّغويّ في الجزائر خلال القرن (20) مع أنّ المقام لا يمكن معه متابعة تفاصيلها الكثيرة

¹ - محمّد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج1، ص376.

² - مازن صلاح حامد مطبقاني، جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين ودورها في الحركة الوطنيّة الجزائريّة، ص102.

³ - مازن صلاح حامد مطبقاني، جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين ودورها في الحركة الوطنيّة الجزائريّة، ص102.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

على أهميتها، ويكفي المتابع الوقوف على ذلك في الدراسة القيمة: جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في خدمة اللغة العربية في الجزائر 1931-1954م، لصاحبها مراد مزعاش، الصادرة عن مؤسسة الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس في حلقها (39) من سلسلة البحوث والدراسات. وكذا الدراسة الوافية: نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في فرنسا 1936-1956م، للفاضل: سعيد بورنان. وأشباهاها من الدراسات المفصلة التي غنيت بشأن الجهود التي بذلتها الجمعية لخدمة اللغة العربية والارتقاء بها.

هذا وقد تابعت العديد من الدراسات الأكاديمية القيمة نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين حول عناصر الهوية، واللغة العربية منها خاصة، وهي وإن كانت ليست الوحيدة في خدمتها والمحافظة عليها، والداعية إلى استرجاع مكانتها، وإعداد معلّميها، وتعليم أبناء الجزائريين، ومحو أمية كبارهم، إلا أنها حازت قصب السبق أمام كل الهيئات والتنظيمات والمؤسسات والحركات، فقد أشرفت على حراك لم يقدر عليه غيرها، وأحسن تنظيم المتاح من الإمكانيات، واستغلال الممكن من الطاقات، واستقطاب النافع من الكفاءات، حتى بلغ بها الجهد إدراك المهاجرين الجزائريين في فرنسا، وتأطيرهم في أمور دينهم ولغتهم، ضمن مرتادي النوادي التي أنشأتها الجمعية هناك.

إن قراءة فاحصة للمدونة التاريخية والصحفية المؤرخة للفترة، تؤكد بما لا شك فيه أن جمعية العلماء تمكنت من صياغة رؤية متكاملة للمسألة اللغوية في الجزائر، حين فصل أعلامها نظرياً وعملياً في كثير من الإشكاليات كالموقف من اللغات الأجنبية، والعلاقة بين الأداءات المحلية واللغة الجامعة، وكذا بين العربية الفصيحة والعامية، ومعضلة اللغة العربية والعلوم الحديثة، وغير ذلك من القضايا التي لم تتناولها أي حركة بطريقة الجمعية ومنهجها.

ولعل ما أعوز الجمعية في هذا المضمار هو عدم تمكنها من صياغة الرؤية اللغوية صياغة متكاملة ومجتمعة، فقد توزعت الأنظار اللغوية بين أعلامها، وتشظت بين مؤلفاتهم التي نجا بعضها وهلك منها شيء غير يسير، ويمكن لغير المقدّر أو المنكر الإطلاع على ما وثّقه المدونة الصحفية للفترة، فيطّلع على المواقف بأيدي فاعليها، وينصف التاريخ من نفسه، ومن كل زعم أقل الوصف فيه قيامه على نفي دليل، أو إخفاء أدلة الإثبات.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

إنَّ مبلغًا بلغت به الجمعية أنْ كابدت عسف الاحتلال في نشر اللغة العربيَّة في الجزائر، وأردفت لذلك نشاط الاهتمام بلغة الجزائريين خارجها، لتحقيقَ بالإكبار والإعجاب، بل قد يكفي ذلك وحده دليلاً على طبيعة الجهد المبذول، والرؤية التي استهدفت به الجمعية الجزائريين واستنقاذ مقوماتهم.

1-3-1-2- التَّيار المحافظ (جمعية علماء السُّنة): يرجع وجود هذا التَّيار في الجزائر إلى زمنٍ بعيدٍ، وإيراد جمعية علماء السُّنة ممثلاً له، لا يمكن التَّسليم به على إطلاق، فإنَّ أنصار التَّيار باختلاف طرقه الصُّوفيَّة، ومنتسبيه الفعليين، والمتعاطفين معه أكثر عدداً، وأوسع انتشاراً ولكنه عدد لا ينضبط بضابطٍ يمكن معه العدُّ، واتساعٌ لا يمكن معه الحصر، وجمعية علماء السُّنة بعد هذا، ليس إلّا إطار (حديثاً) من أطر النِّشاط المنظَّم.

ظهر هذا التَّنظيم جرّاء عمليَّة انفصال عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بعد عام من إنشائها وبعد استحالة التَّوافق بين العلماء ذوي النُّزعة الإصلاحية، والمحافظين، الذين أطلقوا على جمعيتهم اسم (جمعية علماء السُّنة) وُلِد هذا التَّنظيم ضعيفاً تحت تأثير طريقة التَّشكيل، والشَّخصيات التي أعلنت الانفصال، وطريقة العمل وأهدافه، وهو ما عَجَّل بهذه الجمعية كتنظيم، فلم تصمُد إلّا سنة واحدة أو بعضها، بعد أنْ حاول أعلامها مجارة المصلحين في أعمالهم، بإنشاء جريدة (الإخلاص) وفتح (نادي الإخلاص) ورفع شعار خدمة (الإسلام الجزائري) تعريضاً بإسلام جمعية العلماء (المشرقي) ومع كثرة القواعد الشَّعبية التَّقليدية التي كان يمتلكها إلى حدود تلك الفترة، فقد سار هذا التَّنظيم باتجاه عزلةٍ شعبيَّة ألجأه إليها التَّمدُّد السَّريع والفعَّال لجمعية العلماء، وهو الأمر الذي أرادت سلطات الاحتلال أنْ تحدَّ منه، فأوعزت بعقد (مؤتمر رؤساء الطُّرق الإسلاميَّة) في الأسبوع الثَّاني من نوفمبر 1933 بالعاصمة برئاسة الشَّيخ مصطفى القاسمي (زاوية الهامل) ولم يكن إيعاز الاحتلال بهذا لتقوية التَّيار الطُّرقي بقدر ما كان صنعا لحاجز يوقف المدَّ الإحيائي، الذي تشرف عليه جمعية العلماء، وهو الذي تبرَّره ممارسات الطُّرقيين الهادفة إلى كبح الطُّموح الدِّينيِّ للعلماء، من طريق إعلان الولاء لسلطة الاحتلال، والوشاية بحركة الإحياء ورجالها، في محاولةٍ يائسةٍ للدِّفاع عن ولاءٍ شعبيٍّ مكتسبٍ عبر عقود من الزَّمن، وما جرَّه من امتيازات اجتماعية ومادية كبيرة، وذلك ما تعتبره هذه الجبهة حقّاً مكتسباً بالتَّقدم، لها وحدها الحقُّ في تمثيل السُّلطة الدِّينية والتَّشريعية.

وأمام التَّهديد الحقيقي الذي شكَّله حركة الإصلاح الدِّيني على المحافظين، ومع أنْ المسألة اللُّغويَّة لم تكن موضع خلافٍ بين الجبهتين، إلّا أنْ حدَّة الصِّراع بين الفريقين، وإيغال جبهة المحافظين في

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

الكيد برجال الجمعية، والسّعاية بهم لدى سلطات الاحتلال، واتّخاذ هذا الأخير ذلك ذريعة لإصدار المزيد من القيود والعقبات، وتلغيم مسيرة الإحياء بالمزيد من المضايقات، فضويقت فعاليّة جهود الإحياء وتأثّرت كثير من النّشاطات الإحيائيّة.

لا يمكن اتّهام جبهة المحافظين بمعاداة اللّغة العربيّة، وجلّ أعلامها -إن لم يكونوا كلّهم- خريجو المؤسّسات العربيّة بأشكالها المختلفة، ولكنّ نتيجة تلك الخصومة الشّديدة التي شهدتها تلك الفترة، أفضت إلى "هزيمة الطّرقيين في آخر المطاف بعد أن تشبّثوا بأذيال الاستعمار خلال (70) عاما وبعد تعاونهم مع سلطات الاحتلال على تقويض المبادئ الأساسيّة للإسلام واللّغة العربيّة في الجزائر بتجميد الفكر ونشر الأكاذيب، والخرافات الباطلة¹" وقد كان لكلّ ذلك انعكاس واضح على مسار الإحياء في زمنه وجغرافيّته، وعلى مدى الاستجابة الشّعبيّة لأدبيّاته، فلقد استهلكت كثير من الأوقات في مهارات ومتابعات ومكائد، طالت الأعراض وحسّى الأنفس، وبقيت العديد من مناطق القطر - بالجهة الغربيّة خاصّة - متمنّعة على تيّار الإحياء بفعل الشّحن العدائيّ الذي وسّمها به التّيّار المضادّ، لتتراجع نسبة اشتراك الجماهير في الانخراط ضمن الصّنفوف الدّاعمة لمشروع الإحياء.

هذا ويجب استثناء كثير من الزّوايا التي كانت في نهاية القرن (19) الحصن الأخير للّغة العربيّة على ما كانت عليه متعلّقاتها من بساطة الوسائل، وعتاقة المناهج، وتواضع مستوى المدرّسين... إلخ وقد اجتمع إلى ذلك تضيق الاحتلال وممارساته القمعيّة، وذلك موقف لا يزال التّاريخ يُقرّ فيه بالفضل لتلك الزّوايا، ويسوق لها أجلّ عبارات التّقدير والإكبار.

1-3-1-3- حزب الشّعب: بعد حلّ النّجم تحوّلت فلوله إلى العمل كمجموعات أطلقت على نفسها اسم (أحباب الأمّة) لتظهر في شكل جديد بعد ذلك هو (حزب الشّعب الجزائريّ) في (NATERRE) قرب باريس في 11 مارس 1937م، وأسندت رئاسته إلى مصالي الحاج، ونقل نشاطه إلى الجزائر من خلال فروعه في الجزائر العاصمة ووهران وقسنطينة، وعرفت فترة 1937-1939م ذروة نشاطات الحزب في الجزائر وفي فرنسا، وتبعا لمطالب الحزب السّياسيّة والاجتماعيّة التي لم يكن يراها معزولة عن المطالب الثّقافيّة، ورأى بأنّه "ينبغي وضع السّياسة الثّقافيّة للجزائر في السّياق المزدوج للّصال

¹- عبد الكريم بوصفصاف، جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين وعلاقتها بالحركات الجزائريّة الأخرى، ط5. الجزائر: 2013 دار بهاء الدّين للنّشر والتّوزيع، 267.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

الشَّعْبِيّ من أجل الاستقلال والرَّغبة في الخروج من التَّخَلُّف¹ وفي ضوء هذه الرؤية، أدرج مطالبه حول عناصر الهوية، في مؤتمره العام في أوت 1938م مطالباً بـ:

- إصدار مرسوم حول إجباريّة تعليم اللُّغة العربيّة في كلّ مستويات التَّعليم، كما هو شأن تونس والمغرب والمشرق العربيّ.

- منح الحرّيّة المطلقة للتَّعليم الحرّ.

- تأسيس كُليّةٍ للأدب العربيّة بجامعة الجزائر، تُدرّس فيها العلوم العربيّة والإسلاميّة، إلى جانب التَّاريخ والاجتماع...

- رفع مستوى المدارس الرّسميّة الثَّلاث، وإسناد تدريس اللُّغة العربيّة لأساتذة مسلمين².

لقد اشترك حزبُ الشَّعب في هذه المطالب مع جمعيّة العلماء التي كانت السَّابقة إلى إشهار هذه المطالب منذ تأسيسها، وتضمَّنها قانونُها الدَّاخليّ، كما أنشأ الحزب نحو 17 مدرسة حرّة موزّعة على أنحاء الوطن، بينما كانت هذه المطالب في أدبيّات الحزب إعلاناً عن توجُّهه الفكريّ، واستقطاباً لأنصار الدِّفاع عن الهوية، وإنْ كان الحزب قد باشر التَّعليم الحرّ من خلال المدارس التي أنشأها باسمه، لا سيما بعد 1950م، ولكنّها لم تبلغ في عددها وفعاليتها مدارس جمعيّة العلماء.

ومن المبادرات التي باشرها حزبُ الشَّعب خدمة للعربيّة، إسنادُه أمرَ إنشاء صحيفة الشَّعب ذات اللِّسان العربيّ لاثنتين من أنصاره المعرَّبين، هما: الشَّاعر مُفدي زكريا ومحمَّد قنانش، وصدر منها أعدادٌ قليلة، ثمَّ حاول ذلك مرّةً أخرى سنة 1938م، فلم تستطع صحافتُه الصُّمود، ثمَّ أنشأ صحيفة (البرلمان الجزائري) في: 3 جوان 1939م ولم يُكتب لها الاستمرارُ أيضاً.

كما أعدَّ حزبُ الشَّعب من يقوم على الخطابة الشَّعبية بالعربيّة، فكان السيّدان: العربي دماغ العتروس، وأحمد بودة عضوا الحزب وخطيباه، واشتهر العبّاس بن الشَّيخ الحُسين، وعبد القادر الياجوري بالخطابة لسياسة الحزب، ونشر أفكاره، رغم انتمائهما لجمعيّة العلماء.

وعلى الجملة، فإنَّ مواقف حزبُ الشَّعب إزاء اللُّغة العربيّة تبدو الأقرب إلى مواقف جمعيّة العلماء فبينما كان ابنُ باديس وزملاؤه يرون أنَّ التَّعليم أهمُّ سلاح للوقوف في وجه المستعمر، كان مصالي

¹ -Sid Ahmed Baghli, Aspects de la politique culturelle de l'Algerie, paris: 1977, L'organisation des Nations unies pour l'éducation, la science et la culture, p11.

² - أبو القاسم سعد الله، حصاد الخريف، ط1. الجزائر: 1432هـ-2011م، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ص202.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

الحاج ورفقاؤه يعتقدون أنَّ النِّضال السِّياسي هو أقرب طريق لاسترجاع الوطن¹ وذلك راجع إلى الفروق التي كانت بينهما، والتي ترجع أساسا إلى اختلاف طبيعة كلِّ تنظيم واستراتيجياته في تنفيذ مشاريعه.

1-3-1-4 حركة انتصار الحريات الديمقراطية: أنشئت في 1946م، بعد حلِّ حزب الشعب

فورثت أفكاره وقواعد تنظيمه، وتبنّت مواقفه ومطالبه، ومنها الموقف من اللغة العربية، الذي كان امتدادا لموقف حزب الشعب، ولكنها وطّدت علاقاتها أكثر بجمعية العلماء، وعملت على تفعيل نشاط الصحافة العربية، فأُسست صحفاً تابعة لها أو قريبة من خطّها، فكانت المنار والمغرب العربي وصوت الجزائر إلى جانب صحيفة الجزائر الحرة الصادرة بالفرنسية، وسرى مبدأ الدفاع عن اللغة العربية والتّمكن لها في أوساط الحزب، "فلم يأت نوفمبر 1954م، حتّى كان أعضاء الحزب متشبّعين بمبدأ المطالبة باللغة العربية كلغة وطنية ورسمية للجزائر"² وفي تقريره الموجّه إلى المؤتمر الثّاني للحركة في أبريل 1953م يسيطر الحزب رؤيته الكبرى للجانب الثقافي في الجزائر، ويضع لتوجيه مساره وسدّ خلله ثلاثة أهداف:

- نشر الثقافة القومية الموصولة اتّصالا وثيقا بالثقافة العربية الإسلامية.

- نشر التّعليم الفني والصّناعي.

- محاربة الأمية³.

فالحديث عن موقف هذه الحركة من اللغة العربية نابع من طبيعة تكوين أفرادها، وهم ذوو السّابقة في حزب الشعب، ثمّ من طبيعة التّعاطف مع مواقف جمعية العلماء التي عدّت الظّهير الفكريّ لهذه الحركة في كثير من المواقف، كما كانت على تتّاعم واضح مع حزب الشعب من قبل.

1-3-1-5 الحزب الشيوعي الجزائري: لعلّ هذا التّظيم من أشدّ التّنظيمات الجزائرية تعقيدا في

تركيبته، وغموضا في استراتيجياته، وتقلّبا في مواقفه، فهو يجمع بين متناقضات عديدة منها الغياب الشعبي الظّاهر، والحضور السّياسي الفاعل، وليس شأن الأطروحة متابعة المقولات السياسية لهذا الحزب، والوقوف على رؤاه الإيديولوجية، إلّا من باب ما له علاقة بالمسألة اللغوية في الجزائر استكمالا لمشهد العوامل المؤثّرة والعناصر الفاعلة.

¹ عبد الكريم بوصفصاف، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى، ص312.

² أبو القاسم سعد الله، حصاد الخريف، ص203.

³ عبد الحميد زوزو، المرجعيّات التاريخية للدولة الجزائرية الحديثة مؤسّسات ومواثيق، د ط. الجزائر: 2011م، دار هومة للنشر والتّوزيع، ص128.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

تسرّبت الفكرة الشيوعية إلى الجزائر بداية القرن (20) وانتعشت بعد الحرب الثانية، ووجدت لها أنصاراً من النخبة، وسرعان ما تبنت من الأطروحات الاقتصادية والاجتماعية للتيار ما يخدم الفكرة الماركسيّة بأبعادها الكبرى، وغالباً في ظل رؤية الحزب الشيوعي الفرنسي "أمّا القضية الوطنية فلا يؤمن بها الحزب الشيوعي عندئذ إلاّ في الإطار العالمي"¹. ولم يكن بعيداً أن ينظر الحزب إلى قضايا الهوية نظرة تتناسب مع هذا الطرح، وضمن هذه الإيديولوجيا، كما لم يكن منتظراً أيضاً إلاّ تبني مواقف تتناسب والطرح الشيوعي، وفي إطار الجمهورية الفرنسية، ومع حاجته إلى قواعد شعبية واسعة يجعلها عدته في الحضور الجماهيري وحسم الانتخابات، وولائه لأفكار لا تجد القبول الكافي لدى تلك الجماهير، فقد عرف الحزب تقلبات كثيرة طبعت مسيرته بشيء من المدارة والحيلة، فيصدر في الجزائر صحيفة بالعربية تسمى (الرأية الحمراء) خلال العشرينيات، وها هو ينظم إلى الكتلة الوطنية في المؤتمر الإسلامي في جوان 1936م، ويتقرب من جمعية العلماء، يوافقها في دعم مطالبها حول الدين الإسلامي واللغة العربية، وهو المطلب الذي صدر عنه في 1933م، والمتضمن المطالبة بحق الجزائريين "بأن يُمكّنوا من تعلّم اللغة العربية"² فجّد التذكير به ليستفيد من الحضور الجماهيري الكبير الذي حظي به المؤتمر وها هو بعد (10) سنوات وفي الفترة (1947-1950م) ومع عدم قناعته "بجدوى اللغة العربية والدين الإسلامي في الجزائر، فإنّ الحزب الشيوعي الجزائري قد غير مواقفه، تكتيكياً... وراح يُدرج ضمن لوائحه السياسيّة وعروضه الوحدويّة: المطالبة بترسيم اللغة العربية، وجعل تعليمها إجبارياً في جميع مراحل الدّراسة"³ وخلال هذه الفترة (السّداسي الثاني من عام 1948) راح يحاول استدراج الأحزاب الوطنيّة لإقناعها بمشروعه الوطني، وبينما أعرض حزب الشعب عن اقتراحاته لعلمه بخلفياته الإيديولوجيّة، فقد نظر الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري في أدبيّات الحزب الشيوعي يتمعن آراءه ومقترحاته، ليصرّح بعدم الاستجابة، لاعتبارات عديدة، منها ما يتعلّق بشأن اللغة العربية: "إنّ الحزب الشيوعي يرفض اللغة العربيّة والعروبة والإسلام، فبالنسبة إليه لا يمكن للغة الضّاد أن تكون هي اللغة الوطنيّة، لأنّ مليون أوربيّ يجهلها أو يتجاهلها، ولأنّها لغة القرآن، أمّا العروبة والإسلام فإنّهما صنوان للتخلف والرجعيّة"⁴ وتلك قناعة الحزب التي طبعتها بها رؤية (موريس توريز / Maurice Thorez)

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 5، ص 268.

² - محمّد الميلي، المؤتمر الإسلامي الجزائري، ط 1. الجزائر: 1434هـ - 2013م، مؤسسة الضحى، ص 402.

³ - محمّد العربي الزبيري، تاريخ الجزائر المعاصر، د. ط. د ب: 1420هـ - 1999م، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ج 1 ص 237.

⁴ - محمّد العربي الزبيري، تاريخ الجزائر المعاصر، ج 1، ص 131.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

الأمين العام للحزب الشيوعي الفرنسي في مقولته الشهيرة: هناك أمة جزائرية يجري تكوينها بواسطة عشرين جنساً.

إن كثرة تقلبات الحزب الشيوعي في مواقفه إزاء اللغة العربية جرّت عليه ريبة الدارسين في حقيقة موقفه، ولعلّ ذلك ما دفع الأستاذ سعد الله إلى التصريح بعدم القدرة على معرفة موقف الشيوعيين الحقيقي فقال: "أمّا موقفهم من اللغة العربية فلم نتوصل إليه لحدّ الآن"¹ وأياً كان موقفهم المضمّر فسوف لن يكون وفاقاً لما عليه مطالب طبقات الشعب الجزائري العريضة، ثم إنّ هذا الحزب مع عراقة نشأته، وحسن تنظيمه؛ فإنّه لم يُحسب له من جهود دعم اللغة العربية ما يُذكر به، ممّا يدعو إلى القول بأنّ موقفه منها راجع إلى تقدير ظروف كلّ مرحلة ونتائجها.

1-3-1-6- أحباب البيان والحريّة: النسخة المعدّلة لكتلة اتّحادية النواب المسلمين بعد التراجع السياسي الكبير لابن جلول، وإظهار فرحات عبّاس قدرة كبيرة على فهم الأوضاع، وإجادة تسييرها، وفي ظلّ تواصلٍ فعّالٍ مع قُطبيّ الحركة الوطنية آنذاك مصالي الحاج ومحمّد البشير الإبراهيمي، أعلن فرحات عبّاس عن إنشاء حزبه الجديد في 4-4-1944م، ولم يكن موقف فرحات عبّاس في مؤازرته للغة العربية وتبنيّ الدفاع عن مكانتها، جديداً، فقد صقلت الأيام مواقفه إزاء مقومات الأمة، ومنها اللغة العربية التي كان يُبدي تعاطفه معها من موقع النخبة، وبعد أن تحوّل من الدّعوة إلى الإدماج قبل هذا التاريخ، أصبح يدعو إلى المساواة، وأصدر لذلك جريدة بالعنوان نفسه (Egalité) سنة 1944م، غير أنّ القانون الأساسي للحزب لم يُبين عن موقفٍ صريحٍ للحزب بإزاء اللغة العربية، وهو الموقف الذي سمّاه الأستاذ سعد الله (سكوتا) قد يبرّر بأنّ هذا الحزب كان خلال هذه المرحلة تجمّعاً للنخبة الاندماجية ومعتدماً نضالاً على مستواها، ولم يكن يومئذٍ شأن اللغة العربية مسألة بالنسبة إليه أساساً، مقابل المطالب السياسيّة العاجلة، وهو الموقف الذي سيشهد استدراكاً من قبل إدارات الحزب أنفسهم، ولكن في ظلّ ظروف وسياقات أخرى.

1-3-1-7- حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري: بعد مجازر الثامن ماي 1945م وحلّ الاحتلال أحباب البيان، وخروج فرحات عبّاس من السّجن، أنشأ حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري (UDMA) يوم 16 أفريل 1946م، وقد انتهج الحزب استراتيجية عمداً بها إلى استقطاب كلّ الطّاقات الوطنيّة، وفتح أبواب الانضمام إلى صفوفه، فالتفت إلى المطالب الشعبيّة، وصاغ قوانينه

¹ - أبو القاسم سعد الله، حصاد الخريف، ص202.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

ومطالبه في هذا الإطار، وكان ذلك مبرراً كافياً ليتبنى الحزب مطالب لطلالما أُدرجت في عرائضه لمختلف الجهات منذ عقود، ففي مؤتمره المنعقد بسطيف عام 1948م، وفي لائحة عنوانها: (عملنا المستعجل) أدرج مادّتين تتعلّقان باللغة العربيّة، وجاء فيهما: "التّعليم الإلجباريّ والمجانّي بالنّسبة لجميع أطفال الجزائر، والنّضال من أجل ترقية اللّغة العربيّة باعتبارها اللّغة الوطنيّة والرّسميّة"¹ ومع أنّ سلطات الاحتلال كانت تعلم التّوجّه السّلميّ للحزب، وتعلم من رئيسه تأثير تكوينه الفرنسيّ على طريقة تفكيره وطبيعة أطروحاته السّياسيّة، فقد كانت مُعارضةً عضو المجلس الوطنيّ الفرنسيّ (جاك شوفالي/ Jacques Chevalier) للمقترحين عنيفةً، ورثب عليهما أهدافا بعيدة، لم يكن لرعاية الاحتلال العلميّة أن ترضى بها، وتقبل التّنازل بشأنهما، إذ أنّ ذلك "يعني دفع المسلمين أكثر فأكثر إلى الإسلام، ويعني ذلك، نشر الإسلام، وتمتين العلاقة مع الجامعة العربيّة، وكلّ الذين يريدون استقلال الجزائر. وأخيراً فإنّ ذلك يعني إدخال البربر تحت سلطة الإسلام عن طريق اللّغة العربيّة"² بحسب مرافعة شوفالي.

وإمعانا في انفتاح الحزب على الهويّة اللّغويّة العربيّة للجزائريّين أسّس فرحات عبّاس سنة 1949م أسبوعيّة الوطن العربيّة باسم وإشراف عبد الرّحمن رحمانيّ، ولكنّه انفتاح لم يستطع تجسيد الحضور الشّفهيّ عن طريق الخطابة، باعتبارها المنبر الأوّل الذي عوّلت عليه كلّ الحركات يومئذ ف "لم نجد لحركة الثّواب، ولا لحزب البيان خطباء بالعربيّة"³ بفعل التّكوين اللّغويّ الفرنسيّ لُحَب وساسة هذا الحزب، كما هو شأن غالب الحركات السّياسيّة الأخرى.

1-3-1-8- التنّظيمات الطّلابيّة الجزائريّة: يحتلّ هذا الجناح بتنوّعه ومراحلته وتجاذباته في جزائر

القرن (20) مكانة خاصّة، فهو التّنظيم الذي راهن عليه مخبرُ الاحتلال تكويناً وتوجيهاً وتوظيفاً، وهو الجناح الذي بذلت حركة الإحياء الثّقافيّ واللّغويّ وجهود السّياسيين على استرجاعه لحظيرة العمل الوطنيّ، واعتماده ركيزة لبناء الدّولة الجزائريّة بخصوصيّتها الحضاريّة.

وقد اكتسب هذا الجناح خصوصيّة من كونه الحاضنة التي خرج منها أصحاب القرارات الحاسمة ورجال الدّولة الفاعلين، ويتحمّل -قبل غيره من التّنظيمات- مسؤوليّة كثير من القضايا الكبرى للأمة الجزائريّة، ومنها بالضرورة المسألة اللّغويّة التي شكّلت على طول مسار هذا الجناح بؤرة تدافع عكست

¹ - أبو القاسم سعد الله، حصاد الخريف، ص202.

² - محمّد العربيّ الزّبيريّ، تاريخ الجزائر المعاصر، ج1، ص117.

³ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافيّ، ج8، ص117.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

حقيقة الصراع الحضاري بين الاحتلال الفرنسي بأطروحاته ومشاريعه وممارساته، وبين الشعب الجزائري المصير على خصوصيته الحضارية بكل أبعادها، ومن هنا، فإنه لا يمكن فهم حاضر الواقع الجزائري بكل مشاهده، دون الالتفات إلى مسار هذا الجناح بتدافعاته الصارخة، وولاءاته المتعارضة، كما لا يمكن -كذلك- تصوّر حلّ للمسألة اللغوية الجزائرية بقضاياها المتعدّدة، وتشعباتها الكثيرة، إلّا بإيجاد حلّ يصحّح به مسار هذا الجناح، وثقّك الأغلام التي طبعت وتطبع مساره.

نشأت الحركة الطلّابية الجزائرية في كنف الاحتلال، شأنها في ذلك شأن الصحافة والجمعيات الأهلية، ثمّ كان أن أعلنت انفصالها المشوب بكثير من عدم وضوح الرؤية، والمتأثر بمختلف الولاءات اللغوية والحضارية وحتى العقديّة لأعضائها، مستفيدة من طرائق العمل ووسائل النضال، وترجع نواة الحركة الطلّابية في الجزائر إلى سنة 1883م، بعد ثلاث سنوات من إنشاء المدارس الأربعة العليا سنة 1880م، بتشكيل (مؤسسة طلبة مدينة الجزائر) التي تحوّلت في 1885م إلى (الجمعية العامة للطلّبة الجزائريين) وفي 1906م ظهر أوّل تجمع طلابيّ تحت تسمية (الاتحاد الوطني للتجمّعات الطلّابية بفرنسا-UNAEF-) الذي تحوّل بدوره إلى (الاتحاد الوطني للطلّبة بفرنسا-UNEF-) ليكون إطارا للطلّبة على اختلاف توجّهاتهم وانتماءاتهم وأوضاعهم، بغرض الدفاع عن حقوقهم المشتركة، وقد كان حضور الجزائريين في هذه التّنظيمات قليل العدد، ضعيف التأثير بفعل وضعهم الاجتماعيّ والسياسيّ فمنذ إنشاء المدارس العليا في 1880م ثمّ تحوّلها إلى جامعة الجزائر في 1909م نحصى (06) طلاب سنة 1884م، وحتى الموسم 1907-1908م لم يتجاوز عددهم (50) طالبا، وقد كان الطلّبة المنتسبون إليها نواة الجمعيات الأهلية الجزائرية ذات النشاط الاجتماعيّ والثقافي كالرشيدية (1902م) والتوفيقية (1908م).

أعيد تنظيم (الاتحاد الوطني للطلّبة بفرنسا-UNEF-) في (1911م) فضمّ (07) طلاب من بين أعضاء مكتبها الإداري الاثنى عشر (12) بينما شكّل الطلّبة الفرنسيون واليهود في الجزائر والدارسون منهم في فرنسا الرّكيزة الحقيقيّة لهذه التّنظيمات الطلّابية كلّها.

جمع الطلّبة الجزائريون إلى انتمائهم هذا انتظامهم في وحدة طلّابية أخرى هي (جمعية الطلّاب المسلمين لشمال أفريقيا-AEMAN-) التي ظهرت سنة 1919م، والتي أنشأت فرعا لها ببائيس بعد ذلك سنة 1927م.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

أدت سياسة الإقصاء التي كان يتعرض لها الطلبة الجزائريون إلى إنشاء (ودادية الطلبة المسلمين لشمال أفريقيا) في 16 مارس 1919م وشغل رئاستها بلقاسم بن حبيلس، ومهدي صالح المتجنسين وتكفل بتسييرها الدكتور سعدان، وبشير عبد الوهاب، وفرحات عباس، الذين فضلوا أن يكونوا فرنسيين مسلمين، وبفعل الخلاف الذي كان بين (الجمعية العامة للطلبة الجزائريين) و(ودادية الطلبة المسلمين لشمال أفريقيا) فقد عُدَّت الودادية فرعاً من الجمعية العامة حتى سنة 1935م، وهي الفترة التي شهدت محاولات للتقريب بين وجهات نظر التنظيمين.

بدأت ملامح ظهور الولاء الوطني للتنظيمات الطلابية مع بداية ثلاثينيات القرن (20) في سياق الحراك الوطني العام الذي طبع هذه الفترة، ولم يكن حتى ذلك الحين في التعليم العالي إلا فئة فرانكفونية أو اندماجية أو متجنسة، أما القلة من الطلبة التي كانت منتسبة إلى جوامع المشرق، فلم يكن لها من سبيل إلى هذه التنظيمات، ولا يمكن إدراجها ضمن الحركة الطلابية خلال هذه المرحلة.

ظهر الاتجاه الوطني للحركة الطلابية الجزائرية من خلال نشاطها الصحفي والجمعوي، فكان إصدار مجلة (التلميذ) وجعلها (لسان حال الطلبة المسلمين الجزائريين بالجزائر) تمييزاً بلفظتها الأخيرة عن لفظة (بفرنسا) التي لازمت تسميات التنظيمات الطلابية من قبل.

ولئن كانت المجلة مزدوجة اللغة، فإن ولاءها الوطني لا مطعن فيه، إذ ضم قسمها العربي مواضيع أدبية وقضايا فكرية عربية، حتى عُدَّت "أهمّ المجالات والدوريات الجزائرية في تلك الفترة لعنايتها الفائقة بالتراث العربي والإسلامي"¹ وتضمن قسمها الفرنسي مواد فكرية وأدبية عربية بلسان فرنسي، وقصّدت به النخبة ذات التكوين الفرنسي، فإذا ما ذكر طبع المجلة بمطبعة أبي اليقظان، ووجود مقر التنظيم بناي الترقّي، وارتباط نشاطه بنشاط الحراك الإحيائي الوطني العام؛ كان ذلك من المؤشرات القويّة على مدى التقارب الذي جمع الجهود الطلابية بجهود حركة الإحياء الوطني العام.

حرصت (جمعية الطلاب المسلمين لشمال أفريقيا-AEMAN-) على تنظيم مؤتمر سنوي لطلبة الدول الثلاث، سواء منهم الدارسين في بلدانهم أم الدارسين بفرنسا، بين سنة 1931 و1935م وقد تحوّلت هذه المؤتمرات إلى مهرجانات، أُدرج في جداول أعمالها "الاستماع لمقطوعات من الموسيقى الأندلسية، وتلاوة القرآن، وإلقاء الأشعار أو الخطب باللغة العربية الفصحى"² فكانت تلك المؤتمرات

¹- محمد ناصر، الصحافة العربية الجزائرية، ص180.

²- غي برفيلي، النخبة الجزائرية الفرانكوفونية، 1880-1962م، ص169.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

فرصة للأعضاء الجزائريين، اقتربوا فيها من إخوانهم العرب، ولامسوا عن قرب مكوّن آخر من مكوّنات شخصيّتهم التي غطّاها تكوينهم الفرنسيّ الصّرف، وهو التّكوين الذي لم يكن مانعا لهم من مساهمة أشغال المؤتمر الثّاني للتّنظيم، الذي استقبله نادي التّرقّي بالجزائر من 25 إلى 28 أوت 1932م، برئاسة فرحات عبّاس، وتنشيط الشّاعر مُفدي زكريا، وفيه ناقش المؤتمر النّقّاط الأربع:

- البحث في وسائل نشر اللّغة العربيّة في أفريقيا الشّماليّة.
- المطالبة بتدريس التّاريخ الإسلاميّ.
- النّظر في برامج تدريس التّلاميذ، للجمع بين الدّروس العلميّة المقدّمة باللّغة الفرنسيّة ودراسة اللّغة العربيّة لتحسينهم بالثقافة العربيّة.
- مناقشة قضية توظيف المتخرّجين¹. تلك النّقّاط التي تحمل بوضوح التّأثير الطّلابيّ التّونسيّ والمغربيّ، لم تجد معارضةً من الأعضاء الجزائريّين الذين يعترف المتابعون الفرنسيّون بولائهم الكامل للّغة الفرنسيّة، واستثنائهم من مغبّة التّعاطف مع مسألة اللّغة العربيّة، حين يسجّل ناظر جامعة الجزائر (Georges Hardy) شهادته على موقف الطّلبة الجزائريّين بقوله: "فهم يعترفون بارتباطهم الشّديد باللّغة الفرنسيّة، بينما يحلم الآخرون [التّونسيّون والمغاربة] بإحياء اللّغة والعلوم العربيّة"² ولم يكن يُنتظر من الطّلبة الجزائريّين أكثر من هذا الموقف، وهم لا تربطهم باللّغة العربيّة أيّة رابطة طيلة مسارهم التّعليميّ، على خلاف زملائهم في تونس والمغرب الذين جمعوا إلى تعليمهم الفرنسيّ تكويناً عربيّاً محترماً.

أمّا المؤتمر (05) للتّنظيم فقد انعقد في تلمسان من 5 إلى 10 سبتمبر 1935م بقاعة السّعادة النّابعة لجمعية العلماء المسلمين، متحوّلاً إليها من قاعة البلديّة التي شهدت مشاحنات في جلسة الافتتاح وقوبلت كلمة التّرحيب التي ألّاها الشّيخ الإبراهيميّ تصفيقا طويلا، وارتفع سقف مطالب المؤتمرين إلى:

- المطالبة بجعل اللّغة العربيّة لغة رسميّة.

- تدريس اللّغة العربيّة في المدارس الابتدائيّة وفي التّعليم الثّانويّ وفي (مدارس) الجزائر [الحرّة] وفي التّعليم العالي من طرف أساتذة مسلمين، وباللّغة العربيّة الفصحى، إضافة إلى توصيّة رفعت إلى الحكومة الفرنسيّة مفادها "إحلال اللّغة العربيّة مكانة أهمّ في المدارس الابتدائيّة، وجعلها مادّة إجباريّة

¹- غي برفيلي، النّخبة الجزائريّة الفرانكوفونيّة، 1880-1962م، ص169.

²- غي برفيلي، النّخبة الجزائريّة الفرانكوفونيّة، 1880-1962م، ص174.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

في امتحان الشهادة الابتدائية¹ ويبدو أن سلطات الاحتلال قد أدركت الأخطار المتنامية على مشروعها اللغوي في الجزائر خاصة، وبلدان شمال أفريقيا، فمنعت عقد هذه المؤتمرات في السنوات 1936م حتى 1939م.

لم يلبث النضال الطلابي أن تحوّل إلى امتداد لنضال الحراك الحزبي، بحكم أن الكثير من حقوق الطلبة ذات طابع سياسي، وصارت مواقف التنظيمات الطلابية - وإن انضوت شكلياً تحت لواء بهذا الشعار - ذات ميول سياسية، ويكفي أن يُدرك متابع مسار الحراك الجزائري العام، أن أعلام النضال الطلابي لسنوات العشرينيات والثلاثينيات هم أعلام الحراك السياسي لما بعد ذلك، ومن ثمّ باتت مواقف التنظيمات الطلابية لا تختلف كثيراً عن مواقف الأحزاب التي تدين لها بالولاء الحركي أو الفكري. بل إنّ (ودادية الطلبة المسلمين لشمال أفريقيا) كانت من جهة موضع استدراج العلماء الذين رأوا فيها إطاراً يمكن توسيع حركة الإحياء من خلال طبيعة ومستوى تكوين منتسبيها، ومطمعا لاستحواذ الشيوعيين على نخبة يتعرّز بها حضورهم في مراكز النفوذ - على عادة أصحاب هذه الإيديولوجيا - من جهة أخرى، وقد استمر هذا التجاذب بين أطراف الحراك الوطني أمداً طويلاً، ولا يزال يشكل خلفية تاريخية لكثير من التيارات والتوجهات.

أحدث نزول الحلفاء بأفريقيا الشمالية في نوفمبر 1942م تحولاً فارقاً في مسيرة الحركة الطلابية الجزائرية بانضمامها الجماعي إلى (حركة أحباب البيان والحريّة) استجابة لتأثير جمعية العلماء وخلايا حزب الشعب، وكتلة المنتخبين، وكما كان فرحات عباس (طالب الأمس) رئيس الحركة بثقله السياسي أضاف محمد الهادي جمان إلى رئاسة (ودادية الطلبة المسلمين لشمال أفريقيا) منذ 1931م، عضوية حزب البيان، ليشدّ أزر الحركة الطلابية الجزائرية الوطنية بتشكيل جمعية التلاميذ المسلمين في المتوسطات والثانويات في جانفي 1944م، وهي التي كانت على صلة وثيقة بحركة الإحياء بريادة جمعية العلماء.

مع الدخول الجامعي 1949م، وفي الوقت الذي كانت الحركة الطلابية تحت سلطة حركة الانتصار مسندة من قبل حزب الدستور الجديد التونسي، وحزب الاستقلال المغربي وطلبتهما، كان طلبة الحزب الشيوعي داخل الحركة ينظمون علاقاتهم مع الرفاق على مستوى إقليمي، ويدخل في السنة نفسها بدافع مازيغي على جبهة التنافس الصادق هجرس، بتشكيل مشترك مع الشيوعيين والاتحاد من أجل الدفاع

¹ - غي برفيلي، النخبة الجزائرية الفرانكوفونية، 1880-1962م، ص 171.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

عن البيان الجزائري، للظفر بتمثيل (300) طالب مسلم جزائري، ينتمي (100) منهم إلى حركة الانتصار، وهي الفئة التي شكّلت منذ 1953م نواة اتجاه الاتحاد العام للطلّبة المسلمين الجزائريين بقيادة بلعيد عبد السلام، مدعوما بالعلماء وخلايا حزب الشعب المحظور، وفُضِّل الحزب الشيوعي مدعوما بنحو (100) طالب اتجاه الاتحاد الوطني للطلّبة الجزائريين، وهو الصراع الذي انتهى في الأخير بتشكيل تنظيم طُلابي جديد برئاسة مناضل جمعية العلماء وعضو (الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري) أحمد طالب الإبراهيمي، والذي كان انتخابه على رأسه في جويلية 1955م فيصلا في الوجهة التي آل إليها التنظيم الطُلابي في الجزائر قبيل اندلاع ثورة التحرير، فقد جاء في خطاب تأسيس (الاتحاد العام للطلّبة المسلمين الجزائريين) في جويلية 1955م، على لسان أحمد طالب: "كطلّبة مسلمين، إننا نعاني الأمرين ماديا ومعنويا، ونحن نرى لغتنا معتبرة لغة أجنبية في بلادنا، إن هذه اللغة الحاملة لحضارتنا نُصِر على أن تُعاد لها المكانة المرموقة التي تستحقها... يجب أن يتمّ تدريس اللغة العربية لكل أبناء الجزائر في جميع مستويات التعليم، وأيضا في كافّة أنحاء بلادنا من دون تمييز، ذلك هو الشرط الذي ينبغي توافره من أجل إشاعة التفاهم بين مختلف العناصر السكانية في الجزائر"¹ ويبدو أن محرري الخطاب [بلعيد عبد السلام، وأحمد طالب، وعبد المالك بن حبيّس، ومولود بلهوان] قد وقفوا على مخاطر العزف على الوتر اللغوي من قبل مخبر الاحتلال، وتوظيفه لشقّ وحدة الجزائريين من خلال التدافع اللغوي الكلاسيكي (عربية/ فرنسية) وإضافة تدافع من شكل آخر، رأى المخبر بخبث إذكاء الصراع فيه بتحريك الجناح الذي طالما حضّره لمثل هذا، وافتعال صراع عربي- مازيغي، فجاء الطرح الطُلابي ضامًا صوته إلى أصوات التنظيمات الوطنية الأخرى لردّ الحق الطبيعي للغة العربية.

كانت هذه المرحلة هي آخر ما استقرّ عليه مسار التيار الطُلابي الجزائري إلى حدود اندلاع الثورة التحريرية، التي كانت تحوّلًا للعديد من المسارات، ومنها المسار الطُلابي الذي تؤكّد المصادر تحفّظ كثير من منتسبيه على الالتحاق بالثورة حتّى كانت نهاية 1956م مناسبة لالتحاق أعضاء التنظيمات أفرادا بالثورة، لكنّ ولاءات الأمس هي التي سنوّر كثيرا من المسارات والاختيارات الصعبة والخطيرة في المرحلة القادمة.

¹ - أحمد طالب الإبراهيمي، مذكرات جزائري، أحلام ومحن، 1932-1965م، د. ط. الجزائر: 2006م، دار القصة للنشر، ج1 ص229-230.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

1-4- ترسيم اللغة العربية في عهد الاحتلال! توجت مطالب التنظيمات والهيئات الوطنية الجزائرية

حول اللغة العربية في جزائر الاحتلال لأكثر من قرن، بإذعان صوري للسلطات الفرنسية، حمله اعتراف مشوب بوعود كاذبة تضمنها القانون الخاص بالجزائر الصادر في 20 سبتمبر 1947م، بخصوص استعمال اللغة العربية، وإجبارية تعليمها، وإلغاء القانون الذي يعتبرها لغة أجنبية، فنصت المادة 57 منه "على أن اللغة العربية تُعتبر إحدى لغات الوحدة الفرنسية، والتراتب التي تجري على اللغة الفرنسية تجري على اللغة العربية، بالنسبة للصحافة الرسمية أو الخاصة أو المطبوعة في الجزائر، وسينظم التعليم العربي في جميع الدرجات"¹ ويبدو أن هذا الاعتراف من قبل سلطات الاحتلال بشأن اللغة العربية، جاء بعد أن اطمأنت على وضع اللغة الفرنسية في الجزائر، من خلال اكتمال نضج النخبة الفرانكوفونية التي مكثت مدرسة الاحتلال تهيئها، فقد كان المخبر الكولونيالي يتابع عن كثب وجهة الحراك الوطني ورؤاه، ويسهر على أن تقول كثير من مقاليد الحركة السياسية إلى نخبة صنعتها على عينها، وترى بأن لا ضرر على لغتها بين يديها، ثم إن ما يبدو تحولا في السياسة اللغوية (Language Policy) للاحتلال إزاء عنصر اللغة العربية ليس في الحقيقة إلا تسويقا لكلام لا حقيقة له في الواقع إذ لا معنى لنص المادة (57) من هذا القانون أمام غياب كامل وفعلي للغة العربية في أدبيات الاحتلال ووقوف ما لا حصر له من العوائق التي تنفي وجود أي خطوة لصالح اللغة العربية، وذلك الذي أثبتته الأيام بعد صدور القانون.

1-5- جهود حركة الإحياء اللغوي من منظور السياسة اللغوية: لم يكن أفضل المتفائلين ينتظر

للغة العربية في الجزائر نهاية القرن (19) وبداية القرن (20) نيل أي شكل من أشكال المطالبات، ولا استرجاع أي حق من حقوق ناطقيها المستباحة، ولكن مسيرة الإحياء بقوة دوافعها، وتعدّد مشاهدها وتنوع مؤثراتها، وصدق أعلامها وتضحيات الأمة بمكتسباتها لصالحها، قد تحول بمواقف الساسة إزاء اللغة العربية من الإهمال أو التردد أو التواطؤ، إلى مستويات من التعاطف إلى التنبّي، ومن الجهل أو التجاهل إلى الإدراك والاعتراف.

لقد حمل المعجم الخطابي التداولي العربي في الجزائر عشرات المصطلحات الجديدة من مثل: الأمة والوطن والشخصية والنهضة والتقدم والترقي والتهديب، وغيرها ممّا في حقلها الدلالي، وأصبح دورائها على الألسن أمرا مألوفًا، بل إن منها ما أطلق تسميات للمؤسسات الاجتماعية والتعليمية التابعة

¹ - أبو القاسم سعد الله، حصاد الخريف، ص 207.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

للحركة، وكان ذلك مسلکا انتقلت فيه حركة الإحياء من موقع إحياء اللغة العربية، إلى الإحياء باللغة العربية، ومن موضع كان يمارس عليها ولفترة طويلة احتكاك لغوي (Contact) جائر، إلى موضع حصلت فيه قدرا معتبرا من لوازم وأدوات الصِّراع اللغوي (Conflit linguistique) الذي أخذ طرفه ممثلاً في خطباء وكتاب وشعراء وسياسيّ الحركة يشهرونه في خطاباتهم، المتراوحة بين المسالمة والمداراة حيناً، وبين رفع العقائر بالمطالبات والاحتجاجات حيناً، ولئن أخذ هذا الصِّراع بين الجبهة الفرنسية التي تحاول إثبات وجود فعليّ على الأرض في إطار أطروحات تاريخية وحضارية تمجّد عناصر الحضارة الأوربية، وبين حراكٍ مقاومٍ يبذل جهوداً كبيرة لأنْ تُصبح اللغة العربية في موقع مقابلٍ يدافع عن مكانتها، ويدفع عنها عدوان الوضع القائم؛ فقد تبوّأت اللغة العربية على الجبهة الجزائرية النّاهضة دور الدّافع الفاعل من موقع أنّها عنصر هويّة في ذاته، كفيل بتوفير مناعة لسانية كافية من جهة، ثمّ هي الحامل المادي لعناصر الهوية الأخرى من جهة ثانية.

لقد كانت كلّ مشاهد الحركة السّياسية إزاء اللغة العربية بعثراتها وآمالها وتدافعها وتقلّب مواقف أصحابها تعبيراً صريحاً عن تحوّل كبير أدركته اللغة العربية حين انتقل بها رُؤاد حركة الإحياء من موقع الفريسة التي استباح الاحتلال حوزتها، إلى مقام يتكاثر فيه أنصارها، وقد ربط الكفاح السّياسي ضد الاحتلال بالعمل على نشر اللغة العربية كمكوّن رئيسٍ للوطنية، وللحركة التّحرّرية الجزائرية، وهذه فلسفة الحركات الوطنية منذ دخول المستعمر سنة 1830م¹ إذ تنوّعت مطالب ردّ الاعتبار لها ما بين جاعلٍ لها بنداً رئيساً في برنامجها السّياسي، ومن رافع عرائض الاستنكار لما أصابها من إبعاد وإذلال ولم تكن تلك المواقف في كثير من الأحيان إلّا استفاقة عزّزت مكانة اللغة العربية في مشاريع الحركات ورقما استقوت به على استقطاب الجماهير وتجميعها.

استطاعت حركة الإحياء اللغوي أن تتحوّل باللغة العربية إلى موقعٍ لم يكن لها فيه ذكر، فأصبحت مسألة لا تُغفل، وقضية رأساً في القضايا، ودفعت بمختلف التّنظيمات والهيئات إلى تبني موقف معيّن من اللغة العربية، وإذا كان تبني موقف الدّفاع عن اللغة العربية عن قناعة سلوكاً للغالبية منها؛ فإنّ بعضها قد أظهرت المصادر تحفّظاته المبرّرة حيناً، والغامضة تارة، والمشبوهة تارة أخرى، غير أنّ مسار الحركة الإحيائية خلال الثّورة التّحريرية وبعد الاستقلال، لم يستطع المحافظة على زخمه وفعاليّته

¹ - صالح بلعيد، في الأمن اللغوي، ص 50.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

فقد عاجلته معطيات أخرى، وتصدّر المشهد الشعبي الجزائري الفاعل أعلام آخرون، ويتكوّن مختلف وبقناعات فكرية وإيديولوجية أخرى.

ثالثا: البعد اللساني لحركة الإحياء في الجزائر خلال القرن العشرين

"ومن مميزات هذا الطور العلمي إتقان اللغة العربية علما وتعلّما وإجادتها تكلمًا وكتابةً وخطابةً، فقد قامت هذه النهضة على ألسنة تنثر الدر من العلم، وألسنة تنفث السحر من البيان، وأقلام تسيل رحمة في مواطن الرحمة، وتمجّ السمام، أو تنثر السهام في مواطن الغضب للحقّ والدود عن الحق¹".

توطئة: من المشاهد التي تعكس حقيقة الإحياء على المستوى اللساني، متابعة أشكال الكتابة السائدة، ورصد ما طرأ عليه في مستوياتها المختلفة، ولا شك أنّ المجال الزمني الذي شغل آخر مراحل الإحياء هو الذي سيكون مجالا لتقييم ما يعكس تلك المبادرات، وقد أثمر ما يمكن تسميته بالكتابة الإحيائية العربية في الجزائر خلال النصف الأول من القرن (20).

ولمّا كان من غير الممكن الإحاطة بتفاصيل أشكال هذه الكتابة ومستوياتها اللغوية، فقد اكتفت الأطروحة بعرض نماذج يمكن الرجوع إلى أصلها في مظانها، وهو دأب الأطروحة في ما اختارته سبيلا لتجاوز عقبات كثرة الشواهد، وثراء المدونة، وطول فترتها، مع القصد إلى استعراض يجلي مشهد الحراك اللغوي العام، لا بوصفه مشهدا يعكس الحركة الأدبية واستواء أجناسها وأشكالها، بقدر ما يستهدف متابعة الطفرة اللغوية التي أصبحت عليها أشكال الكتابة، والتي أشبهت ما يسميه اللسانيون الانفجار اللغوي (L'explosion linguistique) وهي حالة النطق المفاجئ عند الأطفال، ثمّ النظر إلى ذلك

¹ - محمد البشير الإبراهيمي "عرض الحالة العلمية" الشهاب، الجزائر: جمادى الأولى 1353هـ - أوت 1934م، مج 10، ج 9 ص 448.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

المشهد الكتابي في سياق متناغم مع بقية الأشكال الأخرى للحراك الإحيائي، والوقوف على المحطات الفاصلة، والمنعطفات الكبرى في مسيرة هذا الإحياء بخصوصياته المختلفة.

لقد كان للأوضاع الجزائرية العامة أثر مباشر على فعل الكتابة، فانتعشت أشكال، وتراجعت أخرى وتأجل استواء بعضها الآخر إلى حين، ولم يكن ذلك في الحقيقة إلا مسابقة لواقع سياسي وثقافي واجتماعي جزائري استثنائي.

1- متن اللغة العربية من أنين الاحتضار إلى ألفاظ الحضارة: لقد حاولت الأطروحة من طريق المسح العام لمدونة المرحلة بناء تصوّر تتابع في ضوئه أشكال الكتابة التي اختيرت لها تسمية الكتابة الإحيائية تمييزا لها في شكلها، وتحديدًا لخصوصية زمنها وملابساتها، ومخرجا يتلمس فيه المتابع ما تركته مصاعب المرحلة على هذه الكتابة من أثر، إن من حيث الانتعاش والانحسار، أو من حيث طبيعة تطوّر المستوى اللغوي، وارتقاء جوانبها الفنية وتواضعها في أخرى.

وبالنظر إلى عناصر الإحياء التي وظّفها المشروع الإحيائي في الجزائر -والتي استعرض شيئا من تفاصيلها الفصل الأول- فقد كان في حكم اللازم أن تتناغم أشكال الكتابة مع تلك العناصر وجودا أو عدما، وانتشار أو انحسار، فعرف نشاط النوادي والجمعيات ما يناسبه من إلقاء القصائد، وارتجال الخطب السياسية والاجتماعية، واستماع المحاضرات، وحضور المسرحيات، وحملت الصحف بمختلف توجهاتها -بوصفها أهم ركائز الإحياء- في صفحاتها المقالة بأغراضها، وشيئا من المحاولات القصصية القصيرة، والقصائد الشعرية في أغراض محدودة، وتقييد بعض الخطب والرسائل والرّدود، واحتضنت المساجد الخطابة الدينية للعامة، والحلق العلمية للخاصة، وبهذا فقد لازم كل عنصر من عناصر الإحياء ما يناسبه من الأشكال المكتوبة، أو الأداءات المنطوقة.

ونظرا لما عُرِفَتْ به عناصر الصحافة والنوادي والمساجد من استهداف للأوساط الجماهيرية العريضة، وما قصدت صناعتها من خلال احتكاك واسع بمختلف شرائحها؛ فقد فُسِحَ المجال لما عرفته من أشكال أدبية بالشُّيوع استتباعا، وهو الأمر الذي ولّد كثرة هذه الأشكال مقارنة بغيرها، وتعاهدا لها بالإصلاح والترقية.

وأما جبهة حركة التأليف والتّحقيق والترجمة، فقد كانت أقل انتشارا في مستواها الأفقي، ذلك أنّها تستهدف تكوين نوعيا ينجح إلى العمق والتّخصّص، وينشد ظروفًا عامّة أكثر مواءمة للانتعاش والتّطوّر وذلك ما لم يكن متيسّرًا بصورة مثلى يومئذٍ، فضاقت دائرة الكتابة فيها، وقلّ نتاجها الفني والأدبي، فلم

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

تشهد الكتابة الإحيائية غير مؤلفات معدودة في أبواب مختلفة، أطلقت عليها الأطروحة مكتبة الإحياء -وهي على قلة مادتها- ذات قيمة علمية وأدبية ولغوية وقومية وحضارية عالية بالنظر إلى الخصوصية التاريخية السائدة.

وأما جبهة التعليم، فقد أفرزت شكلا على جانب من الخصوصية، هو ما عُرف بالمرح المدرسي والخطابة المدرسية والنشيد المدرسي، وهي كتابة قد لا يُحتكم إلى مستواها الفني واللغوي بقدر ما ينظر إلى دورها الإحيائي، وبما استهدفته من استرجاع الملكة اللسانية العربية لدى الناشئة بالإعداد والتوجيه. ومن أشكال الكتابة ما انتعش لظرف عارض، وجاء استجابة لمعطيات مرحلة معينة ك: المناظرة أو المقالة الحجاجية وهما شكلان عرفتهما السنوات الأولى من ثلاثينيات القرن (20) عقب إنشاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ثم إنشاء جمعية علماء السنة المنسلّة عنها، وما أعقب ذلك من تلاسنٍ عنيف، وتراشقٍ مقيتٍ "لم تشهد الصحافة العربية أحداً منه ولا أعنف"¹ ولكنه من زاوية أخرى أصبح -لفترة- ظاهرة كتابية ذات خصوصية فنية ولغوية.

لقد ألفت الظروف العامة المرافقة لفترة الإحياء بكلها على النشاط الأدبي والفكري، ووسمتها بانتقاء هادفٍ للقضايا والمواضيع، والاضطرار لأنماط من الكتابة والتأليف، فنظرا لما واجه هذه الحركة الناشئة من عقبات موضوعية نابعة من محدودية الوسائل البشرية والمادية الداعمة، وأخرى عارضة، ترصد بها الاحتلال مسار هذه الحركة منذ نشأتها؛ فقد وجدت حركة الإحياء نفسها أمام وضعٍ لا يمكنها معه إقامة كلّ أركان الإحياء دفعة واحدة، من إنعاش أشكال الكتابة والإبداع الأدبي وبعث البحث اللغوي العربي ودعم حركة التأليف والتحقيق والترجمة، والسعي إلى إعادة الوظيفة للغة العربية في الحياة العامة فسلكت مسلك الانتقاء الفاعل لأنواع من الكتابة، وتقديم الوظيفي العاجل منها على غيره، ولعلّ متابعة أنماط الكتابة التي رافقت فترة الإحياء وظروفه العامة، ستكشف عن أسباب ذلك ومبرراته، وتجلي الوجهة والمسار.

1-1 - المقال: لعلّ المقال هو الشكل الأدبي الذي جلى مشهد الإحياء اللغوي في الجزائر بوضوح باعتبار أنّ هذا الشكل من الكتابة كان السطح الأنسب لتجاوز معضلات تواصل الإحيائيين بالمدعّين والأقدر على حمل مقتضيات المرحلة ومتطلباتها.

¹ - محمد ناصر، المقالة الصحفية الجزائرية، ص158.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

نشأ المقال الصحفي الجزائري في أحضان الصحافة الفرنسية شكلا من أشكال الكتابة التي وجَّهها الاحتلال لغاياته بأقلام جزائريّة، ولم يكن ليرتقي بلغة، أو يسمو بفكرة، فبرزت مقالات الجزائريين الأولى متمسكة بمظاهر عصر الضعف وأثقاله، حاملة الأفكار الفرنسية ومشاريعها وفي مقابل ما كان يُظهره الصحفيون الجزائريون من ولاء لا يملكون خلافة؛ لكن احتكاكهم بالفضاء الصحفي الفرنسي كان فرصة مكنتهم من الاطلاع على فنّيّات الكتابة الصحفيّة، وتقنياتها فيحسب لأحمد البدوي فضل الكتابة في المبدّش بالعربيّة الفصيحة، عوضا عن الكتابة العاميّة السائدة إلى غاية 1878م، وفصل نقل بعض المقالات المشرقيّة عن أحمد فارس الشدياق، وخير الدين التونسي.

وإذا استطاعت الكتابة الصحفيّة أن تتخلّص من العاميّة التي أراد الاحتلال أن يمكّن لها؛ فإنّ هذه الكتابة قد واجهت مشكلة استقبال ألفاظ الحضارة، "وإذا كانت اللّغة الخبريّة في بداية الصحافة العربيّة خليطا من الدّارجة والفرنسيّة؛ فإنّ حظّ العربيّة فيها كان الأضعف، أمّا لغة المقالات فإنّها كانت بالفصحى المطعّمة بالمفردات المترجمة عن الفرنسيّة، أو المنقولة حرفيّا عنها، أو أنّها اجتهدات شخصيّة من أصحابها في ابتكار مفردات تعبّر عمّا شاهدوه"¹ فعندما أوردت رحلة ابن الصيّام وابن علي الشريف تسميّاات المصنوعات الجديدة التي تعمّد الاحتلال إطلاعهم عليها وشجّعهم على نقل مشاهداتهم لها، عكس وصف تلك الأسفار معضلة الجفاف اللغوي على مستوى الألفاظ العربيّة المقابلة وهو ما كشفته صعوبة إيجاد المقابل الفصيح لما صادفاه في رحلتيهما ليقف القارئ على مثل: (كرّوسة النّار = القطار) (الرّوضات = العجلات) (الوابور = السّفينة)² إضافة إلى الخلل الذي تجلّى على مستوى الأسلوب اللغوي العامّ عند معظم الكُتّاب الصحفيّين خلال تلك الفترة، فقد كان ذا لُغة "ضعيفة ركيكة تغلب عليها التّعابير العاميّة، وتطغى عليها مفرداتها طغيانا كادت تضيع معها معالم اللّغة العربيّة الفصحى"³ فلمّا ورث شأن الكتابة الصحفيّة بداية القرن (20) أعلام آخرون آثروا استغلال الصحافة منبرا أمثل للتّواصل مع المساحات الشعبيّة المفتوحة، وقد اجتمع إلى ملكاتهم الكتابيّة رافد آخر، هو ما اطّلعوا عليه من الصحافة المشرقيّة مُراسلة أو اشتراكا أو مُطالعة، وقد لزم الخلل الكتابة الصحفيّة

¹ عبد العالي رزّاق "مكانة اللّغة العربيّة في الصحافة العربيّة خلال الاحتلال الفرنسي للجزائر" ضمن كتاب: اللّغة العربيّة في الصحافة المكتوبة (يوم دراسي) د ط. الجزائر: د ت، دار الخلدونيّة للطباعة والنّشر والتّوزيع، ص 41.

² سليمان بن الصيّام، رحلة سليمان بن الصيّام إلى بلاد فرنسة، ضمن خمس رحلات جزائريّة إلى باريز 1852م-1901م جمع وتقديم: علي تابلت، د ط. الجزائر: 2012م، منشورات جامعة الجزائر، ص 18.

³ محمّد ناصر، المقالة الصحفيّة الجزائريّة، ص 120.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

الجزائريّة -مع وجود فروقٍ فردية- حملت المغرب العربيّة، والمصباح (1904م) المزدوجة، وكوكب أفريقيا (1907م) العربيّة اللسان الفرنسيّة التّوجّه، والحقّ الوهرانيّ (1912م) ثمّ الفاروق (1913م) ثمّ ذو الفقار (1907م) بذور المقال الوطنيّ بأغراضه المختلفة وتقنياته اللّغويّة والأسلوبية الآخذة في الارتقاء، ومع البداية التي حمل لواءها عبد القادر المجاوي، والسّعيد بن أحمد بن زكريّ، وعبد الحليم بن سماية، وهم مدرّسو التّعالبيّة ومحمّد بن أبي شنب الأستاذ بجامعة الجزائر، ومصطفى بن خوجة مدرّس جامع سفير وغيرهم، الذين آلت إليهم قيادة الكتابة الصحفيّة للفترة، استلم عنهم أمثال: عمر بن قنّور، وعمر راسم، وسعد الدّين بن بلقاسم الخمار ذلك الدّور، وبدأت مرحلة استقامة ملامح المقال الصحفيّ الناشئ في لغته ومضامينه، وأخذ يتخلّص شيئاً فشيئاً من أقال الصّنعَة، وتزاحم الأشكال الأدبيّة فيه، فغلب على لغته التّقريرُ بصورة جليّة، واصطبغ بصبغة النّقاش العلميّ الرّصين، وفي مختلف الأغراض، بل وجد في الفترة من ينتقد أسلوب الكتابة المتسرّب من بقايا نهاية القرن السّالف ويوجّه كتّاب المقال إلى الأجود، معتبراً أنّ الكاتب الحاذق ليس "من يُزيّن طروسه بألوان البديع، ويتكلّف الإسجاع، ويتطّفل على القوافي، ويحسن الجمل بالجناس"¹ وهو حكمٌ واحد من مقالٍ نقديّ يفصح عن وجود بذور صالحة لتوجيه الفعل الكتابي، والسّعي به إلى مصافّ الكتابات العربيّة الرّاقية.

ومع الانتشار المحتشم للمقال بوصفه الشّكل الكتابي الأكثر حضوراً واستقطاباً للأقلام الإحيائيّة في صحافةٍ عربيّة ناشئة تقاوم التّعطيل والتّضييق؛ أخذت هذه التّجربة تُصقل بأقلامٍ محليّة، فنقلّت فيها مساحاتُ الأسجاع المصطنعة، والتّنغيمات الموسيقيّة المتكلّفة، واستبدلت بالالتفات إلى الفكرة تُخدّم ويجتهد الكتّاب في حسن عرضها، وتبسيط لغتها، ينتقون من الألفاظ ما ناسب العصر ممّا صار متداولاً في الصّحافة العربيّة المتسلّلة، أو الاستفادة من ثمرات الإعداد خلال فترات الطّلب في الحواضر العربيّة خارج الجزائر.

شهد العقد (03) من القرن (20) الذي أعقب الحرب العالميّة ظروفًا مواتية قفزت بتطوّر المقال ولُغته بما لم يعرفه طيلة فترة الاحتلال كلّها، فقد سمحت ظروفُ الفترة بانفراج نسبيّ في الحريّات وبرزت توجّهات فكريّة وسياسيّة جديدة، دعمتها عناصر وطنيّة نشطة، فتح رجوعها إلى الجزائر من المشارق والمغرب صفحة جديدة من صفحات الكتابة، وقد التقى ببواكير الحركة التّعليميّة التي باشروا الإحيائيّون في المدارس الحرّة بدايةً من 1913م بريادة ابن باديس.

¹ - كاتب بإمضاء غ، ب، "ميدان الأقلام" كوكب أفريقيا، 15-07-1910م، ع 176.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

وأيًا كانت النّزعة التي غلبت على كُتّاب المقال الصحفي، فقد كان لفترة ما بين 1925م -تاريخ وضوح الملامح الأولى للحركة الإصلاحية- و1931م -تاريخ الإعلان الرّسمي عن نفسها- وقع خاصّ على جبهات كثيرة، لعلّ أبرزها ما تخلّل هذه الفترة من مظاهر الاحتفال المؤي، وقد نالت اللّغة العربيّة منه تحوّلًا لافتًا رسم مشاهده مسارُ الصّحف المتتابعة، وتولّت أمره عشرات الأقلام الناشئة المخلصة يحدها الحماس الوطنيّ الغامر، وبغيرها الولاء للمقومات التي أخذ استرجاعُ بريقها يعود شيئًا فشيئًا فانعقدت الكتابة الصحفيّة وارتقت أساليبها، وطال نفسُ الكُتّاب مقدّمين الاهتمام بالمعاني، وبسط الأفكار ومناقشتها، مع تغليب واضحٍ لمسحة تعليميّة وتثويريّة متنامية.

وعلى الجملة؛ فلئن شهدت نشأة المقالة الصحفيّة الجزائريّة الإحيائية بدايةً ضعيفة مرتبكة بفعل تولّي المستشرقين والفرنسيّين لها طيلة (70) سنة التي وليت الاحتلال، وقد استخدمها وسيلة لتمرير مشاريعه المختلفة "فإنّها ما لبثت حين نهضت بها الأقلام الوطنيّة الصادقة، أن دبّت فيها الحياة واستوت على قدميّها، واحتلّت مكانتها بين المقالات الصحفيّة النّاجحة"¹ وإضافة إلى نجاحها الذي صنعه لها الكُتّاب على صعيد البنية العامّة في طريقة العرض وحجمه؛ فقد حظي الجانب اللّغويّ بالاهتمام والعناية فبعد أن كانت الأخطاء اللّغويّة والنّحويّة والصّرفيّة مشهدة شائعة، واستعمال الخليط اللّغويّ الجامع بين العاميّة والفصيحة، واللّجوء لبعض الألفاظ الأعجميّة من بقايا التّركيّة والفرنسيّة مسلكا يغالب الكُتّاب ولم يستطع الكثيرون السّلامة منه؛ وجدت المقالة الجزائريّة سبيلها إلى الارتقاء مع "الشّباب المثقّف في العشرينات أقالما متشبّعة بالتّراث العربيّ، مرتوية بروافد الثّروة اللّغويّة والأدبيّة في منابعها الصّافيّة"² فما لبثت أن عرفت مسحةً أخرى احتفظت فيها بشيء من عبارة العصر السّالف، فلم يستطع الكُتّاب "التّخلّص تماما من السّجع، هذا على الأقلّ حتّى سنة 1925م"³ ولكنّها في المقابل شهدت ارتقاء ملموسا في سلامة الأداء، وصحّة التّعابير، وانحسار دائرة الأخطاء اللّغويّة الفاحشة، مع تفاوتٍ في الحظوظ بين كاتب وآخر بحسب طبيعة تكوينه، ومستوى ثقافته اللّغويّة، كما لازمها حضورُ العبارة والأسلوب القرآنيّ اقتباسا وتضمينا، والاستناد إلى الشّاهد التّراثيّ عموما، وتلك أمارّة أخرى على الطّبيعة الدّينيّة لحركة الإحياء اللّغويّ الجزائريّ، وتبريرٌ فعليّ للعلاقة الوثيقة بين المقومين الدّينيّ واللّغويّ في مسيرة

¹ - محمّد ناصر، المقالة الصحفيّة الجزائريّة. ص212.

² - محمّد ناصر، المقالة الصحفيّة الجزائريّة. ص213.

³ - محمّد ناصر، المقالة الصحفيّة الجزائريّة. ص124.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

الإحياء، ومنبئة على السند المرجعي لها، الذي أقرته طبيعة تكوين الرُّوَاد، وتأكّد معها الارتباط العضوي بين القرآن الكريم -بوصفه مرجعا أساسا للنّهضة الحديثة كلّها- ولغته التي عدّت الوعاء الأمثل لأحكامه وتشريعاته، وقد رأى الإحيائيون أن لا سبيل لإحياء حقيقيّ فعّال إلاّ الارتقاء باللغة لبلوغ غاية التعامل النَّاجع مع المرجع الأساس.

ومن نماذج ذلك نصّ لعمر بن قُدُور من مقال له كان نداء اتّحاد وتعاون لأصحاب الصحف في كلّ البلاد الإسلاميّة عبر جريدة الحضارة الصّادرة في أوت 1911م "أناشدكم الله معشر الرُّصفاء، كم كتبتم، وكم تكتبون؟ وكم نشرتم، وكم تنتشرون؟ فلو كان البحر مدادا، ولو كانت الأشجار أقلامكم التي بها تخطّون في معنى الحاجة إلى الأخوة، لما وجدتم الآن أقلاما¹ وغير خاف اللفظ القرآنيّ وتمثيله في مقطع يُحيل على طبيعة التّكوين الثّقافيّ لبن قُدُور، الذي ليس إلّا نموذجا من نماذج عديدة صاغت على المنوال ذاته.

1-2- الشّعر: تعلّق ازدهار الشّعر وانتشاره دوما بازدهار حركة التّعليم، وتوفّر وسائل النّشر والطّباعة، ووجود الحوافز، وكلّ هذه العوامل لم يكن لها في الجزائر ما يُذكر خلال نهاية القرن (19) ومطلع القرن (20) إلى حدود العقدين، وانعدم بالتّبع وجود حركة نقدية، وذلك إفراز طبيعيّ لحركة إماتة اللّغة العربيّة التي دامت نحو (70) سنة، فنزل بالشّعر ما نزل بالتّعليم بعد 1850م، حين انقرض الجيل الأوّل الذي أدركه الاحتلال على ما فيه من وهن العهد التّركي، في ما عرّف النّصف الثّاني من القرن (19) زجل التّوسّل والاستغاثة، تعبيرا عن حالة اليأس السّائد، مع ضعف لغويّ ظاهر، نتيجة تعليم كسيح، سقّفه تعليم متوسّط في أفضل الأحوال، أو نتاج المدارس الثّلاث الضّحلة التّكوين، فلم يكن ما يلفت النّظر من الشّعر طوال هذه الفترة، وأمسى الشّعر يحتضر تبعا للغته، ومع ما سمح به الاحتلال في عهد كامبون (1891-1897م) وجونار (1903-1913م) من تنفيس محدود ممّا لا شأن له بالسياسة، تنفّست أصوات شعريّة قليلة كانت مكتومة طيلة الفترة السّابقة. "إنّ القيمة المتقدّمة للشّعر في الأدب العربيّ وفي جنوب الجزائر بشكل خاصّ تأتي من الدّور الاجتماعيّ والثّقافيّ الذي يؤدّيه² فنطق الجنوب المتمنّع بطبيعته الجغرافيّة عن لوثات الاحتلال ببعض الشّعر الفصيح، وظهر شعر عاشور الخنقيّ الذي لو تجاوز الاكتفاء بغرض الانتصار للأشراف؛ لكان علّم الشّعر الفصيح لهذه الفترة، أو

¹ - صالح خرفي، عمر بن قُدُور الجزائريّ، د ط. الجزائر: 1984م، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، ص119.

² - NAdhim Chaouche, Le roman réformiste musulman d'expression française en Algérie dans l'entre- deux- guerres 1939-1919 , Alger :2009, Alger livres édition, p79.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

ما صدح به محمد بن عبد الرحمن الديسي، وما دون ذلك فلا يذكر الدارسون لحركة الشعر ازدهارا ولا انتشارا.

حملت بعض صحف الإرهاص المحليّة محاولات شعريّة محتشمة في أغراض سياسيّة واجتماعيّة وصوفيّة، كالذي ظهر في صحيفة المنتخب (1882-1883م) ثمّ تسرّب نشاط النشر الشعريّ إلى صحف فترة المخاض: المغرب (1903-1904م) كوكب أفريقيا (1907-1914م) الحكومتان والفاروق (1913-1915م) الخاصّة، كما كانت هناك محاولات شعريّة جزائريّة في صحف خارج الجزائر كالجوائب للشّدياق، والمنار لرشيد رضا، والحاضرة التّونسيّة لبوشوشة، ومن شعر هذه البداية قطع في أغراض محدودة لشعراء معدودين ك: أحمد المجاهد الغريسي، وعمر بن قدّور المحرّر في الأخبار، ومحمد بن مصطفى خوجة صحافيّ المبشر، ومن شعر الجزائريّين بالمهاجر، شعر عائلة الأمير، كديوان محي الدين بن الأمير عبد القادر، وليس -ما دون هذا- ما يعتبر ذا شأن يعكس حركة شعريّة حقيقيّة، أو أمارّة على حراك لغويّ مقبول، بل كانت الحركة الشعريّة بهذا المستوى الفنّي والنّدرّة معلّما بارزا يعرض بؤس اللّغة العربيّة وانحسار دائرتها.

بدأت الحياة الجديدة للشّعر الجزائريّ بمغادرته للأضرحة والخلوات ومجالس أصحاب الطّرق، فتخلّى عن مضامين طالما كبّلت طموحه، وأفسدت لغته تبعا لخمود روحه، ليشهد مطلع القرن (20) إلى حدود الحرب الأولى "حركة وتطوّرا بسيطا في الشّعر الجزائريّ، فهو وإن لم يطرّف طفرة كبيرة، قد انفلت من الصّومعة والمسجد¹ وهو رأي أبي القاسم سعد الله، وعبد الله الرّكبيّ، وعمر بن قينة وغيرهم، وهو ما لخصّه هذا الأخير بقوله: "ويبقى الثلاثة: [الخنقي - الديسي - بن قدّور] من بين الشّواهد البارزة على هذه الفترة من مسيرة الحركة الأدبيّة في الجزائر، أسسوا لانتعاش سرعان ما شرع يتجسّد بحيويّة جادّة في الحركة الأدبيّة ابتداء من العشرينيّات في هذا القرن²" وقد مثّل هؤلاء الشّعراء بموقفهم هذا امتدادا تسرّب من خلاله الاحتفاظ بالتّعبير العربيّ الفصيح في شكله الشعريّ، على ما فيه من وهن البناء ومحدوديّة المضامين، غير أنّ ما كان من نتاج هذه الفترة، قد حمل إصرارا على البقاء، وحرصا على وصل الماضي الشعريّ الذي جفّفت منابعه إجراءات التّضييق، وأوغلت فيه المؤثرات الغربيّة عنه، حتّى

¹ عبد الله الرّكبيّ، دراسات في الشّعر الجزائريّ الحديث، د ط. الجزائر: د ت، دار الكتاب العربيّ للطباعة والنّشر والتّوزيع ص 52.

² عمر بن قينة، في الأدب الجزائريّ الحديث، ط2. الجزائر: 2009م، ديوان المطبوعات الجامعيّة، ص52.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

كادت تأتي على ما بقي منه، لولا ما وجده من معابر ضيقة مكنته من الانسلاخ إلى انفراج ما بعد الحرب الأولى.

انجلت الحرب الأولى وانجلت معها الغشاوة التي كانت تلقي بكلها على كثير من أبصار وبصائر الجزائريين، فقد جرّت الحرب مع مآسيها وجراحها آمالا انفتحت عليها أعينهم، ومع تسارع الأحداث الإقليمية والعالمية وجد الشعب الجزائري نفسه معنيًا بأحداثها، واتسعت حركة اليقظة والانبعاث، ووجد شعراء المرحلة أنفسهم أمام ضرورة مسايرة الوضع السائد، فانفتح النتاج الشعري على رصيد لغوي آخر ومواضيع من صميم الحياة ومستجداتها، واتسع المعجم اللغوي للشعراء الناشئين منفتحاً على ألفاظ الحضارة، ومواضيع العصر وقضاياها.

وإذا كان انبثاق الشعر الجزائري الحديث مترامناً مع حركة الإحياء العامة ونتيجة من نتائجها، فقد لاحت بواكيرها مع بداية القرن (20) بإبداعات أخذت تتخلص تدريجياً من ملامح النموذج التقليدي في مثل نموذج عمر بن قذور من قصيدته يا شرق:

يا شرق، هل هذي المصائب تنجلي	أو ينتهي الغليان من ذا المرجل؟
يا شرقنا حتى متى نجني المنى؟	أم ذي المنى عنوان ما لم نعمل؟
قد خلّتها هيفاء تنفر كالمها	وعشيقها أضناه كيد العذل
دنف عراه اليأس، حتى قلبه	يقضي السنين بحسرة وتململ

وما استهلّ العقد (03) من القرن (20) حتى اتخذت الحركة الشعرية اتجاهاً وطنياً واحداً غادرت فيه الجهود الشعرية زواياها الخاصة، وميولها الفردية والجهوية، وانخرطت في جوّ إحيائي عام، وإن بدا على الشعراء الانتساب المبدئي، والتّحيز إلى طائفة أو حزب أو تيار، فإنّ القوة الجارفة لحركة الإحياء كان لها من الجاذبية ما استطاعت أن تستميل إليها جهود الأفراد والتنظيمات الأهلية، وتّضح ملمح انتساب وطني عام للشعر "متوجّهاً إلى القضايا الوطنية جميعها من زاوية واحدة هي زاوية الإصلاح الثقافي والاجتماعي"¹ ولقد كان معظم شعراء هذه الفترة أعضاء فاعلين على جبهات الإحياء، في الصحافة أو التعليم أو الخطابة أو جمعاً بينها، فغلب على هذه المرحلة بحكم ميادين أعمالهم شعر المناسبات التي استغلّ فيها حراك الإحياء فرص التّجمّعات الشعبية، من افتتاح المدارس والمساجد والنوادي، أو إحياء المناسبات الدينية والقومية والوطنية، وهي الظاهرة التي أطلق بمقتضاها الأستاذ

¹ - أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ط5. الجزائر: 2011م، عالم المعرفة، ص35.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

سعد الله على شعر هذه المرحلة (شعر المنابر) متوقفاً بفترته عند حدود سنة 1925م، وقد كان شعراً تنبأه جيلٌ لقي حظاً من التعليم العربيّ، سواء منه ما كان خارج الجزائر، أم ما كان من بواكير الحركة التعلّيمية الناشئة بين يدي مدرسة ابن باديس الأولى منذ 1913م، أم من التحقق بركب الإحياء من الزوايا العلمية التي كانت آخر الجيوب الخفية التي آوت إليها اللغة العربية، وقد مُسح الشعرُ إلى حدود أواسط العقد (03) بمسحة لغوية فارقة، ميّزتها سلامة لغوية متنامية، وثرأءٌ مُعجميٌّ عزّزت به المفردات والأساليب الجديدة قضايا المرحلة، وصورتها بلغة العصر تصويراً لم يلبث أن تدارك به الشعراء أنفسهم في زمن قصيرٍ نسبياً، بالنظر إلى الظروف المحيطة بهذا الحراك.

لقد كان التحوّل والارتقاء بالشعر محكوماً -كما هو الشأن غالباً- بالظروف العامة، وأحوال الشاعر وقدراته، وهذا الزاهريّ ينقل إثبات ذلك عن نفسه، عارضا نوع ذلك التحوّل ومداه، فبعد أن كان "مولعاً بالغريب، والإغراق في العناية بالبناء الهيكليّ للقصيد، وتلك بداية لكلّ شاعرٍ ناشئ¹" انتقل بشعره بعد فترة -وبلا تدريج كما قال- "إلى مرحلة بدا فيها أكثر تجاوباً مع شخصيته الأدبية، وأكثر انطلاقا مع سجيته وذوقه الأدبيّ في نقد القصيدة وتمحيصها، فوَقّر لها قدراً كافياً من السلاسة وأسبغ عليها مسحة من سهولة التعبير²" ولم يكن لذلك الحراك الثقافيّ ونشاطاته الأدبية المختلفة أن تُعَدَم له آثار على الشخصيات الفنية للشعراء، ولا على الوجهة العامة لإبداعاتهم، فكما صقلت التطوّرات لغة النتاج الشعريّ في الألفاظ والأساليب والصّور التعبيرية، فقد انحسرت دائرة الأغراض الشعرية، واتّجهت في اتجاه يمكن القول بأنّ الحكم به صدر من السُلطة العامة لحركة الإحياء الجارفة.

1-2-1- الأغراض الشعرية وسلطة حركة الإحياء: لعلّ ممّا يلفت نظر دارس طبيعة الأغراض الشعرية في نتاج حركة الإحياء اللغويّ الجزائريّ الحديث، هو ظاهرة محدوديّة الأغراض والضيق الذي عرفه نظم الأشعار فيها، ولئن كان تعلّق هذه القضية بالجانب الأدبيّ والفنيّ من الإبداع الشعريّ أكثر منه تعلّقاً بالجانب الشكليّ الذي تعكسه اللغة، فإنّ آثاراً اقتصر الشعراء على أغراض بعينها، ومجانبة أغراضٍ أخرى، كان تحت ضغط مبررات الإحياء العامة نفسها.

لقد صبغت حركة الإحياء -منذ الإعلان عن نفسها- أغراض الشعراء بصبغة من الجدّ والصّرامة في القول، والصّدق في النبرة، والعزم في التوجّه، يدفع القوم في ذلك شعورهم الوطنيّ المتنامي وإحساسهم

¹- صالح خرفي، محمّد السعيد الزاهريّ، دط. الجزائر: 1986م، المؤسسة الوطنية للكتاب، ص26.

²- صالح خرفي، محمّد السعيد الزاهريّ، ص27.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

بأنَّ أولويَّة المرحلة تفرض تقديم خطابٍ مقاومٍ لآثار المحو والتَّجهيل وسط قطاعات واسعةٍ من الشَّعب ودفع عواقب الفرنسة والتَّهجين الفكريِّ واللُّغويِّ لنخبته، وهو ما صُنِّفت على إثره الكثرة الغالبة من قصائد الفترة بما يمكن تصنيفه ضمن الشَّعر الوطنيِّ الممزوج بروح سياسيَّة حذرة، المطبوع بنبرة تُراوح بين التَّشكيِّ والتَّظلم واليأس حيناً، وبين بذر الأمل وزرع الطُّموح والثِّقة في المستقبل في أحيان أخرى، ومن الطَّبيعي أن تنعكس صورة هذا الاتِّجاه الشَّعريِّ على لغته ومفرداته وتراكيبه، فشاعت ألفاظ القول الدَّلالِيَّة المرتبطة بالعقيدة والوطن والحرِّيَّة والقهر والعلم والاتِّحاد والتَّاريخ والقوميَّة والأُمجاد والأمل والعمل، وغيرها ممَّا في فلكها، وهو ما مسح القصائد بمسحةٍ واقعيَّة جادَّة صارمة، لا مكان فيها للأحلام الوردِيَّة، والأُماني الخادعة والخيالات الواهيَّة، لتنتقلَّ مقابل ذلك لغةُ الصُّورة الفنِّيَّة الشَّاعريَّة الحاملة وتضيق دائرة توظيف الألفاظ والتَّعابير النَّاقلَة للأحاسيس والمشاعر الرِّقيقة، حتَّى لكأنَّ الوضع الذي صنعه الاحتلال بالجزائريِّين قد جفَّ معه ماء القصائد المألوفة، فتحوَّلت إلى قصائد تفيض بالحماسة والدَّعوة إلى اليقظة، ونبذ الكسل والقعود، وهجر عوائد الخمول واليأس، وتوسَّس لبناء مجتمعٍ جديدٍ قوامه الأساس: الإقبال على العلوم وتمجيد العمل، والأخذ بأسباب الحياة التي عند الشُّعوب الأخرى، ومع هذه النَّزعة النَّاثرة النَّاهضة، تراجعت الكتابة في الأغراض القديمة كالغزل والمديح والهجاء، تحت سلطة موجة الإحياء التي قضت بأنَّ الكتابة في هذه الأغراض مضيعةٌ لوقت ثمينٍ، وإضاعةٌ لجهد في غير طائل، والتفاتت إلى غير ذي أهميَّة، ويكفي لإثبات كلِّ ما سبق من الحكم موقف محمَّد السَّعيد الزَّاهريِّ صاحب الكتاب ذي الشَّأن في زمنه، شعراء الجزائر في العصر الحاضر الذي صرَّح في مقدِّمته بإخراج قصائد الرِّثاء والمديح والهجاء وقال: "أخرجت هاته المواضيع لما بينها وبين الحقيقة اليوم من التَّبائن لما في المديح من التَّنازل عن الكرامة، وفي الهجاء من البذاءة، وفي الرِّثاء من التَّعداد الذي قلَّما يصدق فيه قائله، والجميع في الأكثر لا يفيدنا معنى اجتماعيًّا ولا غيره، وعلى الأخصَّ في بيئتنا¹" فالعبارة الأخيرة تنقل في صراحة أنَّ عامل الانتقاء الذي أسقط به الكتاب القيم يومئذ قصائد في الأغراض المذكورة، هو عدم مناسبتها لسياق مرحلة الإحياء ومتطلَّباتها، رغم ما قد تكون عليه قصائد المُترجم لهم في الكتاب من قيمة أدبيَّة وفنِّيَّة ولغويَّة عالية، يؤيِّد القول بأنَّ السَّبق الشَّعريِّ كان للقصائد التي تساند مضامين حركة الإحياء وقضاياها، دون اعتبارٍ كبير للمستوى الفنِّي.

¹ - محمَّد السَّعيد الزَّاهريِّ، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ص 73.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

وهكذا استهدفت الكتابة الشعرية تحقيق عرضٍ فاعلٍ للمضامين، بتوظيف لغة سليمة في تركيبها صحيحة في أدائها، بل إنَّ معجم الشعراء هذا، قد اعتمد فيه صاحبه شرح مفردات القوائد التي بعث بها الشعراء الذين راسلهم بشأنها، وقد أورد الغرض من ذلك في مقدِّمة الكتاب بقوله: "رأيت أن أتعرِّض لبعض المفردات الغامضة خدمة للمتأدِّبين أمثالي، فبينما القاري [كذا] في حقائق آداب يقطف من أزهارها، إذا هو ظافر بشيءٍ كثير من مفردات اللغة¹ وهي عبارةٌ تبدي تقديم خدمة عنصر اللغة بوصفها وعاءاً للنصوص، وتشجيع إعادة اكتسابها، وإثراء الرصيد اللغوي الذي أفقرته عقود الجفاف الأدبي، وتقديم ذلك على إنماء الحسِّ الأدبي وترقية المشاعر والأخيلة، وإن لم يكن نصيُّهما التَّرك والإهمال بالكليَّة، فكان السَّبيلُ الأقرب هو التَّنازل مؤقتاً - تحت ضغط سلطة ظروف المرحلة - عن الجوانب الفنيَّة والجماليَّة، وتقليص المساحات الإبداعية التي تتطلَّب أوضاعاً اجتماعية وثقافية وسياسية أكثر ملاءمة.

النماذج:

إلى الشعب الجزائري (حول اللغة العربية)

يا أُمَّة ضيَّعت مجدا لها سلفت	طال النِّداء بنا لو كان يجدينا
ها هي أمُّ اللُّغى تنعى لمصرعها	ها هي ألفاظها تبكي وتبكيينا
خلطتموها بألفاظ مشوَّهة	ولم تقيموا لها يوما موازينا
صارت شبيهة أثواب مرَّعة	تضمُّ من خرق ملايينا
وصفتموها بضيق في النِّطاق وقد	كنتم على وصفكم قوما ملومينا
بل هي أمُّ لغات الأرض أجمعها	كلُّ لها عند ضيق اللَّفظ يأتينا
يا ربَّة الحسن يا ذات الجمال ويا	مليكة الأمر رفقا إذ تلومينا

محمد اللقاني بن السَّائح الإقدام: 26 جمادى الثانية 1341هـ - 14 فبراير 1923م.

دمعة على الملة

ألا يا بني السَّمحاء هلاً شعرتم	بذي الذِّلَّة الكبرى، وحرَّ لظاها
وهل ملة الإسلام ترزى بذلِّكم	وقد أكرمت أسلافكم بناها
جنيتُم فعوقِبْتُم وخُنْتُم فبُوتُم	بها ضربة نجلاء حم قضاها

¹ - محمَّد السَّعيد الزَّاهري، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ص 74.

الجزائر تحيي الجزائر

سأبعث في قومي حياة إذا أنا
وربّ امرئ أحيا العشيرة كلّها
وأطلب حقًا للجزائر ضائعا
ولو كان محمياً بأنياب أغوال
حييت بأعمالي وصادق أقوالي
بما هو آت من جلائل أعمال

محمد السعيد الزّاهري، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ص148.

الصّحافة

إنّ الصّحافة للشّعوب حياة
فهي اللسان المفصح الذّلق الذي
فهي وسيلة للسّعادة والهنا
فبها إلى الأمم الضّعيفة ترفع الر
والشّعب من غير اللسان موات
ببينانه تُتدارك الغايات
وإلى الفضائل والعلا مرقاة
غبات منه وتبلغ الأصوات

أبو اليقظان، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ص206.

1-2-2- الشّعر الشّعبيّ: ليس الشّعر الشّعبيّ من صميم قضايا الأطروحة بسبب لغته؛ ولكنّ مضامينه قد حملت همّ الإحياء من خلال بثّ الوعي القوميّ في الأوساط الشّعبيّة البسيطة بضرورة الإحياء وسبله، وقد استمر الشّعر الشّعبيّ بمختلف أداءاته المحليّة الدّارجة العربيّة والمزيغيّة يؤدّي أدواره الاجتماعيّة والسّياسيّة والدينيّة المألوفة، فكان للتّيّارات السّياسيّة أنصارها الشّعبيّون، وبقي شعراء الطّرق الصّوفيّة أوفياء لقضاياها، يتناولونها في أشعارهم، كما نشأ للتّيّار الإصلاحيّ الجديد شعراؤه الفصحاء والشّعبيّون، لكنّ اللافت هنا، هو الرّؤية الجديدة التي باشرت بها حركة الإحياء التّوفيق بين السّماح بالشّعر الشّعبيّ الموجود بالفعل والقوّة، مع أنّ فيه تشجيعا للعاميّة، وبين ما يُسبّبه من تضيق الآفاق التي شرع في فتحها للفصيح، فأوكلت للشّعر الشّعبيّ وظيفة التّوجيه الخلقيّ والتّربويّ العامّ وبخاصّة في مراحل الأولى، إذ لم يكن بإمكان حركة الإحياء أن تجد أفقا شعبياّ يحتضن اللّغة العربيّة الفصيحة في ظروف يلفّ عموم صغارها وشبابها الجهل الصّارخ، وتنهش الأميّة فئاتها الكبرى، وأمام هذا تولّى الشّعر الشّعبيّ صناعة وعي الأولياء بضرورة التّعلّم والتّعليم، ولو تعذّر تعليمهم، وإدراك وجهة القضايا الوطنيّة عموما، ولو لم يمكن الاعتماد عليهم اعتمادا كاملا، وقد كانت هذه استراتيجيّة حركة الإحياء خارج مجال تنظيمها ومحيط عملها، أمّا داخل تنظيمها وبرامجها التّعليميّة والتّثقيفيّة والتّربويّة

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

فقد اعتمدت اللغة الفصيحة أساس الأداء الرسمي كتابةً ومشافهةً ما أمكن ذلك، وبذلك انخرطت الطبقات الشعبية المحرومة من التعليم ضمن شبكة نُصرة الإحياء، بإشاعة فهم الأوضاع العامة، والإحساس بطبيعة المخاطر القادمة، والانخراط بما أمكن بإيجابية في الفعل الإحيائي العام.

ومن شواهد ذلك قصائد شعبية للتأثر عمر راسم، وهو الذي عُرف بنزعة إصلاحية يدعو في ما يدعو منها إلى إعادة الاعتبار لتعليم اللغة العربية، ويحمل الأغنياء والموسرين مسؤولية عدم التفاتهم لتعليم الجزائريين، ومع دعوته تلك، فإنه لا يتردد في استهداف هؤلاء المهمشين بما يفهمون من تعابير سارية، وها هو يتعرّض لآثار التكوين والتعليم الفرنسي على الشباب الجزائري، الذي أصبح -بفعل تكوينه- خصيماً لبني عمومته، فيقول:

هادوا الشُّبان المتتورة	هُم للوطن مضرة
هم لمعاوجين بالمرّة	وبأمر دينهم عابثين
ظنّوا في روحهم وصلوا	وعلى جميع العلوم حصلوا
لكن للإصلاح عطّلوا	لجهلهم بقواعد الدين
كلّ واحد براسوا يدبّر	ويقولوا الإسلام متوخر
هو اللّي يعوّق ويضر	ويخلينا متوخرين ¹

وبعد أن كان يُنظر إلى الأداء العامي على أنه البديل الذي يُرضي الغالبية العظمى من الناس، فقد أصبح مستوى من مستويات الأداء، يؤدّي وظائف نيّطت به في بيئات محدودة، تتناسب مع الأداء العامي وتستهدف فئات معينة.

1-2-3- الخطابة: وأمّا الخطابة، فهي سوق رواد الإحياء الرّائجة، والمعبّر الجاهز لتمرير قضايا الإحياء، اعتمده مشروع الإحياء في ما اعتمد من أدوات تعبئة الجماهير، ونشر أعلى درجات الوعي الممكنة، من أيسر السبل كلفة في الأموال، واستغلال نفيس الأوقات، ثم هي بعد ذلك مظهر للصّح بالحرف العربي الذي سخط عليه الاحتلال فطال حصاره، وميدان إظهار الإحياء عن نفسه وقد كثر أنصاره، تلك بعض ذرائع حملة مشروع الإحياء في ترقية هذا الأسلوب التّواصلّي المؤثر الفعّال، وتلك بعض المنافع المزدوجة التي يستعملونها قبل أن يعاجل الموت لسانهم، ويستدركون به ما أمكن من

¹ - محمّد صالح ناصر، عمر راسم المصلح التّائر، ص 165.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

نفوس اجتمع عليها الاحتلال وموبقاته، ويقومون ما استطاعوا من السنة تلبّست بها العجمة، ويفتحون ما تيسّر لهم من قلوب غشيتها الجهالة بالدين والدنيا.

لقد اتخذ الإحيائيون موقف الدين من الخطابة مدخلا إلى توسيع مجال استعمالها، ولم يكتفوا بالدعوة إلى إصلاح الخطب المسجدية، بل خرجوا بها إلى المحافل والنوادي والاجتماعات الدورية، وافتتاح المؤسسات الإحيائية المختلفة من المساجد والمدارس "وقد توسّعت الخطبة الإصلاحية في عهد جمعية العلماء لارتباط الجمعية باللغة العربية، واستعمالها في التعليم والوعظ والإرشاد والصحافة وتعميمها في كامل القطر"¹ واستجابة لهذه الأوضاع، تفتّق مشروع الإحياء عن خطباء صقلت الأيّام مواهبهم الخطابية، وعرّكت مقامات الارتجال قدراتهم البيانية، فنبغ في بداية الأمر ابن باديس والطبيب العقبي وأحمد توفيق المدني، فشهد نادي التّرقّي صولاتهم، وندبت الحركة لنفسها ولمبادئها وللغة العربية خطباء يصدقون بمبادئها وقضاياها، فيبلغ الآذان وقع كلماتها، وينتبه المحيّدون من الحياة على رنين حروفها فبرز أمثال: أبي يعلى الزواوي، ومبارك الملي، والعربي التبسي، وأحمد سحنون، وعبد القادر الياجوري ومفدي زكريا، وغيرهم، "أمّا خطابة الإبراهيمي فتميّزت بالطابع الأدبيّ والبلاغيّ، واستحضار المحفوظات والشواهد، وكان مؤثرا في الخاصة أكثر من العامة"² وهكذا استغلّ هذا اللون من فنّ القول تطبيقا عمليا وتوظيفا مباشرا للمقولات النظرية، التي يُردّدها الإحيائيون في كلّ مناسبة، فأصبحت الخطابة مظهرا سجّل به الصوّث العربيّ الفصيح موقعه من منظومة الحياة العامة، التي كاد يُطبع على سمعها وقلبها.

1-2-4- المسرحية: كان الالتفات الجزائري إلى هذا المشهد الفنيّ والثقافيّ مرافقا لاهتماماته

الإحيائية الأخرى، متحوّلا إليها من عروض عرائس الكاركوز الشهيرة، والتي منعها الاحتلال على الجزائريين خشية تمرير أفكار الوعي واليقظة، وقد امتزج ارتقاء هذا العنصر مع الحركة المسرحية المشرقية الوافدة إلى الديار الجزائرية قبيل الحرب العالمية الأولى، وأدرج ضمن نشاطات حركة تأسيس النوادي والجمعيات خلال هذه الفترة، فقد أنشئت جمعيات للنشاط المسرحي منذ 1911م، في بواكيرها الأولى كالجمعية الثقافية المسرحية بالمدينة، برئاسة: اسكندر محمد القاضي عبد المؤمن. ثمّ الفرقة المسرحية العاصمية، برئاسة قُدور بن محي الدين الحلوي. ثمّ فرقة البليدة برئاسة القاضي محي الدين بن خدة، وتعرّز التوجّه المسرحيّ بالدعم المتميّز من الأمير خالد لهذا النشاط، من خلال الاتّصال بفرق

¹- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج8، ص108.

²- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج8، ص109.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

تونسية كانت لها عروض بالجزائر سنة 1912م، فشاهد الجزائريون أول مسرحية باللغة العربية الفصحى بعنوان (صلاح الدين) لنجيب حداد، قدّمتها فرقة جوق الآداب التونسية سنة 1913م، وفي نهاية صيف 1921م، بعد زيارة فرقة جورج أبيض، وعرض مسرحيات بقاعات الجزائر، ظهرت موجة من المسرحيات بالعربية الفصحى، منها مبادرة الجزائري محمد رضا المنصالي (1899-1943م) بعنوان (في سبيل الوطن) باللغة العربية الفصحى، وكان يحمل روحا عربية وفكرا إسلاميا، وهو من أبناء المهاجرين الجزائريين إلى المشرق مع الأمير عبد القادر، ثم أخذ هم المسرح الجزائري لهذه الفترة علالو سلالي (1902-1992م) عبد العزيز الأكل (1898-1973م) ومحي الدين باش طارزي (1897-1986م) الرّشيد القسنطيني (1887-1944م) وناسبت هذه الفترة انتعاش فكرة الحركة الإحيائية، وبداية التفكير في الانتقال بالجهود الفردية الموزعة هنا وهناك، إلى إطار جامع يجمعها، وحتى تحقق ذلك الأمل، كانت الاهتمامات بالشأن الثقافي تتزايد وتستغل كل ساحة، فاستقطب المسرح اهتمام بعض المعلمين والكتاب والشعراء الوطنيين، و"منذ 1921م ألف بعض الجزائريين مسرحيات معظمها، -كما قال سعد الدين بن شنب- كانت باللغة العربية الفصحى¹ إذ مع ما كان عليه المستوى اللغوي لعموم الجماهير الجزائرية، فإن روح الإصرار بدت في العمل على تغيير الملمح اللغوي العام، والمصاهرة على الصعود بالذوق اللساني الشعبي البسيط، إلى مستويات الاستعمال العربي الفصيح، والعمل على جعل ذلك أصلا يجب الرجوع إليه، على ما فيه من مجاهدة للفهم، ومكابدة لرفع غشاوة الجهل، ولذلك كان "اختيار اللغة الفصحى لهذه التمثيلات يدل في وضوح أيضا على روح المقاومة الشعبية لكل عنصر يريد مسح الشخصية العربية في هذا الوطن"² وعلى غرار الكتابة الأدبية، والصحافة، والتعليم، ها هو المسرح الجزائري أيضا يضع بصمته في ساحة المقاومة الثقافية.

2- الكتابة الإحيائية المدرسية: مع انتشار المدارس الحرة، واتساع دائرة إقبال أبناء الجزائريين عليها، اعتمدت المنظومة التعليمية شكلا من أشكال الكتابة التي تدين في أصلها العام إلى الكتابة العربية بتقاليدها ومظاهرها، ولكنها أخذت في الحالة الجزائرية بعدا آخر له أسبابه وأهدافه اقترحت الأطروحة لها تسمية: الكتابة الإحيائية المدرسية، تميزا لها عن أشكال الكتابة العامة الأخرى، وهي

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي. ج8، ص135.

² - محمد الطاهر فضلاء "المسرح تاريخا ونضالا" الثقافة، الجزائر: صفر-ربيع الأول 1406هـ - نوفمبر -ديسمبر 1985م
س15، ع90، وزارة الثقافة والسياحة، ص273.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

وإن اشتركت معها في الشكل، وعُدَّت جزءاً منها، والذي تصنّفه التعلّيميّة الحديثة ضمن ما يسمّى تخطيط الاكتساب اللغويّ، وهو الإجراء الذي ابتكرت له حركة الإحياء نشاطاتٍ لغويّة مكملّة للعمليّة التعلّيميّة وقد أثمرت هذه النّشاطات نتائج طيّبة في بيئتها واتّجاهها وأهدافها، وتميّز أُفردت له هذه العجالة.

2-1- الشّعر المدرسيّ: يمثّل هذا الشّكل الشّعريّ مشهداً صريحاً من مشاهد تجربة الإحياء في بيئتها المدرسيّة النّاشئة، ذات الحضور البشريّ الخاصّ، والاستعدادات النّفسيّة المخصوصة، والكفايات اللّغويّة المدروسة، واستجابة لذلك، أخذ بعض رجال الإحياء ينظّمون قصائد اختيرت لها الإيقاعات الموسيقيّة الحماسيّة، وانتقيت لها ألفاظ ذات شُحنات وطنيّة وقوميّة، ومعانٍ ودلالاتٍ تناسب ما يستهوي الطّلاب في فترة فتوّتهم، وهم يزدادون يوماً بعد يوم إحساساً بحرارة الانتماء الوطنيّ، ويلقّنون كلّ يوم مزيداً من المبادئ الوطنيّة والخلقيّة العالية، وغالباً ما كان يُنّهَج في حفظها أو عرضها الأسلوب الجماعيّ المؤثّر، وربّما اختير لذلك العرض إحياء مناسبة دينيّة أو وطنيّة، أو إثر تنشيط فعلٍ ثقافيّ أو تربويّ في النوادي ومقرّات الجمعيات، أو خلال افتتاح المساجد أو المدارس أو النوادي، فتلقّى فيها الأناشيد المنظومة على أنّها من فقرات تلك الحفلات، وقد تُخصّص بعض فقرات تلك النّشاطات للتّباري بين النّاشئة في عرض ما جادت به قرائحهم من قصائد لا شك أنّها على شيء من البساطة، ولكنّ الرّؤية التعلّيميّة الإحيائيّة العامّة، كانت ترى في ذلك مُستتبّاً أدبيّاً ولغوياً لحركة الإحياء في القدام من مراحلها، ومشتلّةً لتحضير خلفاء جيل الرّواد الذين كانوا على يقينٍ من قلة عددهم، وثقل مسؤوليّة تأطير حركةٍ تحمل طموح إحياء موات أمّة، ولقد سائر هذا النّمط الكتابيّ والأدائيّ حركة الإحياء منذ شرع محمّد بن العابد الجاللي يكتب الأناشيد للتلاميذ نهاية العشرينيّات وما بعدها، إلى أن أصدر محمّد الصّالح رمضان سنة 1953م مجموعة أناشيد ألحان الفتوة التي نقتطع من بين ألحانها:

مدرسة ترشيح القادة¹

(لحنّته الكشّافة تلحيناً خاصّاً)

معهد القوّاد كوّن	نشأنا هذا الجديد
أيقظ الأفكار نبّه	ذلك الرّوح المجيد
روّض الفتيان دوماً	في الصّباح الباكر
حصّر الأبطال	يوماً للعدوّ الماكر

¹ - محمّد الصّالح رمضان، ألحان الفتوة، ط2. الجزائر: 1964م - 1384هـ. دار الكتاب الجزائريّ، ص95.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

والمقطع في ألفاظه ومعانيه وموسيقاه أيقونة إحيائية ظاهرة، وعلى نسقها ألفت وأديت كل ألحانها في مدارس الإحياء، وأفواجه الكشفية، وأضحى هذا الشكل الكتابي مشهداً تربوياً وتعليمياً ذا قيمة كبيرة "وقد كتب عنها عددٌ من الكتاب، ورحبوا بها، لأنها لونٌ من ألوان الأدب من جهة، ولأنها نافذة جديدة للتعبير عن الوطنية والموقف السياسي"¹ وقد كان لهذه الأناشيد من الفوائد اللسانية والخلفية والنفسية ما جعلها الحاضر الدائم في المحافل والمناسبات، وأوجدت لها حركة الإحياء حيزاً في منظومتها التعليمية والترفيهية، أسهم فيه كبار رواد الإحياء منهم ابن باديس نفسه.

2-1- المسرح المدرسي الإحيائي: وإذا ما قيل هذا في شأن القصائد التي أصبحت على السنة الناشئة يرددونها، ويستعذبون رنين حروفها العربية الفصيحة، حين عزلها تعليم الاحتلال ردحا من الزمن، فإن الأمر نفسه يقال عن تلك المسرحيات والحفلات العامة، منها مسرحية عاقبة القمار والجهل من تأليف محمد العابد الجلاّلي المعلم بمدرسة التربية والتعليم، وعُرضت في شهر رمضان وحضرها ابن باديس، وألقى كلمة في نهاية العرض، وألقى نشيده المعروف: اشهدي يا سماء² كما حضر مسرحية (عاقبة القمار) ونقل البصائر ذلك في 23 ديسمبر 1938م، و27 جانفي 1939م.

2-2- لقد كان هذا المنبر الذي اتخذته الإحيائيون وسيلة دعائية وتعليمية، عُرضت فيه بمناسبة وبغير مناسبة عروض تاريخية هادفة، أو اجتماعية تعالج ما أفساه الاحتلال من سيئ الأخلاق، وتُعرف الجماهير بتاريخها، كمسرحية (عابرة العرب) لمحمد العابد الجلاّلي، التي مثلها سبعة من كبار التلاميذ. وهي ذات مضمون تاريخي بإحياءات سياسية، ولم يلبث ملاحظو سيورة الإحياء أن رسموا لهذه النشاطات الشبانية موضعاً قاراً ضمن اجتماعات الجمعية ومؤتمراتها، ليستعرض فيها التلاميذ والطلبة مهاراتهم اللغوية، وقد أخذ شكلاً رسمياً في اقتراح الشيخ البشير الإبراهيمي بـ"إقامة عكاظ سنوي تتدرّب فيه ناشئتنا الإصلاحية على الكلام في العموميّات، وتتمرن على الخطابة ومناحيها، لتستعدّ للقيام بالدعوة والإرشاد، وإنّ الخطابة لركن الإصلاح الركين"³ وهكذا أصبح تلاميذ وطلبة مدارس الإحياء يتدربون على مواجهة الجماهير، بطرق الموضوعات الاجتماعية، كالفقر والغنى والتكافل والتضامن والمرأة

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج10، ص499.

² - علي مرحوم، "احتفال جمعية التربية والتعليم" البصائر، الجزائر: 20 شوال 1356هـ - 24 ديسمبر 1937م. س3، ع92.

³ - محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج1، ص175.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

والتعليم، والموضوعات الوطنية، كتاريخ الجزائر والعرب والإسلام والحريّة، وغيرها من المواضيع الهادفة وبلغت عربيّة فصيحة.

3- خصائص الكتابة الإحيائية: وعلى الجملة، فإنّ ما قد يضع القارئ أمام حجم التّطوّر الذي بلغته الكتابة الإحيائية العربيّة في الجزائر قبل استعراض بعض ما تميّز فيها من أشكال، هو عرض نموذجين، أحدهما من فترة ما قبل الإحياء، وهو نمطٌ من الكتابة التي شجّعها الاحتلال، وأغرى بها شكلا ومضمونا، وثانيهما من فترة الإحياء الأخيرة التي بلغت فيها الكتابة العربيّة في الجزائر مبلغا يشي به الشاهد المنتقى.

النّموذج الأوّل¹:

الوشام

في عماله الجزائر الفبايل والغرابه هما
التي يوشموا * عندهم في ظنهم الوشام زينة
هو التي يزين الادمي * المرأة اذا كانت ما شي
واشمة يفلوا ما شي شابة * ويوشموا في
وجوههم وفي زنودهم وفي رجليهم * كاي التي
يديروشام خاتم في صبعه * ويزيدوا يوشموا
في صدورهم * وامل المدون ما يوشموش عندهم
عيب كبير * الحضريات يضحكوا على التي واشمين
يزقوا لهم المرقومات * ومع هذا كي يخرجوا
اولادهم للزينة يديروا لهم النيله كيم الوشام
ما بين عينيهم ولا ورا وذنيهم على العين *
والوشام في الشرع حرام * فالوا * التي
يوشم يحاسب عليه وينفلع الوشام بالنار في
الاخرة *

النّموذج الثاني: وهو فقرة من خطاب للإمام الإبراهيمي يُقيّم فيه الحالة الفكرية والثقافية والاجتماعية

العامّة في الجزائر، فمّا جاء فيه:

¹ - جوزيف ديسبارمات، كتاب الفوائد في العوائد والقواعد والعقائد، ط2. الجزائر: 1331هـ-1913م، مطبعة جوردان، ص44.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

"إنَّ الشَّعبَ الجزائريَّ فرعٌ باسق من تلك الدَّوحة الفينانة، وزهرةٌ عبقَّةٌ من تلك الرُّوضة الغنَّاء، عَدَّت عليه عوادي الدَّهر، فنسي مجدَّ العروبة، ولكنَّه لم ينس أُبوَّتَها، وابتلاه الاستعمار-عن قصدٍ- بالبلبلَة فانحرفت فيه الحروف عن مخارجها إلَّا الضَّاد؛ ولم يبق من العروبة مع هذا وذاك إلَّا سماتٌ وشمائل ولا من العربيَّة إلَّا آيات ومخائل. وجاءت جمعيَّة العلماء، على عبوس من الدَّهر، وتتكَّر من الأقوياء فنفتخت من روح العروبة في تلك الأنساب، فإذا هي صريحة، وسكبت من سرِّ البيان العربيِّ في تلك الألسنة، فإذا هي فصيحة، وأجالت الأقلام في كشف تلك الكنوز، فإذا هي ناصعةٌ بيضاء، لم يزدها تقادُّم الزَّمان إلَّا جده.

جمعيَّة العلماء هي التي حقَّقت للجزائريِّ نَسَبَه العربيَّ الصَّريح، بريئاً من شوائب الإقراف والهجنة وأُخِيَتْ في نفسه شعور الاعتزاز بنفسه، وفي لسانه شعور الكرامة للغة، وفي ضميره شعور الارتباط بين المقوِّمات الثلاثة: الجنس واللُّغة والوطن، يمدُّها الشَّرق بسناه، ويغذيها الإسلام بروحانيَّته.

وجمعيَّة العلماء هي التي أثبتت للاستعمار أنَّ الدِّماء البربريَّة التي مازجت الدَّم العربيَّ أصبحت عربيَّةً بحكم الإسلام، وبحكم العمومة والخوِّلة الممتدَّتين في سلسلة من الزَّمن، ذرعا ثلاثة عشر قرناً مزاجٍ فطريٍّ، أحكمت القدرة تداخل أجزائه، والتحامٍ نسبيٍّ وصل التَّاريخ أطرافه مرتين كأنَّ الجزيرة العربيَّة أمَّ رؤوم لهذا الشَّمال، تعدَّه فلذة من كبدها، فهي تعطف عليه وتحنُّ إليه، وتجعل منه مراوح لِقَيْظِها وضافاً لفيضها، حنت إليه في حقبة غابرةٍ من التَّاريخ، فرمَتْهُ بقبائل يمانين، من بنيها الميامين، ينقلون إليه الدِّماء والخصائص، والمكارم والمفاخر، وحنَّت إليه بعد الإسلام، فأوفدت إليه الغرَّ البهاليل من أصحاب محمَّد، يحملون الرِّحمة والسَّلام والبيان، ويفتحون الأذهان والعقول والأفكار؛ وما كانت غارُهُ هلال بن عامر في المائة الخامسة للهجرة- على ما فيها من الهنات- إلَّا تلقيحاً لتلك الدِّماء التي أثَّرت فيها مؤثِّرات الهواء والتُّربة، وطول الثَّواء والغربة، وعمل فيها تداول الأمم الفاتحة، وتعاقب الدِّلاء الماتحة¹

لقد كان مستوى لغة ومضمون الكتابة الإحيائية نتيجةً مباشرة لطبيعة الحركة، واستجابة لمتطلَّباتها وهو ما انعكس على أشكالها، ومواضيعها ولعلَّ من حاصل القول، إنَّ ما اجتمع على مشهد هذه الكتابة الإحيائية العربيَّة في الجزائر في النِّصف الأوَّل من القرن (20) على العموم من الوصف:

¹- محمَّد البشير الإبراهيمي "جمعيَّة العلماء، أعمالها ومواقفها" البصائر، الجزائر: رمضان 1366هـ- أوت 1947م، ع2، س1 (سلسلة 2) ص13-14.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

3-1- كتابة انتقائية: إن حركة الإحياء في ظروفها وتحدياتها ومحددات مسارها ومحدودية وسائلها وضغط الزمن على برامجها، قد وجدت نفسها مُرغمة على اللجوء إلى الانتقاء من أشكال الكتابة ما يتناسب مع أوضاعها ومقدراتها، وما يخدم رؤيتها وآفاقها، فاختارت منها الأقل مساحة والأيسر تداولاً والأبلغ تأثيراً، والأسرع نفاداً، وقد حقق هذه الشروط المقال بأنواعه المحدودة، والقصيدة بأغراضها المحدودة، والخطبة وقد ذهب الارتجال بأكثرها، والقصة القصيرة بمعاناتها، والمسرحية بتقلبات الأوضاع عليها، ومقابل ذلك، سُجِّلت أشكال أخرى في درجة أدنى، وعلى جبهة مختلفة حضوراً، وأقل انتشاراً ولكنه أعمق أثراً، وهي الكتابة المدرسية بمسرحياتها الهادفة وخطبها الحماسية وأناشيدها المنتقاة.

3-2- كتابة وظيفية: وهي وظيفية مرتبطة بالانتقاء لأداء دور إحيائي لا يشترط المستوى الفني العالي، ولا التألق والإبداع المثالي، بل يكفي بفتح أفق للغة عربية سليمة وأداء لغوي صحيح، يتم من خلالها إصلاح النسيج اللغوي المتهتك وإعادة بناء (Reconstruction) النظام اللغوي العربي في مستوياته كلها، وتلك سمة تلبست بها معظم أشكال الكتابة الإحيائية، مع اعتبار خصوصية أساليب الكتابة المُحتكمة إلى الفروق الفردية بين الكتاب والشعراء، والتي ترجع بدورها إلى ظروف التكوين ومستويات التعليم ونوعيته.

ولئن كانت الوظيفية بالمفهوم السالف سمة غالبية على الكتابة الإحيائية، فلعل تفصيلها إلى شقين أقرب إلى البيان والإيضاح، وهما: وظيفية لإحياء اللغة، وظيفية للإحياء باللغة.

3-2-1- وظيفية إحياء اللغة: وتلك غاية استهدف بها الإحيائيون استعمالاً عربياً فصيحاً حتى وإن تفاوتت فيه الحظوظ، وتراوحت فيه المستويات، بين أعلى بعيد عن التكلف المشين، وبين أدنى يجافي الإسفاف المهين، فنجمت لذلك كتابة حاولت إعادة بناء منظومة تواصلية، بعدما هدم أصولها وفروعها الاحتلال، وبذلت جهوداً مضنية لمعالجة شروخ لسانية، حينما هتك بها سلامة البنية اللسانية للجزائريين، وعبر من خلالها إلى ضميمه نسيجهم الاجتماعي، فما تحقق من ذلك فهو ثمار تلك الجهود وما تأخر منها فعالبه منصرف إلى محدودية قدرات الجهاز الإحيائي المادي والبشري من ناحية، وترصد المخبر الكولونيالي بقوة آلياته وفعاليته وسائطه وأدواته من ناحية أخرى.

3-2-2- وظيفية الإحياء باللغة: وتلك معضلة أخرى واجهت الكتابة الإحيائية العربية في الجزائر فلم تكن هذه الكتابة ترفاً علمياً، ولا اختياراً أدبياً وفنياً، وإنما كان إكراهاً اضطر تحت تأثيره الكتاب والشعراء والصحفيون إلى التزام مواضيع لا يستطيعون منها فكاكاً، وأغراض لا ينتقلون إلى غيرها إلا

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

لَمَامًا، فانصرفت مخايلُ الشعراء إلى ما يخدم حركة الإحياء ويشدُّ أزرها، وجفَّت أقلامُ الكتَّاب -أو كادت- عن الخوض في أفانين القول، إلَّا في ما يقوم بالإحياء، ويشدُّ أسسه وأركانه، فغابت لذلك في الشعر الإحيائي أغراضٌ أو ندرت، وتأخَّرت في النثر قضايا أو عزَّت.

لعلَّ أظهر ما يُمثَّل به من الواقع الذي أفرز تأخُّر ظهور أشكال أدبيَّة، وتعثُّر استواءٍ أخرى هنا هو تأخُّر استواء الرواية بوصفها شكلا يطلب لنفسه زمناً أوسع، ونفساً أطول، وظروفاً أنسب، والأمر نفسه يُقال في شأن حركة التَّأليف المتخصِّص في العلوم والمعارف، والدِّراسات وتحقيق المخطوطات والترجمة وهي كُلُّها أشكالٌ كتابيةٌ استحوذ عليها الاستشراق حين غصب مصادرها، ووجَّها دراساتها. وسواء ما كان منها على يد أساتذته ودارسيه، أم ما تولى من الجزائريين أمرها، مع توجيه لغايات أحاطت بها الرِّببة، ووَسَمَهَا الاشتباه.

لقد استطاعت حركة الإحياء أن تصنع واقعا لسانياً بمواصفات جزائريَّة، وروح عربيَّة، وتوجَّه مشرقي وهو واقعٌ شهد ما يطلق عليه اللسانيون تحوُّل اللُّغة (Language shift) والذي انتقل فيه الجزائريون من وضعٍ كانت اللُّغة الفرنسيَّة المؤطرَّة الوحيدة لكافة النشاطات اللُّغويَّة، إلى وضعٍ أصبحت فيه اللُّغة العربيَّة شريكا ظاهرا، وإن لم يكن له من الانتشار والقوَّة في الصِّحافة والتَّعليم والتَّأليف وسائر المشاهد ما يجعله واقعا مُرضياً؛ فإنَّه أصبح وجهة التَّيار العربيِّ الإسلاميِّ المغيَّب، ومشهدا موازياً للواقع الفرنسيِّ الذي انفرد بالحضور الفعليِّ والدِّهنيِّ لعمود. "وقد أصبح الطِّراز الأدبيُّ الجزائريُّ طرازاً مستقلاً يُحتذى ولا يُحتذى، ليست عليه مسحة التَّأثر والمحاكاة، وإذا كانت ناشئنا متأثرةً بالتَّعاليم الزَّيتونيَّة، فإنَّ ذلك التَّأثر لم يجاوز العِلْميَّات، أمَّا الأدبيَّات فلا¹". ولئن لم تستطع حركة الإحياء أن تفتكَّ جميع متعلَّقاتها الفكريَّة والثقافيَّة واللُّغويَّة من بين فكِّي المدرسة الكولونياليَّة؛ فإنَّها قد أسست لما يمكن أن يكون منطلقاً لتقويم الوضع اللِّسانيِّ الذي أفرزته ممارسات الاحتلال وإجراءاته، من خلال التَّأسيسات النَّظريَّة والإجراءات العمليَّة التي أثبتتها أدبيَّات الحركة ورؤاها.

4- مقولات الحركة الإحيائيَّة ذات البُعد اللِّساني: لم يكن لحركة الإحياء من الإمكانات والوسائل ولا من حرِّيَّة النَّشاط ما يمكِّنها من البناء الهادئ والمتكامل لتصوراتها، فجاءت آراء منظِّريها ومواقفهم إزاء القضايا اللِّسانيَّة مبنوثة في المدوَّنة الإحيائيَّة، وقد نجا بعضها وتلف بعضها، وهُرب بعضها الآخر

¹ - محمَّد البشير الإبراهيمي "عرض الحالة العلميَّة" الشَّهاب، الجزائر: جمادى الأولى 1353هـ - أوت 1934م، ج9، مج10 ص401.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

ومع هذا، فإنّ للدّارس أن يقف على أشهر قضايا الإحياء، ومواقف الحركة إزاءها، والتي تكشف عن مدى الوعي اللّسانيّ، والتنبّه إلى تأثيرها على الوضع الاجتماعيّ، وآثارها في ما حولها من الأوضاع الأخرى، وهو ما سيعرض له المبحث في نقاط محدّدة، بحكم أنّ البسط فيها يحتاج إلى فضاء أوسع.

لقد صاغت الحركة الإحيائيّة موقفها من التعدّد اللّغويّ واللّغات الأجنبيّة صياغة لم تتنازل فيها عن حظّ اللّغة العربيّة، فأقرّت لها بالمقام الأوّل باعتبارها لغة الدّين الإسلاميّ، لتكون الأمّة الجزائريّة بذلك شريكا للأقاليم الإسلاميّة على المحور (طنجة - جاكارتا) الذي دعا إليه من بعد الأستاذ مالك بن نبي ثمّ باعتبارها لغة القوميّة العربيّة من زواياها اللّغويّة والدينيّة والتّاريخيّة، وليس بمفهومها الذي قامت عليه الأحزاب والتكتّلات السّياسيّة لما بعد الاستعمار، إذ ندبت الحركة الجزائريّين في مدارسها والمدارس الفرنسيّة إلى تعلّم اللّغات الأجنبيّة دون استثناء، مؤصّلة لذلك شرعا، ومعدّدة للمنافع العامّة وضعاً.

وتعاملت مع الأداءات اللّغويّة المحليّة فاستندت إلى الماضي اللّسانيّ الجزائريّ الطّويل، ودلّلت على الوفاق الجزائريّ في المحافل والعمل الإحيائيّ الذي كان يقوم عليه أعلام جزائريّون، من زواوة ومن ميزاب، ومن باتنة وتبسة وسائر منطقة الشّاوية، وبذلك ارتفعت الحركة الإحيائيّة عن توظيف المدرسة الكولونياليّة للمسألة انثربولوجيّة، حين أسست لتقسيم الفضاء الاجتماعيّ الجزائريّ لسانياً.

وتجاوزت الحركة الإحيائيّة المدى الجغرافيّ المحليّ لتبلغ الجاليّة الجزائريّة في فرنسا ففتحت النوادي وأسست الجمعيات لتعليم الجزائريّين وأبنائهم الإسلام واللّغة العربيّة، محوّلّة معضلة الهجرة الجزائريّة نحو فرنسا مكسبا جزائريّاً على الجغرافيا الفرنسيّة، ولئن لم يُكتب لهذه المبادرة النّجاح الكافي، والاستمرار اللازم؛ فقد كانت خطوة جريئة، عكست بوضوح الفكرة الوطنيّة لحركة الإحياء وشمولها الجغرافيّ وإنصافها للمكوّن البشريّ الجزائريّ.

شخّصت الحركة الإحيائيّة معضلة الأميّة في الجزائر، وقدّرت لها ضررها على المنجز من ثمرات الإحياء، وخطرها في تعطيل أو إرهاب مشاريعها القادمة، فاقترحت لها أسرع الحلول أجلا وأنجعها أثرا وسطّرت لها من البرامج أقلّها كلفة وأوسعها مدى، فأنقذت من مخالبتها كثيرا من الجزائريّين، وخفّفت من وطأتها على آخرين، ولئن كان النّظر إلى مسألة محو الأميّة في الأوضاع اللّغويّة الطّبيعيّة مرحلة من مراحل القضاء النّهائيّ على آخر جيوب المنغصات اللّغويّة ذات البعد الاجتماعيّ؛ فإنّها في الوضع الجزائريّ حالة من توسيع مجال الحضور اللّغويّ العربيّ، وإعادة تفعيله على كلّ الجبهات.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

اعتبرت الحركة الإحيائية التعليم نواة الإحياء الأولى، وركيزته الأساس، فسخرت له أعلامها فما منهم من أحد إلا وله من التعليم نصيب قل أو كثر، وقد أخذ هذا التعليم بالحظ الأوفى من أموال الحركة إنفاقا وبناء وتجهيزا، وجعل نتاجه رصيد الجزائر لمواجهة مشروع الإبادة الكولونيالي، كما ظهر حرص الحركة على جعله تعليمًا ذا روح مشرقية في وجهته الدينية الإسلامية، مقابل الروح الصليبية التبشيرية للتعليم الفرنسي، وناضلت ليكون بلسان عربي في وجهته اللغوية، تميزا له عن التعليم الفرنسي الممجد للغة الفرنسية والثقافة الفرنسية، وحرصت على أن يكون بمضامين تجمع بين المعارف التراثية العربية والمعارف المعاصرة التي تُقيم للجزائريين حياتهم في جوانبها كلها.

تحوّلت الحركة الإحيائية بالأداء العامي من نمط لغوي بذلت مدرسة الاستشراق جهودا جبارة لتعميمه بديلا تعليميًا وتواصلًا شعبيًا ورسميًا، إلى مستوى من مستويات الأداء التواصلي المحلي، وسخرته لأداء وظائف تعبوية وتوعوية في جبهات الدعم الشعبي لحركة الإحياء في جبهاتها المتعددة، فقد أوعز منظرو حركة الإحياء -وفي مقدمتهم الإمام الإبراهيمي- إلى الشعراء الشعبيين و(المداحين) في الأسواق والمناسبات الاجتماعية، بنسج مقطوعات في ردف مشروع الإحياء في شتى صورته، وإبطال مشاريع الاحتلال من خلال نشر الوعي العام، باستخدام لغة بسيطة تستهلكها المجالس الشعبية، وتسير بها ركبان القوافل التجارية وغيرها.

ضمّن رواد الإحياء كتاباتهم الصحفية والخطابية والدعوية خدمة جليلة لمتن اللغة العربية الفصيحة من خلال النماذج الكثيرة المبنوثة في مدونة الإحياء التي كان يستهدف بها هؤلاء تصويب خطأ شائع أو تأصيل مسألة لغوية، أو الإلفات إلى علاقة فصح بعامي، أو الإشارة إلى لطيفة من لطائف العربية اللغوية أو الأدبية، أو الإعلام بالمسمى العربي لمنتج علمي أو صناعي جديد، وهي ظاهرة يمكن إدراجها في سياق حرص الحركة الإحيائية على ما يُسمّى بـ (التنقية اللغوية Purification de la langue) التي يحرص أهل اللغة المعنوية على تحقيق ما أمكن من سلامة الأداء اللغوي بتعاهد صورته بالإصلاح والتقويم، وأكثر ما يُعتمد عليه في إنجاح هذه العملية، هو الإعلام، بحكم سلطته الشعبية الواسعة، وانسيابيته الكبيرة بين المستعملين. كما تحيل هذه الظاهرة على نماذج الدرس اللغوي السائد في الأوساط التعليمية للحركة الإحيائية، وما تتداوله برامجها ومقرراتها المدرسية، أو ما قد يكون من الإشارات واللطائف التي يحيل عليها معلّمو الإحياء تلاميذهم أثناء التدريس.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

لعلّ أقرب ما يُطلق من مصطلحات السُوسيولسانيّات على مواقف الحركة الإحيائيّة من هذه الأنشطة ذات الآثار اللسانيّة البينة، وفي مثل الظروف الجزائريّة يومئذٍ، هو اعتبارها شكلا تطبيقيا للسانيّات الإنقاذ، التي تستهدف إنقاذ اللّغة في أيّ جبهة، وعلى أيّ صعيد، نتيجة ما أدرك اللّغة العربيّة من تحييد وإبعاد، قاربت فيه الموت في السنة ناطقيها الكبار، والحرمان من تعليمها لمن بعدهم من أبنائهم الصّغار، وتلك أمارّة ترفعها اللّسانيّات الاجتماعيّة على أنّها -لسانيّا- دليل احتضار.

ما بعد الإحياء، ما قبل الخاتمة.

ارتأت الأطروحة أنْ تختم فصولها بعرضٍ مُقتضب، يقابل في تسميته وفحواه ما بدأت به (ما قبل الإحياء) وهو جملة إشكالات طفحت على سطح مسيرة حركة الإحياء في آخر مرحلة من شطرها الأوّل. تُوسم هذه الحركة بأنّها ذات منطلقٍ شعبيّ، وامتدادٍ شعبيّ، وقد مدّت يدها إلى مختلف الطبقات السياسيّة ذات التوجّه الوطنيّ الإسلاميّ وفاءً لمبادئها الإيديولوجيّة المعارضة للاحتلال في كلّ صوره وأشكاله، وقد ارتفع سقف طموحها خلال العقد (04) من القرن (20) بفعل ما تحقّق لها من نتائج على المستوى الشعبيّ، لكنّ الذي لم تتمكّن هذه الحركة من تحقيقه، هو جعل المسألة اللّغويّة همّا حقيقياّ للسياسيين الذين تصدّروا المشهد الجزائريّ بداية من منتصف العقد (05) من القرن (20) فلقد كان التّكوينُ الفكريّ واللّغويّ لمعظمهم بعيدا عن المؤسّسات العلميّة والثّقافيّة لحركة الإحياء، ولم يكن التّقارب الذي شهدته الحركة الإحيائيّة مع الحركة السياسيّة الوطنيّة، وتقرّضها المرحليّ للعنصر البشريّ، كافيا لصنع قناعة السّاسة بموقع المسألة اللّغويّة والثّقافيّة في ساحة الصّراع مع المحتلّ، وبينما توجّه خبراء الاحتلال إلى بناء القواعد الخلفيّة لما بعد الاستعمار التّقليديّ، ووضع الأسس الفكرية والثّقافيّة الاستراتيجية الخفيّة البديلة لذلك؛ كان تركيزُ السّاسة الجزائريّين خلال المرحلة على الجوانب السياسيّة والعسكريّة والاقتصاديّة.

لقد ألقى التّوجّه الجديد لطرفي الصّراع بظلاله على المواقف السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والثّقافيّة لمرحلة الثّورة التّحريريّة وما بعدها، والتي عكستها العتباتُ الفاصلة في مسيرة الحركة الوطنيّة ممثّلة في وثائقها الأساسيّة المصيريّة للأمة الجزائريّة، وقد أُسندت صناعة قراراتها، وصياغة مضامينها وتحريرُ نُصوصها إلى أولئك السّاسة، الذين وإن لم يُسمح بالطّعن في وطنيّتهم، ولكنهم لا يُبرّؤون من ركوب مغامرة اتّخاذ قراراتٍ مصيريّة تتعلّق بأجيال قادمة، أكثر ممّا تتعلّق بصانعيها ومن حولهم، وقد كان من المفترض أنْ لا ترهّن آفاقُ القضايا الكبرى للأمة برغبات أفراد من موقع نفوذهم، أو تمريرا

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

لإملاءات إيديولوجية ضيقة لا تُعبر عن توجه ملايين من أفراد الشعب، وحقهم الديمقراطي في أن تعكس تلك القرارات جانبا كبيرا من طموحاتهم، من ذلك وثيقة بيان أول نوفمبر 1954م، ووثيقة برنامج طرابلس جوان 1962م، ووثيقة اتفاقيات إيفيان 1962م، وميثاق الجزائر 1964م، وكلها وثائق بقي الجدل بشأن موقفها من اللغة العربية قائما بعد عقود من تحريرها.

لقد انعكس ذلك الجدل على مشروع التعريب الذي باشرته الدولة الجزائرية في سياق استكمال مسيرة التحرير، والقضاء على مخلفات الاحتلال، ولكن تلك المخلفات لم يكن من السهل تجاوزها لأنها ليست في حقيقتها إلا ثمرات جهود إعداد واستحواذ هائلة، استغرقت عقودا طويلة، وأضحى مشروع التعريب "قابلا للنقاش على غرار بقية المسائل الأخرى، ولم يعد من القضايا المقدسة إطلاقا"¹ ليصير أداة لتقسيم عميق استهدف الفضاء المهني والاجتماعي الجزائري من خلال اللغة.

وانعكس على قطاع التعليم في الجزائر وما واجهه من مشكلات طبيعية ومفتعلة بعد الاستقلال ف "انتخاب مجموعة من الخبراء الفرنسيين في بداية 1964م للقيام بالاضطلاع بمهام وإجراءات إنجاز مشروع بحث ودراسة في الهوية اللغوية والثقافية والفكرية لجزائر ما بعد 1962م، يعدّ حسما تاريخيا في مكونات الدولة الجزائرية الجديدة"² وأبرز مظاهر ذلك، ما حصلت له اللغة الفرنسية من مواقع لم تتحقق لها أثناء الاحتلال، وبعد أن كان يُنظر إلى التعليم على أنه أمل استكمال التحرير، تحول إلى حاضن الامتداد الكولونيالي في ثياب جزائرية، و"عموما تُعرف المناهج الدراسية على أنها مجموعة متكاملة من الأنشطة المصممة بذكاء لتحقيق أهداف محددة سلفا"³ فأى الأهداف التي يقصد بن بوزيد ولم تشهد اللغة العربية في المدرسة الجزائرية التي كان وزارته تشرف عليها ما تستحق؟

وانعكس على مسيرة الإعلام المكتوب والمرئي، وما شهدته من صراع الحرفين "فلا يُعقل أن يكون المغرب العربي على عتبة ستين عاما [قبل هذا في 2011م] من استقلاله السياسي، في ما اللغة

¹ - مصطفى ماضي، النخبة والمسألة اللغوية في الجزائر (من القطيعة اللغوية إلى الانتقاء والتهميش باللغة) د ط. الجزائر: 2008م، دار القصة للنشر، ص11.

² - سعيد عيادي، أثريات المسألة اللغوية في الجزائر (ما تبقى من سيرة الخبير بيير كون Pierre conn) د ط. الجزائر: 2014م، مطبعة بن مرابط، ص11.

³ - Boubekur Benbouzid, La réforme de L'éducation en Algérie Enjeux et realisation, Casbah edition, Alger:2009, p37.

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

المسيطرة في إدارته وفي نظامه التعليمي، وفي قسم من إعلامه الرسمي هي اللغة الفرنسية¹ وهو الأمر الذي وإن أخذ شكلا آخر من أشكال التدافع، فإنه لم يكن بأقل عنفا، ولا أهون أثرا من مرحلة ما قبل الاستقلال.

وانعكس ذلك على صعيد التشريع، فمع تأكيد اللسانيين والخبراء على أن "استرجاع العربية لمكانتها يحتاج إلى النية الحسنة من قبل أولي الأمر، وإلى قرار سياسي ملزم، وإلى إرادة سياسية تبدي نياتها في وضع اللغات الأجنبية في محالها المناسبة لها"² وهي المسألة التي ضمنتها كل النصوص الأساسية للدولة الجزائرية، وأقرت بالحق الرسمي للغة العربية، ولكن الواقع يحرمها من ذلك كله.

وانعكس ذلك على صعيد المؤسسات والهيئات اللغوية التي تخصص الأغلفة المالية لرفع بنائها وتشريع القوانين نظام ممارسة نشاطها، كالمجمع الجزائري للغة العربية، ولكن ثمراتها المرجوة منها على غرار مثيلاتها في الدول العربية، لا تقابل بما ينتظر منها، وما يجب أن تكون عليه.

وانعكس على مشاريع لغوية واعدة كنشاط معهد الترجمة الذي عطل بعد (20) سنة (1968-1983م) من العمل النوعي الذي اكتسب به شهرة إقليمية وعالمية، ومشروع الذخيرة اللغوية العربية لأستاذ الجيل عبد الرحمن الحاج صالح، الذي لم يعرف طريقه إلى الكمال.

وانعكس بعد ذلك كله على ثقافة المجتمع الجزائري الذي تعاني عامته من ازدواجية لغوية (Diglossia) مجففة وغير مدروسة، نحت بالاستعمال اللغوي الجزائري نحو مستويات مبتذلة، ولها مواصفات الهجين اللغوي (كريول / Creole) بينما استمرت النخب في صناعة الخلف الفرانكفوني للحفاظ على الاستمرار الكولونيالي في صورة أخرى ذلك جزاء "التبعية الثقافية عن طريق تعميم انتشار اللغة الفرنسية، إذ أن ما تم إنجازه في هذا المجال خلال العقدين الأول والثاني بعد الاستقلال كان أكثر بكثير مما أنجزه الفرنسيون أنفسهم خلال (130) سنة من الاستعمار"³ وما ذلك إلا تركيز فرنسي على تأمين المدخل الثقافي (اللغوي) لتثبيت احتلال في شكل آخر وبتأثير أخطر.

¹ عبد الإله بلقزيز، الفرانكفونية (أيدولوجيا، سياسات، تحدٍ ثقافي-لغوي)، ط1. بيروت: ماي 2011م، مركز دراسات الوحدة العربية، ص44.

² صالح بلعيد، يزع بالحاكم ما لا يزع بالعالم، د ط. الجزائر: 2010م، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، ص81.

³ عبد الحميد إبراهيمي، في أصل المأساة الجزائرية 1958-1999م، ط1. بيروت: 2001م، مركز دراسات الوحدة العربية ص455

الفصل الثالث: أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين

وهناك قضايا أخرى عديدة تحيل في عمومها على تناقضات "تستمد مبرراتها من الحقل الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، فالرّهان ليس لغويًا وثقافيًا فحسب -حتّى وإن كانت اللغة عنوانه- بل هو أساسا سياسيّ مرّده إلى الرّغبة في مراقبة دواليب السّلطة في البلاد¹" ذلك أنّ المسألة اللّغة العربيّة في الجزائر وإنّ أبلت لها حركة الإحياء بلاءً حسنا وحولتها إلى (قضيّة) بعد أنّ كانت نسيا منسياً؛ فإنّ شطرها الآخر -وقد يكون الأصعب- لا يزال مطلوب التّحقيق، فتعلّق صلاحية الحكم بوجود حركة إحياء لغويّ عربيّ في الجزائر شغل النّصف الأوّل من القرن (20) رهين باستكمال مسيرته بعد ذلك.

والإشكال الذي تختم به الأطروحة، هو البحث في مصدر فعالية المعارضين على المسار الطّبيعيّ والتّاريخيّ والجغرافيّ والحضاريّ للّغة العربيّة في الجزائر وطبيعة استراتيجيّاتهم، ونفاذ اختياراتهم، مقابل الحيرة والتّرّد والوهن الذي يطبع مواقف الأكثرية الواهيّة التي تَصُدّر عن تعاطفٍ واسعٍ مع المقوّم اللّغويّ، من دون الوقوف -لحدّ الساعة- على أرضيّة صحيحة المنطلق، واضحة الرّؤية، معلومة الوجهة إزاء المسألة اللّغويّة في الجزائر؟

¹ - خولة طالب الإبراهيمي، الجزائريون والمسألة اللّغويّة -عناصر من أجل مقارنة اجتماعيّة لغويّة للمجتمع الجزائري- د ط. الجزائر: 2007م، دار الحكمة، ص75.

الخاتمة

الخاتمة:

بعد مسارٍ بحثيٍّ طرقت فيه الأطروحة عشرات المظانِّ، ولَّبت النَّظر في موضوعٍ على درجةٍ كبيرةٍ من التَّشعُّب والتَّعقيد، وقد اجتمع عليه طول الفترة المستهدفة، وكثرة العوامل المشاركة، فمن التَّاريخ والجغرافيا، إلى الاجتماع والثَّقافة، وبين تجاذبات الإيديولوجيا، وحسابات النُّفوذ الاستراتيجيِّ، كانت المسألة اللُّغويَّة في الجزائر هدفاً وغايةً، فتنازَعها وقضاياها محتلَّة عازمٌ على الاجتثاث، وإحيائيون أصرُّوا على الانبعاث، وتعدَّدت لذلك المسالك، وتهدَّدت البحث -في محطاتٍ عديدةٍ- المهالك، ولكنَّ الغرض الذي استهدفه البحثُ لم يكن له الخيار في مواجهة ذلك، والاحتياال لتجاوز العقبات المنهجية والمعرفية القائمة، فقد استهدفت الأطروحة عرض مشروع الإحياء اللُّغويِّ في الجزائر عرضاً شاملاً يمهِّد بسياقاته التَّاريخية الدَّافعة، ويكشف منطلقاته الفكرية والحضارية، ويجلِّي مكوِّناته في تفاعلها مجتمعةً، ويعرض مساراته بتحدِّياتها ونجاحاتها وإخفاقاتها، ويقارب قضاياها الرِّئيسة، ويستعرض أبعاده المعلنة والدَّفينة، ولم يكن لموضوعٍ بهذا الوصف أن تكون سبيله سالكةً من الزَّلل، فلا تطالُه مواضع الخلل، ولكن حسبُ العمل اجتهاذه في محاولة تأسيس أرضيةٍ عامَّة، تعتليها حركة الإحياء اللُّغويِّ في الجزائر، قائمة بخصوصياتها التَّاريخية والفكرية والبشرية، وبارزة بشخصيَّتها الدَّائنية، فتعالج على سطحها قضايا المسألة اللُّغويَّة في الجزائر، ضمن أبعاد تلك الحركة ورؤاها، باعتبار الواقع اللُّغويِّ الجزائريِّ المعاصر ليس في حقيقته إلَّا امتداداً لما اجتهدت الأطروحة في عرض جذوره وخلفياتها.

وإضافة لهذه النُّتيجة العامَّة التي استهدفها هذا العمل، فقد وقفت الأطروحة على نتائج جزئية تتناولتها مباحثها بشيءٍ من البسط، وتختتم بها هنا مختصرة.

• إنَّ إطلاق مصطلح (مشروع) على الجهود اللُّغويَّة التي شهدتها الجزائر في النِّصف الأوَّل من القرن (20) قد تراجع ليفسح المجال لمصطلح (حركة) بفعل ما استجمعت من مقوِّمات، وما ترافق لها من عناصر ومكوِّنات، وما تحقَّق لها من نجاحات في ظروف الاحتلال.

• لننَّ بدا مصطلح (الإحياء) مهاجراً مع أصداء حركة الإحياء الأدبيِّ واللُّغويِّ المشرقيِّ؛ فإنَّ الإحياء اللُّغويِّ الجزائريِّ قد ثبتت له شخصيَّته وذاتيَّته وعناصره، ومبرراته وظروفه، ولا يمكن عدُّه امتداداً تابعاً لحركة الإحياء المشرقيِّ.

الخاتمة

• قدّرت الأطروحة -في البداية- القرنَ (20) فضاءً زمنيًا لمشروع الإحياء اللغويّ، لكنّ متابعة مسار المشروع وإجراءاته وجهود أعلامه، أ حالت على أنّ الزمنَ الفعليّ للمشروع كان النّصف الأوّل منه ومثّلت الثّورة التّحريريّة بمعطياتها التّحوّل الأكبر لمسار الإحياء.

• إذا لم يكن بإمكان الأتراك تنبّي الارتقاء باللّغة العربيّة في الجزائر وخدمتها حرصاً على الحضور الرّسميّ التّركيّ؛ أفلم يكن بإمكانها إفساح المجال واسعا لأهل البلد بالارتقاء بلغتهم، وتمكينهم ممّا يحفظ كيانها، ويرتفع بأفاقها؟ أمّا وقد كان لهم إزاء اللّغة العربيّة وأهلها تلك الممارسات، فإنّ عليهم ذنب التّأخّر في ترقّيتها، والتّقرّيط في سيادتها، وإذن فإنّ عليهم جزءاً من التّبعة التي أدركت اللّغة العربيّة حين تسلّمها منهم الفرنسيّون على تلك الحال من الضّعف، وإذا ما نقل كثير من الدّارسين اعتراف الفرنسيّين حين احتلالهم الجزائر باندھاشهم لحالة التّعليم التي وجدوها؛ فإنّ ذلك استشهادٌ يقاربون به درجة السّوء الذي أصاب به الفرنسيّون اللّغة العربيّة في الجزائر، أكثر ممّا يُزكّى به الأتراك في تعاملهم معها.

• لعلّ من أكبر الدّوافع الخارجيّة لانبعاث مشروع الإحياء اللّغويّ في الجزائر، هو ما ولّدته ممارسات فرنسا الاحتلال من عسف إزاء اللّغة العربيّة، وما أنزلته بها من بطش طال حمّلتها ومُدوّناتها ومؤسّساتها، والذي بلغ فيه الاحتلال آخر مداه نهاية القرن (19) حيث عوملت اللّغة العربيّة معاملة اللّغة الميّتة أو بما في حكمها.

• إنّ ممّا جعل من حركة الإحياء كيانا حيزاً لنفسه حضوراً قوياً داخل المجتمع الجزائريّ، وأصبح رقماً فكريّاً واجتماعيّاً وسياسيّاً مهمّاً، هو قيام الحركة على أساسين: أولهما نظريّ، وهو تلك الرّؤية التي أصّلت فكر الإحياء، ورسمت مساره، وأخفت أبعاده مداراةً، وثانيهما تطبيقيّ، وأبرزه تفاعل مئات من الأعلام في مواقع مختلفة، ومئات من المؤسّسات عبر نشاطات إحيائيّة تعليميّة وتوعويّة متكاملة وفاعلة.

• إنّ استعراض عناصر الإحياء اللّغويّ في الجزائر مجتمعةً، وإظهار كيفية تفاعلها وتفاعلها وإيضاح تتاعُمها، تحوّل بها من نشاطات معزولة، وجهودٍ فرديّة إلى مشروعٍ أخذ يجمع مكوّناته شيئاً فشيئاً، ويؤلّف بين عناصره حتّى استوى حركة كاملة الأركان، واضحة البنّيان، نهاية العقد الرّابع من القرن (20).

• تمكّنت الأطروحة من معرفة عددٍ من شركاء الإحياء وأطرافه، لم تكن جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين طرفه الوحيد، بقدر ما كانت أكبر إطارٍ جمّع نشاط الإحياء، وأحسن رعايته، فقد كانت هناك أطراف ممثّلة في جمعيّات وأفراد، لم يجمعها بالجمعيّة الانتساب، ولكنّها قدّمت لحركة الإحياء ما يجب

الخاتمة

ألا يُعْمَط لها فيه حقٌّ، كما أبانت الأطروحة عن صور مُشرقة وأخرى مظلمة، ووقفت على سياقٍ تاريخيٍّ حافلٍ بأحداثه ورجاله وأقلامه، ولئن قُدِّرَ لبعضها أن يجمع بين صدق اللّهُجة وجمال البيان، وبين التّحليّ بالوطنية الغامرة وسلامة العبارة، وبين الإحساس بحجم معاناة الأمّة وروعة التّعبير عنها، فإنّ بعضها قد سجّل عليها التّاريخُ عثرات الممارسة، وتواطؤ القصد مع رغائب الاحتلال، وأنّ الكثير من المكوّنات الجزائريّة كان لها نصيبٌ -قلٌّ أو كثر- في إشاعة الحرف العربيّ، والإسهام في إعادته إلى السّاحة الجزائريّة العامّة، بعدما غشي الحرفُ الفرنسيّ كلّ ما قد تقع عليه أعين النّاظرين، من أسماء المدن والشّوارع والمؤسّسات ولافتات المحلّات وواجهات الصّحف.

• وقفت الأطروحة على العشرات من أسماء أعلام الإحياء، الذين غطّت على جهودهم صروف الزّمن، وتجاهل الخلف، وألمحت إلى العديد من الجهود الإحيائيّة اللّغويّة والأدبيّة المهملة، ولئن لم يكن بالإمكان بسط القول فيها، فإنّ المبتغى هو عرضها في إطار السّياق التّاريخيّ لحركة الإحياء وملابساته المختلفة، عسى أن تكون مجالا لدراساتٍ أخرى تُقيضُ فيها وتُضيف.

• تُعدّ المدوّنَةُ الصّحفيّةُ الجزائريّةُ خلال القرن العشرين الشّاهد الأكثر إثباتا لحقيقة هذا الإحياء أو نفيه، كما تعكس تطوّر مستوى الكتابة اللّغويّة منذ بداية القرن، أو على الأقل اكتمال نماذج معتبرة منه وهي الوثيقة التّاريخيّة الأكثر استغراقا للنّصف الأوّل من القرن (20) على ما في هذا الاستغراق من فجوات زمنيّة، كالانقطاع الذي تزامن مع سنوات الحرب الأولى، ثمّ في ظاهرة الوقوف القاهر، أو التّوقيف القسري الذي طال الصّحف العربيّة الجزائريّة، والذي تراوح استمرار الصّحف فيه أو انقطاعها ما بين صدور عددٍ واحد ومئات الأعداد.

• نَبّهت الأطروحةُ إلى الدّور الفاعل والخطير الذي أطّرت به حركة الاستشراق الفرنسيّ مظاهر الحياة الجزائريّة كلّها، والثّقافيّة منها تحديدا، واللّغويّة منها بصورة أدقّ، وهو الدّور الذي يمكن عدّه الحركة المضادّة الحقيقيّة لحركة الإحياء اللّغويّ والأدبيّ، بما انتهجته من ظاهرٍ علميّ، وخفيّ استعماريّ مُستقويّة بما تهيا لها من كفاءات بشريّة، وموارد مادّيّة، وخبرة طويلة.

• لفتت الأطروحةُ النّظرَ إلى الدّور الكبير للمهاجر الجزائريّ في إمداد حركة الإحياء اللّغويّ في الجزائر، من خلال التّكوين والتّوجيه والإعداد، ولربّما أمكن القول إنّ أمثال الشّيخ طاهر الجزائريّ وطبقته ببلاد الشّام كانت البذّر الرّوحيّ الخارجيّ الأوّل لحركة الإحياء اللّغويّ في الجزائر.

الخاتمة

• طرقت الأطروحة مسألة علاقة الإحياء اللغويّ المشرقيّ بالإحياء اللغويّ في الجزائر، واجتهدت في تقييم مدى تأثر الثاني بالأول، فوقفت على وجوب إعادة قراءة علاقة الإطلاق والتبعية بمزيد من الحفر والتّحقيق، وكان ما بلغته مبرراً مبدئياً يسعى لهدم تلك المقولة لاعتبارات الفارق الزمّني، والفروق الكبيرة في الظروف السّياسيّة والاجتماعيّة، ثمّ لطبيعة الإحياء المشرقيّ المتكئ على النّتاج الأوربيّ (الإنكليزي والفرنسيّ خاصّة) بينما اتّكأ الإحياء اللغويّ الجزائريّ على رصيد تراثيّ عربيّ قديم، مع نزوع واضح إلى إبداعات التّيّار المشرقيّ المحافظ.

ومن ثمّ فإنّ رجّع الصّدى للإحياء المشرقيّ على الإحياء اللغويّ في الجزائر ينبغي أن يقدر بقدره ناهيك عن الإسهام الجزائريّ في المهاجر المشرقيّة، والتي تعدّ -لحدّ الساعة، وفي حدود ما سمح به الاطّلاع- معبّراً منسياً، كان له أثر معتبر على إحياء لغويّ بأيّ جزائريّة على جغرافيا مشرقية.

• لقد كان للطّفرة القياديّة السّريّة والمفاجئة من خارج حركة الإحياء، وسحب القيادة العلميّة والفكريّة والاجتماعيّة من تحت أقدام الإحيائيّين، تأثير كبير في انحسار مجالات الإحياء اللغويّ، وتراجع فعاليّته، بفعل ظروف الحرب، ثمّ في تشظّي قيادة الإحياء العلميّ، وحركة الالتفاف التي هيأ لها المخبر الكولونياليّ.

• أبانت الأطروحة موقع المسألة اللغويّة من المجتمع، فبعد أن كادت الفرّنة تتغشى المجتمع الجزائريّ، وتصبغه بصبغة أوريّبة؛ بعثت حركة الإحياء واقعا لغويّاً عربياً جديداً، أخذ في التّطوّر والارتقاء عمودياً، والانتشار والتّمديد أفقيّاً، ليصبح شريكا مهماً في صنع الواقع اللغويّ، وتعديل كفة الاستئثار الفرنسيّ لعقود طويلة، وهو الأمر الذي أعاد الاعتبار الاجتماعيّ من طريق اللّغة لنحو تسعة أعشار السّاكنة الجزائريّة النّاطقة بالعربيّة، والمفكّرة بها بحكم الفعل، بعد أن استحوذ العُشر العاشر على الواقع الجزائريّ بحكم القوّة.

• لا تزال القضايا اللغويّة في الجزائر مدينةً لأنّقال ذات خلفيّات تاريخيّة، ومحكومة برواسب إيديولوجيّة، أكثر من استجابتها لمسلّمات الواقع اللّسانيّ، وتقريرات المقولات العلميّة للّسانيّات، وهو الأمر الذي يمكن من خلاله اعتبار المسألة اللغويّة محور الصّراع في النّصف الثّاني من القرن (20).

• رصدت الأطروحة موقع اللّغة العربيّة قبل حركة الإحياء في وضعها المهترّ، وممتنها المتآكل بفعل ما أنزل بها من التّضييق والتّحييد على عهد الأتراك، ثمّ بما حاق بها من الإماتة والإفناء على عهد الاحتلال الفرنسيّ، ثمّ قابله بما أعادته لها حركة الإحياء من أسباب الحياة، ومظاهر الاستعادة

الخاتمة

بعد أن تابعت تدرّجها بين أقلام الشعراء والخطباء والمؤلفين، ورهان المطالبات في برامج السياسيين ومقامات الاعتزاز والانتماء لدى غالب الجزائريين.

• لاحظت الأطروحة على حركة الإحياء اللغوي في الجزائر عدم استطاعتها استرجاع كلّ ميادين النشاط اللغوي العلمي والأدبي، فلقد تحقّق لهذه الحركة ثمرات كريمة على صعيد التعليم العربي، والارتقاء بالخطابة، وتطوّر المقال بأنواعه، والنقّلة النوعيّة للشعر الجزائري الحديث، والتّحسّن المشهود للكتابة القصصيّة والرّوائية، وارتفاع مستوى الكتابة الصّحفيّة، ولكنّ هذه الحركة بقيت مضايقة بقضايا الكتابة الجزائريّة بالحرف الفرنسي، وبآثار المدرسة الاستشراقية في الدّراسات اللّغويّة الفصيحة، والأداءات اللّهيّة والإبداع الأدبي، وبمخلّفات الجهود الكبيرة لإحلال العاميّة بدل الفصحى في الجزائر، وما إليها من مجالات النشاط الاستشراقي، وقد يكون للظّروف التّاريخيّة الاستثنائية، القسط الأوفى في ذلك.

• لأن كانت الحرب التّحريريّة فاصلا محوريّا في تاريخ الجزائر الحديثة، إذ تحوّلت لها كلّ جهود الأفراد والتّنظيمات، فإنّه يُحسب لحركة الإحياء إمداد الحركة الوطنيّة بمئات العناصر ذات التّكوين العلمي والوطنيّ النوعي، واستنّقت لما بعد التّحرير آخرين، ولكنّ الفاعليّة الحقيقيّة للحركة كانت قبل الثّورة، أمّا بعدها، فإنّ تفكّك الإطار الحاضن، وتحديات مرحلة الثّورة، وصعود إطارات جديدة نشأت خارج إطار حركة الإحياء، وغير ذلك من الاعتبارات المتسارعة، قد رهن مسار الإحياء، وسدّ آفاقه.

• فهل يمكن اختصار القول في مسألة الإحياء اللّغوي في الجزائر أنّه مشروع نشأ، ثمّ استوى حركة، ولم يقدر لها أن تكتمل؟

مسرد المصطلحات

مسرد مفهومي للمصطلحات

تنويه: لما كان هذا المسرد غير مقصود لذاته، فقد تُبِت فيه ما اعتقدت الأطروحة من المصطلحات أنها مظنة شرح وبيان، فصُفِّت بمعانيها ودلالاتها ألفبائياً، وتُبِت مُقابلها الأجنبيُّ باللغة التي استعملها المرجع الذي تَمَّت العودة إليه، وإضافة المقابل الأجنبي بالفرنسيَّة لما ورد بالإنكليزيَّة، وبالإنكليزيَّة لما ورد بالفرنسيَّة، وبالفرنسيَّة وحدها أو بالأبجدية الصَّوتيَّة لما ورد دونهما في الأصل مع الإحالة على المرجع بالتحديد كما اجتهدت الأطروحة في وضع مقاربة تعريفية لبعض المصطلحات التي رأت أفضلية استعمالها السياقية، ولم تجد لها مقابلاً تعريفياً في المراجع التي بلغت.

1- **آثار لغة:** (an/stratum) (fr/Superstrat) يشار بهذا المصطلح إلى مجموع أحداث وهزات لطالما ميّزت لغة سادت أرضاً معينة، ثم ما لبثت أن توارت مخلفة آثاراً لسانية لا يُستهان بها. عبد الجليل مرتاض القاموس الوجيز في المصطلح اللساني، د ط. الجزائر: 2017م، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، ص 387.

2- **الأجواد:** (an/noble) (fr/nobles) الفرسان، أشراف الحرب، ذوو المكانة الأرستقراطية، أهل السيف. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ط خ. الجزائر: 2011م، عالم المعرفة، ج 10، ص 8.

3- **أحادي اللغة:** (an/Unilingual) (fr/Uniligue) المتكلم أحادي اللغة هو المتكلم الذي يستعمل في تواصله داخل عشيرة لغوية، لغة واحدة. مكتب تنسيق التعريب، المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات د ط. الرباط: 2002م، مطبعة النجاح الجديدة، ص 159.

4- **أحادية اللغة:** (an/monoliguisme) (fr/Monolingualism) القدرة على التحدث بلغة واحدة فقط، ويحيل المصطلح في سياق آخر على سياسة لغوية تعمل على تقوية اللغة الرسمية. فلوريان كولماس، دليل السوسيو-لسانيات تر: خالد الأشهب -ماجدرلين النهيي، ط 1. بيروت: 2009م، المنظمة العربية للترجمة ص 963.

5- **إحياء اللغة:** (an/Language Revival) (fr/la revivification de la langue) محاولة من قبل الحكومات والسلطات السياسية، أو المتحمسين لاستعادة الاستعمال الشفوي للغة التي لم يعد متحدّثاً بها أو مهددة بالزوال. فلوريان كولماس، في دليل السوسيو-لسانيات، ص 963.

6- **إدارة الشؤون الأهلية (العربية):** (fr/ Direction des affaires civiles et du sceau) إدارة تابعة للحاكم العام الفرنسي، تتولّى حكم المسلمين الجزائريين على رأس هذه الإدارة ضابط فرنسيّ يسمّى مدير الشؤون الأهلية. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 10، ص 8.

7- **الإزاحة اللغوية:** (an/déplacement linguistique) (fr/Displacement Language) مرحلة ابتدائية تمارسها اللغة المزيجة على اللغة المزاحة بغرض إِمَاتتها وتنتهي بحالة تتخرط فيها العشيرة اللغوية المزاحة في صميم اللغة المزيجة.

- 8- ازدواجية لغوية: (an/Diglossia) (fr/ diglossie) وضع لغوي يستعمل فيه المجتمع لغتين، غالبا ما تكونان في علاقة ببعضهما، إحداهما مكتوبة وذات امتياز تستعمل في الشؤون العامة والنصوص الرسمية والأخرى منطوقة تستعمل في الخطاب الشفوي. فلوريان كولماس، دليل السوسيو-لسانيات ص 964. استعمال نظامين لغويين في آن واحد، للتعبير أو للشرح، وهو نوع من الانتقال من لغة لأخرى. صالح بلعيد، في الأمن اللغوي، ط2. الجزائر: 2012م، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، ص 222.
- 9- الاستشراق: (an/ Orientalism) (fr/ Orientalisme) أسلوب من الفكر قائم على تمييز وجودي (أنطولوجي) ومعرفي (إبستمولوجي) بين الشرق و-في معظم الأحيان- الغرب، بوصفه [التمييز] نقطة الانطلاق لسلسلة مُحكَمَة الصياغة من النظريات والملاحم، والروايات، والأوصاف الاجتماعية، والمسارد السياسية التي تتعلق بالشرق وسكانه وعاداته ومصيره وهلم جرا، وهو المؤسسة الجماعية للتعامل مع الشرق واعتماد آراء معينة عنه، ووصفه وتدريبه للطلاب، وتسوية الأوضاع فيه والسيطرة عليه. إدوارد سعيد، الاستشراق -المفاهيم الغربية للشرق- تر: محمد عناني، ط1. القاهرة: 2006م، رؤية للنشر والتوزيع، ص 45.
- 10- أطلس لساني: (an/ linguistic atlas) (fr/ Atlas linguistique) مصور جغرافي لجهة أو منطقة أو بادية أو مدينة ... يحدّد من خلالها مستوى من المستويات اللغوية المتداولة فيها لا يضاهي ما يتداول وسط مجموعة لغوية أخرى، قد يكون هذا المستوى صوتياً أو صرفياً أو نحوياً أو معجمياً أو دلالياً أو عامّاً. عبد الجليل مرتاض، القاموس الوجيز في المصطلح اللساني، ص 46.
- 11- إعادة بناء: (fr/ Reconstruction) (an/ reconstruction) إعادة تركيب لغوي بالنظر إلى أصله التاريخي، وهذا بند من بنود بعث لغة وإحيائها للتعبير بها عمّا يتحرّك ويسكن في حياتنا الجديدة. عبد الجليل مرتاض، القاموس الوجيز في المصطلح اللساني، ص 330.
- 12- الأعلام: (an/ outlanders) (fr/ étrangers) المسيحيون الذين اعتنقوا الإسلام أولادهم غير العرب، غير الأشراف، الرّوم. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 10، ص 8.
- 13- إغماس لغوي: (an/ language Immersion) (fr/ immersion linguistique) طريقة لتعليم اللغة الثانية في الأنشطة داخل القسم، أمّا تلك التي تكون خارجة فهي دائما باللغة الهدف. فلوريان كولماس، دليل السوسيو-لسانيات، ص 964.
- 14- الإماتة اللغوية: (an/ linguistic burial) (fr/ enterrement linguistique) عملية تدريجية هادئة غالبا، تستهدف القضاء على اللغة قصداً من خارجها بانتهاء إجراءات تحدّ من استعمالها المنطوق والمكتوب، وقد تستهدف اللغة في ذاتها أو الناطقين بها.
- 15- الانتحار اللغوي: (an/ Language Suicide) (fr/ Suicide linguistique) موت اللغة مع موت ممارسيها، وعدم تعليمها للأجيال اللاحقة.

- 16- أنتلجانسيا: (an/ Intelligentsia) (fr/ Intelligentsia) نخبة المفكرين في مجتمع ما. مكتب تنسيق التعريب، المعجم الموحد لمصطلحات التّواصل اللّغوي، د ط. الرباط: 2011م، مطبعة النجاح الجديدة ص85.
- 17- الأندجين: (fr/ indigène) (an/ native) الإنسان الجزائري المسلم، الجزائري الأصلي. وهو المنظور إليه من الفرنسيين عادة على أنّه يُمثّل الإنسان الأمّيّ والمُتخلّف والمقهور. المُستعمر (بالفتح). أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج10، ص8.
- 18- الأندجينا: (fr/ Code de L'indigénat) (an/ laws of the Indigénat) مجموعة القوانين الصّادرة لقهر الإنسان الجزائري المسلم (الأندجين) حالة كون الجزائريّ مُستعمرًا مقهورًا. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج10، ص8.
- 19- الاندماج: إلحاق الجزائر إداريًا، وسياسيًا، واقتصاديًا، وتعليميًا، بفرنسا. جعل الجزائر جزءا من فرنسا في الواقع وليست مُستعمرة، إلحاق الجزائريين بالفرنسيين عن طريق القوانين الفرنسيّة. مطالبة بعض الجزائريين (النخبة) بمساواتهم مع الفرنسيين بواسطة الدّمج الحضاريّ. أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي، ج10، ص8.
- 20- الانفجار اللّغوي: (an/ The linguistic explosion) (fr/L'explosion linguistique) explosion حالة النّطق المفاجئ عند الأطفال، وقد يُستخدم للتّعبير عن استعادة مستوى معين من اللّغة على مستوى اجتماعيّ واسع سريع فاعل.
- 21- الأهالي (م. أهلي) (an/ indigenous(native) (fr/ indigène) هو الاسم الذي أطلقه الفرنسيون على المسلمين الجزائريين، إشعارًا لهم بأنّهم دون الفرنسيين والأوروبيين عموما. هم المسلمون الجزائريون الذين فضّلوا البقاء على حكم الشّريعة الإسلاميّة بدل الدّخول تحت طائلة القوانين الفرنسيّة. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج10 ص9.
- 22- البرّاني: (fr/ étranger) (an/ foreign) مصطلح عامّيّ يحمل معنى الخارج عن المدينة شاع إبان العهد التّركيّ الأخير، وأُطلق على الجماعات النّازحة إلى المدن من البيئات الرّيفيّة المختلفة نزوحًا مؤقتًا مضطربًا، في حركة مجيء وإياب، بغرض غالبا ما يكون العمل وكسب الرّزق.
- 23- تآكل اللّغة: (fr/ attrition de la langue) (an/ Attrition Language) ضياع اللّغة الأولى أو الثّانية أو جزء من هذه اللّغة سواء بواسطة العشيرة أم بشكلٍ فرديّ، ويتعلّق تآكل اللّغة بالتّعدّد اللّغويّ واكتساب اللّغة. فلوريان كولماس دليل السّوسيو-لسانيّات، ص965.
- 24- تحوّل اللّغة: (an/Language shift) (fr/Changement de langue) سيرورة تتحوّل بموجبها عشيرة لغويّة إلى الحديث بلغة أخرى. فلوريان كولماس، دليل السّوسيو-لسانيّات، ص965.

25- التداخل اللغوي: (fr/ Interférence linguistique) (an/ Language Interference)

(إسهام لغة أو لغتين في إنتاج لغة ثالثة، ليس شرطاً أن تكون اللغة المتولدة لغة كاملة، بل يمكن أن يكون التوليد في إحدى مستوياتها كالنوليد اللفظي أو التركيبي أو المعنوي ويخضع هذا المبدأ إلى قانون التأثير والتأثير أو التلاقح اللغوي. مشتاق عباس معن، المعجم المفصل في مصطلحات فقه اللغة المقارن ط1. بيروت: 1423هـ-2002م، دار الكتب العلمية، ص40.

26- ترسيمة: (fr/ Schéma) (an/ schema) رسم بياني يستعمله اللسانيون المحدثون لتبيان

بنيات لغوية صورياً، أو لبيان بعض التعميمات اللسانية، مثلما أصبحت الترسيم تستعمل في تحليل الخطاب وأجناس أدبية واجتماعية بغية تقريب ما هو مختفٍ أو مجرد إلى الذهن حتى يدركه ظاهرياً أو ملموساً. عبد الجليل مرتاض، القاموس الوجيز في المصطلح اللساني، ص344.

27- تشريع لغوي: (fr/ législation linguistique) (an/ Linguistic Legislation)

(مجموع القوانين التي تنظم استعمال اللغات في مجتمع ما. فلوريان كولماس، دليل السوسيو-لسانيات ص965.

28- التعدد اللغوي: (fr/ multilinguisme) (an/ multilingualism) يشار به إلى استعمال

أكثر من لغة واحدة داخل بلد واحد ويقوم على سياسة لغوية مدسّرة أو مقنّنة تعترف بالتعدد اللغوي وتقرّ بالتكافؤ بين اللغات المستعملة على قدم المساواة. عبد الجليل مرتاض، القاموس الوجيز في المصطلح اللساني، ص302.

29- التعسف: (fr/ abus) (an/ Abus) (وضع لغوي في غير موضعه) التعسف اللغوي في

استعمال كلمة غير مقبولة ناجم عن متكلم متفصح، أو متفهم أكثر ممّا ينجم عن متكلم جاهل باللغة التي يتكلم. عبد الجليل مرتاض، القاموس الوجيز في المصطلح اللساني، ص12. (تعقيب) وقد يطلق المصطلح على صناعة وضع معين تلحق ممارساته وإجراءاته باللغة أضراراً تختلف درجاتها بالظروف والاعتبارات المصاحبة.

30- التنقية اللغوية: (fr/ Purification de la langue) (an/language Purification)

إجراء يستهدف به الخبراء اللسانيون تخطيط الاستعمال الأسلم للغة، وتخليصها ممّا يهدّد بناها المختلفة والتوصية به للتوظيف الميداني، وقد تدعم ذلك جهات سياسية وتعليمية وإعلامية.

31- تهجين لغوي/ كريلة: (fr/ créolization) (an/ Creolization) استعمال للغة بطريقة

غير صحيحة من طرف مستعملين متأثرين بلغاتهم الأصلية. فلوريان كولماس، دليل السوسيو-لسانيات ص966.

32- ثنائية ثقافية: (fr/ Biculturalisme) (an/ Biculturalism) سياسة الثنائية الثقافية

يتمّ تبنيها بشكل نموذجي في الدول التي خرجت لتوها من تاريخ صراع وطني إثني حيث لم يستطع أي جانب أن ينتصر انتصاراً كاملاً. فلوريان كولماس، دليل السوسيو-لسانيات، ص966.

33- ثنائية لغوية: (an/ Bilingualism) (fr/ bilinguisme) يمكن أن يُحيل هذا المصطلح على تواردهم المتكلم الفردي الذي يستعمل لغتين أو أكثر، ويحيل على مجموعة من المتكلمين الذين يتحدثون لغتين أو أكثر أو بين متكلمين للغات مختلفة. فلوريان كولماس، دليل السوسيو-لسانيات، ص 967.

34- ثنائية لغوية: (an/Diglosse) (fr/Diglosse) وضعيّة تميز الأفراد، ومجموعة من الأفراد أو التجمّعات اللسانية المستعملة بالتنافس تكلمين اثنتين أو تنوعين للغة بذاتها، فالعربي الذي يستعمل بالتبادل العربية الفصحى أو الأكاديمية واللهجة الخاصة المتكلمة شفهيًا، يمثل بصدق حالة الثنائية... بل المغاربيون الذين يتكلمون الأمازيغية والعامية العربية سليقة إلى جانب العربية الفصحى التي اكتسبوها تعلّمًا، يمثلون وضعيّة لغوية ثلاثيّة. عبد الجليل مرتاض، القاموس الوجيز في المصطلح اللساني ص 107.

35- الجفاف اللغوي: (an/Linguistic drought) (fr/Sécheresse linguistique) وصف لعجز مستعمل اللغة عن إيجاد المصطلحات الدقيقة والألفاظ المناسبة في لغته إمّا بسبب عدم إحاطته برصيد كافٍ منها، وإمّا بسبب ضعف آليات إمداد اللغة المستهدفة بالمقابل اللغوي لمستجدات الحياة العامة من مثل ما يعترى اللغات غير المنتجة للمعرفة.

36- جيو لساني: (an/Geo-linguistic) (fr/Géolinguistique) يُطلق على دراسة التغيّرات التي تطرأ في استعمال اللغة من قبل أفراد تجمّعات اجتماعيّة من أصولٍ جغرافيّة مختلفة. عبد الجليل مرتاض، القاموس الوجيز في المصطلح اللساني، ص 152.

37- حالة اللغة: (an/state of language) (fr/ État de langue) فضاء زمنيّ طويل إلى حدٍّ ما، تتغيّر فيه لغة فجأة، ودونما شعور محسّ من الجماعة اللغوية، غير أنّ حالة مثل هذه لا تخصّ إلاّ أمرين: العهد الغابر ولغتنا الطبيعيّة (عاميتنا الشفاهيّة) عبد الجليل مرتاض، القاموس الوجيز في المصطلح اللساني، ص 130.

38- الحقّ اللغوي: (an/Droit linguistique) (fr/Linguistic righ) مكسبٌ طبيعيّ لجملة من الامتيازات التي يتمكّن الناطق أو الناطقون من ممارسة ما تسمح به لغتهم، أو تقدر عليه.

39- الدُخلاء: (an/outsideers) (fr/les étrangers) صنفٌ من التشكيل السُّكاني الجزائريّ أفرزته طبيعة الحكم التركيّ في الجزائر، ويشكّله الأسرى المسيحيّون واليهود والزُّنوج المجلوبون قسرا أو التّازحون اختيارا من السّاحل الإفريقيّ.

40- الدُّنوش: (Dounouch) زيارة الباي السنوية للدّاي تعبيرا عن التّبعيّة والولاء، الهدايا التي يحملها الباي معه أثناء الزّيارة المذكورة لتقديم فروض الطّاعة. خراج الإقليم الذي تحت الباي. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 10، ص 9.

- 41- رطانة: (an/Jargon) (fr/jargon) لغة شفهيّة من النّوع الاجتماعيّ، يستعملها الممارسون لمهنة أو نشاط ما. فلوريان كولماس، دليل الشّوسيو-لسانيّات، ص 967.
- 42- الزّاوية(ج. زوايا):(an/small mosque) (fr/petite mosque) مبنّى يضمّ قبة وضريح الوليّ أو شيخ الطّريقة، ومسجدا وقبورا لأبناء وأحفاد الوليّ أو الشّيوخ، وأحيانا يضمّ مكتبة وملجأ للغرباء. بعض الزّوايا أصلها رباطات. هناك زوايا اشتهرت بالتّعليم وأخرى بالعبادة واستقبال الزّوّار والفقراء. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، ج 10، ص 9.
- 43- سابير (Sabir - pidgin) لغة ناقلة تُستخدم في التّواصلات بين فئات أو حتّى شعوب تملك لغات يعود كلّ منها إلى لغة تختلف عن الأخرى، وهي تتجم عن تأليف من لغتين أو أكثر يفرض الاحتياج والتّواصل الضّروريّ بين هذا الاختلاط من النّاس أن يجعل هذه التّكلمات المتباينة في اتّصال. عبد الجليل مرتاض، القاموس الوجيز في المصطلح اللّسانيّ، ص 342.
- 44- سياسة لغويّة: (an/ Language Policy) (fr/ politique linguistique) ممارسة الدّولة إزاء لغة أو لغات لتشجيع أو إعاقة استعمال لغة خاصّة أو مجموعة لغات. فلوريان كولماس، دليل الشّوسيو-لسانيّات، ص 967.
- 45- الصّراع اللّغويّ: (an/ Language conflict) (fr/ Conflit linguistique) تنافس لغتين أو أكثر في التّداول والتّخاطب، ويكتب البقاء للأقوى والأكثر تطوُّرا وتختلف نسب الصّراع فتارة يكون عامّا فيؤدّي في نهاية المطاف إلى موت لغة وحياة أخرى محلّها، وقد يكون خاصّا فيؤدّي إلى طغيان أثر اللّغة المنتصرة على اللّغة الخاسرة. مشتاق عباس معن، المعجم المفصّل في مصطلحات فقه اللّغة المقارن، ص 67.
- 46- الظّهير البربريّ: (an/ berber dahir) (fr/ Le dahir berbère) مرسوم صدر في المغرب الأقصى (مراكش) على عهد الحماية الفرنسيّة، لإحلال الأعراف محلّ أحكام الشّريعة الإسلاميّة، المرسوم الذي فهم سكّان المغرب منه أنّه يهدف إلى التّفريق بينهم على أساس العرق والتّمهيد لسيادة القوانين الفرنسيّة. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، ج 10، ص 10.
- 47- علم اللّهجات: (an/ Dialectology) (fr/ Dialectologie) مجالّ فرعيّ من اللّسانيّات يدرس اللّهجات والتّنوع اللّغويّ المرتكز أساسا على التّوزيع الجغرافيّ. فلوريان كولماس، دليل الشّوسيو-لسانيّات ص 968.
- 48- قانون الأهالي: (an/ indiginate) (fr/ indigénat) رغم الاسم المفرد فهو يشير إلى مجموعة من القوانين الاستثنائيّة الخاصّة التي أصدرتها السّلطات الفرنسيّة لردع المسلمين الجزائريّين (انظر الأندجينا). أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، ج 10، ص 11.

- 49- **القتل اللغويّ:** (an/ Language Murder) (fr/ Meurtre de langue) عملية تستهدف التخلّص من استعمال لغويّ ما، إمّا بالتّحيد القسريّ لأشكال استعمالها، وإمّا بإبادة النّاطقين بها (مثاله إبادة الهنود الحمر) دليل السّوسيو-لسانيّات، فلوريان كولماس، ص 610-612. مصطلح يصف العلة القصديّة لموت اللّغة، ويصف كذلك موت اللّغات غير المقصود نتيجة التّنافس وميكانيزمات أخرى. فلوريان كولماس، دليل السّوسيو-لسانيّات ص 968.
- 50- **الكراغلة:** (ج. كراغلي/ Kouloughlis) أبناء العبيد، المولّدون من أمّ جزائريّة وأب تركيّ. فئة من الحضر كانوا في الدّرجة الثّانية في السّلم الاجتماعيّ بعد فئة الحكّام خلال العهد العثمانيّ. أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثّقافي، ج 10، ص 11.
- 51- **الكركوز:** (an/ shadow puppet) (fr/ marionnette d'ombre) مسرح خيال الظلّ طريقة التّمثيل التّقليدي بقيادة بطل واحد أو أكثر. التّمثيل بحركات ساخرة. ألغى الفرنسيون مسرح الكركوز من أوّل الاحتلال بدعوى أنّه يحثّ على العنف. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، ج 10 ص 11.
- 52- **الكولون:** (an/ settlers) (fr/ les colons) المستوطنون الأوربيّون سواء كانوا فرنسيّين بالأصالة أو متجنّسين. مُلاك الأراضي التي كانت للجزائريّين، الرّافضون منهم للمساواة مع الجزائريّين. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي، ج 10 ص 11.
- 53- **لسانيّات الإنقاذ:** (an/ Salvage Linguistics) (fr/ Linguistique de sauvetage) توثيق الإجراءات المكتبيّة والميدانيّة التي تستهدف إنعاش لغة مهّددة بالانقراض لضيق استعمالها أو ندرة مستعمليها. فلوريان كولماس، دليل السّوسيو-لسانيّات، ص 566.
- 54- **لسانيّات ديموغرافيّة:** (an/ Demolinguistics) (fr/ Démo linguistique) فرع من السّوسيو-لسانيّات يراقب التّعيرات اللّغويّة النّاتجة عن التّوزيع وإعادة الانتشار السّكاني، وأوضاع المجتمعات، وتأثير التّقنم التّكنولوجي. فلوريان كولماس، دليل السّوسيو-لسانيّات، ص 969.
- 55- **لسانيّة جغرافيّة:** (an/ Geographical) (fr/ Géographie Linguistique) (Linguistics) جزء من علم اللّهجات، وهو دراسة التّنوع في استعمال اللّغة عند الأشخاص، أو المجموعات من أصول جغرافيّة مختلفة. مكتب تنسيق التّعريب، المعجم الموحد لمصطلحات اللّسانيّات، ص 62.
- 56- **لغة طبقة دنيا:** (an/ lower class Language) (fr/ langue de la classe inférieure) اللّغة المحليّة التي تساهم بسماتها في لغة الغازي الذي يفرض لغته على السّكان المحليّين. فلوريان كولماس، دليل السّوسيو-لسانيّات، ص 969.

- 57- لغة طبقة عليا: (fr/ Langue de la classe (an/ Upper class Language) (supérieure) اللغة التي تستعملها الطبقة المهيمنة سوسيو-اقتصادياً. فلوريان كولماس، دليل السوسيو-لسانيات، ص 969.
- 58- لغة هجين/ كريول (Creole) لغة ناتجة من تحولات خضع لها نسق لغوي استعمل بطريقة غير صحيحة نتيجة تأثير اللغات الأصلية لمستعمليه، وتكون وسيلة للتواصل بين أفراد مجموعة كبيرة. فلوريان كولماس، دليل السوسيو-لسانيات، ص 968.
- 59- ثقافة: (fr/ Acculturation) (an/ acculturation) يُطلق على كل الظواهر الاجتماعية الثقافية التي تعود إلى الاكتساب أو المحافظة أو التعديل، ويتعلق الأمر بفرد أو فريق إنساني يمثل قيمة ثقافية لفريق بشري آخر، حتى يستطيع أن يتأقلم مع السياق السوسيو-ثقافي الجديد الذي وجد نفسه فيه، وهذه الثقافة تشمل أضرباً من الاكتسابات (لغة، عادة جديدة، سلوك، ...) عبد الجليل مرتاض القاموس الوجيز في المصطلح اللساني، ص 15.
- 60- المخزن: (fr/ Le Makhzen) (an/ Makhzen) الحكومة، ممثلو النظام العام القبائل المحاربة إلى جانب الحكومة نظير إقطاعات. [لفظ شاع استعماله في العصر التركي الأخير] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 10، ص 12.
- 61- مستوى التعبير: (fr/ Registré) (an/ register) مفهوم متعلق بلسانيات الخطاب ويُطلق لسانياً على تبدلات الاستعمال اللساني التي يمكن أن تتعلق بطبيعة العلاقات بين المخاطبين (Interlocuteur) وبانتباههم، وبالمواضيع المتناولة على مستوى الناحية الشكلية، أو الألفة المختارة. عبد الجليل مرتاض، القاموس الوجيز في المصطلح اللساني، ص 334.
- 62- المشهد اللغوي الثالث: (fr/ La troisième scène linguistique) (an/ The third linguistic scene) استخدام لغوي طارئ يلجأ إليه المتساكنون في بيئة مزجاً بين لغتين إلى حد يحقق عملية التواصل، فيؤدي ذلك إلى إنتاج شكل لغوي ثالث مزيج بين لغتين أو لغات.
- 63- المقاومة اللغوية: (fr/ Résistance linguistique) (an/ Linguistic Resistance) قدرة اللغة على تحمل آثار الاحتكاك اللغوي الذي يصيبها بفعل تجاورها أو التزاور الحاصل بين اللغات. مشتاق عباس معن، المعجم المفصل في مصطلحات فقه اللغة المقارن، ص 120.
- 64- المملكة العربية: (fr/ Royaume arabe) (an/ the Arab kingdom) تعبير ظهر في الستينيات من القرن (19) ويعني سياسة نابليون الثالث نحو المسلمين الجزائريين. محاولة تولية الأمير عبد القادر على الجزائر نيابة عن نابليون الثالث، وهي المحاولة التي عارضها الكولون بكل شدة. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 10، ص 12.
- 65- منشور ميشيل (1933م): (fr/ publication de (an/ Michelle publication) (michelle) ميشيل هو أمين عام حكومة الجزائر الاستعمارية. ونص منشوره على منع العلماء

المصلحين (غير الحكوميين) من نشر التعليم باللغة العربية واستعمال المساجد للوعظ والإرشاد تحت طائلة عقوبات صارمة. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج10، ص12.

66- **المَوَات اللُّغَوِيُّ**: (an/ Linguistic death) (fr/ la Mort linguistique) وصفَ لوضعٍ خارجيٍّ لا إراديٍّ يدرك اللُّغة، من مثل ما ينزل بمتكلميها من الوباء، أو بهجر أهلها لها هجراً جماعياً واسعاً، وعلى امتداد زمنيٍّ معيَّن، فتموت تدريجياً.

67- **موت اللُّغة**: (an/ Language Death) (fr/ la mort de la langue) حالةٌ طبيعيَّة تنزل بالُّغة حين يُعرض عنها مستعملوها بعدم توريثها، أو تعجز عن مسايرة وسطٍ اجتماعيٍّ ذي استعمال لغويٍّ غالب، فتسير طبيعياً إلى الانقراض بوفاة آخر المستعملين لها. ديفيد كريستال، موت اللُّغة تر: فهد بن مسعد اللهيبي، د ط. د ب: د د ص 23.

68- **النُّخبة**: (an/ Elite) (fr/ les Elites) فئة قليلة من الجزائريين تأثرت بالثقافة الفرنسيَّة واختلطت بالفرنسيين عن طريق الزَّواج والوظائف والتَّمكُّن والمصير المشترك. الجماعة الجزائريَّة المُتسيِّسة التي طالبت بالاندماج في فرنسا ولو بالتَّخلي عن أحكام الشَّريعة الإسلاميَّة. أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي، ج10، ص12.0

69- **الوفود الماليَّة**: (an/ Financial delegations) (fr/ les Délégations financières) هيئة نيابية مركزيَّة مختلطة أنشئت سنة 1898م. مجلسٌ يضمُّ ممثَّلين جزائريين تُعيِّنهم الإدارة الفرنسيَّة وممثَّلين فرنسيين ينتخبهم مواطنوهم. مقرُّ المجلس مدينة الجزائر، مهمَّة أعضائه استشاريَّة وخاصة بالشُّؤون الماليَّة فقط. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج10، ص12.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

• القرآن الكريم.

أولاً- المعاجم والقواميس:

- 1- أحمد الفيّومي، المصباح المنير، د. ط. القاهرة: 1424هـ-2003م، دار الحديث طبع نشر توزيع.
- 2- أحمد مختار عمر وآخرون، معجم اللغة العربيّة المعاصرة، ط1. القاهرة: 1429هـ-2008م، عالم الكتب.
- 3- أيّوب بن موسى أبو البقاء الكفويّ، الكلّيّات، معجم في المصطلحات والفروق اللّغويّة، تح: عدنان درويش، محمّد المصريّ، ط2. بيروت: 1419هـ-1998م، مؤسّسة الرّسالة.
- 4- الحسن بن عبد الله أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، تح: محمد إبراهيم سليم، د. ط. القاهرة: د ت، دار العلم والثّقافة للنّشر والتّوزيع.
- 5- سهيل إدريس، المنهل، ط38. بيروت: 2007م، دار الآداب للنّشر والتّوزيع.
- 6- عبد الجليل مرتاض، القاموس الوجيز في المصطلح اللّسانيّ، د. ط. الجزائر: 2017م، دار هومة للطباعة والنّشر والتّوزيع.
- 7- عبد اللّطيف الفاربي وآخرون، معجم علوم التّربيّة، مصطلحات البيداغوجيا والديداكتيك، ط1. الرّباط، 1994م، مطبعة النّجاح الجديدة.
- 8- محمّد بن أبي بكر الرّازي، مختار الصّحاح، تح: محمود خاطر، د. ط. بيروت: 1415هـ-1995م، مكتبة لبنان ناشرون.
- 9- محمّد رؤاس قلعجي وآخرون، معجم لغة الفقهاء، ط2. بيروت: 1408هـ-1988م، دار النّفائس للطباعة والنّشر والتّوزيع.
- 10- محمّد مرتضى الزّبيديّ، تاج العروس من جواهر القاموس، مجموعة من المحقّقين، دار الهداية.
- 11- محمود بن عمرو الرّمخشريّ، أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السّود، ط1. بيروت: 1419هـ-1998م، دار الكتب العلميّة.

قائمة المصادر والمراجع

- 12- مشتاق عباس معن، المعجم المفصّل في مصطلحات فقه اللّغة المقارن، ط1. بيروت: 1423هـ-2002م، دار الكتب العلميّة.
- 13- مكتب تنسيق التّعريب، المعجم الموحد لمصطلحات اللّسانيات، د ط. الرّباط: 2002م مطبعة النّجاح الجديدة.
- 14- مكتب تنسيق التّعريب، المعجم الموحد لمصطلحات التّواصل اللّغويّ، د ط. الرّباط: 2011م مطبعة النّجاح الجديدة.
- ثانيا: الكتب والدّراسات:
- 15- إبراهيم بوترة، التّربية والتّعليم بين الأمس واليوم خصائص التّعليم في الجزائر وتطوّر الفكر التّربويّ، د ط. الجزائر: 1435هـ-2014م، دار الخلدونيّة للنّشر والتّوزيع.
- 16- إبراهيم مهديد، المثقّفون الجزائريّون في عمالة وهران خلال الحقبة الكولونياليّة الأولى 1850-1912م (دراسة تاريخيّة واجتماعيّة)، د ط. الجزائر: د ت، دار الأديب.
- 17- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ط خ. الجزائر: 2009م، عالم المعرفة للنّشر والتّوزيع/ دار الرّائد.
- 18- _____، الحركة الوطنيّة الجزائريّة، ط خ. الجزائر: 2011م، عالم المعرفة.
- 19- _____، تاريخ الجزائر الثقافيّ، ط خ. الجزائر: 2011م، عالم المعرفة.
- 20- _____، حصاد الخريف، ط1. الجزائر: 1432هـ-2011م، عالم المعرفة للنّشر والتّوزيع.
- 21- _____، دراسات في الأدب الجزائريّ الحديث، ط5. الجزائر: 2011م، عالم المعرفة.
- 22- _____، قضايا شائكة، ط خ. الجزائر: 2015م، عالم المعرفة.
- 23- أبو يعلى الزّواوي، الخطب المنبريّة، عناية: عبد الرّحمان دويب، ضمن مؤلّفات الشّيخ أبي يعلى الزّواوي، ط خ. الجزائر: 2013م، دار زمّورة للنّشر والتّوزيع.
- 24- أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، د ط. بيروت: د ت، دار الكتاب العربيّ.
- 25- أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، د ط. الجزائر: 2009م، دار البصائر.
- 26- أحمد طالب الإبراهيمي، مذكّرات جزائري، أحلام ومحن، 1932-1965م، د ط. الجزائر: 2006م، دار القصة للنّشر.

قائمة المصادر والمراجع

- 27- إدوارد سعيد، الاستشراق - المفاهيم الغربية للشرق - تر: محمد عنّاني، ط1. القاهرة: 2006م رؤية للنشر والتوزيع.
- 28- إسماعيل العربي، الدراسات العربية في الجزائر في عهد الاحتلال الفرنسي، د ط. الجزائر: 2007م، د د.
- 29- تركي رابح عامرة، الشيخ عبد الحميد بن باديس، فلسفته وجهوده في التربية والتعليم، د ط. الجزائر: د ت، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- 30- تمام حسّان، مناهج البحث في اللغة، د ط. القاهرة: د ت، مكتبة الأنجلو المصرية.
- 31- جوزيف ديسبارمات، كتاب الفوائد في العوائد والقواعد والعقائد، ط2. الجزائر: 1331هـ- 1913م، مطبعة جوردان.
- 32- حمدان بن عثمان خوجة، المرأة، تح: محمد العربي الزبيري، د ط. الجزائر: 2006م المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية.
- 33- حميدي أبو بكر الصديق، دراسات وأعلام في الحركة الإصلاحية الجزائرية، ط خ. الجزائر: 2015م، دار المتعلم.
- 34- حنفي هلايلي، أوراق جزائرية في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط1. الجزائر: 2009م دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع.
- 35- رابح لونيبي، التيارات الفكرية في الجزائر المعاصرة بين الاتفاق والاختلاف، ط2. الجزائر: 2012م، دار كوكب العلوم.
- 36- سعد الدين ابن أبي شنب "الدراسات العربية في الجزائر" (مقال ملحق بكتاب: إسماعيل العربي ط خ. الجزائر: 2007م، د د.
- 37- سعيد بوخاوش، الاستعمار الفرنسي وسياسة فرنسا في الجزائر، ط خ. الجزائر: د ت، دار تفتيلت للطباعة والنشر والاتصال.
- 38- سعيد بورنان، الشيخ الفضيل الورتلاني العلامة الثائر، ط2. الجزائر: 1435هـ- 2014م دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع.
- 39- _____، نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في فرنسا: 1936-1956م، د ط. الجزائر: 2013م، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع.

قائمة المصادر والمراجع

- 40- سعيد عيَّادي، أثريَّات المسألة اللُّغويَّة في الجزائر (ما تبقى من سيرة الخبير ببيير كون (Pierre conn) د ط. الجزائر: 2014م، مطبعة بن مرابط.
- 41- _____، تحليل الأبعاد الاستراتيجية للخريطة الاستكشافية الفرنسية بقسنطينة لسنة 1866م د ط. الجزائر: د ت، دار تفتيل للنشر والتوزيع.
- 42- سليمان بن الصَّيَّام، رحلة سليمان بن الصَّيَّام إلى بلاد فرنسة، ضمن خمس رحلات جزائريَّة إلى باريز 1852م-1901م جمع وتقديم: علي تابلت، د ط. الجزائر: 2012م، منشورات جامعة الجزائر.
- 43- سهيل الخالدي، الإشعاع المغربي في المشرق دور الجالية الجزائرية في بلاد الشام، د ط. الجزائر: 2016م، دار الأمانة للطباعة والنشر والتوزيع.
- 44- الشريف بن حبيلس، الجزائر الفرنسية كما يراها أحد الأهالي، تر: فيصل الأحمر، د ط. الجزائر: د ت، دار المسك.
- 45- شمس الدين الحطَّاب، مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، ط3. دمشق: 1412هـ-1992م، دار الفكر.
- 46- صالح بلعيد، يزع بالحاكم ما لا يزع بالعالم، د ط. الجزائر: 2010م، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع.
- 47- _____، في الأمن اللُّغويّ، ط2. الجزائر: 2012م، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع.
- 48- صالح خرفي، عمر بن قُدُّور الجزائريّ، د ط. الجزائر: 1984م، المؤسسة الوطنية للكتاب.
- 49- _____، محمَّد السَّعيد الزَّاهريّ، د ط. الجزائر: 1986م، المؤسسة الوطنية للكتاب.
- 50- صالح عبَّاد، الجزائر خلال الحكم التُّركي، 1514م-1830م، د ط. الجزائر: 2012م، دار هومة.
- 51- صلاح مؤيِّد العقبيّ، الطُّرق الصُّوفيَّة بالجزائر تاريخها ونشاطها، د ط. بيروت: 2002م دار البراق.
- 52- الطَّيِّب بن إبراهيم، الاستشراق الفرنسي وتعدُّد مهامه خاصَّة في الجزائر، د ط. الجزائر: 2004م، دار المنابع.

قائمة المصادر والمراجع

- 53- عبد الإله بلقزيز، الفرنكفونية (أيديولوجيا، سياسات، تحدّ ثقافي-لغوي)، ط1. بيروت: ماي 2011م، مركز دراسات الوحدة العربية.
- 54- عبد الجليل مرتاض، التّهجين اللّغويّ في الجزائر في العهد التّركي، د ط. الجزائر: 2016م دار هومة للطباعة والنّشر والتّوزيع.
- 55- عبد الحميد إبراهيمي، في أصل المأساة الجزائريّة 1958-1999م، ط1. بيروت: 2001م مركز دراسات الوحدة العربية.
- 56- عبد الحميد بن باديس، الآثار، آثَارُ ابْنُ باديس، تح: عمّار طالبي، ط1. الجزائر: 1388هـ-1968م، دار ومكتبة الشركة الجزائريّة.
- 57- عبد الحميد زوزو، المرجعيّات التّاريخيّة للدولة الجزائريّة الحديثة مؤسّسات ومواثيق، د ط. الجزائر: 2011م، دار هومة للطباعة والنّشر والتّوزيع.
- 58- عبد الرّحمان بن إبراهيم بن العقّون، الكفاح القوميّ والسّياسيّ من خلال مذكّرات معاصر، د ط. الجزائر: 1984م، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب.
- 59- عبد العالي رزّاق "مكانة اللّغة العربيّة في الصّحافة العربيّة خلال الاحتلال الفرنسيّ للجزائر" ضمن كتاب: اللّغة العربيّة في الصّحافة المكتوبة (يوم دراسيّ) د ط. الجزائر: د ت دار الخلدونيّة للطباعة والنّشر والتّوزيع.
- 60- عبد القادر الفاسيّ الفهريّ، السّياسة اللّغويّة في البلاد العربيّة، بحثاً عن بيئة طبيعيّة عادلة ديموقراطيّة، وناجعة، ط1. بيروت: سبتمبر 2013م، دار الكتاب الجديد المتّحدة.
- 61- عبد الكريم بوصفصاف، جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين وعلاقتها بالحركات الجزائريّة الأخرى، ط5. الجزائر: 2013م، دار بهاء الدّين للنّشر والتّوزيع.
- 62- عبد الله الرّكبي، دراسات في الشّعريّ الجزائريّ الحديث، د ط. الجزائر: د ت، دار الكتاب العربيّ للطباعة والنّشر والتّوزيع.
- 63- عبد الله حمّادي، الحركة الطّلابيّة الجزائريّة، 1871-1962م، مشارب ثقافيّة وإيديولوجيّة ط2. الجزائر: 1995م، المؤسّسة الوطنيّة للنّشر والإشهار.
- 64- عبد الملك مرتاض، فنون النّثر الأدبيّ في الجزائر 1931-1954م، د ط. الجزائر: 1983م ديوان المطبوعات الجامعيّة.

قائمة المصادر والمراجع

- 65- _____، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر 1925-1954م، ط2. الجزائر: 1983م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- 66- العربي بلقاسم فرحاتي، تأهيل الموارد البشرية قديما وحديثا، ط1. عمان: 2012م، دار أسامة للنشر والتوزيع.
- 67- علي محمد الصلابي، السلطان عبد الحميد الثاني وفكرة الجامعة الإسلامية وأسباب زوال الخلافة العثمانية، ط1. القاهرة: 1423هـ - 2002م، دار اليقين للنشر والتوزيع.
- 68- عمّار هلال، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة 1832-1962م، ط2. الجزائر: 2016م، ديوان المطبوعات الجامعية.
- 69- _____، الهجرة الجزائرية نحو بلاد الشام، 1847-1918م، د ط. الجزائر: 1986م مطبعة لافوميك، (ملحق رقم 89).
- 70- عمر الدسوقي، في الأدب الحديث، ط8. القاهرة: 1973، دار الفكر.
- 71- عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث، ط2. الجزائر: 2009م، ديوان المطبوعات الجامعية.
- 72- فريد بنّور، المخطّطات الفرنسية تجاه الجزائر، 1782/1830م، د ط. د ب: د ت، مؤسسة كوشكار للنشر والتوزيع.
- 73- فريد حاجي، السياسة الثقافية الفرنسية في الجزائر، د ط. الجزائر: 1434هـ - 2013م، دار الخلدونية للنشر والتوزيع.
- 74- مازن صلاح حامد مطبقاني، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية، د ط. الجزائر: 2011م، مؤسسة عالم الأفكار.
- 75- مالك بن نبي، شروط النهضة، تر: عمر كامل مسقاوي، عبد الصبور شاهين، ط1. الجزائر: 1434هـ - 2013م، دار الوعي للنشر والتوزيع.
- 76- _____، مذكرات شاهد للقرن، ط2. دمشق: 1404هـ - 1984م، دار الفكر.
- 77- _____، ميلاد مجتمع، تر: عبد الصبور شاهين، ط3. الجزائر - دمشق: 1406هـ - 1986م، دار الفكر - دار الفكر.

قائمة المصادر والمراجع

- 78- مبارك الميلّي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم: محمّد الميلّي، د ط. الجزائر: 2014م دار الكتاب العربي للطباعة، النشر، التوزيع والترجمة.
- 79- _____، رسالة الشّرك ومظاهره، تح وت: أبي عبد الرحمن محمود، ط1. الريّاض: 1422هـ-2001م، دار الرّاية للنشر والتوزيع.
- 80- محمد أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السّلف، تح: خير الدّين شترة، ط1. الجزائر: 1433هـ-2012م، دار كردادة للنشر والتوزيع.
- 81- محمد أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدّين، د ط. بيروت: د ت، دار المعرفة.
- 82- محمّد البشير الإبراهيمي، آثارُ محمّد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي ط1. بيروت: 1997م، دار الغرب الإسلامي.
- 83- محمّد الحسن فضلاء، المسيرة الرّائدة للتّعليم العربي الحرّ بالجزائر، ط1. الجزائر: 16 أفريل 1999م، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع.
- 84- _____، من أعلام الإصلاح في الجزائر، د ط. الجزائر: د ت، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع.
- 85- محمّد الخضر حسين "الرحلة الجزائريّة" موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمّد الخضر حسين (الرحلات) جمع وضبط: علي الرضا الحسيني، ط1. دمشق: 1431هـ-2010م، دار النّوادر.
- 86- محمّد الصّالح رمضان، ألحان الفتوة، ط2. الجزائر: 1964م- 1384هـ، دار الكتاب الجزائري.
- 87- محمّد الطّاهر وعلي، التّعليم التّبشيريّ في الجزائر من 1830م إلى 1904م دراسة تاريخيّة تحليليّة، د ط. الجزائر: 2009م، منشورات دحلب.
- 88- محمّد العربيّ الزّبيريّ، تاريخ الجزائر المعاصر، د ط. د ب: 1420هـ-1999م، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب.
- 89- محمّد الميلّي، المؤتمر الإسلاميّ الجزائريّ، ط1. الجزائر: 1434هـ-2013م، مؤسّسة الضّحى.
- 90- محمّد الهادي السنوسي، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، تقديم: عبد الله حمّادي، ط2. الجزائر: 2007م، دار بهاء الدّين للنشر والتوزيع.

قائمة المصادر والمراجع

- 91- محمّد بن سميّة، أسس مشروع النهضة عند الإمام عبد الحميد بن باديس، المضمون وصورة التعبير، د ط. الجزائر: د ت، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى.
- 92- محمّد بن محمّد بن رقيّة التلمساني، الزهرة النّائرة فيما جرى للجزائر حين أغارت عليها الكفرة المكتبة الوطنية الجزائرية، (مخطوط) رقم: 2603.
- 93- محمّد بن مصطفى بن الخوجة، أعمال محمد بن مصطفى بن الخوجة، تح: علي تابليت، د ط. الجزائر: 2012م، منشورات تالة، (جمع جامعة الجزائر 2012م، بمناسبة خمسينيّة الاستقلال).
- 94- محمّد بن ميمون الجزائري، الثّحفة المرضيّة في الدّولة البكداشيّة في بلاد الجزائر المحميّة تح: محمّد بن عبد الكريم، ط2. الجزائر: 1981م، الشركة الوطنية للنّشر والتّوزيع.
- 95- محمّد حرب، العثمانيّون في التّاريخ والحضارة، د ط. القاهرة: 1414هـ-1994م، المركز المصريّ للدراسات العثمانيّة وبحوث العالم التّركي.
- 96- محمّد خير الدّين، مذكّرات، ط2. الجزائر: 2002م، مؤسّسة الصّحى.
- 97- محمّد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام محمّد عبده، ط2. القاهرة: 1427هـ-2006م، دار الفضيلة.
- 98- محمّد مالكي، الحركات الوطنيّة والاستعمار في المغرب العربيّ، د ط. بيروت: 1994م مركز دراسات الوحدة العربيّة.
- 99- محمّد ناصر، أبو اليقظان وجهاد الكلمة، ط2. الجزائر: 1983م، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب.
- 100- _____، الشّعر الجزائريّ الحديث اتّجاهاته وخصائصه الفنيّة، 1925-1975م، ط2. بيروت: 2006م، دار الغرب الإسلاميّ.
- 101- _____، الصّحف العربيّة الجزائريّة من 1847 إلى 1954م، ط3. بيروت: 1427هـ-2007م، دار الغرب الإسلاميّ.
- 102- _____، المقالة الصّحفيّة الجزائريّة، نشأتها، تطوّرها، أعلامها، من 1903 إلى 1931م د ط. الجزائر: 1397-1978م، الشركة الوطنية للنّشر والتّوزيع.
- 103- _____، رمضان حمّود حياته وآثاره، ط خ، الجزائر: 2008م، دار هومة للطباعة والنّشر والتّوزيع.

قائمة المصادر والمراجع

- 104- _____، عمر راسم المصلح الثائر، ط2. الجزائر: 2013م، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية.
- 105- مختار الأحمدى نويوات، عن اللسان وفي البيان مقالات وافتتاحيات، د ط. الجزائر: د ت منشورات المجلس الأعلى للغة العربية بالجزائر.
- 106- مصطفى ماضي، النخبة والمسألة اللغوية في الجزائر (من القطيعة اللغوية إلى الانتقاء والتهميش باللغة) د ط. الجزائر: 2008م، دار القصة للنشر.
- 107- منذر عياشي، قضايا لسانية وحضارية، ط1. دمشق: 1991م، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر.
- 108- مولود قاسم نايت بلقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830م، د ط. الجزائر: 2012م، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع.
- 109- ناصر الدين سعيدوني، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولايات المغرب العثمانية د ط. الكويت: 1431هـ - 2010م، مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت، رسالة 318، حولية 31.
- 110- نفوسة زكريا سعيد، تاريخ الدعوة إلى العامية في مصر وآثارها في النصف الأول من القرن العشرين، ط1. القاهرة: 1383هـ - 1964م، دار نشر الثقافة.
- 111- نور الدين أبو لحية، جمعية العلماء المسلمين والطرق الصوفية وتاريخ العلاقة بينهما، ط1. الجزائر: 2015م، دار علي بن زيد للطباعة والنشر.
- ثالثا: الكتب المترجمة:
- 112- برنار صبولسكي، علم اللغة الاجتماعي، د ط. الجزائر: 2010م، ديوان المطبوعات الجامعية.
- 113- خولة طالب الإبراهيمي، الجزائريون والمسألة اللغوية -عناصر من أجل مقارنة اجتماعية لغوية للمجتمع الجزائري- تر: محمد يحياتن، د ط. الجزائر: 2007م، دار الحكمة.
- 114- د. هديسون، علم اللغة الاجتماعي، تر: محمد عياد، ط2. القاهرة: 1990م، دار عالم الكتب.
- 115- دانيال ريغ، رجل الاستشراق مسارات اللغة العربية في فرنسا، تر: إبراهيم صحراوي، د ط. الجزائر: 2008م، دار التنوير للنشر والتوزيع.

قائمة المصادر والمراجع

- 116- ديفيد كريستال، موت اللغة، تر: فهد بن مسعد اللهيبي، د ط. د ب: د د.
- 117- شارل أندري جوليان، أفريقيا الشمالية تسير، القوميات الإسلامية والسيادة الفرنسية، تر: المنجي سليم وآخرون، د ط. تونس: 1396هـ - 1976م، الدار التونسية للنشر.
- 118- علي مراد، الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر من 1925 - 1940م بحث في التاريخ الديني والاجتماعي، تر: محمد يحياتن، ط خ. الجزائر: 2007م، د د.
- 119- غوستاف لوبون، حضارة العرب، تر: عادل زعيتر، د ط. القاهرة: د ت، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
- 120- غي برفيلي، النخبة الجزائرية الفرانكوفونية 1880 - 1962م، تر: م، حاج مسعود وآخرون ط خ. الجزائر: 2007م، دار القصة للنشر.
- 121- فلوريان كولماس، دليل السوسيولوجيا، تر: خالد الأشهب وماجدولين النهيبي، ط 1. بيروت: 2009م، المنظمة العربية للترجمة.
- 122- لويس جان كالفي، السياسات اللغوية، تر: محمد يحياتن، ط 1. الجزائر-بيروت: 1430هـ - 2009م، منشورات الاختلاف- الدار العربية للعلوم ناشرون.
- 123- هابنسترايت، رحلة العالم الألماني ج. أو. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس 1145هـ - 1732م، تر: ناصر الدين سعيدوني، د ط. تونس: د ت، دار الغرب الإسلامي.
- رابعا: المجلات والدوريات:
- 124- الإقدام، ع 53، س 2، 18 ربيع الأول 1340م - 18 نوفمبر 1921م.
- 125- البصائر، ط 1. بيروت: 1427هـ - 2006م دار الغرب الإسلامي.
- 126- الثقافة، الجزائر: صفر-ربيع الأول 1406هـ - نوفمبر - ديسمبر 1985م س 15، ع 90 وزارة الثقافة والسياحة.
- 127- السنة النبوية المحمدية، الجزائر: 2003م، دار الغرب الإسلامي.
- 128- الشريعة النبوية المحمدية، الجزائر: 2003م، دار الغرب الإسلامي.
- 129- الشهاب، ط 1. بيروت: 1421هـ - 2001م دار الغرب الإسلامي.
- 130- كوكب أفريقيا، 15-07-1910م، ع 176.
- 131- المنار، القاهرة: 21 جمادى الآخرة - 1318هـ 15 أكتوبر - 1900م.

قائمة المصادر والمراجع

132- المنار، ط1. الجزائر: 2007م، دار البصائر للنشر والتوزيع.

133- النصيح. 31 أكتوبر 1899م، 27 جمادى الثانية 1317هـ، ع2، س1.

خامسا: المراجع باللغة الأجنبية:

134-Aboul- Kassem Saadallah, La Montée du Nationalisme en Algérie Tlemcen: 2011 alemlmaarifa.

135-Ali Merad, Ibn Badis Commentateur du Coran, Oran: Société Nationale d'effusion.

136-Boubekour Benbouzid, La réforme de L'éducation en Algérie Enjeux et realisation, Casbah edition, Alger:2009.

137-Mohammed Ben CHeneb, Mots Turks et Persans conservé dans le Parler Algérien, Algérie, 2009, FLITES Editions.

138-Mohammed Ben CHeneb, Proverbes de l'Algérie et du Maghreb Alger: Flites Editions.

139-NAdhim Chaouche, Le roman réformiste musulman d'expression française en Algerie dans l'entre- deux- guerres1939-1919, Alger :2009, Alger livres édition.

140-O.houdas et G delphin, Recueil de lettres arabes manuscrites, 2eme éd. Alger: 1891, Adolphe jourdan, libraire-éditeur.

141-Rachid Naim, l'arabe aux yeux de l'orientalisme litteraire, Maroc: 2012, Universite Cadi Ayyad, Marrakech.

142-Sid Ahmed Baghli, Aspects de la politique culturelle de l'Algerie paris: 1977, L'organisation des Nations unies pour l'education, la science et la culture.

المحتويات

فهرس المحتويات

02	مقدمة
03	1- أهمية الموضوع وأسباب اختياره
04	2- الإشكالية العامة
05	3- الفرضيات
05	4- المنهج
06	5- بنية الأطروحة
07	6- الدراسات السابقة
09	7- استدراك الأطروحة على الأعمال السابقة
09	8- المصادر والمراجع
10	9- النتائج والصعوبات

الفصل التمهيدي:

ما قبل الإحياء؛ مصطلحات المنطق وملابسات التأسيس

13	أولاً: مصطلحات المنطق ومفاهيم التأسيس
13	1- مشروع
15	2- الإحياء
17	1-2- الإحياء اللغوي
19	2-2- التعريف الإجرائي
19	3- الجزائر الحديثة
22	4- المقاربة (Approche)
23	5- المعالم
25	6- الأبعاد

ثانياً: ملابسات التأسيس

25	1- التشكيل المجتمعي الجزائري في العهد التركي الأخير
27	1-1- التقسيم الهرمي العام
28	1-2- المجتمع الحضري والريفي
28	1-2-1- التركيب الاجتماعي الحضري في المدن

فهرس المحتويات

29	1-2-2- خصوصية التركيبية الاجتماعية للعاصمة الجزائرية.....
30	1-2-3- التركيبية الاجتماعية الغالبة للمدينة الجزائرية في العهد التركي الأخير.....
32	1-2-4- التشكيلات السكانية الريفية الجزائرية في العهد التركي الأخير.....
34	1-3- الموقع الاجتماعي لكتلة الكراغلة.....
36	2- الواقع اللغوي في الجزائر نهاية العهد التركي.....
36	2-1- اختلال الوضع واهتزاز المتن.....
37	2-2- موقف السلطة التركية إزاء الثقافة العامة واللغة العربية في الجزائر.....
38	2-3- التوجه الصوفي للعثمانيين وأثره على اللغة.....
39	2-4- واقع تعليم اللغة العربية في الجزائر إبان العهد التركي الأخير.....
41	2-5- واقع الدرس اللغوي.....
43	2-6- واقع الكتابة الفنية والإبداع الأدبي.....
44	2-6-1- الملمح الشعري في العهد التركي الأخير في الجزائر.....
45	2-6-2- الملمح النثري في العهد التركي الأخير بالجزائر.....
47	2-6-3- الملمح النقدي في العهد التركي الأخير بالجزائر.....
48	3- استلام الاحتلال الفرنسي للوضع اللغوي في الجزائر.....
49	3-1- جذور الاهتمام الفرنسي بالمسألة اللغوية في الجزائر.....
53	3-2- إجراءات الاحتلال لتأطير المسألة اللغوية وأثرها على الواقع اللساني.....
53	3-2-1- الاطلاع والاكتشاف، من بداية الاحتلال إلى حدود سنة 1850م.....
54	3-2-1-1- جبهة اللغة العربية في مواجهة نزول الاحتلال.....
55	3-2-1-2- خلخلة البنية السكانية الجزائرية بغرس كتلة المستوطنين الغربية.....
56	3-2-1-3- إصدار منظومة قانونية لتدمير منظومة لغوية قائمة؛ الإجراء والأثر.....
59	3-2-1-4- تقنين تجفيف موارد الإنفاق ومصادرة الفضاء العلمي وأثرهما على التعليم.....
61	3-2-1-5- فلسفة الاحتلال في تقييم التعليم السائد، ومبررات إعادة البرمجة.....
62	الوصف الأول: تعليم عربي فصيح.....
62	الوصف الثاني: تعليم عقدي ديني.....
63	3-2-1-6- تدريس العامية؛ وبداية ترسيم التآكل الداخلي للأداءات الوطنية.....
63	3-2-1-7- التعليم وإدارة الوقف في الجزائر المحتلة مسألة عسكرية.....

فهرس المحتويات

- 64 8-1-2-3 تشديد الرقابة على الحدود
- 64 9-1-2-3 تشديد الرقابة على الزوايا

الفصل الأول:

مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر الحديثة؛ مشاهد التأسيس

- 67 توطئة
- 68 1- السّياق التاريخي لمشروع الإحياء اللغوي في الجزائر
- 69 أ- دافع ذاتي عام
- 69 ب- دافع ذاتي خاص
- 70 2- حراك الإحياء، وترتيب المشاهد
- 71 3- مشاهد الإحياء اللغوي في الجزائر، النشأة والمسار
- 72 أولاً: مكونات مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر؛ المكونات والتجليات
- 72 1- معلمة الإحياء، المؤشر البشري للمشروع
- 73 1-1 الطبقة الأولى: طبقة الإرهاص والعبور
- 74 1-1-1 صالح بن مهنا (1836-1910م)
- 74 1-1-2 عبد القادر المجاوي (1848-1914م)
- 75 1-1-3 عاشور الخنقي (1848-1929م)
- 75 1-1-4 محمد السعيد بن زكري (1851-1914م)
- 75 1-1-5 الشيخ أبو القاسم الحفناوي بن الشيخ (1852-1943م)
- 75 1-1-6 حمدان لونيسي (1856-1920م)
- 76 1-1-7 المولود بن الموهوب (1863-1935م)
- 76 1-1-8 محمد بن مصطفى بن الخوجة (1865-1915م)
- 76 1-1-9 عبد الحليم بن سماية (1866-1933م)
- 77 1-1-10 محمد بن أبي شنب (1869-1929م)
- 77 1-1-11 عمر راسم (1883-1959م)
- 77 1-1-12 عمر بن قدور (1886-1930م)
- 78 1-1-13 المولود الزريبي (1897-1925م)
- 78 1-1-14 محمد بن عبد الرحمان الديسي (1845-1921م)

فهرس المحتويات

80	1-2- الطَّبقة الثَّانِيَّة، طبقة الإنشاء والرِّعاية.....
82	1-3- الطَّبقة الثَّالِثَة: طبقة الظُّهور والاستواء.....
86	2- الحراك الجمعويّ، نواة المؤسَّسة الثَّقافيَّة والاجتماعيَّة الجزائريَّة البديلة.....
92	3- التَّجربة الصُّحفيَّة العربيَّة الجزائريَّة؛ مدوَّنة الإحياء السيَّارة.....
92	3-1- وضع الصِّحافة العربيَّة في الجزائر بداية القرن العشرين.....
93	3-1-1- الصُّحف العربيَّة اللِّسان.....
93	3-1-2- الصُّحف الفرنسيَّة اللُّغة والمضمون.....
94	3-1-3- الصِّحافة العربيَّة اللِّسان الفرنسيَّة المضمون.....
94	3-1-3-1- صحافة المُستعربين المُتواطئين.....
95	3-1-3-2- صحافة المُستعربين المُنصفين.....
96	3-1-3-3- صحافه الجزائريَّين المفرنسين.....
97	3-1-3-4- الصِّحافة المزدوجة اللُّغة؛ مأساة شكل التَّعبير ومضمونه.....
99	3-1-3-5- الصِّحافة ذات الخطِّ الوطنيِّ روحا ولسانا.....
101	3-2- مشهد اللُّغة العربيَّة في الصِّحافة الجزائريَّة بعد 1920م.....
115	ثانيا: مكوّنات مشروع الإحياء اللُّغويِّ في الجزائر؛ التَّجليّات.....
115	1- التَّعليم الإحيائيُّ؛ طبيعته وفلسفته.....
117	1-1- مراحل التَّعليم الإحيائي في الجزائر.....
117	1-1-1- مرحلة الإعداد والتَّحضير (1913-1930م).....
117	1-1-2- مرحلة المواجهة والتَّمكن (1930-1945م).....
120	1-1-3- مرحلة تعزيز الانتشار ونشْدان الجودة والتَّخطيط للأفاق: (1945م- 1956م).....
123	2- حركة المطابع والتَّأليف والتَّحقيق والترجمة.....
123	1-1- المطابع الجزائريَّة وحركة الإحياء.....
125	1-1-1- حركة التَّأليف ومؤلَّفات الإحياء الفارقة في الجزائر الحديثة.....
125	1-1-1-2- إرشاد المتعلِّمين لعبد القادر المجاويّ.....
126	1-1-2-2- مستقبل الإسلام.....
126	1-1-2-3- أَوْضح الدَّلّائل في وجوب إصلاح الرِّوايا ببلاد القبائل.....
127	1-1-2-4- تعريف الخلف برجال السَّلف.....

فهرس المحتويات

- 128 5-1-1-2 الدّعاية إلى سبيل المؤمنين
- 128..... 6-1-1-2 الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير
- 129 7-1-1-2 روح السّعادة وسرّ الشّهادة في الحسنی وزيادة
- 129 8-1-1-2 تمهيدٌ لدراسة الإسلام
- 129 9-1-1-2 الخطب المنبريّة لأبي يعلى الزّواوي
- 130 10-1-1-2 شعراء الجزائر في العصر الحاضر
- 133 11-1-1-2 بذور الحياة رمضان حمّود (1906-1929م)
- 133..... 12-1-1-2 تاريخ الجزائر في القديم والحديث لمبارك الميلي
- 134 13-1-1-2 ديوان أبي اليقظان
- 134 14-1-1-2 كتاب الجزائر
- 135 15-1-1-2 رسالة الشّرك ومظاهره لمبارك الميلي
- 136 16-1-1-2 سجلّ مؤتمر جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين
- 136 17-1-1-2 مجالس التّذكير من كلام الحكيم الخبير
- 137 18-1-1-2 مجالس التّذكير من كلام البشير النّذير
- 137 4-1-1-2 النّقاويم
- 138 3- المساجد الحرّة والزّوايا؛ المؤسّسة الدّينيّة في خدمة الإحياء
- 140 1-3 دور المؤسّسة الدّينيّة في الإحياء اللّغويّ
- 141 2-3 دور الزّوايا في حركة الإحياء اللّغويّ في الجزائر

الفصل الثّاني:

مقارباتٌ في مشاهد ومعالم حركة الإحياء اللّغويّ في الجزائر

أوّلاً: مقاربات مشاهد التّكوين

- 145 1- خصوصيّة الحراك وخصوصيّة المصطلح
- 146 2- خصائص المشاهد التّأسيسيّة لحركة الإحياء
- 146 1-2 معلمة الإحياء اللّغويّ
- 146 1-1-2 موقع المعلمة من حراك الإحياء اللّغويّ في الجزائر
- 147 2-1-2 ظروف ظهور معلمة الإحياء
- 149 3-1-2 معلمة الإحياء اللّغويّ في الجزائر، الإعداد والوجهة

فهرس المحتويات

151	2-2- مقارنة نشاط النوادي والجمعيات الإحيائية الجزائرية.....
151	2-2-1- النشاط الجمعوي وموقعه من الإحياء.....
152	2-2-2- الجمعيات والنوادي فضاء للاحتماء وتنمية الكفاءات.....
153	2-2-3- الجمعيات والنوادي إطار لإعادة التأهيل الشعبي ثقافياً ونفسياً.....
154	2-2-4- الجمعيات والنوادي انعكاس لمستوى النضج الإحيائي الشعبي.....
154	2-2-5- المدخل الجماعي إلى اختراق التضيق الكولونيالي.....
155	2-2-6- التنظيم المجتمعي البديل.....
160	2-3- مقارنة مشهد الصحافة الإحيائية في الجزائر.....
168	2-1- الخصائص العامة للصحافة الإحيائية الجزائرية.....
168	2-4-1- صحافة مقاومة ونضال.....
169	2-1-2- صحافة هوية وتميز.....
170	2-3-3- صحافة إيقاظ وتوعية.....
171	2-2- مقارنة في فلسفة التعليم الإحيائي في الجزائر خلال القرن (20).....
171	2-5-1- تعليم ديني في موادّه وموضوعه وأهدافه.....
172	2-5-2- تعليم إحياء لغوي شعبي، وبعث كيان أمة.....
173	2-5-2-1- تعليم شعبي شامل.....
174	2-5-2-2- تعليم مكتبي خاص.....
174	2-5-3- تعليم ثائر على الطرائق البالية والمقررات العتيقة.....
175	2-5-4- التعليم الحر وشعبية الإحياء.....
176	2-6- مقارنة في مشهد حركة التأليف الإحيائي.....
	ثانيا: مقاربات في قضايا مرافقة لمشروع الإحياء اللغوي
183	توطئة:.....
	المقاربة الأولى:
184	1- مسؤولية الأتراك عن الوضع اللغوي في الجزائر.....
187	2- الاستشراق الفرنسي في الجزائر؛ اختراق لسان أم تطويع إنسان؟.....
187	2-1- موقع الاستشراق من مشروع الاحتلال.....
189	2-1-2- الاستشراق الفرنسي في رحلة الاختراق اللساني الجزائري.....

فهرس المحتويات

191	1-3- الدرس اللساني الاستشراقي، والسبيل إلى تطويع الإنسان.....
193	1-4- مرحلة التحليل والاختراق.....
196	1-5- آثار استحواذ الاستشراق على الوضع اللساني الجزائري.....
	المقاربة الثالثة:
198	2- المهاجر الجزائري وحركة الإحياء في الجزائر، العلاقة والأثر.....
	المقاربة الرابعة:
204	3- التأثير المشرقي على حركة الإحياء اللغوي في الجزائر، حقيقة أم مغالطة؟.....
205	3-1- تحديد الإطار الزمني لحركة الإحياء العربية.....
207	3-2- آثار الاحتلال على المتن اللغوي بين المشرق والجزائر.....
208	3-3- مؤثرات الإحياء وموجهاته بين المشرق والمغرب.....
211	3-4- الرعاية الرسمية للإحياء في المشرق، والاحتضان الشعبي في الجزائر.....
	المقاربة الخامسة:
211	4- مقارنة ردود الفعل الفرنسية والعربية والوطنية إزاء حراك الإحياء.....
211	5-1- الرؤية الاستشراقية لحراك الإحياء، تقييم أم توجس؟.....
215	5-2- أمارات الإحياء بين المبادرة الوطنية والتقييم الفرنسي.....
217	5-3- النظرة المشرقية للنتاج المغربي والجزائري تحديدا.....
	المقاربة السادسة:
218	6- قضايا اللغة العربية في مقالات فترة نشأة الإحياء.....
219	6-1 قضايا اللغة العربية في مقالات فترة ما قبل الحرب.....
219	6-2 قضايا اللغة العربية في مقال ما بعد الحرب.....
	الفصل الثالث:
	أبعاد مشروع الإحياء اللغوي في الجزائر خلال القرن العشرين.
223	توطئة.....
224	أولاً: البعد الاجتماعي لحركة الإحياء اللغوي في الجزائر.....
225	1- أثر التشكيل المجتمعي على الواقع اللساني.....
226	2- الوضع اللغوي الجزائري إبان العهد التركي في ضوء اللسانيات الاجتماعية.....

فهرس المحتويات

229	3- مجال تأثير اللغة التُركيَّة ومداها.....
230	4- التَّشكيل الاجتماعي والواقع اللِّساني في الجزائر زمن الاحتلال.....
234	5- مقارنة في مدى مصداقيَّة التَّصنيف الاجتماعي على أُسس لسانية.....
236	6- أثر الازدواج اللُّغوي على النِّظام الاجتماعي لمؤسسة اللغة.....
237	7- دور حركة الإحياء في رُب التأثير اللِّساني على الصَّعيد الاجتماعي.....
241	ثانيًا: البعد السِّياسي لحركة الإحياء اللُّغوي في الجزائر الحديثة.....
241	1- موقع اللغة العربيَّة في مواثيق التَّنظيمات والحركات في الجزائر.....
242	1-1- فترة العرائض (1871-1890م).....
244	2-1- مرحلة ما بين الحريَّين (1920-1940م).....
245	1-2-1- موقف (جمعيَّة المؤاخاة الجزائريَّة) الأمير خالد.....
246	1-2-2-1- حزب نجم شمال أفريقيا.....
249	1-2-3-1- حركة النُّواب (اتِّحادية النُّواب المسلمين الجزائريَّين).....
248	3-1- اللغة العربيَّة في التَّنظيمات خلال العقد (04) من القرن (20).....
248	1-3-1- مواقف الجمعيَّات الأهليَّة.....
248	1-1-3-1- موقف التَّيار الإصلاحي (جمعيَّة العلماء المسلمين الجزائريَّين).....
252	2-1-3-1- التَّيار المحافظ (جمعيَّة علماء السُّنة).....
254	3-1-3-1- حزب الشَّعب.....
255	4-1-3-1- حركة انتصار الحريَّات الديمقراطيَّة.....
256	5-1-3-1- الحزب الشيوعيُّ الجزائريُّ.....
257	6-1-3-1- أحباب البيان والحريَّة.....
258	7-1-3-1- حزب الاتِّحاد الديمقراطي للبيان الجزائريُّ.....
259	8-1-3-1- التَّنظيمات الطُّلبيَّة الجزائريَّة.....
264	4-1- ترسيم اللغة العربيَّة في عهد الاحتلال!.....
265	5-1- جهود حركة الإحياء اللُّغوي من منظور السِّياسة اللُّغويَّة.....
	ثالثًا: البعد اللِّساني لحركة الإحياء في الجزائر خلال القرن العشرين
267	توطئة:.....
267	1- متن اللغة العربيَّة من أنين الاحتضار إلى ألفاظ الحضارة.....

فهرس المحتويات

269	1-1- المقال
273	2-1- الشّعر
276	1-2-1- الأغراض الشّعريّة وسلطة حركة الإحياء
279	2-2-1- الشّعر الشّعبيّ
280	3-2-1- الخطابة
281	4-2-1- المسرحيّة
282	2- الكتابة الإحيائيّة المدرسيّة
283	1-2- الشّعر المدرسيّ
284	2-2- المسرح المدرسيّ الإحيائيّ
285	3- خصائص الكتابة الإحيائيّة
287	1-3- كتابة انتقائيّة
287	2-3- كتابة وظيفيّة
287	3-2-1- وظيفيّة إحياء اللّغة
288	3-2-2- وظيفيّة الإحياء باللّغة
289	4- مقولات الحركة الإحيائيّة ذات البعد اللّسانيّ
291	ما بعد الإحياء ، ما قبل الخاتمة.
295	الخاتمة.
300	مسرد مفهومي للمصطلحات.
308	قائمة المصادر والمراجع
319	فهرس المحتويات

الملخصات

الملخص:

تتناول الأطروحة موضوع الإحياء اللغوي في الجزائر مَطْلَع القرن العشرين مقارنةً لخلفياته وطبيعته وحقيقته وجوده، من خلال تجميع معالمه الظاهرة وامتدادات أبعاده، وقد رصدت الأطروحة من المعالم قائمة من أعلام المشروع وصحافةً وطنيّة الروح عربيّة اللسان وشبكة من الجمعيات والنوادي الفاعلة، وهي العناصر التي انبثق من خلال تفاعلها معُلم التعليم الإحيائي بفعاليته وانتشاره والمساجد الحرة بنشاطها، وانبثاق الفعل الكتابي بأنواعه وأجناسه وخصوصيته في لغته ومواضيعه.

عرضت الأطروحة لجملة من المقاربات ذات العلاقة بالمشروع، كمسألة الاستشراق الفرنسي والإحياء اللغوي في الجزائر، وحقيقة العلاقة بين الإحياء في الجزائر والإحياء المشرقي، وأثر المهاجر الجزائري على المشروع، وقضايا اللغة العربيّة في الكتابة الإحيائيّة الجزائريّة، وقراءة في أحداث معلّمة وموقعها من مشروع الإحياء، لتتناول الأبعاد الاجتماعية والسياسية واللسانية لمشروع الإحياء بعد اكتمال مشاهدته في خلال نصف قرن، كانت أواخره فضاءً زمنيًا جليّ عناصر مشروع الإحياء في مشهد واحد، خلافاً للجهود القيّمة التي أفاضت في عناصره مُجتزأةً، وهو المسعى الذي يعتقد أنّه ارتقى بالحديث عن مشروع إلى الحديث عن حركة لها تأسيساتها النظريّة وإجراءاتها العملية وغاياتها المُستهدفة.

Abstract

The thesis addresses the subject of the linguistic renaissance in Algeria at the beginning of the 20th century .An approach of its origin, its nature and the reality of its existence, through the collection of its apparent landmarks and extensions of its dimensions. The thesis identified among these references and benchmarks a list of personalities of the project, and a press with a national spirit and Arabic language, and a network of associations and active clubs. The interaction of these elements has produced the benchmark of rebirth teaching with its efficiency and expansion, free mosques with their activities, and the emergence of the act of writing with its types and genres, and its specificity in its language and in its subjects.

The thesis presented a number of approaches related to the project, such as the question of French Orientalism and the linguistic renaissance in Algeria the reality of the relationship between the renaissance in Algeria and the Eastern Renaissance, the impact of different places of Algerian immigration on the project, the problems of the Arabic language in the Algerian Renaissance writing and a reading in the pivotal events and its location in the project of renaissance. The dimensions of the social, political and linguistic renaissance project are also studied after its completion in half a century, these last stages were a temporal space in which the elements of the Renaissance project were presented in a single scene, in contrast to the precious efforts which were scattered in its elements. The thing that let talk about a movement instead of a project, this movement with its theoretical foundations, its practical procedures and its target objectives.

Abstract

La thèse aborde le sujet de la renaissance linguistique en Algérie au début du XXe siècle. Une approche de son origine, de sa nature et de la réalité de son existence, à travers la collection de ses repères apparents et les extensions de ses dimensions. La thèse a recensé parmi ces références et repères une liste des personnalités du projet, et une presse à esprit national et langue arabe, et un réseau d'associations et de clubs actifs. L'interaction de ces éléments a engendré le repère de l'enseignement à renaissance avec son efficacité et son expansion, les mosquées libres avec leurs activités, et l'émergence de l'acte de l'écrit avec ses types et genres, et de sa spécificité dans son langage et dans ses sujets.

La thèse a présenté un certain nombre d'approches liées au projet, telles que la question de l'orientalisme français et de la renaissance linguistique en Algérie, la réalité de la relation entre la renaissance en Algérie et la renaissance orientale, l'impact des différents lieux d'immigration algérienne sur le projet les problèmes de la langue arabe dans l'écriture de renaissance algérienne et une lecture dans les événements charnières et sa localisation dans le projet de renaissance. On étudie aussi, les dimensions du projet de renaissance sociales politiques et linguistiques après son achèvement en un demi-siècle, ces dernières étapes étaient un espace temporel dans lequel les éléments du projet de renaissance étaient présentés dans une seule scène, contrairement aux efforts précieux qui étaient dispersés dans ses éléments. La chose qui a laissé parler d'un mouvement au lieu de projet, ce mouvement avec ses fondements théoriques, ses procédures pratiques et ses objectifs cibles.